

الجورنال جى



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، في إطار المشرع الحضاري العربي المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشر وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة في ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبها، ولا تعبر بالضبط عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز

على عبد الحميد



مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

نصر رأفت

الجور ناجي

رواية



نصر رأفت:

رؤاى مصرى حاصل على بكالوريوس الصحافة والإعلام من جامعة القاهرة، عمل بالعديد من الصحف العربية والمصرية منها.. أخبار اليوم، الأيام البحرينية، الديار اللبنانية، والحياة.. وهو حالياً مذيع فى إذاعة صوت العرب.

صدرت له من قبل ٣ رؤايات.. (الرجال لا يعرفون الرحمة) التى اختارتها جامعة جورج تاون فى واشنطن لتدريسها لطلابها كأفضل رواية تتناول الحياة فى القرية المصرية فى السنوات العشر الأخيرة، ورواية (شلالات فياجرا) ورأيته الثالثة (ماسبيرو)..

للتواصل مع الرؤاى:

nasrraafat@yahoo.co

الكتاب: الجورنالجي

المؤلف: نصر رأفت

الناشر: مركز الحضارة العربية

الطبعة الأولى: القاهرة 2012

الجمع والصف الإلكتروني: وحدة الحاسوب بالمركز

تصميم وجرافيك: محمد النوبختي

٢٠١٢/١١٢٠١

رقم الإيداع:

رأفت، نصر.

الجورنالجي: رواية/ نصر رأفت. ط١. - الجيزة:

مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات،

٢٠١٢.

٣٨٤ ص؛ ٢١ سم.

تدمك: ٦ - ١١٠ - ٤٩٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١_ القصص العربية.

أ_ العنوان

إهداء:

إلى رئيسة جمهورية بيتي
أبايعك يا سيدتي على الحب
والطاعة مدى الحياة.
إلى أهراماتي الثلاثة
" ريهام وأحمد وفرح "..
أنتم شمسي وقمرى
وأروع إنجازاتي..
دمتم لى أباهى بكم الدنيا
ما دمت حياً.
نصر رأفت

تنويه:

الطبيب يدفن جريمته فى بطن المريض
والمحامى يخبئ خطيئته فى ملف موكله
والجورنالجى ينشر فضيحته!
تلك هى القضية.

تحذير:

"حرام أن يقوم العلماء بتعذيب الحيوانات
والفئران ليتهم يجرون تجاربهم على
الصحفيين!"

هنريك إبسن.

الجورنالجي يقرأ جريدته!

فى أعلى الصفحة.. صورة رجل مات
فى أسفلها راقصة ساخنة راسخة
كالأهرامات..

امتعض الجورنالجي غاضباً وقلب
صفحات جريدته.. فارتطمت راقصة مصر
الأولى بالرجل الميت.. نهض واقفاً منتشياً..
أيقظه عطرها الفواح.

فغنى الرجل لراقصة الوطن نشيداً مرتعش
الخطوات.. لم تكن الراقصة الأولى فقط
كالأهرامات.. بل كانت معجزة المعجزات
تحى الأموات!

من ساعتها قرر هذا الجورنالجي المنكوب
أن يكتب كل جرائمنا بالمقلوب!

أقر وأعترف أن:

فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى يرتدى عباءة الوقار، ويتدثر برداء الفضيلة وهو يخدع
الجميع بحبر الرذيلة!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى يطلق لحيته ويقف على باب نقابته ممسكاً بالميكروفون
يدعو للحرية، وهو نفسه يسجن زوجته وبناته خلف أسوار النقاب، ويحرم
عليهن مشاهدة التلفزيون أو ارتداء البنطلون!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى يقضى أكثر من نصف الليل ساهراً بيدع سطوراً عن القيم
العليا، والمبادئ الأخلاقية السامية، وبعد صلاة الفجر يسكر ويعريد
ويضاجع راقصة مصر الأولى!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى لا يكتب حرفاً ولا يخط سطرًا إلا إذا وصله المعلوم فى
مظروف مختوم من جهة سيادية عليا، ومملوء بآلاف الجنيهات ثمن
الكلمات ولا يجرؤ مخلوق أن يهمس بأن الكاتب المرموق صاحب القلم
الذهبي مرتشيًا!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى يرسل بأمراته لمسئول سياسى كبير فى فندق شهير تحت
حراسة مشددة طمعاً فى أن يمن عليه الكبير بكرسى رئيس التحرير!

فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى يتباهى بحب مصر جهاراً نهاراً ويفخر فى مقالاته بأنه يركب

طائرة الرئاسة ، وفى سره يعلن المحروسة ، ويصف شعبها بالحقير ، ويعرب لأقرب المقربين بتأفف أن حظه العثر جعله يعيش فى هذا البلد القذرا!
فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى نال الحصانة الدبلوماسية بعضويته البرلمانية ، وأسس حزباً سياسياً للعدالة الإنسانية ، واتخذ ستاراً للموبيقات وغسيل الأموال القذرة ، والسمسرة فى الممنوعات والمحرمات!
فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى جاء من قريته النائبة بإحدى المحافظات الزراعية ودخل المهنة ، وهو لا يملك تذكرة العودة بالقطار ومع الأيام صار نقيباً لكل الجورنالجية ، واستغل موقعه الحساس لبيتز الأكابر والوزراء ، ويصبح من أثرى الأثرياء!
فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى يحج كل عام ، ولا يترك ركعة من صلاة ، ويعلن الجهاد ضد الفئانات المحجبات ، ويطالبهن بنزع الحجاب ، والعودة لإرتداء المايوهات!
فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى يبيع صفحات جريدته يومياً ويؤجرها مفروشة لبرامج الفضائيات الليلية التى يطلقون عليها " التوك شو " لتحقيق رواجاً جماهيرياً قبل أن تصبح الصحيفة بين أيدي القراء فى اليوم التالى!
فى بلاط صاحبة الجلالة:

جورنالجى طاهر قديس شفاف عذب ، وآخر داعر واعر عاهر تائه بين الأخبار والأشعار يبحث له عن قرار!
فى بلاط صاحبة الجلالة:

جنرال المقالات النارية ، والمدافع الصحفية ، عاش طفولة بائسة ونهشه الضنك ، والفقر المدقع حتى ألقت به الأمواج على رأس مؤسسة صحفية

كبرى فحول أحد طوابقها إلى فندق خمس نجوم، وكان يدير ٥ آلاف عامل وموظف ومحرر ومصور من تحت الماء المعطر في مقر إقامته بالجاكوزي الذي أقامه في المؤسسة!

في بلاط صاحبة الجلالة:

بارونات تربعوا على عرش الصحافة ربع قرن، وكان أحدهم يتقاضى ٣ ملايين جنيه شهرياً، وعندما دخل السجن طلب صندوق مياه ماركة "إيفيان" الفرنسية!

في بلاط صاحبة الجلالة:

قليل من ملائكة الفردوس الأعلى

وكثير من شياطين أسفل سافلين!

" لا تختلف الحياة الخاصة للجورنالجي عن الحياة الخاصة
لممثل السينما .. إنها طبيعة النجوم سواء أمام الكاميرا أو
أمام الكعبة! "

لم تكن " الجورنالجي " كلمة شائعة في البلاد العربية قبل بداية القرن
الثامن عشر، وعندما جاء الفرنسيون إلى مصر عام ١٧٩٨ بالمطبعة،
وأنشأ محمد على صحيفة " الوقائع المصرية " عام ١٨٢٨ صار الجورنالجي
هو اللقب الرسمي لكل من يحترف مهنة البحث عن المتاعب، ويتكسب
رزقة في بلاط صاحبة الجلالة!

فمنذ خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وخلق في شرايينه غريزة حب
الاستطلاع، تلك الغريزة التي أخرجت آدم وحواء من الجنة، اعتمد الإنسان
في كل مكان وزمان أن يحترف نقل الأخبار عمداً أو سهواً ليتواصل مع
الآخرين.. حدث هذا منذ آلاف السنين، بمعنى أن عملية نقل الأخبار قديمة
قدم الدنيا وولدت مع مولد الإنسان.. وليست النقوش الحجرية في مصر
والصين وعند العرب وغيرهم من الأمم العريقة إلا درباً من دروب الصحافة
في العصور السحيقة، وقبل أن يعرف الإنسان الصحافة الحديثة بزمان!
ولعل أوراق البردى التي استخدمها المصري القديم قبل أكثر من خمسة
آلاف عام كانت نوعاً من النشر أو الإعلام أو الصحافة في فجر نهارها
الأول.

وكان الحكام والملوك والفراعين يلجأون إلى الحجارة قبل أن يعرفوا
ورق البردى لنقش الأوامر الرسمية والحكومية على أنواع متعددة من
الأحجار ثم ترسل إلى حيث توضع في المعابد التي يكثر تردد الناس
عليها، ومن أشهر وأخلد هذه الأحجار حجر رشيد الذي فك طلاسم رموز

لغته الهيروغليفية العالم الأثرى العبرى الفرنسى "شامبليون"، ومن خلاله وقفت الدنيا كلها على سر الكتابة المصرية القديمة، وقد وجدوا من هذا الحجر نسختان فى منتصف القرن العشرين، إحداهما أخذها الإنجليز عقب حملة نابليون بونابرت على مصر، ووضعوها فى المتحف البريطانى فى لندن، أما النسخة الثانية فقد تم العثور عليها بعد ذلك، وهى توجد الآن فى المتحف المصرى بقلب القاهرة.

والطريف فى الأمر أنهم وجدوا أن "حجر رشيد" مكتوباً بثلاث خطوط هى.. اليونانى والديموطيقى والهيروغليفى، وهذا الحجر العتيق يعود إلى عهد بطليموس، أى نحو عام ١٩٦ قبل الميلاد، وكان الغرض من كتابته هو إذاعة قرار أصدره المجمع الدينى فى ذلك الوقت، وقد كتبوه بالخط اليونانى ليخاطبوا اليونانيين، والخط الديموطيقى ليخاطبوا به عامة الشعب، والخط الهيروغليفى للكهنة، وبذلك فإن حجر رشيد كان يعد جريدة واسعة الانتشار قبل أن تعرف الدنيا معنى الجورنال والجورنالجية فى زماننا هذا... ويروى المؤرخ اليهودى "يوسف فلافيوس" أنه كان للبابليين مؤرخون مكلفون بتسجيل الحوادث اليومية، شأنهم فى ذلك شأن الصحفيين أو الجورنالجية فى عصرنا الحالى، وقد كان لبابل شهرة واسعة ذائعة الصيت لاتقل عن شهرة منف وطيبة فى مصر القديمة التى بلغت أوج مجدها فى عهد الملك حمورابى عام ٢١٠٠ قبل الميلاد الذى تنسب إليه أول صحيفة فى العالم، وهى مجموعة حمورابى للقوانين، والتى عدها علماء تاريخ القانون أول صحيفة صالحة للتداول بين الناس، ولا تختلف كثيراً عن صحيفة الوقائع المصرية، وغيرها من الصحف الرسمية التى تنشر القوانين، واللوائح، وقد لا يعرف الكثيرون أن معظم الحضارات القديمة مثل حضارة الصين، والأغريق والرومان تبادلت الأخبار المخطوطة فيما بينها.

ويذكر المؤرخون أن يوليوس قيصر عقب توليه السلطة عام ٥٩ قبل الميلاد أنشأ صحيفة مخطوطة اسمها "أكتاديورنا" وتعنى "الأحداث"

ونشر فيها أخبار مداولات مجلس الشيوخ، وأخبار الحملات العسكرية، والأخبار الإجتماعية، وأخبار الفضائح والجرائم، وحتى المواليذ والوفيات، وكان لهذه الصحيفة محررون، ومراسلون فى جميع أنحاء العالم، وكانوا غالباً من موظفى الدولة.

ولم يعرف العالم الانتقال الهائل فى معنى الصحافة إلا فى القرن الخامس عشر الميلادى وبعد إختراع يوحنا جوتنبرج للطباعة بالحروف المعدنية، وكان هذا الفتى الفذ الذى ولد فى مدينة مينز الألمانية عام ١٤٠٠ ميلادى قد كتب تاريخاً جديداً للكلمة المكتوبة، ولاحظ يوحنا جوتنبرج أن عملية التعلم والقراءة والكتابة، وتداول الكتب مقصورة على الأغنياء فقط من دون الفقراء، وذلك بسبب نظام النساخ الذين ينسخون الأوراق نظير أجر كبير لا يقدر عليه سوى الأثرياء، ومن هنا فكر جوتنبرج فى تكرار النسخ على نطاق أكثر اتساعاً من خلال اختراعه لحروف الطباعة المتفرقة والمسبوكة من المعدن، مما أحدث انقلاباً فكرياً لم يشهده العالم من قبل إذ بفضل هذا الإختراع أمكن حفظ تراث الأجيال السابقة، وتمكين الأجيال اللاحقة من تحصيل العلم والمعرفة، واقتناء الكتب والمطبوعات.

وقد أراد جوتنبرج أن يشكر ربه على هدايته إياه لهذا الإختراع، فبدأ بطباعة الإنجيل، وطبع منه آلاف النسخ بين عامى ١٤٥٢ و ١٤٥٥، وبعد ذلك انتشرت طريقه جوتنبرج فى الطباعة، وعرفها العالم كله، تلك الطريقة التى ساعدت على ظهور الصحافة الورقية بشكها الحديث.

وبعد النقش على جدران المعابد، وأحجار المسلات والتماثيل تعد مصر أول دولة عربية عرفت الصحافة بمعناها العصري، وارتبطت معرفتها بالصحافة من خلال الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ ومن خلال صحيفتين أصدرتهما الحملة آنذاك.. الصحيفة الأولى كانت صحيفة عسكرية صدرت باسم "كوربيه دى ليچيبى" وأصدرتها الحملة بعد شهر واحد من

غزوها مصر، وكانت تنشر الأوامر العسكرية فضلاً عن بعض النوادر، والفكاهات التي ترفه عن الجنود وترفع روحهم المعنوية، أما الصحيفة الثانية فكانت صحيفة علمية صدرت باسم "لاديكاد اجيسيان" وصدرت فى أكتوبر من عام ١٧٩٨ وكانت تهتم بدراسة مصر من الناحية العلمية والثقافية والأدبية، ومن المؤسف أن كلا من الصحيفتين لم توجها إلى المصريين ولذلك صدرتا باللغة الفرنسية، ولم يكن من بين محررى الصحيفتين مصرى واحد!

وكانت هناك محاولات لتعويض هذا النقص بإصدار صحيفة باسم "التنبية" من جانب القائد الثالث للحملة الفرنسية على مصر الجنرال "جاك فرانسوا مينو" الذى عاش بين عامى ١٧٥٠ و ١٨١٠ حيث ولد فى إحدى مدن غرب فرنسا والتحق بالعمل العسكرى فى فترة مبكرة من حياته حتى انضم إلى جيش نابليون بونابرت وبعد مقتل كليبر القائد الثانى للحملة الفرنسية على يد سليمان الحلبي الشاب السورى الذى كان يدرس فى الأزهر الشريف.. تسلم الجنرال جاك مينو أو عبد الله مينو بعد إعلان اسلامه ليتزوج من امرأة مصرية مسلمة تدعى زبيدة، وهى ابنة أحد أعيان مدينة رشيد، وأثناء قيادته للحملة الفرنسية فى مصر رزق عبد الله مينو من زوجته زبيدة بولد أسماه سليمان تيمناً باسم سليمان الحلبي الشاب الذى قتل القائد الفرنسى كليبر، وأعدمه الفرنسيون.. وأصر مينو على هذا الاسم لإبنه نتيجة كراهيته الشديدة لسلفه وقائده الجنرال كليبر.. وبعد هزيمة الفرنسيين أمام الإنجليز، وتحطم أسطولهم الذى كان أقوى ما يميزهم، وواد أحلامهم الإستعمارية فى مصر وقعوا معاهدة الانسحاب من المحروسة، والعودة إلى فرنسا على متن السفن البريطانية، وعاد الجنرال مينو إلى وطنه أيضاً، وبرغم مرارة الهزيمة وضياع الحلم الفرنسى الجميل على شواطئ مصر قلدته فرنسا العديد من المناصب الرفيعة، وظل محط تقدير واحترام حتى رحل عن الدنيا فى ١٣ أغسطس ١٨١٠، وعمره حوالى ٦٠ عاماً بالتمام والكمال.

وبعد نهاية عصر الفرنسيين فى مصر سطع نجم الجندى الألبانى تاجر الدخان المعروف باسم محمد على، وصعد إلى كرسى الحكم فى مصر عام ١٨٠٥ وعرفت البلاد الإزدهار على يديه فى كافة المجالات، سواء من الناحية الثقافية أو العسكرية أو الاقتصادية بهدف بناء الدولة الحديثة القوية، واستدعى ذلك تنظيم إدارى للدولة بفكر جديد مما استلزم تقديم ما يحدث فى صورة تقارير تعرض على الوالى، وعرفت هذه التقارير فى ذلك الوقت باسم "جورنال" وكان فى بداية صدوره شهرياً ثم بعد ذلك أسبوعياً حتى صار فيما بعد يومياً.. وتطور اسمه مع الأيام ليصبح "جورنال الوالى" ويطلع منه مائة نسخة بمطبعة القلعة، وكان متضمناً الأخبار الرسمية، وبعض قصص ألف ليلة وليلة، ومنذ ذلك عُرف كل من يكتب أو يحرر فى "جورنال" باسم الجورنالجى وهى كلمة أصولها القريبة إنجليزية، وجذورها البعيدة لاتينية، وظلت متداولة فيما بعد لتشمل كل من يعمل بمهنة الصحافة، وعندما صدرت أول صحيفة فعلية فى مصر موجهة للمصريين، وتوزع على الشعب ألا وهى "الوقائع المصرية" عام ١٨٢٨ بأوامر من الوالى محمد على باشا أطلق على كل محرر فيها لقب "جورنالجى" وكانت تطبع فى مطبعة بولاق، وتتشرف فيها أخبار الحكومة والمحكومين، وما يستجد من شئون البلاد والعباد، وفى بدايتها كانت تحرر باللغة التركية ثم تترجم إلى اللغة العربية، وبلغ عدد النسخ المطبوعة منها كل مرة ٦٠٠ نسخة توزع على كبار رجال الدولة، والعلماء والعسكريين، وطلاب المدارس، وفى سنة ١٨٤٠ تولى رفاة الطهطاوى رئاسة تحريرها، وقام بإصدارها باللغة العربية على أن تترجم فيما بعد إلى اللغة التركية، حيث كانت مصر فى تلك الفترة لم تخرج بعد من تحت عباءة الدولة العثمانية ولغتها الرسمية التركية!

كانت القاهرة دائماً وأبداً هى كعبة هواة الصحافة فى العالم العربى.. وكانت الصحف والمجلات التى تصدر فى مصر فى أيدي جماعة من الصحفيين الشوام.. "الأهرام" من إنتاج أسرة تقلا.. ودار "الهلال" أصحابها

آل زيدان.. والصحف المصرية مائة فى المائة، وكانت تزدهم هى الأخرى بالصحفيين والفنيين والإداريين الشوام. واستمر الوضع على هذا الحال، إلى أن تبه الجيل الجديد من الصحفيين المصريين إلى أهمية هذه الصناعة، وإلى ضرورة أن تصدر الصحف بأيدي مصرية، وبأقلام مصرية، وظهرت مجموعة من الصحف والمجلات المصرية أشهرها "المصرى"، و"روزاليوسف"، و"أخبار اليوم"، و"آخر ساعة". ثم قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ووضح منذ البداية أن هناك من لا يرضى عن حرية الصحافة، ومن يزعجه النقد الذى تنشره الصحف.. كان البعض شديد الحساسية تجاه أية كلمة تكتب ضده أو ضد عمله أو ضد الجهة التى يشرف عليها.. وكان البعض لا يثق أبداً فى الصحافة، ولا فى معظم أعلامها القديمة والمعروفة، باعتبار أن هذه الأعلام سبق أن هلت للماضى، وأيدت الفساد، وباعت نفسها للأحزاب، وبالتالي فمن الصعب جداً الآن الإطمئنان إلى إخلاص تلك الأعلام، أو الثقة فى أصحابها، والدليل على عدم ثقة الثورة عند قيامها وخوف السلطة من الصحافة أن مجلس قيادة الثورة قرر اصدار صحيفة تعبر عن الثورة، فصدرت "الجمهورية" وكان صاحب امتياز اصدارها هو الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وتولى أنور السادات رئاسة تحرير "الجمهورية" بجانب مهامه الأخرى كعضو مجلس قيادة الثورة، ولحسن الحظ أن أنور السادات كان قد سبق له العمل الصحفى قبل قيام الثورة بسنوات طويلة وكان يعمل محرراً فى مجلة "روزاليوسف" وعمل فى "المصور"، ومارس جميع تخصصات العمل الصحفى حيث عمل مخبراً صحفياً، وكاتباً سياسياً، وترجم القصص عن الانجليزية والألمانية والفارسية.

وهناك من الضباط الأحرار الذين لم يحترفوا الصحافة من قبل كما احترفها السادات ولكنهم عملوا بالصحافة وتولوا مراكزها الأولى فى الصحف والمجلات التى أصدرتها الثورة فى سنواتها الأولى.. رأينا خالد محي الدين يتولى مسئولية اصدار صحيفة "المساء".. ورأينا ثروت عكاشة يتولى رئاسة تحرير مجلة "التحرير" وتولى صلاح سالم مسئولية

"دار الشعب" وأصدر صحيفة "الشعب" ثم انضمت هذه الصحيفة إلى دار التحرير واندمجت فى صحيفة "الجمهورية" وتولى صلاح سالم رئاسة تحرير "الجمهورية".

وكانت القاهرة تمتلئ بالصحفيين اللبنانيين منهم الأكفاء، ومنهم غير الأكفاء، منهم من ثقفتهم المعاهد والجامعات، ومنهم من ثقف نفسه بجهوده الذاتية.

منهم من احترف الصحافة لأنها المهنة الوحيدة التى قبلته، ومنهم من عمل بالصحافة لأنها المهنة الوحيدة التى عشقها وأحبها!

وسارت الصحافة فوق الأشواك بين شد وجذب مع السلطة، عملت السلطة الرابعة خادمة تحت أقدام الحكام، وتمردت وثارَت أحياناً ودفعت الثمن بتكميم الأفواه، واسكات الأقلام بقوة السلاح وبلسعات الكرياج!

تلك هى قصة الصحافة عبر العصور.. تلك هى قصة الجورنالجي فى أى عصر وأيه جريدة أو مجلة من البداية ولكن مازالت أحداثها ممتدة بلا نهاية.. والآن نطوى الصفحات القديمة لجورنالجي الزمن الغابر، ونطالع صحيفة أحوال جورنالجي الزمن الحاضر!

" المرتشون واللصوص والقوادون والزناة واللوطيون وحائكو
المؤامرات هم الذين يصيغون وجه الحياة مثل الصالحين
والمصلحين تماماً! "

لم تكن الشهادة الجامعية هى أزمة ناجى شرف الدين ، ولم يكن التخرج
معضلته المستعصية ، بل كانت أم الأزمات هى التى اصطدم بها بعد التخرج
من الجامعة ، وحصوله على البكالوريوس فى الاعلام ، ودائماً طوال سنوات
الدراسة فى قسم الصحافة بجامعة القاهرة كان صديقه عزت النجار زميل
غرفته فى المدينة الجامعية يقسم له بأغلظ الأيمان أنه رأى بعينه فى مكتب
شئون الطلاب بالكلية الآلاف من شهادات البكالوريوس المطبوعة على
بياض ، وتنتظر فقط أن يمسهما الحبر لتدوين أسماء الطلاب.. الكلية ليست
فى حاجة إليها.. إذن فالتخرج مضمون ، ولكن الطامة الكبرى تأتى بعد
ذلك.. فالحجو معبأ بالمتعطلين ، والبطالة تبت سمومها فى جسد المجتمع مثل
فيروس رهيب ، ولا مجال لاختراق سوق العمل والإفلات من قبضة البطالة إلا
ببركة دعاء الوالدين أو وساطة أحد الواصلين ذوى النفوذ فى هذا البلد!

ولت سنوات الدراسة كطيف خفيف لطيف عابر ، مرت كحلم وردى
هادئ رومانسى ، وتراءى له الواقع بعد ذلك قاتم مثل كابوس كئيب أسود
لا فكاك منه!

انتهت علاقته العابرة بحاضرة مصر ، وقاهرة المعز فى يوم تخرجه ، وكأنه
يوم خروجه النهائى الأبدى من تلك المدينة التى تشبه زوجة الأب الشرسة التى
تقسو على ضيوفها من الغرباء وتبارزهم بلا هوادة ولا رحمة!

تحنو على أولادها فقط ، وتقسو على ما سواهم ، وتبدو بلا قلب ولا منطق
عكس كل المدن التى لها قلوب ومشاعر.. هى مدينة ليست كالمدائن

الأخرى فى العالم.. مدينة لها فلسفتها وأبجديتها السريالية التى تثير حيرة الكثيرين فى كل زمان ومكان.

عاد ناجى شرف الدين إلى قريته النائمة على كف النيل، ولا مكان لها على خريطة المحروسة سعيداً تعيشاً، فرحاً مرحاً قلقاً هلعاً.. نال من جامعة القاهرة العريقة بغيته، وحقق مأربه، وحصد شهادته العليا، وانتزع حلمه من علمه، وصار واحداً من حملة الدرجات العلمية الكبرى فى قريته الصغرى، ومن كلية مرموقة يطلقون عليها فى الصحف كلية القمة.. كانت ومازالت تلك الكلية مقصد الفقراء وأولاد الذوات، ومحط أنظار أبناء الأكابر والأكرمين.. فهى المفتاح السحرى الذى يفتح أمامهم أبواب صاحبة الجلالة، ويمنحهم تأشيرة عبور ملكية إلى فضاء الشهرة الصحفية والنجومية فى القنوات التلفزيونية، والمحطات الإذاعية.. ولم لا؟! والاعلام صار هو البريق البراق لكل باحث عن شهرة أو ثروة أو مجد ذاتى.. ولم لا؟! وتلال الصحف السيارة تتوالى فى الصدور، والمطابع لا تتوقف وتلقى بثمارها وفلذات أكبادها على الأرصفة وفى المكتبات مع بزوغ كل فجر، ومئات الفضائيات تملأ السماوات، والأقمار الصناعية تجول فى الآفاق، وتتزاحم فوق السحاب وتقض مضاجع الكواكب والأفلاك، وتزعج سكون المجرات!

لم يصدق ناجى شرف الدين أنه أتم رسالته، وأكمل مهمته، وعاد من القاهرة بشهادته التى طالما سمع أمه تدعو له باقتناصها فى كل صلواتها، وانضم لطابور العاطلين المكتئبين، ولم يصدق أيضاً أن تكون تلك نهاية رحلته بين الكتب والفصول والمحاضرات والمدرجات، فهو لم يقصر ذات يوم فى أى شئ، لم يتكاسل عن أداء واجب، ولم يتخاذل عن الدرس والبحث والفحص والمحص، وانفاق نور عينيه بين الكتب حتى نجح بتفوق فى كل مراحل دراسته، ولم يخطر له يوماً على بال فى أسوأ حال أن تفعل الحكومة فعلتها، وترفع يدها التى كانت بيضاء عن الخريجين، وتتفض

ولايتها عن تعيينهم، فجأة وبلا مقدمات وجد نفسه كما لو كان عارياً
فى ميدان عام، والدنيا كلها تتفرج عليه.. لقد تخرج فى واحدة من أعظم
الكليات.. فلماذا إذن تركوه هكذا؟!

لماذا إذن كرمه محافظ الغربية بعد حصوله على ٩٠٪ فى الثانوية
العامه؟ ولماذا ألقوا به فى النهاية لوحش البطالة كى يفترسه بضراوة؟!
أليس هو ذات الشخص الذى تفوق، وحصد الدرجات العلا فى كل المراحل
التعليمية؟!

لم يستطع أن يتفهم هذا التناقض المريب فى هذا البلد الغريب، وذات
مرة طرح هذا التناقض على واحد من أبناء قريته كان قد هاجر إلى فرنسا
قبل عشرين عاماً ثم عاد فى إجازة قصيرة لزيارة الأهل والأحباب، وقراءة
الفاتحة على روح ذكريات الصبا والطفولة، ومطلع الشباب.. فقال الرجل:
_ يا ناجى لا تنسى أنك تعيش فى مصر وما أدراك ما مصر.. إنها بلد
المتناقضات.. المضحكات المبكيات.. ولو اطلعت على دستور مصر يا
عزيزى سترى العجب العجاب!

انبرى ناجى دهشاً متسائلاً: الدستور.. ماذا فى الدستور؟!

قال الرجل العائد تَوّاً من بلاد الجن والملائكة:

_ المادة الثانية من دستور مصر تنص على أن الاسلام دين الدولة ومبادئ
الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع.. أما المادة الخامسة من
الدستور المصرى أيضاً تقول: " لا تجوز مباشرة أى نشاط سياسى أو قيام
أحزاب سياسية على آيه مرجعية دينية أو أساس دينى " .. هل هناك تناقض،
وتضاد أكثر من ذلك يا صديقى؟! الحمد لله أننى فضلت الهجرة عن هذا
البلد منذ سنوات وعقب تخرجى من الجامعة وسافرت إلى فرنسا، وحصلت
على جواز سفر وجنسية فرنسية، ولو بقيت فى مصر حتى اليوم لمت كمدّاً
وهماً وغيظاً أو أصابنى مس من الجنون!

تساءل ناجى شرف الدين باعجاب:

— وكيف تحفظ نصوص الدستور المصرى ، وأنت تعيش فى باريس منذ أكثر من عشرين عاماً؟!

الدستور يا ناجى لم يتغير منذ كنت تلميذاً فى الابتدائية ، وأظن أنه لن يتغير فى حياتنا ، قد يتغير القرن القادم أو بعد القادم الله وحده يعلم ولا تنسى أن بعض مواد الدستور كان مقرراً علينا حفظها ، ونحن فى المرحلة الابتدائية ضمن مادة التربية الوطنية ، التى كنا ندرسها فى ذلك الزمن. وأعرف هذا التناقض منذ كنت طفلاً غراً!

كما أن هذا الأمر ليس هو أول ولا آخر المتناقضات فى مصر المحروسة.. بل هناك فى الوقت الحالى حوالى ١٨٠٠ مستشار فوق الستين من العمر يتقاضون أكثر من مليار و ٢٠٠ ألف جنيه سنوياً ، وأنه لا توجد معايير محددة لإختيارهم بالإضافة إلى عدم وجود نص قانونى لتحديد مهامهم أو رواتبهم.. هل يعقل ذلك فى دولة تن من البطالة ويصل عدد العاطلين بين شبابها أكثر من أربعة ملايين عاطل؟!

لاذ ناجى بالصمت الرهيب شاردًا يفكر فى لاشئ ويحدق فى الفراغ وهمس لنفسه دون أن يسمعه أحد :

لا حول ولا قوة إلا بالله.. الهجرة صارت الآن من رابع المستحيالات ، ومن لم يمت اليوم فى بلده كمدًا من أحوالها وتناقضاتها ، مات غرقاً فى محاولات السفر أو ألقوا القبض عليه بتهمة الشروع فى الهجرة السرية غير الشرعية إلى جنة أوروبا الموعودة!

" الأنثى كالديناميت.. أخطر الألعاب! "

انتفض هاتف الجيران من شدة الرنين ، وإلحاحه المتواصل ، استدعوه ليرد.. كانت على الناحية الأخرى من الخط زميلته إيناس مندور.. بمجرد أن سرت نبرة صوته عبر الأثير وسمعتها قالت:

— ألف مليون مبروك يا ناجى.

— الله يبارك فيك يا إيناس.. أخيراً تحقق الحلم.. لكن يا ترى ما التقدير؟

— جيد جداً يا حبيبى.. قالتها بعفوية ، وتلقائية وبراءة الأطفال الذين أكل السوس أسنانهم من كثرة إلتهام الحلوى.

سألها ناجى شرف الدين بطريقة ميكانيكية دون تفكير:

— وأنت يا إيناس؟

ضاحكة مستبشرة قالت:

— وهل تشك فى كفاءتى.. نجحت طبعاً.. صحيح تقديرى أقل منك لكنى أسعد منك بالتخرج!

— لابد أن تقديرى يا إيناس جيد؟

— صحيح.. هو كذلك.

— مبروك.. مبروك.

— لكن ماذا ستفعل يا ناجى فى الأيام القادمة.. أقصد بعد التخرج والحصول على البكالوريوس؟

سادت بينهما لحظة صمت عبر الهاتف كأنها الدهر كله ثم قال بعد تنهيدة حارة ذات مغزى:

— والله يا إيناس لا أدري ماذا سأفعل، ولا ماذا تخبئ لى الأيام على كل الأحوال المستقبل بيد الله سبحانه وتعالى وحتى الآن لم أفكر فى الغد ولا ماذا أفعل.

هتفت إيناس بحماس:

— أحسن شئ تفعله أن تعود إلى القاهرة، وتبدأ حياتك العملية فى الصحافة فهى حلم حياتك ومجال دراستك وتخصصك.

— معك حق يا إيناس لكن يبدو أنك تغافلت عن شئ مهم جداً

— ما هو؟!

— الخدمة العسكرية.

— يا سلام عليك يا ناجى.. قد تحصل على تأجيل أو اعفاء لا تعقد الأمور.. المهم أريدك فى القاهرة، ولا تنسى عندما تقرر أن تبلغنى فوراً.

— طبعاً.. طبعاً.. وأنت يا إيناس ماذا ستفعلين؟!

قالت ضاحكة بثقة وزهو:

— سوف أعمل فى أكبر مؤسسة صحفية قومية فى البلد.. فى مؤسسة الأيام طبعاً.

— الأيام مرة واحدة يا إيناس؟!

هل نسيت يا ناجى أننا تخرجنا فى كلية الاعلام قسم الصحافة والنشر.. أفضل الكليات المرموقة فى البلد.. أم تريدنى أن أعمل فى مؤسسة الأيام على صفحة وأترك صفحة؟!

— ربنا يوفقك يا عزيزتى.

قالها بصوت نحاسى بارد منزوع الحرارة وهو يتمتم فى نفسه دون أن تسمعه: والله أبناء القاهرة أكثر حظاً منا نحن أبناء الأقاليم.. فلا تصل إلنا مثل هذه الفرص الذهبية للعمل فى المؤسسات الصحفية الكبرى التى تعد حلمًا عزيزاً بعيد المنال على الريفيين أمثالى!

شرد قليلاً وهى لا تزال معه على الجهة الأخرى من الهاتف، وصار صوتها أشبه بالصدى البعيد الشاحب أو السراب الخافت الواهن وهى تردد:

— سأنتظر منك مكالمة تليفونية.. يحب أن نلتقى فى أول مرة تعود فيها للقاهرة.. سأنتظرك لا تتأخر.. هيا أيها الريفى إرجع..

أفاق من شروده على مداعبتها بوصفه بالريفى فتبسم قائلاً:

— إن شاء الله.. إن شاء الله فى القريب العاجل.. مع السلامه ألف سلامة.

كانت علاقته مع إيناس مندور تلك الفتاة الغامضة تتأرجح بين الإعجاب والحذر ويعتبرها نوعاً من مواكبة حياة المدينة، والإختلاط بين الفتى والفتاة داخل أسوار الحرم الجامعى، وكانت تصرفاتها تثير حيرته فى كثير من الأحيان لدرجة أنه وصفها ذات مرة بالمجنونة، فقد كانت تزوره بين الحين والحين فى المدينة الجامعية حيث يسكن على بعد خطوات معدودات من بوابة الجامعة، عندما يتغيب عن حضور المحاضرات تباغته بزياره دون ترتيبات مسبقة، واللقاء دائماً ما يكون فى استراحة المدينة الجامعية، وذات يوم فوجئ بها تطرق باب غرفته، هذه المرة دسّت مبلغاً مغرياً من المال فى يد الحارس، وأوحت إليه بأنها تود زيارة شقيقها فى غرفته لأنه مريض وهى تحمل له بعض الأطعمة، والفواكه وسوف تعود بسرعة دون أن يشعر بها أى مخلوق.. أدرك الحارس كذبها لكنه تركها ودفن المبلغ فى جيب سرواله الميرى الأسود، وهو يتلفت فى كل الاتجاهات كأنه يرتكب أكبر الكبائر.. يومها فوجئ ناجى شرف الدين بطرقات خفيفة هامسة ناعمة على باب غرفته، نهض من فراشه مرتدياً ثي شيرت أبيض عليه صورة كاريكاتيرية لتوم وجيرى وفى نصفه الأسفل يرتدى شورتاً أزرق اللون، فتح الباب ظناً منه أن زميله عزت النجار جاءه كعادته يطلب السخان الذى يستعيره أكثر من مرة فى اليوم الواحد كلما أراد اعداد الشاي.. ألجمته المفاجأة، وبجراحة تحسد عليها اقتحمت غرفته ودخلت دون أن ينطق بكلمة ألقت عليه كلمات ترحيب قصيرة وحميمة لم

يرد من شدة الصدمة ، ثم جلست على السرير ، وتركت كرسي المكتب خاوياً ، أغلق الباب والنافذة بسرعة خوفاً من أن يراها أحد معاً بين أربعة جدران وثالثها الشيطان..

لم تتعجب هي أو تتزعج من فعلته تلك ، وإنما تساءلت بهدوء وثقة فجاءها رده فزعاً مرتبكاً :

— يا إيناس.. ممنوع.. ممنوع.. كيف دخلت إلى هنا؟ كيف تخطيت الأسوار والبوابات والحواجز والحرس؟ هذه المدينة فيها الحراسة مشددة أكثر من سجن عسقلان الإسرائيلي!
قالت مطمئنة اياه :

— لا تخف يا ناجى أنا أتحمل المسؤولية.. إهدأ وافتح النافذة حتى لا تتحول غرفتك إلى زنزانة بالفعل.

— يا إيناس حرام عليك.. لا أريد فضائح هنا.. لا مأوى لى فى القاهرة سوى هذه الغرفة.. هل تريد أن يطردوني من هنا شرطردة؟ بالله عليك المفروض أن المقابلات والزيارات تتم خارج الغرف ، سواء فى الاستراحة المخصصة للزوار أو حتى فى حديقة المدينة الجامعية ، لكن يبدو أنك بجنونك سوف تجعلينى من سكان الرصيف!

ضحكت بملء فمها ضحكة هيسيتيريه مجلجلة من صميم قلبها خشى أن يصل صوتها المدوى إلى جيرانه من الطلاب فى الغرف المجاورة فتكون الطامة الكبرى ، وهى المرة الأولى التى تزوره فيها أنثى..

وضع يده على فمها فأحس بسخونة شفيتها النافرتين المكتنزتين ، وكأنهما خلقتا للقبلاط ليس إلا وقال محذراً متوسلاً :

— أرجوك يا إيناس.. اصمتى يرحمك الله.

قالت بنبرة رجاء وتوسل :

— الله يا ناجى.. لماذا تحرمنى من الضحك يا قاسى القلب؟ ألا تعرف

أن علماء النفس يؤكدون من واقع دراساتهم العلمية أن الضحكة
الواحدة تعادل ٤٥ دقيقة من الإسترخاء اللذيذ.. ألا تعرف؟
بدا فى قمة غيظه:

— أى استرخاء هذا؟ ولذيذ أيضاً؟ ومن أين يأتى الإسترخاء وتأتى اللذة؟
والله يا إيناس يا مندور لن تأتى المصائب إلا من وراء جنونك!
وبالفعل ما هى إلا لحظات معدودات، وسمع طرقات عنيفة غليظة تدق
الباب وتضربه.. ظن أن القيامة قد قامت، وأنه هالك لا محالة، والجريمة
ثابتة عليه ولا تقبل النكران أو التشكيك.. ها هى الأنثى بشحمها ولحمها
فى غرفته والباب مغلق عليهما.. الجريمة كاملة متكاملة الأركان،
والفضيحة واضحة.

همس لها:

— ألم أقل لك.. ها هم قد جاءوا ليقبضوا علينا حتى تستريحى يا إيناس.
تساءلت دهشة:

— ومن هم هؤلاء يا ناجى؟

— سؤال غريب.. ماذا تظنين.. جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن
المنكر!

قالها ساخراً متحسراً قبل أن يسمع من يتكلم أمام باب الغرفة:

— افتح يا ندل يا جبان.. افتح يا مفجوع.. أين الطعام هل ستأكله
وحدك؟

عرفه من صوته الأجش المتحشرج الغليظ كصوت قطار الدرجة الثالثة،
كان زميله سامح إدريس الطالب فى كليته دار العلوم ابن المنصورة الذى
يلعب ضمن فريق الجامعة للمصارعة الحرة، ويتدرب يومياً على رفع الأثقال
، ولا هم له إلا التدريب، والتهام دجاجتين على الأقل يومياً عن طريق
الحصول على وجبات زملائه الذين يسافرون إلى محافظاتهم، ودائماً ما

كان يستعين بصديقه ناجى شرف الدين ليساعده فى الحصول على بونات يصرف بها وجبات غذائية إضافية ، وفى هذا اليوم أكله الجوع ، فهجم على غرفة ناجى كالوحش الضارى ، وبسرعة أدرك ناجى مراده ومقصده! فتح له الباب ربع فتحه ، وناوله أربعة بونات للطعام ، ولم يسمح له بدخول غرفته بحجة أنه مرهق ، ويريد أن ينام ، وذلك بعد أن وارى إيناس فى أحد الأركان بعيداً عن مرمى بصر سامح إدريس ، ونظراته الجريئة المقتحمة.

— نام يا جبان.. نام.. لو عشت ستين عاماً ستنام منها أربعين.. ستقضى أكثر من نصف عمرك نائماً يا مغفل!

قالها مازحاً ساخرًا وهو يقبض على البونات كما يقبض الأسد الجائع على فريسته الشهية ، وتبسم بخبث وهو يدرك أنه الآن أصبح يمتلك دجاجتين ، وسوف يأكل حتى الثمالة.

أغلق ناجى شرف الدين باب غرفته ، وتلفت ناحية إيناس مندور وقال لها لائماً معاتباً :

— هذا المجنون صديقى ، لكنه على أتم استعداد لأن يفضحنى ، ويشهر بى بلا رحمة فى أية لحظة.. أرايت يا حلوة نتيجة طيشك وهوسك ها أنذا أعطيته بونات طعامى حتى يتلهى بعيداً عنى.. لكننى لن أتركه يجهز عليها وحده ، لسوف أباغته وأقتنص نصيبى منها.

— عموماً لا تغضب يا ناجى سوف أعزمك.. هيا ارتدى ملابسك ودعك من صديقك وهذه الغرفة التى تشبه زنزانة الحبس الإنفرادى وتعالى نخرج سوياً لنقضى يوماً جميلاً ، ونرى الدنيا وما فيها.

وبالفعل خرجا معاً ، وبالقرب من بوابة المدينة الجامعية استقلا سيارتها الصغيرة الجديدة ، وانطلقت بهما حيث لا يعرف إلى أين تقوده ، وما وجهتهما.. كان مازال شارد الذهن يفكر فى حراس بوابة المدينة الجامعية وهم يبتسمون لها وهى سعيدة وواثقة من نفسها كأنها تخرج من قصرها.. أدارت الراديو على أغنية.. هذه ليلتى.. لأم كلثوم ، وعاد هو

سأل نفسه: لماذا تفعل معه كل ذلك؟ هل هي تعطف عليه أم متعاطفة مع ظروفه البائسة؟ هل هي تحبه أم مجرد إعجاب؟

بينما هو يميل إليها فحسب، واهتمامها به يرضى غروره، ويجعله يشعر بذاته، وأنه شاب له فتاة معجبة به، كانت جميلة، طويلة رشيقة بيضاء هيفاء، سوداء الشعر، عيونها عسلية وبشرتها خمرية، تهوى ارتداء الجينز، ولها جسد ممشوق يغرى الأبصار، ويدير العقول ويحرك ما نام من الفرائز الذكورية، دائماً تخفى سحر عينيها بنظارة سوداء مثل بطلة رواية إحسان عبد القدوس "النظارة السوداء" وتتحدث بدلال وغواية، ولها ضحكة مثيرة مجنونة فاتنة تشعل نار الشهوة، وتفزعها من سباتها العميق في مكمنها العظيم، وحصنها الحصين، وقرارها المكين!

استرجع ناجى شرف الدين من صندوق ذكرياته أحداثاً كثيرة، هبت عليه عواصف فترة تجنيده بالجيش الثالث الميداني في سيناء، وصحراء الاسماعيلية القاحلة، وتذكر كيف كانت حقبة زمنية عصبية من حياته، ويعتبرها الأسوأ والأسود على الإطلاق، قضاها صابراً مثابراً، ناقماً متذمراً، لا يعي مغزى ما يدور حوله من أوامر ونواهي ما أنزل الله بها من سلطان!

كره الحياة العسكرية، وبغض لون الرمال الأصفر الكالج، ومقت الميرى والتدريبات والرماية الليلية والنهارية، كما كره بروفات الموت في الحروب الافتراضية، والصراعات الوهمية عن مواجهة لا تأتى أبداً مع العدو على خط النار هناك في الجبهة الشرقية، حتى مرت الشهور وانتهت مدة تجنيده الإجبارية القسرية، وخرج عاجزاً نفسياً وعقلياً عن إستيعاب أبجديات الحياة الصحراوية الجافة دفاعاً عن حبات الرمال التي لا تطاق، وتحت وطأة المعاملة الغبية الصارمة التي تلغى فريضة الفكر وتمجد مبدأ الأمر، وتعلو من شعار الطاعة العمياء هي قمة الولاء

عاد من جديد يتنسم عبير الحرية، ويتنفس رائحة الحياة المدنية، ويمحو
من أعماق أعماق ذاكرته الحبر الأسود لتلك الأيام الجهمية!

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَجْشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَأَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ
أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَقَّعُنَّ
الْمَوْتَ أَوْ يُجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾

حكاية إيناس مندور أغرب من الخيال ، ولا تخطر لعاقل على بال ،
وهى لم تبح بها لأحد فى حياتها قط إلا عندما ذهبت للطبيب النفسى ،
بعد أن تسلحت بالشجاعة وتعاملت مع مصيبتها بعقل مفتوح ، وأن ما تعانى
منه مجرد داء لا وباء.. كانت قد ضاقت من نفسها ولم تعد قادرة على
الإحتمال ، وصارت تكن لجسدها كل احتقار.. كان الطبيب هادئاً رزيناً
وسيماً قسيماً أصلع قليلاً فى بداية العقد الخامس من عمره ، يتدلى من
بطنه مشروع كرش صغير فى أوله.

يبدو الرجل من ذلك الصنف من البشر الذى يبعث على الراحة والطمأنينة
فى نفس من يتعامل معه ، وبصفة خاصة مرضاه.. أجلسها أمامه بود
كصديقة قديمة ، وطلب لها مشروباً بارداً ، وأعطاهها حبة مهدئة للأعصاب ،
فشعرت بعد دقائق معدودات بحالة من الخدر ، والإسترخاء وبدأت تهمس
له بحكايتها الغريبة المثيرة العجيبة التى تفوق أغرب ما فى حكايات شهر
زاد ، أدار السيمفونية الرابعة لبيتهوفن ، فأنسابت الموسيقى صافية عذبة
تسرى فى نفسها كما يسرى الماء الفرات فى الجداول والأنهار ، وتقمص
هو شخصية شهريار على صفحات ملحمة ألف ليلة وليلة.. قالت وقد توردت
وجنتها خجلاً ووجلاً :

بصراحة يا دكتور لا أعرف كيف أبوح لك بأزمى ، ولا أدرى من أين
أبدأ سرد مأساتى التى تفوق مستوى الفضيحة ، خجلى الشديد يمنعنى..
وأفكر فى رد فعلك.. وماذا ستقول عنى أو تذهب بك شياطين الظنون؟!

حاول طمأنتها قائلاً:

— كل كلمة تقولينها هنا لن يسمع بها أى مخلوق فى الدنيا.. تأكدي أن الحفاظ على أسرار مرضاى شئ مقدس أقسمت عليه، وهو عهد ووعد الأطباء منذ عهد أبقراط.. أنا هنا فى خدمتك لمساعدتك، وحل مشكلتك فلا تخافى ولا تفزعى على الإطلاق، وارمى الخجل جانباً، واعتبرينى أخا وصديقاً وحدثينى بصدق وثقة وقلب مفتوح.

تبسمت قائلة:

— لقد ترددت كثيراً قبل أن آتى إليك، وأبوح لك بسرى العظيم، وهى الكبير، وأقر وأعترف بين يديك يا دكتور للمرة الأولى فى حياتى أن ما قمت أنا به لا يعقل أن تقوم به فتاة مسلمة، ولا تقدم على مثل هذه الفعلة النكراء سوى مريضة عقلياً ونفسياً أو مجنونة رسمياً!

ولكنى أرجو أن يتسع صدرك لمصيبتى، ولا تنظر لى نظرة دونية، ولا تتعامل معى كمومس منحرفة، لأن مشكلتى تؤرقنى ليل نهار، تزلزل كيانى وتمزق ضميرى، وتعذبنى عذاب جهنم الحمراء، وأرجو أن أجد عندك الدواء..

أنا يا سيدى الآن شابة فى مستقبل حياتى، أبلغ من العمر ٢٢ عاماً بالتمام والكمال، ومن عائلة محافظة وميسورة، والحمد لله..

مشكلتى المستعصية، وسر أسرارى، بدأت منذ ما يزيد عن الخمس سنوات حينما كنت طالبة فى المرحلة الثانوية.. فى ذلك الوقت كانت لى زميلة كنت أعتبرها صديقتى الصدوقة، ورفيقتى الحميمة، بل أعتبرها أختى التى لم تلدها أمى، وكنت فى قمة سعادتى عندما عثرت على هذه الصديقة الجميلة الرقيقة، رقة الأفاعى فى الصحارى والبرارى، وبالرغم من وجود زميلات أخريات لى إلا أن علاقتى بهن لم تصل إلى مسمى الصداقة الحقيقية، ولا إلى هذه الدرجة من التآلف والحب، فقد كانت تغلب عليها المجاملات، وكانت هذه هى أول صديقة ظننتها مخلصه لى وقد كنا

جيران سكن أيضاً مما سهل علينا كثيراً لقاءاتنا المتعددة فى كل وقت
وحين.. كنا نتقاسم الهوايات المشتركة ، ونفق فى الإهتمامات ، وربما
قضائى معها الكثير من الوقت ، وزوال جميع الحواجز بيننا ، وارتباطنا
بمشاعر قوية وعاطفية جياشة متأججة جعلنا نخطئ فى حق أنفسنا ،
وفى حق ديننا ، فقد بدأت هى تتحرش بى بنعومة ورفق ، كمن يطارد
فريسة ، ويخشى أن يفزعها صوت طلقات بندقيته ، أخذتنا العزة بالإثم ،
وتمادينا فى السباحة بين أمواج بحر الرذيلة ، فلمساتها الدافئة الحانية
لى ، وقبلاتها الساخنة المشبوبة بنار الرغبة فى بعض الأماكن الحساسة
للغاية من جسدى ، وحتى عناقها لى أصبح غريباً مريباً ، وقد بدأت أحس
فعلاً بالخطر يداهمنى ، وصارحتها بضيقى وقلقى من تصرفاتها فى الفترة
الأخيرة ، وهى اعترفت لى بما لا يقبل مجالاً للشك بأنها لم تعد تحبنى حب
صداقة عادية ، بل وصل حبها لى إلى أخطر مراحل الحب المتقدمة ، صار
حالة من العشق والغرام والوله ، وهى تريد منى أن أرفع لها الراية البيضاء ،
وأستسلم لهذا الأمر الحتمى المكتوب علينا أنا وهى ، وأبادلها المشاعر
بالمشاعر ، والشوق بالشوق ، وما يترتب على ذلك من نار ودمار!

كنت مازلت قوية وصلبة إلى حد ما فى البداية ، كنت مثل جبل الجليد
المتماسك الذى سرعان ما يذوب مع أول لفحة من حرارة الشمس الدافئة..
رفضت جنونها وعهرها رفضاً قاطعاً فى البداية ، فلا دينى ولا أخلاقى ،
ولا جسدى يسمح لى بذلك الفعل الآثم ، وكانت نتيجة رفضى المستمر
لجميع محاولات تقربها منى بهذه الطريقة أن تسبب ذلك لعلاقتنا بالفتور ،
والبرود الذى قارب على القطيعة.. لقد تألمت جداً ، وتأثرت نفسيتى
كثيراً ، بل حتى درجاتى الدراسية بدأت تتراجع وتتقهقر ، وأنا المتفوقة
طول عمرى ، وانتاب القلق أهلى أيضاً فى تلك الفترة خوفاً على مستقبلى ،
وأصررت بعدها ألا أثير قلقهم وحيرتهم على الإطلاق حتى لا يكتشفون
أمرى المخجل ، وفى نهاية المطاف ضعفت ، نعم ضعفت وانهارت قوتى ،
وسقطت أسوار صمودى ، كما سقط بارليف الحصين أمام خراطيم المياه

فى أكتوبر المجيد.. حدث هذا ، وأنا أخجل من قول ذلك ، لكنى يجب ألا أكون فى غباء النعمة أدفن رأسى فى الرمال ، وجسدى فى العراء يواجه الأنواء ، فأنا لم أتحمل بعدها عنى ، وهجرها لى وحاولت إعادة صداقتنا مرة أخرى ، وحدث ما كنت أتوقعه ، وأخشى وقوعه ، وأخاف من عدم وقوعه ، تحرشت بى صديقتى من جديد ، ووافقت لها هذه المرة ، كنت راضية تماماً مستسلمة بين يديها كما لو أننى قطعة من الصلصال تفعل بى ما تشاء ، وتشكلنى كما يحلو لها ، بعد ذلك شعرت بوخز الضمير ، وبهزة نفسية عنيفة لدرجة أننى عندما رجعت إلى البيت بكيت كثيراً ، واستغفرت الله طويلاً ، ولا أظنه قد غفر لى وشعرت بالعار والمهانة والهوان ، وعاهدت نفسى ألا أعود إلى تلك الفعلة الشنيعة مرة أخرى حتى لو كلفنى ذلك صداقتها ، وقلت لنفسى :

إذا كانت تريد صداقتى فقط لتفرغ بى نزواتها فلسوف أتخلى عنها نهائياً ، ولكن ذلك للأسف الشديد لم يحدث ، وكررت هذا الفعل الآثم المشين معها مرتين وثلاث وعشر مرات أو يزيد ، وكنت فى كل مرة أقول لنفسى إنها المرة الأخيرة ، وبعدها أعلن التوبة ، لكن هذا لم يحدث ، وصار مستحيلاً..

حتى استمرأت هذا الفعل وأحبيته بل أصبحت أنا من يقدم عليه ، ويقبل عليها ، وعادت حياتى لتوازنها بالرغم من هذا السلوك الأعوج غير المتزن ، لكن ماذا أقول.. كل امرئ مسير لما خلق له.. عدت متفوقة من جديد ، ولم أعد أثير الشكوك والمخاوف فى نفوس أهلى وأحبائى ، ولكن فى كل مرة أجلس فيها وحدى أحس بالذنب والخزى والعار ، وأبكى ندماً ولوعة وأدعو الله أن يتوب على ، وينتشلنى من الوحل ، فلقد أصبحت مثلية الرغبة الجسدية ، ولا مجال للإنكار أو الفكاك من مصيرى.. ها أنذا من الجنس الثالث الذى لا هو ذكر تماماً ولا أنثى تماماً ، بل هو خليط من هذا وذاك.. وظللت معها على هذا الحال حوالى عام كامل!

أنهت الثانوية العامة بتفوق والحمد لله ، وإلتحقت بالجامعة ، وانخرطت فى كلية الاعلام وقسم الصحافة الذى أردته ، وحلمت به كثيراً.. ولم تتقطع طوال هذه الفترة الحرجة من مراهقتى علاقتى بصديقتى الحميمة ، واستمرت كلتانا فى هذه الممارسات المجنونة ، ولكن مع فارق أنه أصبح لدى صديقات أخريات وهى أيضاً ، بل وصار لدينا الكثير من الصديقات المشتركات ، فهى ذات شخصية اجتماعية ومحبوبة جداً ، وأغلب من عرفتنى صديقتى عليهن كن مثلنا إلا أننى لم يكن لدى أية علاقة شاذة أو مريبة بإحداهن ، فصديقتى كانت توفر لى إشباعاً عاطفياً وجسدياً مما جعلنى لا أفكر فى غيرها!

وبعد عام قضيناه سوياً فى علاقتنا غير السوية ، أصبت بصدمة عنيفة عندما علمت بالصدفة البحتة أن صديقتى التى ظننتها لى وحدى تقوم بنفس هذه الممارسات مع فتيات كثيرات غيرى.. شعرت بغيرة قاتلة ، تملكتنى حالة جنونية وكأنى فقدت أعز ما أملك وثررت ، وغضبت وفكرت جدياً فى قتلها حتى أستريح وتستريح البشرية كلها من شرها وإثمها ، ثم هدأت ثورتى ، وخدمت فورتنى لكنى عاتبتها فلم تهتم بعتابى ، وحاولت إقناعى بأن وجود شريكات أخريات فى حياتها لا يقلل أبداً من حبها لى ورغبتها فى! رفضت منها هذا المنطق ، وأنا التى رضخت لها فى البداية بدافع الحب ، والصداقة الحميمة ، وللأسف الشديد كل الجرائم الشيطانية ، والأفعال الجنونية ترتكب بإسم الحب.. الآن فقط عرفت لماذا كانت تصفنى بالقطعة العمياء ، وتعتبرنى ساذجة وطيبة.. مجرد أننى تسكن جسداً جميلاً مثيراً ليس إلا ، الآن فقط إكتشفت الحقيقة المرة وهى أننى مجرد جسد من بين أجساد أخرى متعددة فى حياتها ، وأننى مجرد محطة واحدة من محطات العبث المتنوعة فى رحلتها الشائكة المشوقة مع السحاق!

إكتشفت أننى دمية تعبث بها وقتما تشاء ، وتلقى بها فى سلة المهملات وقتما تمل وتزهق ، ويصيبها الضجر والسأم.. شعرت بالتقزز والألم والرغبة

فى الموت، فالحب الذى كنت أحاول أن أجعله يقوم بتشريع هذه الأفعال لى، ويمنحها صك الحلال لم يعد موجوداً، لقد أصبحت مجرد رذيلة وعادة مذمومة!

ابتعدت عن هذه الصديقة تماماً وفى البعد طوق النجاة فى كثير من الأحيان ورفضتها وصدقتها حتى عندما حاولت العودة إلى، وقد أقنعتها بأننى تغيرت، ولن أفعل ذلك مرة أخرى، لن أسبح فى بحر الخطيئة مجدداً ولكن الواقع أننى لم أستطع نسيان الأمر والفكاك منه، فالعادة أقوى من الحب، والإنسان أسير مجموعة عادات تكبله مثل قيد حديدى حتى وإن تظاهر بعكس ذلك، وكنت كلما مر على الوقت، وأنا بعيدة عنها أفكر فيها وكأن جسدى يستغيث بها ويستجديها، ويناديهها ومن ناحية أخرى أشعر بالراحة التامة لأننى بهجرى لها، وبعدى عنها سوف أخلص من هذه التصرفات الحمقاء التى تشعرنى بالعار ووخز الضمير!

لكن المفجع فى الأمر أن هناك من بين زميلاتى من كانت تعرف قصة علاقتى السابقة بصديقتى تلك، وبدأت بالفعل تتقرب منى، ولم أقاومها هى الأخرى، بل أعطيتها الضوء الأخضر، فقد كنت فى حالة صراع مع نفسى وجسدى، فتعلقت بها بجنون، وأذهلتنى بآدائها فى الفراش، حيث وجدتتها محترفة جداً فى هذه العلاقة، وشرهة جداً وتمارس الحب معى بإخلاص وصدق، وتعلمت على يديها آخرفنون هذه الرذيلة، وبعد فترة زمنية ليست طويلة أدخلتلى تلك الداعرة الملعونة فى مجموعة خاصة من البنات الحسنات عاشقات الجسد ولغته، هوايتهن ممارسة هذا النوع من الفجور والفسق الأنثوى الناعم اللذيذ!

فى تلك الفترة عادت علاقتى بصديقتى القديمة.. سمحت لها بالعودة إلى أحضانى بعد أن أذللتها عامدة متعمدة مع سبق الإصرار جراء ما فعلت بى سابقاً، وعادت معها أيضاً ممارسة الحب على طريقتها الخاصة جداً.. السرية جداً.. الجنونية جداً جداً مع فارق بسيط للغاية، وهو أننا لم نعد

نكتفى ببعضنا أنا وهى.. فكلانا لديها الآن من العشيقات الكثير، وما بينى وبينها على وجه الخصوص صار أقرب ما يكون آنذاك إلى علاقة الود القديم، ولم يعد للإخلاص أى مكان بيننا.. سافر إلى المجهول ولم يرجع!

وكان من آثار هذه العلاقة الجنونية أن تغيرت مفاهيم كثيرة فى مفردات تعاملى مع الصديقات والزميلات والرفيقات.. أصبحت كل نظرة أو لمسة أو همسة أو بسملة بالنسبة لى هى عبارة عن دعوة صريحة لممارسة هذا النوع من الحب الأسطورى بين بنات حواء، وقد أخطأت ذات مرة فى تقدير مشاعر ود بريئة من إحدى الزميلات، وفسرتها على أنها دعوة خجولة منها للفراش، وتصرفت بحماقة معها على أساس هذه المشاعر الخاطئة وهى لم تكن من هذا النوع من الفتيات مما جعلها تهرب منى، وتتهرب من صداقتى، وتقتصر علاقتى بها على زمالة فى أضيق حدود الزمالة، ولا أتذكر أننى تمكنت من النظر إلى عينيها بعد ذلك بسبب خجلى منها .. ماذا أفعل وقد أصبحت مشاعر الود، والصداقة والحب الصافى مرتبطة فى عقلى بالعبث فى جسدى؟!

مرت على أربع سنوات وأنا فى الجامعة، وبرغم أننى كنت قد شعرت بميل عاطفى نحو زميل لى يدعى ناجى شرف الدين، إلا أننى كنت أنتقل من فتاة لأخرى، وأعاشر هذه وتلك تعاشرنى، وأطارده هذه الفتاة، وتلك الأنثى تلاحقنى.. أشعر بالملل من هذه وأعشق تلك، وأغار من أخرى.. لم تكن الفتاة التى تعجب بى تبذل جهداً يذكر لجذبى إليها، واستمالتى لحبائنها وشبكة حبها الخطرة، وبرغم كل هذه المغامرات الشائكة، والسير حافية فى حقل من الألغام ظللت محافظة على غشاء بكارتى، أغلى ما تملك الفتاة فى مجتمعنا الغبى، فلم أكن أسمح لأى منهن بالاقتراب من كهف متعتى أو تهديد سور عذريتى.. هذا هو مبدئى الذى لا أحيده عنه مهما كانت درجة اللذة التى أصيبتها، ومع كل هذا الحذر والخوف على شئ ما

يتعلق بالعفة كنت أعلم تماماً فى قرارة نفسى أننى ساقطة حتى ولو كان غشاء بكارتى ورمز عفتى ما يزال فى حصنه الحصين بمأمن من عبث العابثات!

كانت هذه الحياة قد تمكنت من قلبى وعقلى وجسدى، بالرغم من شعورى المؤلم بالذنب الفظيع الذى كان يظهر من حين لآخر كلما كنت وحيدة فأرجع للبكاء والندم والاستغفار، فأنا أخشى الموت وأنا مصرة على هذ الإثم الذى يعد من أكبر الكبائر إن لم يكن أكبرها بالفعل، خصوصاً حينما توفيت فى حادث سيارة إحدى الفتيات اللواتى كانت لى علاقة سرية بهن.. بكيت كثيراً فى هذه الأثناء، ودائماً أدعو لهذه الفتاة بالمغفرة والرحمة وأتصور نفسى مكانها الآن.. فماذا أنا فاعلة؟! وكيف كنت أقابل ربى وبأى وجه، وماذا أقول له سبحانه؟!

لكن وأأسفاه بعد فترة قصيرة عدت بلا أسف إلى علاقاتى السابقة، وقد تملكنى شعور قمئى بأننى سأظل رهينة هذا الانحراف طوال حياتى. المهم أننى تخرجت من الجامعة، وأنهيت دراستى بكلية الإعلام، قسم الصحافة ولم أعد أمتلك سبباً منطقياً أقنع به أهلى برفضى لفكرة الزواج حتى الآن وإن كان قلبى يميل إلى زميلى ناجى من بين كل شباب الجنس الآخر، وأشعر فى ذات الوقت بالخوف والارتباك، وبأننى لا يمكن أن أكون زوجة وأماً بحال من الأحوال!

لا أدرى يا دكتور ماذا أفعل؟!

ما زال عندى تفاصيل وأحداث كثيرة لكننى أريد أن أسمع منك تشخيصاً لحالتى.. أشار لها الطبيب أن تهدأ وتلزم الصمت وتسترخى قليلاً بعد أن أحس بأنها قد تعبت وبدا الإجهاد ينال منها، وبدأ يتكلم هو بإستفاضة وثقة كأنه واعظ حكيم أو أستاذ مخضرم فى قاعة المحاضرات بالجامعة.. قال ولا فض فوه:

— يا إيناس.. يؤسفنى أن أقول لك إن ما أنت عليه الآن هو ما يعرف علمياً

باسم السحاق، وهو بطبيعة الحال يتمثل فى ملامسة وإلتقاء مباشر للأعضاء الأنثوية الحساسة لطرفين من بنات حواء، ومعلوم أن هناك كثيراً من الأمراض التناسلية كالهريس، والسيلان، والزهرى، والإيدز نتيجة لهذه الممارسات، وكذلك الأمراض الجلدية المتعددة والخطيرة مثل التقرحات، والطفيليات التى تنتقل من أنثى إلى أخرى عن طريق ملامسة الأعضاء التناسلية والعبث فيها لإثنتين مع بعضهما، والغريب أنه حصلت حالات حمل لفتيات لم يكن متزوجات بسبب ممارسة الحب مع أخريات متزوجات أو من البغايا، وهو مرده أن تكون إحداهن قد ضاجعت زوجها أو عشيقها ثم إرتكبت عملية السحاق مع الضحية!

والطريف فى الأمر أن هذه الظاهرة تنتشر فى المجتمعات المغلقة على الإناث فقط، خاصة فى المدن الجامعية للبنات، وسكن الطالبات، حيث تلبس الفتاة ملابس النوم، الضيقة القصيرة المثيرة وتبدأ حالة الإعجاب عندما تسترجل إحدى الفتيات ويمارسان معاً الحب فى تلك الحالة، تقوم المسترجلة بدور الذكر، وتقوم الفتاة ذات الملابس المثيرة بدور الأنثى وكأنهما رجل وأنثاه فى فراش الزوجية، وفى نفس الغرفة أحياناً يحدث ذلك على مرأى ومسمع من الفتيات الأخريات فى نفس السكن، وهذه الظاهرة للأسف الشديد فى تزايد مستمر فى ظل وجود العوامل المثيرة للرغبات الجسدية مثل القنوات الفضائية والشبكة العنكبوتية المعروفة بإسم الإنترنت، والهاتف الجوال الذى أصبح الآن للعلاقات غير المشروعة!

وإن أغلب الفتيات اللاتى وقعن فى هذه الممارسات السيئة ضحايا أكثر من كونهن سحاقيات، وهناك حوالى ٧٠٪ من الفتيات الشاذات لا يرغبن فى تعديل وعلاج سلوكهن خاصة اللاتى مارسن هذه الظاهرة وحصلن منها على المتعة، ولا يجدن فى أنفسهن ميلاً أو إثارة فى الرجل

وفى دراسة عن مركز البحوث الاجتماعية والجنائية كشف أن هذه

الظاهرة تنتشر بين ٩٪ من بنات ونساء مصر، فى حين تبلغ نسبتها ٢٨٪ بين بنات ونساء دول الخليج العربى! وثمة انحرافات عديدة بينها تلك الظاهرة جاءت إلنا من الحضارة الغربية.. صدرتها لمجتمعاتنا العربية عبر وسائل الاعلام وأدوات الثقافة، والأفلام، وعشرات الجسور الأخرى.

والدليل على ذلك ما تناقلته وسائل الاعلام العالمية عن السحاقيات الأكثر شهرة فى العالم، فقد كشفت صحيفة "يديعوت أحرونوت" الإسرائيلية النقاب عن ممارسة وزيرة الخارجية الإسرائيلية السابقة تسيبي ليفنى وزعيمة حزب كاديما الحب المحرم مع نظيرتها الأمريكية كونداليزا رايس، برغم أن الوزيرة الاسرائيلية جميلة للغاية، ولا تقل أنوثة وأناقة عن نجومات السينما بينما الوزيرة الأمريكية، سوداء عجفاء، غليظة النبرة دميمة الملامح تجاوزت الخمسين من عمرها ولم تتزوج لذلك فهى تقوم بدور الرجل، بينما الفاتنة الاسرائيلية تلعب دور الأنثى ببراعة واقتدار!

هذه حقيقة راسخة يعرفها الجميع فى معظم دول العالم وليست محض خيال جامح، أو تشويه صورة بنات أمريكا وتل أبيب حاشا لله.. لكن واقع الأمر أن وزيرة التعليم الاسرائيلية "ليمون لفنات" وهى صديقة مشتركة للوزيرة ليفنى والوزيرة رايس هى التى كشفت العلاقة السرية بينهما لأنها كانت شاهدة على لقاءاتهما الملتهبة والحميمية فى الغرفة رقم ٥٠٣ بفندق داوود فى تل أبيب!

توقف الطبيب لحظات، يلتقط أنفاسه بعد أن دخلت سكرتيرته وقدمت كوبين من عصير البرتقال ثم خرجت وقبل أن يعود للثرثرة من جديد، فاجأته إيناس بسؤال مباغت وساذج.. قائلة:

— ماذا تعنى كلمة سحاق يا دكتور؟!

تبسم الرجل وقال مجاملاً إياها بلطف:

— هذا سؤال فى غاية الأهمية.. كنت أنتظره منك.

— أصل كلمة السحاق يعود إلى جزيرة "ليسبوس" فى بحر إيجه

باليونان، حيث كانت مسقط رأس الشاعرة اليونانية الجميلة " صافو " التي عشقت السحاق وحرصت على ممارستها مع النسوة اليونانيات فى القرن السادس قبل الميلاد، وكان حُسنها يفتح لها الأبواب والقلوب والأحضان والسيقان أيضاً، تميزت بجاذبية مبهرة، وذكاء غير عادى وقد عاشت فى الفترة ما بين عامى ٦٣٠ وحتى ٥٦٠ قبل الميلاد.. ومعنى " صافو " هو الصوت النقى العذب الشفاف وكانت اسماً على مسمى.. ولدت صافو فى قرية صغيرة تدعى " أريسوس " على الجزيرة اليونانية، ومات أبوها وهى فى التاسعة من عمرها، وتولت أمها الجميلة المبهرة الفاتنة رعايتها، وعندما بلغت صافو الخامسة عشرة من عمرها، تزوجت وأنجبت طفلة، وبعد شهور معدودة فشلت فى حياتها الزوجية الجديدة، وشعرت بإحباط عظيم عندما خذلها زوجها، وأصيب بالعنة والعجز الرجولى الكامل، فلم يعد قادراً على إشباع غريزتها الأنثوية وأصبح جمالها سر لعنتها، فلم تقدر هى الأخرى على كبت ثورة جسدها فكرهت الرجال جميعاً، واتجهت نحو بنات جنسها من العذارى الحسان اللاتى يرددن معها الشعر، ويغنين ويعزفن أحلى الألحان، ويمارسن معها الشهوة، حتى عشقت السحاق، واستغنت به وبهن عن كل الرجال فى هذا العالم!

وفى آخر حياتها تورطت فى مشاكل جزيرة " ليسبوس " السياسية، واضطرت للفرار إلى صقلية، وماتت هناك، وأحرقوا جثمانها حسب الطقوس الدينية السائدة آنذاك، ونقلوا رمادها إلى بلدها، كما خلدوا اسمها برسم صورتها على الأوانى والنقود!

وتركت صافو وراءها مجموعة قصائد شعرية بديعة فى تسعة دواوين تحوى بين دفتيها ١٢٠ ألف بيت من الشعر، ويتركز شعرها فى عشق البنات، ووصفه ومدحه والإشتياق إليه، وكيف كانت تمارسه مع أنثاها المفضلة " آتيس "، ولذلك سميت المساحقة فى بعض البلدان " صافوية "

نسبة إلى صافو، وكان هذا الشعر أفضل دعاية سيئة لانتشار الظاهرة
الأسوأ بين بنات ونساء صقلية واليونان وفرنسا، ولم يكن هذا الفعل البشع
مقتصرًا في بدايته التاريخية على اليونان فقط، بل إمتد إلى بلاد أوروبا
، وروما، فقد كانت في روما حمامات كثيرة للنساء، أعدت خصيصًا
لممارسة السحاق بينهن بكل أشكاله وأنواعه وفنونه، ومازال هناك
في فرنسا حتى اليوم جمعية سرية تسمى " بنات صافو " تمارس السحاق
في معبد " فسنا "، وللجمعية فروع أخرى في جميع أنحاء فرنسا، وتضم
الكثير من الحسانات ونجمات المجتمع والفن بين عضواتها، وكل امرأة
أو فتاة رغبت في الالتحاق بالجمعية لممارسة السحاق مع عضواتها لا يتم
قبولها بسهولة، فلا بد من اختبارها واجتيازها لشروط صعبة من أهم هذه
الشروط أن تتعري أمام عضوات الجمعية للتدقيق في محاسن جسدها،
والتأكد من مدى صلاحيتها، وقدرتها على إثارة الشهوة في نفوس وأجساد
عضوات الجمعية الأخريات!

وفي مدن الشرق الأقصى، وخاصة الصين والهند هناك الكثير من بنات
صافو يمارسن مع بعضهن البعض الحب الشاذ المحرم.

المدعش أن السحاقيات لا يختلفن كثيرًا عن غيرهن من النساء
الطبيعيات السويات من حيث اللجوء للإستثارة الحسية للحصول على
النشوة، وبلوغ الرعدة بالقبلات، والمداعبات باليد واللسان والشفاه
واستثارة المناطق الحساسة المثيرة، وبعضهن يعترفن بأنهن يفضلن العناق
والإلتصاق الجسدي بغيرهن من النساء أكثر من إهتمامهن بإستثارة
أعضائهن الجسدية بأنفسهم أو عن طريق الرجال، وهذا بحد ذاته يشير إلى
أنه حتى المرأة المثلية تهتم كثيرًا بالناحية العاطفية، وتشعر الفتاة التي
تمارس علاقات حميمية مع غيرها من بنات جنسها، كما يشعر الرجل
وتتصرف كما يتصرف، فهي في كثير من الأحيان تقص شعرها وتخوض
ألعاب الرجال، وتغشى مجتمعاتهم، وتكون في الغالب ذات عاطفة حادة!

وإذا خطر لسحاقية أن تغرى فتاة بلا تجربة فإنها تبدأ بالتحايل عليها ، ومحاولة إستمالتها ، واكتساب عطفها وودها بأن تظهر نحوها شيئاً من الحب والحنان العاديين ثم تتبع ذلك بالقبلات والعناق ، والنوم معها فى فراش واحد وبعد ذلك تسعى جاهدة بكل خبرة أناملها الشريرة المدربة على ايقاظ حواسها النائمة ، واستتفار مشاعر اللذة والشهوة فى نفس فتاتها التى دائماً ما تجهل أن وراء هذه الأحاسيس العاطفية تتخفى علاقة غير طبيعية ، فتقع بدورها فى حب صاحبيتها ، وتنتهى هذه العلاقة النهاية المخطط لها سلفاً ، وقد تدوم تلك العلاقة سنوات عديدة!

فى الحقيقة هذه الظاهرة الخطيرة أكثر انتشاراً فى الغرب وإن كانت موجودة فى مجتمعاتنا العربية فإنها سرية ودائماً تنطلق من وراء ستار ، بينما هى فى الغرب علنية ، ويتباهون بها ولها جمعيات ومنظمات وهيئات تطالبن بحقوق عضواتها وتحمى سلوكهن المشين ، والسحاق مثل غيره من أوجه الشذوذ الأخرى بحاجة إلى علاج نفسى دؤوب وصبر طويل حتى يمكن مساعدة المريضة أو الضحية على نبذ هذه العادة الجهنمية ، والعودة بها إلى صوابها النفسى والجسدى!

صمت الدكتور لحظات بينما ايناس مندور فى حالة استرخاء تام أمامه كأنها تتابع فيلماً بوليسياً أو تنصت لحدوته قبل النوم ثم أنهى الجلسة العلاجية على وعد بجلسة أخرى فى الأسبوع القادم.

" فى الصفحة الأولى من كتاب الحرب .. لا هجوم على
روسيا بالدبابات، ولا زحف على الصين بالمشاة، ولا استهانة
بالضعفاء! "

فكر ناجى شرف الدين طويلاً فى طريقة للفكاك من بين أنياب البطالة
بعد فترة قضاها خاملاً نائماً فى العسل، يئن من الفراغ، ينهشه الملل
والكسل والإكتئاب حتى ذهب ذات يوم إلى مكتب جريدة الأيام بمدينة
المحلة الكبرى وهى المدينة الأقرب لقريته ومسقط رأسه، اختار جريدة
الأيام باعتبارها المؤسسة الصحفية القومية الأكبر، والأكثر توزيعاً، لم
يكن يرغب فى أن يترك أمه ويخوض غمار الحياة، وصراعاتها فى القاهرة،
طرأت عليه فكرة وأعجبته.. لماذا لا يعمل مراسلاً لصحيفة الأيام من
المحلة، وعندما إلتقى مدير المكتب وعرض عليه الأمر، دهش الرجل،
وكان ودوداً معه للغاية، وبعد أن سمع قصته نصحه بضرورة الانتقال إلى
العاصمة رغم كل الظروف والصعاب.. هناك فى القاهرة المستقبل يفتح
ذراعيه، وأكد له الرجل أنه سيتحمل وزراً كبيراً لو سمح له بالعمل فى
مكتب اقليمى، بينما مكانه الطبيعى فى المؤسسات الصحفية الكبرى
وأوضح له أنه برغم وصوله لمنصب مدير المكتب إلا أن مؤهله الدراسى
مجرد " دبلوم صنایع " واحترف التصوير الفوتوغرافى، وهذا ما ساعده على
الإستمرار فى العمل الصحفى، وأنهى الرجل المقابلة بحنان أبوى، وهو
يشد على يد ناجى شرف الدين قائلاً:

يا بنى حرام عليك.. إذهب إلى القاهرة هناك سوف تتجح ولن يضيعك الله
أبداً، ما دمت تقصد وجهه الكريم.

انصرف ناجى حزيناً مهموماً يرى الدنيا من ثقب ضيق، وكأنها ارتدت
عباءة سوداء وهمس لنفسه:

ياربى.. لقد رضيت بالهم.. والهم لم يرض بى!

وأحس الفتى وقتها أنه لامناص أمامه من العودة للقاهرة، وليكن ما يكون.. ولكن كيف؟!

هل يهبط أرض القاهرة المعز، ويقف فى شوارعها، وعلى نواصيها ليقول للناس.. أنا خريج كلية الاعلام، قسم الصحافة والنشر.. افتحوا لى الأبواب المغلقة فى صحف المحروسة، ومؤسساتها الاعلامية المرموقة؟!

نصحوه بأن يكتب طلباً لعضو مجلس الشعب عن الدائرة التى تقع فيها قريته الصغيرة، وبالفعل لم يتوان النائب البرلمانى عن خدمته، فالمحافظة كلها ليس فيها من خريجى كلية الاعلام سوى عدد محدود يعد على أصابع اليد الواحدة ولذلك يعد ناجى بمؤهله الدراسى عملة نادرة فى محافظة الغربية واستطاع النائب البرلمانى الذى كان صديقاً شخصياً لرئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير جريدة "المصرية"، وكثيراً ما نزل الصحفى الكبير ضيفاً على النائب البرلمانى مع احدى محظياته يقضى أحلى الأوقات فى مزرعة سيادة النائب يأكل ويشرب، ويتنزه فى حدائقها الغناء بحرية وبحبوحة وعبث، وكأنه فى جنته الموعودة، وجيش من الخدم يلبون طلباته، ويحققون رغباته..

كانت فرحة ناجى شرف الدين كبيرة بالتأشيرة الواضحة الصريحة على طلبه حيث وقع الكاتب الكبير عنتر رجب رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مؤسسة "المصرية" بخط يده الجميل، وبقلمه الحبر الأسود..

" إلى السيد مدير عام شئون العاملين..

يعين فوراً فى مجلة الحرية، وأفاد بما تم "

أمسك ناجى بالطلب كمن يمسك بطوق النجاة لينجو من الغرق فى بحر الظلمات، وهتف لنفسه، وهو يتأمل تأشيرة عنتر رجب رئيس التحرير بإنبهار:

— أحمذك يا رب.. الآن أستطيع أن أسافر إلى القاهرة، وأنا مطمئن القلب
أننى لن أضيع فى زحامها، ولن أذوب فى طوفان ضجيجها!

عقد العزم على أن يستقل أول قطار يتحرك فجر اليوم التالى متجهاً من
محطة المحلة الكبرى إلى القاهرة لتكون جريدة " المصرية " العريقة
التي رأس تحريرها فى يوم من الأيام الرئيس الراحل أنور السادات قبلته
الصحفية الأولى، وكعبته التى آن الأوان ليزورها وقد يبقى فيها إلى ما
شاء الله له أن يبقى..

وصل القطار فى السادسة صباحاً تأخر كعادته تهادى قليلاً، وكأنه
أرجوحة تهدد الركاب قبل أن تتوقف لتلفظهم من أحشائها على الرصيف،
لينتشروا فى مواكب العاصمة التى تسير فى كل الاتجاهات، كل مسير
لما خلق له، ثم أتجه ناجى شرف الدين سيراً على الأقدام إلى حيث مبنى
مؤسسة " المصرية " للصحافة التى تبعد عن محطة السكة الحديد فى
ميدان رمسيس مئات الأمتار، وجد الوقت مبكراً فجلس على مقهى قريب
من مقر الجريدة.. إشتري نصف دسنة ساندوتشات من الفول والطعمية،
والتهم منها ما يكفى معدته، وأتبعها بكوب من الشاي الساخن بالنعناع
الأخضر، ثم أتبعه بكوب آخر حتى أحس بالامتلاء، وبثقل فى بطنه،
كما لو كان ألقى بحجر فى جوفه، استرخى فى مقعده مضجعاً يراقب
حركة المارة، وهم يهرولون إلى أعمالهم، وعلى وجوههم ترسم الجدية،
مرت عليه أكثر من ساعة وهو قابع فى مكانه ينتظر.. شعر بأن عقاربها
لا تسعى، وهو فى مكانه يزدرد مشروبه المفضل ويتلذذ بدفته مع وهج
الشمس الحانى الحالم، وعندما تجاوزت الساعة التاسعة والنصف، نهض
متجهاً إلى هدفه داخل المؤسسة الصحفية، وفى صالة التحرير إلتقى ناجى
مع حسن فودة رئيس تحرير مجلة " الحرية " التى اختارها له عنتر رجب
رئيس مجلس الإدارة ورئيس تحرير الجريدة اليومية الأولى التى تصدر عن
دار المصرية لكى يتم تعيينه فيها، تناول رئيس تحرير المجلة الطلب من

ناجى شرف الدين وابتعد به عن زحام وضجيج صالة التحرير، ودلف به إلى مكتب رئيس مجلس الإدارة مستفسراً عن التأشيرة التى يعرفها جيداً لكنه يعرف أيضاً أن تعليمات رئيس مجلس الإدارة صريحة وواضحة، وتقضى بعدم التعيين، والمؤسسة فيها عشرات المحررين الذين عملوا تحت التمرين لأكثر من خمس سنوات دون بارقة أمل فى التعيين.. انتظر ناجى بشغف، وقلق حتى عاد حسن فودة وبدا جاداً متجهماً على غير عادته، حاول قدر جهده أن يبدو طبيعياً دون جدوى حتى إنبرى يشرح لناجى ويفسر له أن المؤسسة مزدحمة وبها طابور طويل يحلم بالتعيين، والأفضل له ألا يقف فى هذا الطابور، وعليه أن يبحث له عن فرصة أخرى فى مكان آخر.. كادت الدموع تفر من عيني ناجى الذى قطع هذا الطريق على الرجل قائلاً:

ـ أرجوك أعطنى فرصة، فلا مجال أمامى للعمل فى مكان آخر، ودراستى لا تؤهلنى للعمل فى أى مجال آخر سوى فى الصحافة.. أم أنكم لا تريدون وجودى هنا؟!

بدا التأثير واضحاً على رئيس تحرير مجلة " الحرية " الذى تغطى جبهته علامة الصلاة الجميلة، والتى تشبه حبه الفول السودانى، ثم قطع الشك باليقين قائلاً:

يا ولدى بصراحة رئيس مجلس الادارة أعطاك الموافقة على طلب التعيين فى ظروف خاصة.

ظروف خاصة.. ماذا تقصد يا أفندم؟!

رئيس مجلس الادارة الأستاذ عنتر رجب كان قد شرب الكحوليات أكثر من اللازم فى ذاك اليوم حتى ثمل.. هذا ما قاله لى بنفسه.

انتابت ناجى شرف الدين خيبة أمل كبيرة، وأدرك حسن فودة ما يعتمل فى نفس الفتى، فحاول أن يخفف وقع الصدمة عليه، ضغط بعصبية على زر أمامه مثبت بإحكام فى مكتبه، وعلى الفور دخل الساعى بملابسه الزرقاء الرسمية التى تشبه زى السجن، أعطاه الرجل تعليمات سريعة

وقصيرة وموجزة، لم يتبين ناجى معناها فى ظل شروده، واحساسه بعظيم الإحباط، وبعد لحظات جاءه الساعى بخمسة محررين من الذين قضوا أكثر من خمس سنوات تحت التمرين على أمل قد يأتى، وقد لا يأتى، وأمرهم بالكلام، فبدأ كل محرر يروى قصته وكفاحه ومعاناته فى العمل داخل دهاليز بلاط صاحبة الجلالة، فى مهنة البحث عن المتاعب، مقابل أجر رمزى، ومع الأيام يتلاشى الأمل فى تحقيق حلم التعيين، والحصول على كارنية نقابة الصحفيين والذى يعادل تأشيرة هجرة إلى أمريكا!

طلب ناجى أن يأخذه لمقابلة رئيس مجلس الادارة عنتر رجب صاحب التوقيع بالموافقة على تعيينه، فقالوا له: هذا مستحيل فمن السهل عليك أن تقابل ربك، بينما من الصعب جداً أن تقابل الرجل الأهم فى الصحافة والسياسة، فهو الأقرب إلى قلب وعقل الرئيس، وهو الذى يكتب له خطبه السياسية، ويسبح بحمده ليل نهار فى مقالاته التى تعد دستوراً لا مثيل له فى النفاق والتزلف والتملق!

خرج حزينا مكفهر الوجه لا يدري ماذا يفعل؟!

سأل نفسه: لماذا يعيش الناس الأكابر فى عزلة عن الناس الذين منحوهم الشهرة والنجومية، والنفوذ والفلوس؟!

وجاءه الجواب على الفور عندما تذكر كلمات عن الغرور والتعالى لا يدري بالضبط أين قرأها.. تقول تلك الكلمات:

"منذ نحت الشاعر الفرنسى الأشهر سانت بييف مصطلح "البرج العاجى" فى قصيدته الرائعة "أفكار أغسطس" عام ١٨٣٧ راج المعنى فى الثقافات المختلفة تعبيراً عن العزلة والتعالى، وهناك فى كل مؤسسة صحفية أو مطبوعة يومية أو أسبوعية أو شهرية جورنالجى يسكن البرج العاجى، ويتعالى على المشاكل اليومية للناس البسطاء والمهمشين والتى يعتبرها تأكل الروح أكلاً!"

" من كان منكم بلا خطيئة فليرجعها بحجر! "

بعد مساء يوم الخميس بدت القاهرة ممطرة ساحرة ، فى إحدى أمسيات الشتاء الدافئة اللذيذة التى تبعث على الأمل ، ارتدت إيناس مندور جاكيت جلد طبيعى أسود ، ومن تحته بلوفر صوف أبيض ، وبنطلون جينز أزرق ، ودست قدميها فى حذاء رياضى أبيض خفيف ، واتجهت إلى طبييها النفسى فى حى المهندسين فالיום هو موعد جلستها العلاجية الثانية ، كانت العيادة هادئة يخيم عليها صمت القبور ، استقبلها الطبيب بترحاب معتاد ، وابتسامة صافية حانية رقيقة كأنه حبيبها ، وبعد تبادل كلمات قصيرة سريعة عن الصحة والأحوال ، عقب هذه التحيات التقليدية استرخت إيناس على كرسي الإعراف ، وبدأت مجدداً تحكى عن خطاياها وهو يتأملها كراهب يمنح مؤمناً فرصة البوح حتى يتطهر من الذنب ، اضطجع على مقعده فى غاية الهدوء ، والسكينة ، وفى يده قلم حبر أسود ، وبين يديه أجنده حمراء يدون فيها من حين لآخر بعض الملاحظات..

قالت بثقة هذه المرة:

— بعد انتهاء دراستى الجامعية ، والتحاقى بالعمل كمحررة صحفية تحت التمرين بمؤسسة صحفية قومية عريقة ترضى طموحى ، أعلنت رغبتى للأهل والأقرباء بالذهاب للأراضى الحجازية المقدسة لأداء شعائر العمرة وفعلاً حدث ما كنت أتمناه ، ورافقنى أبى ، وهناك بكيت بحرقة ومرارة واشتياق للتوبة ، وشعرت أن دموى طهرتتى ، وأزالت تل ذنوبى وعندما عدت أصبحت إنسانة أخرى كأننى خلقت من جديد..

عدت وأنا كارهة للحياة التى عشتها فى مستقع اللذة الحرام لأكثر من ست سنوات.. عدت تائبة نادمة على كل ما فعلته من قبل ، وقطعت علاقتى

بكل صديقة كنت أمارس معها هذا الفعل المشين، وأولهن بالطبع تلك الشيطانة العاهرة التى قادتنى إلى هذا الطريق الملعون، وقد قاومت كل الإغراءات التى يمكن أن تذكرنى بعلاقاتى ومشاعرى السابقة، ولم يكن ذلك سهلاً على الإطلاق، ولست واثقة فى أعماقى إذا كنت قد نجحت أم لا؟!.. مع أن الدلائل الخارجية تشى بذلك، وبعد حوالى أربعة أشهر من خصامى لهذا النوع من العلاقات قابلت مهندس كمبيوتر، وقد تعرفت عليه فوجدته، ودوداً مهذباً، خلوقاً، مثقفاً، وسيماً متيماً، لم أكن أتصور أننى فى يوم من الأيام سوف أعجب برجل لأسباب متعددة، من أهمها ميولى المثلية، وكنت أعرف أن علاقتى مع زميل دراستى ناجى شرف الدين محكوم عليها بالإعدام لا محالة، برغم ميلى إليه وتعاطفى وجدانياً معه لأسباب كثيرة منها أنه ريفى طيب من أبناء الأقاليم، وليس له مأوى فى القاهرة وظروفه الاجتماعية بائسة، هى مبررات تبدو ساذجة وغير منطقية، لكن أحكام القلوب والمشاعر لا تسير وفق قواعد المنطق إتخذت قرارى وارتبطت بمهندس الكمبيوتر هذا، وصارت الخطوبة تجمعنا، وبدأت أحس أن الأمور تتطور بسرعة دون أن أقدر على السيطرة عليها أو التحكم فيها، ولا فى نفسى.. هو أصبح يحبنى بجنون، ولا يترك مناسبة إلا ويثنى على جمالى، وثقافتى وتهذيبى، وأخلاقى السامية، وأنا أمام كل ذلك أشعر بالذنب.. فأنا أخشى الفشل فى علاقتى مع أى رجل، وأخشى ألا أعلم أبجديات اسعاده، وارضائه أخشى أن أعود إلى تلك الميول الجهنمية مرة أخرى مع أننى لم أفكر فيها منذ فترة، فمنذ عدت من العمرة، وأنا أحس بروحى طاهرة نقية شفافة ولو كانت مجرد إحساس إلا أننى لا أريد أن أغامر بفقدان هذا الشعور بإقترابى مرة أخرى من أى أنثى لدوافع شاذة!

كنت أتحدى نفسى، وأرغب فى إنهاء مأساتى تلك.. لكن دائماً تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن، فقد زارتنى صديقتى الحميمة السابقة، وطلبت منى أن أقطع علاقتى بخطيبى، لأننى أخدع نفسى، فأنا لا أصلح أن أكون زوجة لرجل لأن الله خلقنى لأشارك أنثى مثلى فراشها.. وأعيش معها

كشريكتين حياتها السرية ، وهددتني بأننى لو تزوجت من جنس الرجال فسيكون الطلاق مصيرى المحتوم فى الأسابيع الأولى من الزواج ، وقد يحدث فى شهر العسل وتكون فضيحة للسماء ، يلوكها بلسانه القاصى والدانى ، وقالت لى أيضاً بنبرة تهديد ، ووعيد حادة بأنها لن تتركنى أعقد قرانى على أى رجل لأنها رجلى وشريكة فراشى.. وجسدى لها وحدها !
أعلم أنها قد تكون قالت ذلك من باب الحقد والغيرة لأننى هجرتها وأهملتها.

أبدت لها اصرارى وعنادى وتمسكى بطوق النجاة ، وبعد أسبوع واحد اتصل بى خطيبى الذى كان مهووساً بى ومتيماً بحبى مبدئياً أسفه واعتذاره على أننا لن نستطيع الزواج ، حاولت بإلحاح أن أعرف منه السر فى تراجع المفاجئ ، لكنه رفض بكبرياء وهو يكاد يبكى بصوت مختنق مبجوح قائلاً :

— أرجوك يا إيناس إغفينى من ذكر الأسباب والمبررات ، وإن كنت أتمنى لك حياة سعيدة موفقة ، حسبما تختارينها ، وبالطريقة التى تحلو لك !

هنا فهمت أنه قد عرف السر المخبوء فى صدرى.. بكيت.. حزنت اجتاح الغضب قلبى أياماً طويلة ، وسهرت لياالى مؤرقة معذبة لكن قلت لنفسى.. إن الزمن كفيل بتضميد كل الجراح.. حاولت أن أنسى أو أتناسى ، وأنهمك فى عملى الصحفى حتى عرفت بالصدفة السر الذى حيرنى ، فقد وصلت لخطيبى مشاهد من علاقته مع صديقتى عبر موبايله الشخصى مع رسالة تقول.. بأننى مثلية الجنس فهل يقبل أن يضيع عمره معى؟!

كان هذا سبب فراره منى.. المهم أننى ألقيت بهذا الموضوع فى خانة النسيان بذاكرتى ، ولم أعد إله لأنه يجرح كرامتى ويجعلنى أشعر بالمهانة.

وذات يوم كنت مرهقة للغاية ، وفضلت الراحة والمكوث فى البيت ،

وفى هذا اليوم اتصلت بى إحدى زميلاتى الصحفيات ، وقالت لى أنها قادمة لزيارتى ، فلم يكن أمامى سوى الترحيب بها ، ولم أكن أعرف سبب رغبتها فى زيارتى هذه المرة ، وعلى كل الأحوال فقد كانت تزورنى على فترات متباعدة ولا ضير فى هذا ، وكانت والدتى تسعد بلقائها مثلما كانت تسعد بلقاء أية فتاة أخرى تأتى إلى بيتنا ، بينما تمانع بشدة ، وبغباء منقطع النظير حضور أى زميل لى لزيارتى ، ومازلت أذكر كيف كدت أنفجر غيظاً عندما جاء فنى الصيانة لإصلاح عطل فى جهاز الكمبيوتر الموجود بغرفتى ، وبمجرد أن دخل الفتى غرفتى ظلت أمى تتابعه بحرص شديد كأنه جاء لإختطافى ودخلت وخرجت عشرين ألف مرة بالقهوة والعصير والشاى ، ومرات عديدة بدوافع القلق والتوتر ، وفى كل مرة كانت تختلق حجة لترى ماذا يفعل فنى الكمبيوتر كل ذلك برغم أن باب الغرفة مفتوح على مصراعيه ، والرجل منهمك فى إصلاح الكمبيوتر ليس إلا.. كانت أمى حريصة أشد الحرص من جنس أى رجل يقترب منى ، فى الوقت الذى جهلت فيه كيفية مراقبة صديقاتى البنات.. وهن أخطر على من كل الرجال.. تلك هى الحقيقة المرة التى لم تدركها!

علاقتى بأمى لم تكن على ما يرام على الدوام.. كانت فى معظم الأحيان علاقة متوترة ، فيها جفاء وخشونة ، لا تزيد عن إملاء الأوامر والنواهى وكنت أقضى الساعات فى غرفتى بمعزل عن البيت كله.. أعتكف عن الجميع ، كما يفعل المؤمنون الأتقياء فى العشر الأواخر من شهر رمضان ، وليس لى من رفيق فى محبسى الإختيارى سوى التلفزيون الصغير الملون تقابله منضدة صغيرة عليها جهاز كمبيوتر حديث جداً ، وكرسى من الجلد المريح للغاية ، وكذلك السرير المملوء بالوسائد والدباديب!

جاءت زميلتى فى الجريدة كى تزورنى وتطمئن على أحوالى كما ظننت وليس كل الظن إثم وفجأة ودون سابق إنذار قالت إنها ستطلعنى على شئ خطير ومثير ، وأمام دهشتى ، واستغرابى طلبت أن يكون هذا الأمر سرّاً

بيننا للأبد ، أقسمت لها أنني سأفعل ولن أبوح بما تقوله لى لأى كائن كان ، وإذا بها مطمئن لموقفى ، وتخرج أسطوانة لامعة وتدسها بسرعة داخل أحشاء الكمبيوتر ، حاولت أن أمنعها خاصة أنني سمعت صوت أقدام والدتى ، تجئ وتروح أمام باب غرفتى إلا أن زميلتى كانت أسرع منى فى تشغيل الكمبيوتر ثم قالت هامة :

– لا تخافى يا إيناس لا تخافى.. انتظرى.. لحظات يا حبيبتى وتشاهدى المفاجأة الممتعة!

استسلمت لرغبتها ، ودون مقاومة أخذت أحرق فى شاشة الكمبيوتر بعد أن سمعت التهديدات المحمومة ، وبدأت اللقطات المثيرة الساخنة تروق لى ، وتشعرنى فى الوقت نفسه بالنشوة والإشمئزاز معاً ، وفيما أنا على هذا الحال ، إقتربت منى زميلتى كثيراً لامست جسدى ، وبدأت أنفاسها الحارة تلمح عنقى وهى تقبلنى وتلعق رقبتى ، وأنفاسها الملتهبة النارية تحرقنى رغبة وشوقاً ، ولهفة للعودة إلى الماضى الحلو المخجل ، وأخذت تداعب شعرى وتمص لسانى ونهدى وتقول لى :

– فلنجرب يا إيناس.. الحياة حلوة.. لماذا لا نستمتع بها وأحلى ما فى الحياة الجسد الجميل.. هو نعمة من الله هيا بنا نتمتع بنعمته!

لا أدرى كيف حدث ما حدث؟! ولا أعرف لماذا بصقت على نفسى أمام المرأة إثر مغادرة زميلتى الصحفية الملعونة عائدة إلى مقر الجريدة مرة أخرى ، وهى تهمس فى أذنى وتقبلنى من شفتائى مع حضن دافئ ببراءة ذئب ليثم قائلة :

– لا تنسى يا حلوتى.. كل ما حدث بيننا سيظل سرّاً للأبد اتفقنا يا إيناس.. أليس كذلك؟!

لم أستطيع النطق من شدة خجلى وارتباكى وندمى وخوفى واضطرابى ، ولا أدرى كيف عدت إلى هذه الدائرة الشيطانية الجهنمية مع زميلة أخرى من عائلة مرموقة والدها سفير شهير ووزير سابق ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت

أخضع لمضاجعة زميلتي، وأنا ذليلة، وأطيعها طاعة عمياء، ودائماً أكون لها كلما أرادتني، وكيفما أرادتني.

سادت برهة صمت رهيب، لم ينبس الطبيب ببنت شفة.. كان كمن على رأسه طير جارح، دوّن بخط يده بعض الملاحظات، ثم سألها بنبرة العالم المحنك الواثق من علمه وحكمته، ونفاذ بصيرته:

— هل فى أسرتك حالات مشابهة لحالتك؟!

ردت دون تفكير وكأنها تنفى وصمة عار عن عائلتها:

— لا.. لا يا دكتور.. ليس بين بنات العائلة من هن فى مثل ظروفى.

هز الطبيب رأسه، وعاد الكتابة فى أجندته، وباغتها بسؤال لم يكن أبداً فى الحساب:

— وماذا عن مشاعرك تجاه ناجى شرف الدين؟!

تبسمت قليلاً فظهرت أسنانها الناصعة البياض المتناسقة بإتقان وقالت:
لا أدرى.. أحيانا أحس أن مشاعرى نحوه تتأرجح بين الحب والكراهية،
وبين الإحترام والإحتقار.. أكن له مشاعر تبدو متناقضة، لكننى فى كثير من الأحيان أشفق عليه، وأنجذب نحوه.. لا أدرى إن كان هذا عاطفاً أم حباً؟!

حواسى كلها مشوشة، ما عدت قادرة على التمييز.. ما عدت أستطيع التفرقة بين المشاعر البيضاء، والأحاسيس السوداء!

أنهى الجلسة العلاجية، وكتب لها روصة وطالبها بأن تلتزم بها لمدة أسبوع وهى تتضمن مجموعة من المهدئات، ثم شكرها على وعد بقاء جديد الأسبوع القادم

انصرفت وقد شعرت بإرتياح واطمئنان بعد فاصل طويل من الشرثرة والفضفضة.

"النسر هو قيصر الطيور، ومع ذلك يحترس من الذباب!"

ذات يوم كان ناجى شرف الدين يتمشى على النهر المار أمام قريته الصغيرة النائية بإحدى محافظات وسط الدلتا.. تلك القرية التى يعيش فيها خمسة آلاف نسمة، ولم يرد ذكرها على خريطة مصر المحروسة.. فى هذه الأثناء رتب له القدر صدفة خير من ألف موعد، فقد لقيه حمدان الششتاوى جاره فى نفس الشارع، سألته الرجل عن أحواله كالعادة فبدا ناجى متذمراً من سوء حظه، وتعثره حتى الآن فى الحصول على فرصة عمل مناسبة فى بلاط صاحبة الجلالة تليق بشخص يحمل درجة البكالوريوس فى الاعلام والصحافة بتفوق وجدارة.. لاذ حمدان الششتاوى بالصمت المطبق ثم قال له:

— إسمع يا ناجى.. بإذن الله مشكلتك لها حل.. غداً فى العاشرة صباحاً سأنتظرك.. لا تتأخر لعل القدر يخبئ لك خيراً كثيراً.
— إلى أين سنذهب؟!

— إلى مقر الحزب الوطنى فى سمود.. بمشيئة الرحمن لن يردنا رب العباد مخذولين.. لا تتأخريا ناجى.

— أمرك يا سيدى أمرك.

وهمس فى نفسه دون أن يسمعه أحد.. عسى الله يضع سره فى أضعف خلقه من عباده البسطاء.

ولم يكذب ناجى شرف الدين خبراً، ولم يخلف وعداً، وبالفعل فى صباح اليوم التالى نهض مبكراً، وصلى ركعتين ثم تناول افطاره، وطرق باب جاره.. سر حمدان الششتاوى لرؤياه، وأسعده حرصه على مستقبله وكان حمدان طيب القلب يتسم بالشهامة، وحب الخير للناس، ومعروف عنه فى

القرية كلها بالمرءة، ونجدة الملهوف..

انطلقا سوياً بحماس صوب مدينة سمنود الأقرب إلى قريته والتي تتبعها القرية إدارياً وجغرافياً، وهناك فى مقر الحزب الوطنى سأل حمدان الششتاوى بثقة عن الحاج عوض الدميرى أمين عام الحزب فقالوا له.. انتظر فالرجل على وصول.. جلسا سوياً فى حديقة صغيرة متناسقة أمام الحزب، واحتسبا الشاى بالنعناع، وتحدثا فى أمور شتى حتى وصل الحاج عوض الدميرى، فرآه ناجى لأول مرة، تأمله برفق، كان يتخيله عكس ما رآه، وجده ضئيل الحجم، نحيل الجسد، صغير الرأس مستديره، قصير القامة، يرتدى جلباباً أبيض اللون ناصع البياض يبدو نظيفاً ومكويماً بعناية فائقة، وتنفوح منه رائحة عطر رخيص الثمن، الرجل أصلع من مقدمة رأسه، لكنه يصفف ما تبقى فى حواف رأسه من شعر غير متناسق، مثل الدنيا.. غزارة فى الإنتاج، وسوء فى التوزيع وهو حريص للغاية على العناية بالقلة الباقية عساها تستر أكبر مساحة فارغة فوق جمجمته.. حركاته سريعة متوترة، منضبطة آلية ميكانيكية كما لو كان عقرب الثوانى فى ساعة الحائط، يتكلم بتلثم واضطراب.

طال بهم الحديث عن الحزب، وكوادره، وقياداته وتربيطاته، والانتخابات القادمة التى أصبحت على الأبواب.. واستعرضوا الأسماء المرشحة لنيل ثقة الحزب.. وقبل أن يختتم حمدان الششتاوى حديثه الودى مع عوض الدميرى عن دهاليز الحزب وألاعيب السياسة وخباياها قال له حمدان بود:

— يا حاج عوض.. لنا عندك خدمة، ونعرف أنك لن تخذلنا أبداً.. فأنت أهل كرم ومروءة وشهامة.

انفرجت أسارير الحاج عوض الدميرى، وأرضت كلمات الإطراء غروره ونزلت على نفسه برداً وسلاماً، وبدت السعادة على وجهه وكان فى قمة الإصغاء والتركيز.. فالإنسان دائماً يحب من يمدحه ويهوى سماعه.. قال الرجل:

— أنا تحت الأمريا حمدان.. أنا فى الخدمة.. اطلب يا صديقى، وأنا أنفذ فوراً.

أشار حمدان إلى ناجى شرف الدين قائلاً:

— هذا الشاب يهمنى أمره للغاية، وهو خريج إعلام قسم الصحافة والنشر ونريد منك توصية بشأنه للأستاذ جلال عمار زوج أختك، وأظن أن الكاتب الكبير رئيس تحرير جريدة "الأحداث" لن يرفض لك طلباً، وسوف يشمله برعايته، وعنايته وعطفه، والفتى بلدياتى وجارى ومن المقربين لقلبى، وليس له فى القاهرة أى مخلوق يساعده.. والأمل معقود عليك.. دبت الحماسة فى أوصال الرجل، وبسرعة البرق أخرج من جيب جلبابه "كارت شخصى" أبيض اللون مطرز باللون الذهبى باسم الرجل ورقم هاتفه، وسحب قلمه الفضى وكتب على ظهر الكارت كلمات معدودات أثلجت صدر ناجى شرف الدين وكذلك حمدان الششتاوى الذى قرأ الكلمات بصوت مسموع:

"أخى جلال بك عمار رئيس تحرير جريدة الأحداث.. حامل هذا الكارت يهمنى أمره للغاية، فأرجو أن تشمله بعطفك وعنايتك"

مع خالص الود.. عوض الدميرى.

تبسم ناجى شرف الدين ابتسامة الناجى من غرق محقق وسط طوفان الحياة، لم يصدق أن السماء قد أهدهت أخيراً طوق النجاة، وصار الطوق بين يديه الآن، ها هى تأشيرة المرور إلى مدينة الألف مئذنة فى جيبه، ها هو سيعود إلى عاصمة المعز ليعمل فى واحدة من أهم وأعرق مؤسساتها الصحفية المرموقة.. فى تلك الليلة جافاه النوم طويلاً من شدة السعادة واقتراب حلمه من أرض الواقع.. وعندما غلبه النعاس جاءه التوأم الأشهر فى تاريخ الصحافة المصرية على ومصطفى أمين يأخذان بيده ويعبران به بحر

هائج عاصف حتى وصلابه إلى شاطئ الأمان والسلامة.. استيقظ من غفوته مبتهجاً منشراح الصدر ، وقد أدرك أن هذه لابد وأنها البشرية الطيبة التى لا تقبل الشك.. وبعد صلاة الفجر مباشرة شد الرحال فى عز البرد إلى محطة القطار ، ودس جسده بين ركاب الدرجة الثالثة فى قطار الساعة السادسة المزدحم دائماً بالعمال والطلاب والموظفين ، وحينما وصل القطار وهو يئن من ثقل ما يحمل فى حشاه عند محطة بركة السبع هبط من هبط ، وصعد من صعد ، بينما ناجى شرف الدين يتسلق الشبكة الحديدية المخصصة للحقائب فوق رؤوس الجالسين على المقاعد ، استرخى فى الأعلى مع عشرات آخرين ، راح فى غيبوبة ، وغط فى نوم عميق وهو قابض على الحديد بيديه ، وإذا به يرى مصطفى أمين يهل عليه بجسده الضخم ووجهه الطفولى البشوش باسمًا حاملاً قلمه الذهبى ، وأهداه إياه وقال :

يا ناجى.. ينتظرك مستقبل واعد فى عالم الصحافة وعليك أن تراعى الله ، وتعمل ضميرك ، ولا تغمس قلمك فى مداد الظلم والعدوان والانحراف.. لأن الكلمة كالطاقة قد تقتل بريئاً ، وقد تقتص من مجرم.. هيا يا ولدى.. هيا إلى جريدة الأحداث.. فالمجد ينتظرك!

فجأة إهتز القطار هزة عنيفة ، وكادت القضبان تفر من تحت عجلاته ولم يشعر ناجى شرف الدين سوى بصدمة قوية فى رأسه ، وجسده كله مسجى فوق فخذى امرأة ، ورأسه ارتطم بأحد الكراسى الخشبية فى القطار.. سقط ناجى فوقها.. صرخت المرأة بعصبية ، وهمهم الرجال الجالسون بإستهجان ، وانزعاج.. فقد سقط من غفوته.. ألمهم الارتطام المفاجئ ، وقض مضجعه.. بادر بالإعتذار ، وتوسل إليهم طالباً العفو والصفح ، والغفران ، ولولا تدخل بعض الركاب من الطبييين الواقفين بين الكراسى شهود الواقعة لصارت مشاجرة ، وفتك المتضررون بالفتى الذى سقط فوق رؤوسهم فى غفلة منهم ، وغفوة منه.. كما سقطت التفاحة على أم رأس إسحاق نيوتن فألهمته قانون الجاذبية الذى الذى غير حياة البشرية.. حكاية هذا الرجل أغرب من الخيال فقد ولد فى ٤ يناير

عام ١٦٤٣ فى إحدى مقاطعات بريطانيا ، مات أبوه وهو ما يزال فى بطن أمه قبل ولادته بثلاثة أشهر ، وبعد ذلك تركته والدته لتعيش مع زوجها الجديد بعد عامين فقط من مجيئه إلى الدنيا ، وترعرع فى طفولته فى كنف جدته حتى صار شاباً يافعاً.. وفى عام ١٦٦٥ بدأ نيوتن بتطوير معادلات رياضية وكان آنذاك يدرس فى جامعة كمبردج الشهيرة ، وعقب حصوله على شهادته الجامعية عام ١٦٦٥ أغلقت الجامعة أبوابها كإجراء وقائى ضد وباء الطاعون الذى اجتاح أوروبا ، ولزم نيوتن البيت لمدة عامين تفرغ خلالها للتأمل والتفكير ، وتدوين أفكاره مثل راهب مخلص فى محراب العلم.. وكان منزل نيوتن له حديقة واسعة عامرة بأشجار الفاكهة يحب أن يتمشى فيها بين الحين والآخر سرعان ما تقطعها فكرة جديدة فيهرول إلى مكتبه ليسجلها ، كان قليل الجلوس ، كثير المشى حتى لتخاله واحداً من جماعة أرسطو المشائين وكان مقلداً فى الطعام ، وكثيراً ما نسى تناول وجباته الغذائية ، وكان ضئيلاً فى الاهتمام بصحته ومظهره ، ودائماً تراه فى هيئة مزرية ، حذاءه بالى الكعبين وجواربه بلا رباط ، ورأسه غير ممشط إلا فيما ندر وقد رويت القصص الكثيرة عن شرود ذهنه ، ويؤكد المقربون منه أنه كان يجلس بالساعات عقب استيقاظه من النوم ، ويظل فى فراشه دون أن يرتدى ثيابه ، وقد استغرقه التفكير العميق وكأنه يعيش فى كوكب آخر ، وكان أحياناً إذا جاء زائرون يختفى فى غرفة أخرى ، ويخط أفكاراً على عجل ، وينسى أصحابه تماماً.. وذات يوم من أيام عام ١٦٦٦ وبينما نيوتن معتكفاً فى حديقة بيته رأى ثمرة تفاح تسقط من شجرة ، وهو راбض تحتها فأمسك بالتفاحة ، واستغرق فى تفكير طويل وعميق ، لم يخطر على باله أن يלתهمها ويستريح من التفكير فى سر سقوطها للأرض.. سأل نفسه والحيرة تكاد تهزمه :

ما الذى يجذب الأجسام إلى أسفل؟

ومن خلال هذه الواقعة هداه تفكيره إلى قانون الجاذبية الذى غير الكثير من مفاهيم العلم التى كانت سائدة آنذاك.. وذات مرة سأل غريباً

نيوتن: كيف اكتشفت قانون الجاذبية؟!

فأجاب قائلاً: بإدمان التفكير فيه!

لقد ذاق الرجل الفذ طعم الشهرة والنجاح، وفى عام ١٦٦٧ أصبح عضواً فى هيئة التدريس بالكلية التى تخرج فيها، وألّفت حوله المعجبون لدرجة أن أستاذه فى الرياضيات إسحاق بارو وصفه بأنه "عبقري لا نظير له" وأوصى بتعيينه خلفاً له فى الجامعة، وفى عام ١٦٨٩ تمكن من أن يكون عضواً فى البرلمان لكنه لم يتكلم قط طوال الجلسات سوى مرة واحدة فقط طلب فيها إغلاق الشباك لأن قاعة الجلسات كانت باردة جداً وهو يريد دافئة..

الغريب والطريف فى حياة هذا العبقري أنه برغم نجاحاته المدوية وشهرته التى بلغت الآفاق لم يتزوج، وبالطبع لم يكن له أطفال يحملون اسمه فى هذا العالم.. وظل هكذا يعيش وحيداً حتى رحل عن الدنيا فى ٣١ مارس عام ١٧٢٧ وهو يبلغ من العمر ٨٤ عاماً ودفن فى إحدى مقابر العاصمة البريطانية لندن إثر إصابته بمرض غامض.

لا يدري ناجى شرف الدين لماذا تذكر قصة هذا العالم الإنجليزى التى قرأها منذ فترة بعيدة؟!

ولا يدري لماذا مر كل شريط حياة وممات نيوتن أمام عينيه وهو فى عز محنته يعانى أثر الارتطام بين الدهماء فى قطار الدرجة الثالثة المتجه من المحلة الكبرى إلى القاهرة..

بعد دقائق معدودات هدأت روعته، وتلاشت رجفته، وتناثرت صدمته على رصيف الذكريات المؤلمة، وعاد ليتذكر حلمه الذى رآه منذ قليل.. سره أن يزوره مصطفى أمين عملاق الصحافة الحديثة فى القرن العشرين ومؤسس دار "أخبار اليوم" مع توأمة على أمين فى صيف عام ١٩٤٤ استبشر خيراً برؤياه، وتفاءل هذه المرة، وأدرك أن نحسه سوف يفارقه للأبد، والحظ سوف يبتسم له، وقد يقهقه فى وجهه.. كان القطار يكاد يلفظ

أنفاسه على الرصيف فى محطته الأخيرة ، وهو يترنح بما يحمله فى حشاه ،
كما تترجرج الحامل فى أربعة توائم خلال شهرها التاسع.. تراقص قلبه
بين أضلعه من شدة فرحته ، وهو بين السماء والأرض فى المصعد بمبنى
جريدة " الأحداث " حيث الموعد المأمول ، والأمل المرتقب والحلم الذى
يواعده ولم يبلغه بعد.. كان مكتب جلال عمار رئيس التحرير المزمّن
الذى قبع فوق كرسيه حوالى ٢٥ عامًا يعج بحركة دؤوبة.. ضيوف
كالنمل من كثرتهم.. محررون يدخلون ، وآخرون يخرجون ، وفى أيديهم
أوراق لموضوعات صحفية ، وصور فوتوغرافية ، وبروفات لصفحات من
الجريدة قبل الطبع ، ومخرجون صحفيون يتناقشون فى ملاحظات رئيس
التحرير بشأن توضيب الصفحات.. وأحاديث تدور هنا وهناك ، جلس ناجى
شرف الدين أمام السكرتيرة البيضاء الهيفاء الحسناء ذات الشعر الأسود
الطويل ، والعيون العسلية اللامعة ، وسأل نفسه خلصة :

لماذا كلما ذهب إلى مكتب أحد كبار المسؤولين الكبار وجده يقتنى
سكرتيرة حسناء؟! فهل الحكومة تختارها له بعناية حتى تساعد على
العمل بمزاج عالٍ وعطاء منقطع النظير؟! هل الحكومة تفعل ذلك لكى
توفر لأكابر القوم السلطة والمال وبجوارهما الجمال الأنتوى الفتان؟!

بدا ناجى مبهوراً ، فخوراً بأنه هنا فى هذا المكان المعطر برائحة الخبر
والذى عاش فيه من قبل عظماء وأساطين ونجوم الصحافة وفرسان القلم
وجنرالات الكلمات فى سنوات مضت.. تأمل لوحاتهم الزيتية بدهشة..
كان الدم ينبض فى وجوههم كأنهم أحياء يرزقون يبتسمون له ، ويهمسون
إليه وحده دون غيره.. أفاق من شروده وتأمله واستغراقه فى تفحص الوجوه
الشهيرة على صوت ملائكى شفاف رقيق مثل تغريدة كروان.. سألته
السكرتيرة برقة عما يريد من رئيس التحرير ، فحكى لها القصة باختصار
خجل ، وأعطاهم الكارت الذى يظن أنه سيجعل قارب مستقبله يسير على
الإسفلت بسرعة الصاروخ ، التقطته منه بثغر باسم ، وشفاه مكتزة لم تخلق

إلا للقبيلات لا للثرثرات فى توافه الأمور ، وهو يمنى النفس بالأحلام الأقدار
من رؤية هذه الأنثى الجميلة مرات عديدة فى الأيام القادمة ، بدا واثقاً من
أنه سيكون واحداً من محررى الأحداث المحظوظين الذين يكتبون تاريخ
مصر ، وحياتها اليومية لحظة بلحظة وكلمة بكلمة!

تأمل مؤخرتها المحبوبة فى بنطلون جينز أزرق وساقها الملفوفتين
وضيق البنطلون يحدد معالم الطريق إلى كهف متعتها ، وبلوزة أشبه
بقميص رجالى مفتوح الصدر قليلاً ، فيطل جزء مثير من نهر ثدييها ،
وحلمتها تبرزان بجرأة من تحت البلوزة التركواز كأنهما فى حالة تمرد
على ثيابها!

همس لنفسه: سبحان المبدع الخلاق..

عاد من جديد يتأمل وجوه كبار الصحفيين على الحائط بدقة كان
بعضهم باسمًا ، والبعض الآخر متجهماً ، لا يدري سر الابتسام لدى هؤلاء
ولا يفهم سبب التجهم عند أولئك كاد يسألهم عن سر خلودهم وتفوقهم
وتفردهم.. ومن أين استمدوا جينات عبقريتهم؟!

بعد لحظات لمح السكرتيرة تخرج من مكتب جلال عمار رئيس التحرير
وابتسامتها الساحرة التى لا تقارق شفيتها قد اختفت وانتحرت فوق ثغرها ،
وحل محلها بالقوة الجبرية الحزم والجدية.. بدت عابسة غاضبة.. كاد قلبه
ينخلع من القلق.. بحلق فى صفحة وجهها محاولاً سبر أغوارها ، وقراءة
طالعها ، وفك شفرة تجهمها المفاجئ سألها.. تلعثت قليلاً فى الكلام
ثم قالت:

— الأستاذ يقول لك اترك لنا بياناتك وعندما نحتاج محررين سوف نتصل
بك بإذن الله.

نزلت كلماتها القليلة المقتضبة عليه ناراً ودماراً ، وكان يتمناها برداً
وسلاماً.. انقبضت أساريره ، وانصرف حزناً صامتاً بعد أن سجل بياناته
أمامها بيد مرتعشة ، ودمعة حائرة تكاد تفر من عينيه أمامها لكنه تماسك

ومضى لحال سبيله مكلوماً دون أن ينطق سوى بكلمة وحيدة قالها لها :
شكراً.

وأثناء خروجه من مبنى مؤسسة " الأحداث " قال لنفسه :

حسبى الله ونعم الوكيل.. لماذا غلقوا كل الأبواب فى وجهى؟ ولماذا
فتحوا كل المتاريس أمام أبناء الأكابر من زملائى بمجرد تخرجهم من
الجامعة وأحياناً قبل أن يتخرجوا؟!

لماذا يتحدثون ليل نهار عن العدالة الاجتماعية والمساواة، وتكافؤ
الفرص والشفافية وهم أبعد ما يكونوا عن هذه الشعارات الجوفاء الرنانة
الفارغة؟!

لماذا الفقراء وأبناء الفقراء دائماً ضحايا هذا المجتمع مهما فعلوا ومهما
حصلوا على شهادات عليا ألم يقل الله.. فطوبى للفقراء؟!
من يدري ماذا تخبئ لى الأيام؟!

الحمد لله على كل الأحوال.. قدر الله وما شاء فعل.

" السماء لا تفتح أبوابها إلا لمن يجيد فن الإلحاح عليها
لاستجداء عطاياها! "

عاد إلى أمه التي تعلق عليه كل آمالها.. حزيناََ مهموماََ لا يغادر الدار كأنه في حالة حداد ، دعت له أمه بالفرج ، وتوسلت للسموات أن تستجب للدعوات وما هي إلا أيام معدودات ، وحدثت الانفراجة الكبرى ، وكان آذان السماء كانت مصغية ، وأبوابها كانت مفتوحة ، فسمعت الدعاء ، واستقبلت الرجاء.. بدأت وفود المرشحين للبرلمان تتهافت على قريته ، والقرى المجاورة وأفئدة المناصرين لهم تأوى إلى سكان تلك القرى طلباً للمؤازرة والتأييد وبحثاً عن الأصوات الانتخابية.. وفى مثل هذه المناسبات دائماً ما يعرض النواب المتنافسون على الكراسى البرلمانية تقديم خدماتهم المجانية للناخبين كمعربون محبة عساهم يفوزون بالأصوات التى تجعلهم يحصلون على الحصانة ويمثلون الناس تحت القبة!

عاود ناجى شرف الدين المحاولة من جديد ، وبرغم إحساسه بالمرارة والإحباط لم يكن اليأس قد تمكن منه بعد ، فما زالت الأمانى ممكنة ، والأحلام قيد التحقيق على أرض الواقع.. حكى مسألتة المستعصية لأحد المرشحين الذى ضحك بثقة قائلاً :

– يا ناجى.. مشكلتك لها عندى ألف حل فلا تقلق يا بنى.. هناك فى القاهرة ابن عمى عباس مبروك رئيس القسم العلمى فى مؤسسة " الأيام " للصحافة ، وبإذن الله سوف أوصيه عليك لكى يساعدك على أن تتضمن لأسرة تحرير المؤسسة الصحفية الأعرق والأقدم ، والأعظم فى الشرق الأوسط كله..
لم يكن ناجى قانطاً من رحمة الله ، ولم ييأس ولم يكن متفائلاً كثيراً هذه المرة مثل المرات السابقة ، ولا مانع لديه من أن ينال شرف المغامرة ،

ولو نجحت فيكون قد حقق أعظم أمنية في حياته، ولو أخفق فلا بأس، ولا جديد تحت الشمس فقد اعتاد على الإخفاق، والانكسار.. فلا ضير.. تلك مشيئة السماء طالما أنه ليس من أبناء الأكابر المسنودين، أهل الحظوة ذوى النفوذ، ولا يملك الكارت الذى يجعل القارب الخشبى يسبح فوق الإسفلت!

فى صباح اليوم التالى، وقبل أن تطلع الشمس على الدنيا بوجهها المشرق الذهبى بدأ غزوة جديدة من غزواته المتكررة إلى القاهرة المعز.. تلك المدينة المتوحشة.. الكافرة بالغرباء.. الكارهة لوجودهم والتى لا تقبلهم بين ضلوعها حتى لو طلبوا حق اللجوء الإنسانى، تلفظهم بإصرار، وتطردهم بإنكار مثلما يأبى الجسد غرس المسامير بين أوصاله حتى ولو كانت لإصلاحه وعلاج أوجاعه..

هذه المرة كانت جريدة " الأيام " قبلته ومبتغاه.. فى طريقه لأهم صحيفة ناطقة بلغة الضاد كانت أحلام الشهرة تراوده، وكوابيس الإخفاقات فى المحاولات السابقة تطارده.. صار ممزقاً بين النقيضين، خائفاً من الفشل وهو جسده.. يحدوه الأمل.. دعا ربه فى سره وهو ساجد يصلى ذات مرة أن يجبر بخاطره هذه المرة، لأنه أصبح مسخرة، وموضع سخرية أبناء قريته من الجهلاء، وأشباه المتعلمين لدرجة أن بعضهم وصف شهادته العليا بالمزورة، واتهمه آخرون بأنه عاش فى القاهرة أربع سنوات لتحصيل العلم فى أكبر جامعاتها، وعاد منكس الرأس بلا شهادة من الأصل!

أمام هذه الظنون الخبيثة، والشكوك الظالمة، والاتهامات المسمومة ماذا يفعل؟!

هل يطوف فى دروب ومسالك البلد كلها مثل المسحراتى فى ليالى رمضان يطرق الأبواب ليبلغ القاصى والدانى وفى يده شهادته العليا فى الإعلام بأنه فعلاً من حملة البكالوريوس لكى يتوقف الحمقى منهم عن تصويب اتهاماتهم الأكثر غباء وحماقة إلى ضميره العلمى؟!

كان ناجى شرف الدين من كثرة محاولاته، وتكرار غزواته وفشلها جمعاء، واهتمامه بمظهره المبالغ فيه كل مرة يشد فيها الرحال إلى القاهرة قد أصيب بغصة فى الحلق، وفكر هذه المرة أن يكون مختلفاً عسى أن يتركه شيطان النحس ويفارقه، فلم يقصر شعره، تركه طويلاً متناثراً منسدلاً على جبهته وأذنيه ومؤخرة رأسه، ولم يحلق لحيته ولم تمس المكواة ملابسه، فور وصوله محطة مصر، وهبوطه من قطار الدرجة الثالثة اللعين بدا كالمتشرد الذى خرج تَوّاً من مشاجرة غير متكافئة.. فى هذه الأثناء كانت الحرب على الإرهاب فى أنحاء مصر لم تضع أوزارها بعد.. تفجيرات هنا.. وإراقة دماء هناك.. والضحايا دائماً من السائحين الأجانب، وأحياناً من الساسة المصريين ورجال الحكومة.. وكان جهاز أمن الدولة بكل عناصره، وإمكانياته وآلياته فى حالة طوارئ واستنفار، ووسائل الإعلام لاتكف عن ترديد نغمة واحدة وتعزف ذات السيمفونية كأنها ببغاوات حمقى.. الصحف القومية والحزبية والخاصة التى يسمونها مستقلة، والإذاعات والقنوات الفضائية والأرضية تطنطن ليل نهار:

مصر مستهدفة.. هناك مؤامرة ضدها!

من كثرة تردده على شارع الصحافة ذلك الشارع الذى اغتال حلمه بالعمل فى بلاط صاحبة الجلالة صار يحفظ ملامحه، ويعرف عدد الحفر والمطبات والنتوءات فى رصيفه وما أكثرها.. بعد أن هبط من القطار مشى عدة أمتار على قدميه حتى دلف إلى مطعم فول رخيص بجوار مسجد الفتح العتيق الذى يتصدر ناصية الميدان من ناحية الفجالة، والتهم طبق فول بالزيت الحار، والتوابل الحريفة، ثم خرج وقد شعر أن فى معدته حجر صوان.. سار ببطء وعلى أقرب مقهى استرخى كالمخدر يحتسى الشاي ساخناً، وبرغم قسماته الهادئة، ووسامته الطاغية، وقوامه الممشوق، وشعره الناعم المسترسل على جبهته إلا أن هيئته توحى لمن يراه بأنه أحد المشاغبين المتمردين على كل شئ..

دخل مؤسسة " الأيام " للصحافة يقدم ساقاً ويؤخر الأخرى ، قلبه ينتفض بين أضلعه.. لا يدري ماذا يشعر بالتحديد!؟

إمتزج خوفه بوجله.. واختلطت مشاعر الإجلال للمكان معنى ومبنى بأحاسيس قد تصيبه لو جاءت النتائج بما لا يشتهى ، لا يريد تذوق مرارة الإخفاق من جديد ، وما أقساها مرارة ، وما أصعبها مذاقاً كالعقم.. كان يرتدى البنطلون الجينز الباهت اللون الكالغ الصبغة ، والقميص الواسع الفضفاض المشجر ، وفى يده حقيبة صغيرة أشبه بدوسيه البلاستيك الرخيص ليس فيها سوى أوراقه الرسمية.. شهادة تخرجه من كلية الإعلام قسم الصحافة والنشر ، وشهادة الخدمة العسكرية والتي قضى فى سبيلها ١٣ شهراً بالتمام والكمال فى سلاح المشاة ، وفيش وتشبيه ، وشهادة ميلاد و٦ صور شخصية ٤ × ٦ .. كل هذه المستندات لا تفارقه عسى الحظ يحالفه ، والتوفيق لا يخالفه فتطلبها منه مؤسسة صحفية ما فيكون جاهزاً على الفور.. دخل مؤسسة الأيام بحذر مشوب بالأمل.. وبينما هو يتلمس طريقة سمع مجموعة من رجال أمن المؤسسة يتحدثون فى أجهزة اللاسلكى ، ويهرولون بملابسهم الرسمية فى اتجاهات مختلفة ، وهم على أهبة الاستعداد وكأن حادثاً مروعاً سيقع خلال دقائق معدودات!

إنتابت ناجى شرف الدين حالة من الدهشة ، وانتحى جانباً يراقب ما يحدث بعد أن صرخ فيه رجال الأمن الأشداء بنبرة حادة نحاسية أن يبتعد عن المكان.. تراجع خطوات للوراء ليرى المشهد كاملاً.. هاله ما رأى.. مجموعة من السيارات الجيب السوداء من طراز هامر التي يفضلها الرئيس الأمريكى ورجال الحرس الرئاسى.. السيارات مسبوقة ومتبوعة بمجموعة دراجات بخارية ، فى البداية ظن ناجى بسذاجته المعهودة ، وبراءة الريفى الطيب أن أحد الوزراء جاء لزيارة مؤسسة الأيام ، ولو قالوا له إن الرئيس هو الذى يزور المؤسسة الصحفية الكبيرة لصدق دون أدنى شك لكنه سرعان ما اكتشف الحقيقة.. لا هو أحد الوزراء ولا هو فخامة الرئيس

فقد رأى بعينه عبد العليم طابع رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير وهو ينزل من سيارته التى تشبه دبابة فاخرة كملك متوج بصولجانه ومن حوله حاشيته وحرسه، ورجاله.. سار الرجل على مهل بثقة واقتدار.. تحسس رباط عنقه، وصوب نظراته الحادة يميناً ويساراً بكبرياء، وعلى وجهه إرتسمت ملامح الملل والتأفف من الجميع، وكأنه جاء من كوكب آخر لإصلاح ما أفسده هؤلاء الشرذمة من البشر فى الصحافة والسياسة، والثقافة، وكلمات الإطراء والحفاوة والنفاق والرياء الممجوج تنزل عليه برداً وسلاماً، وهو لا يرد سوى بإيماءات قليلة متعالية من رأسه.. أفسحوا له الطريق واصطف الجميع على جانبيه فى خشوع وخضوع، والمصعد ينتظره على أهبة الاستعداد حتى وصل آمناً مطمئناً إلى مكتبه الفخم الفاخر، وجلس على كرسيه المريح فى الطابق الرابع بالمبنى العتيق.

بعد ذلك عادت الأمور إلى طبيعتها، وهدأت الحركة.. لأول مرة يراه ناجى وجهاً لوجه، فكثيراً ما رأى صورته بطلعته البهية، وصلعته الإستوائية تتصدر الصفحة الأولى بجوار مقاله الإفتتاحى واضعاً يده تحت ذقنه، والقلم فى يده ليبدو لقرائه، وهو يفكر ويتأمل ويعانى الأمرين فى كتابة ملحمة الصحفية التى لا تزيد عن خطبة عصماء فى تمجيد الرئيس الواحد الأوحى بطل الحرب والقائد المنتصر المضطر فى السلم، وزعيم الأمة المغوار الذى لا يشق له غبار، وواضع أسس السلام، وصاحب القرار الذى أنقذ هذا الجيل وكل الأجيال القادمة من الموت فى الحرب الخاسرة ضد عدونا اللدود المتربص بالوطن على الحدود المتاخمة من ناحية الشرق.

لا يكل ولا يمل الكاتب الكبير من المديح والتزلف الرخيص للرئيس، وقد حصد أيضاً عبد العليم طابع مع صديقيه عنتر رجب رئيس مجلس إدارة وتحرير "المصرية" وجلال عمار رئيس تحرير وإدارة مؤسسة "الأحداث لقب "رئيس التحرير المزمّن" والطريف أن الرجل الذى أطلق على الثالوث الأشهر فى تاريخ الصحافة المصرية هو الدكتور فوزى السيد نقيب الأطباء

وعضو مجلس الشعب المزمّن أيضاً.. وقد أثار هذا اللقب ثائرة جلال عمار فكتب مقالاً نارياً استفزازياً تحت عنوان.. "النقيب المزمّن".. شن فيه هجوماً ضارياً واتهمه فيه بأنه شريك لوزير الصحة فى مشروعات مشبوهة وظلت المعركة دائمة فى الصحف، وتحت قبة البرلمان حتى انتهت المعركة بالإطاحة بوزير الصحة، وظل نقيب الأطباء يطلق صواريخه، ويصوب قذائفه من تحت القبة، ويطالب بضرورة إقرار قانون يحد من بقاء رؤساء تحرير الصحف القومية مدى الحياة فوق كراسيهم، حتى ولو بلغوا من الكبر عتياً، وماتوا إكلينيكيًا على عروشهم فى المؤسسات الصحفية داخل بلاط صاحبة الجلالة!

نهشه القلق والتوتر وهو يسأل موظف الاستقبال فى مؤسسة الأيام عن رئيس التحرير..

قال الموظف:

إنه موجود وقد دخل المؤسسة منذ دقائق وأظنك رأيته.. ماذا تريد بالضبط؟

— أريد مقابلته..

— هل لديك موعداً معه؟

— لا.. للأسف.

— هل معك له كارت توصية من أحد معارفه أو أصدقائه أو زملائه؟

— لا.. والله.

— هل هناك مكالمة هاتفية جاءت به بشأنك؟

صمت ناجى برهة يفكر ما الذى يقوله ثم تكلم قائلاً: لا.. لا

— كله.. لا.. لا.. وما الذى جاء بك إلى هنا إذًا؟

رفع الملف البلاستيكي الذى يضم أوراقه أمام وجه موظف الاستقبال وقال له بضيق: هذا هو الذى أتى به إلى هنا.

– وماذا تحمل فى هذا الملف؟!

ضرب ناجى بيده على الملف قائلاً:

– فيه أوراقى الرسمية.. مسوغات تعييني.

تعجب الموظف وقال لناجى بعد أن تفرس ملامحه وتأمل مظهره بريبة
وشك: أرجوك.. انتظر لحظة.

ثم دخل إلى غرفة صغيرة مجاورة، وأجرى مكالمة هاتفية سريعة ثم عاد
إلى مكانة قبالة ناجى مرة أخرى، وبعد عدة لحظات جاء رجلان يافعان
يرتديان ملابسهما الرسمية، واصطحبا الفتى إلى الداخل ليجد مفاجأة مذهلة
فى انتظاره لم تكن لتخطر أبداً على باله أو ترد فى خياله!

" إن الله خلقك بدونك .. ولن يساعدك بدونك ! "

فوجئ ناجى شرف الدين بصدمة جديدة ، وتأكد أن تميمة النحس مازالت تلازمه وتسير فى ركابه ، حيث عرف وهو داخل القطار فى طريقه إلى القاهرة أن عباس مبروك قد مات ، كلمات النعى والثناء ومقالات الوداع والتأبين تملأ مساحات كبيرة من صفحات جريدة الأيام .. زملاء الرجل ورفاق رحلته فى بلاط صاحبة الجلالة دبجوا فى مديحه الكثير ، وتحدثوا عن صفاته الحميدة ، وذكرياته اللطيفة معهم بحرارة إيماناً منهم بمبدأ " اذكروا محاسن موتاكم " .. وهنا أيقن الفتى أن الكارت الذى فى جيبه والذى كان يعتبره صك الغفران ، ومفتاح دخوله إلى جنة صاحبة الجلالة أصبح بلا قيمة ، أخرجته من مكانه حيث ينام فى جيب سرواله الخلفى تأمله بحسرة ومرارة وقال فى نفسه :

اللجنة على الحظ .. قاتله الله .. لا أدري لماذا يعاندنى ؟! وإلى متى سيعطل يحاربنى ، ويقف حجر عشرة فى طريقى ؟! تباً للفقراء والضعفاء والبؤساء فى هذا البلد التعس الذى لا يحترم سوى الأقوياء الأغنياء حتى ولو كانوا أغنياء وأصحاب نفوذ ! ماذا يفعل الفقراء المستضعفون فى الأرض ؟! لمن يلجأون إذا ضاع الحق ، وتلاشى العدل فى هذا العالم ؟! ولماذا أصبحت صاحبة الجلالة عصية عليه ، والمؤسسات الصحفية القومية الكبرى تحديداً ؟! لم يكن هناك مثل هذا الطوفان من المطبوعات الموجودة الآن ، والذى يملأ الأرصفة مع كل بزوغ شمس يوم جديد .. لم يكن هناك فى ذاك الوقت سوى صحيفة أو صحيفتين للمعارضة ذراً للرماد فى العيون بجانب الصحف القومية ، ويرى ناجى أنهما بلا مستقبل .. ولكن ظل السؤال الصعب يحيره .. لماذا تمتنع عليه صاحبة الجلالة ؟! لماذا لم تهبه نفسها من أول محاولة ؟! لا يدري ما السر ! كان يشعر أنها مثل زوجة ناشز تتمنع على زوجها وتأبى أن تشاركه

فراشه برغم أنه حلالها شرعاً ومؤهل لمواقعتها وتلقيحها من ليلة الدخلة!
وقعت المفاجأة صادمة على رأسه كالصاعقة ، فقد وجد نفسه بين
ليلة وضحاها ضحية تهمة خطيرة للغاية يمكن أن تزج به فى غياهب
السجن بقية سنوات عمره، وجد ضابطان من جهاز أمن الدولة فى الطابق
الأرضى من مبنى مؤسسة الأيام يستجوبانه بطريقة مريبة، ويوجهان له
تهمة التخطيط لتنفيذ عمل إرهابى خطير، واغتيال قيادة صحفية كبيرة،
وشخصية مرموقة وتحديدًا استهداف عبد العليم طابع رئيس مجلس إدارة
ورئيس تحرير "الأيام" والرجل يحظى بحماية خاصة وحراسة سرية ليل نهار
باعتباره الأقرب إلى الرئيس ومستشاره الصحفى، وكاتب خطبه، ومدبج
كلماته فى المؤتمرات والاجتماعات واللقاءات الجماهيرية المختلفة، وهو
الأقرب إلى قلب الرجل الكبير وأذنه دون كل أقرانه من رؤساء التحرير
وكبار الصحفيين!

ظل ناجى شرف الدين على مدى ما يقرب من ساعتين فى خندق المدافع
عن نفسه لا يكل ولا يمل من نفى تهمة هو منها براء براءة الذئب من دم ابن
يعقوب.. لم يستسلم قط ولم ييأس.. ألقى أمامهما بأوراقه الرسمية وشهادة
تخرجه الجامعية، وأطلعهما على الكارت اللعين الذى يثبت أنه جاء
بتوصيه من أحد المرشحين لمجلس الشعب، وكان هدفه مقابلة عباس
مبروك رئيس القسم العلمى بجريدة الأيام، لكن يد القدر كانت سبابة،
وصعدت روح الرجل إلى بارئها قبل أن يحظى ناجى بلقائه وإعطائه كارت
التوصية!

قدم لهما أدلة براءته، وأخيرًا قالوا له بلهجة حادة أمرة ساخرة:
إذهب إلى حال سبيلك.. وعليك أن تحلق لحيتك، وتهذب مظهرك الرث
هذا حتى لا تضع نفسك موضع الشبهات، وأفضل لك أن ترجع إلى بلدتك
فى أقرب وقت.. ومن المؤكد أن تذكرك العودة بالقطار مازالت معك.. هيا
هيا عد إلى أمك يا عبقرى!

استفزته كلماتهما القاسية ، ولهجتها الخشنة ، وأقسم فى قرارة نفسه بغباء غريب ألا يغادر هذه المدينة القاهرة الكافرة بالغرباء التى تطحن أحلامهم بلا رحمة ولا هوادة حتى ولومات من الجوع ، فهذا أفضل وأكرم له ألف مرة من أن يعود لقريته خائب الرجاء ، محطم الآمال مجهض الأحلام ! ماذا يفعل إزاء كل هذا ؟! سار على غير هدى لا يدرى إلى أى سبيل يرمى.. وقبل أن يغادر شارع الجلاء أو شارع الصحافة كما يسمونه ، توقف أمام جريدة " الأيام " قليلاً يتأمل مبناها العتيق العريق ، وكأنه أمام محراب مقدس ، لم يكن يدرى أن الحظ الذى لعنه منذ لحظات ، وسبه كثيراً فى يقظته وفى أحلامه سوف يبتسم له أيضاً بعد لحظات.. فقد لمح سيارة مرسيدس رمادية اللون تحوم حول المبنى بحثاً عن مكان إنتظار ، وفجأة رأى وجهها ، عرفها برغم النظارة السوداء العريضة التى تتخفى وراءها ، لم يصدق أنه يراها الآن ، وأنها شاخصة على بعد خطوات منه بلحمها ودمها.. نادته.. كررت النداء بصوت أنشوى عذب صافى مثل ماء زمزم.. تسمر فى مكانه كتمثال من فولاذ أملس صلد..

هتفت من قلبها :

— يا ناجى.. يا ناجى.. أنا إيناس مندور.. أنسييتى.. أم أن النظارة السوداء غيرت ملامحى ؟!

تبسم بخجل ومد يده بتردد ليصافحها ، وقلبه يكاد يقفز من بين أضلعه.. أخيراً ألقى بها القدر مجدداً فى طريقه لحكمة فى تديره وضميره ! سألته بمكر عن سر زيارته لمؤسسة الأيام ، فقال كاذباً متلعثماً :

— أبداً.. مجرد زيارة صديق قديم كان معى فى الكلية.

أدركت كذبه بسهولة ولم تشأ أن تخدش ستره أو تكشف إخفاقه منذ البداية ، لكنها أصرت على أن تصطحبه إلى كافيتريا المؤسسة على اعتبار أنه ضيفها.. وهى صحفية تعمل فى هذا المكان.. رفض بشدة دخول المبنى الذى شعر فيه بالإهانة منذ قليل ، فأشارت له أن يجلس بجوارها فى

السيارة، وقد أحست بحاستها السادسة أن فى نفسه ما يؤلمه، بعد قليل من التردد جلس بجوارها فانطلقت بسيارتها إلى كازينو قريب وعلى النيل.. وهناك بدا المكان أكثر هدوءاً ويبعث على البوح وحديث الذكريات.. استرجعا من ذاكرة الماضى أحلى ما فيه.. استعدادا أيام الجامعة، والرفاق والمحاضرات، والمغامرات وعبث القلوب الخضراء.. تذكر كل شئ.. تحدث بحب وشوق عن رفاق دراسته الذين زاملوه أيضاً فى الجيش، وخففوا عنه وطأة تلك الفترة العصيبة من حياته، وتحدثت هى باستفاضة عن زملائهما الذين التحقوا بالعمل فى الإذاعة والتلفزيون، وفى وزارة الخارجية، وفى الصحف القومية الكبرى.. بدت إيناس مبتهجة ثرثرة تفضفض بلا حساب، وتطلق صيحات مرح فيها خلاعة ومجون بينما هو قليل الكلام يرسم ابتسامه مستعارة على وجهه عساها تخفى نبرة الحزن والكآبة التى تغلف صوته حتى أعترف لها أخيراً بأنه مازال عاطلاً عن العمل ولا يعرف له طريقاً ينقذه من شبح البطالة الرهيب.. قالت له:

— وماذا تفعل لمن تحل مشكلتك، وتضمن لك مكاناً مناسباً فى صحيفة جديدة وواعدة.. صحيفة مستقلة ولها جمهورها رغم أنها لم تكمل عامها الأول فى دنيا الصحافة.

تساءل مستكراً: صحيفة مستقلة.

— نعم يا ناجى.. ستكون خطوة تتقلك بعد ذلك إلى "الأيام" أو "الأحداث" أو "المصرية".. وهى المؤسسات القومية التى تطمح للعمل بها.. ضع قدمك فقط على أول الطريق، والأحلام تتحقق على التوالى.

هز رأسه قائلاً: لا بأس.. أكون ممتناً لك يا إيناس على كل الأحوال.. شئ أفضل من لا شئ.

تبسمت فأشرق وجهها، ومدت يدها الصغيرة وأخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها.. وقالت له قبل أن تطلب الرقم:

— رئيس التحرير صديقى، ولن يرفض لى طلباً خاصة وأنهم فى حاجة

إلى محررين خريجي إعلام، ومن حين إلى آخر أتعاون معه وأكتب عنده بعض الموضوعات التي تناسب سياسته التحريرية.

وما إسم هذه الجريدة، ومن يكون رئيس تحريرها؟
جريدة "مصر اليوم" ورئيس تحريرها عمر الشهابي.. حالاً أكلمه من أجلك..

ومست بأناملها الرقيقة وجه الهاتف وأرقامه، وبدأت تتكلم وتحكى عن زميل دراستها الموهوب، كثير الكفاءة قليل الحظ الذى لم يجد فرصته المناسبة حتى الآن.

ولم يسمع ناجى بالطبع ما يدور من حديث على الطرف الآخر من الحظ، لكنه فهم من ردودها أن هناك موعداً جرى تحديده ليقابل رئيس التحرير فى مقر الجريدة بوسط البلد غداً فى الساعة مساءً.. أحس أن الدنيا بدأت تضحك له.. مد يده وأمسك يدها، وأطل فى عينيها دون أن ينطق بكلمة.. سحبت يدها كأن النار قد مستها وامتنع وجهها دون أن تعلق بكلمة!

" المرأة لها قلب واحد وعقلان.. الرجل له قلبان وعقل واحد! "

تستطيع الأنثى أن تغفر للقدر كل شئ إذا كانت جميلة، أما لو كان حظها من الجمال ضئيلاً، ونصيبها من القبح وفيراً فتلك كارثة كبرى تنغص عليها أيامها، وتحول ربيع عمرها الوردى إلى خريف غضب.. هذا هو عكس حال إيناس مندور، فتضاريسها وهضابها ووديانها هي سر عذابها، وهى مثل كل أنثى تدرك مواطن جمالها وقوتها، ونقاط قبحها وضعفها، وهى تعلم أنها تملك من أسلحة الإغراء الكثير وتحكم على ما يكفيها ويزيد من ذخيرة الغواية التى تجعلها قادرة على اقتناص الرجل المناسب لو أرادت أو معاشرة الأنثى التى تبغى.. وبرغم أن أحوالها المادية ميسورة للغاية نظراً لأن والدها قضى ما يزيد عن عشرة سنوات فى الخليج إلا أنها لم تكن تشعر بالسعادة، فلم يراودها عن نفسها فى يوم من الأيام منذ بلغت مبلغ الإناث أى شاب، صحيح أنها كانت تلمح نظراتهم المتوحشة، ورغبتهم فى افتراسها تطل فى عيونهم إلا أن الصحيح أيضاً أن الفتى الريفى الرقيق الحال هو الذى لفت انتباهها لكن مشاعرها كانت تتجه نحو ناجى شرف الدين.. لا تدري لماذا ولم تفهم سبباً لذلك؟!

هو فتاها وفارس أحلامها، وصاحب التأشيرة الرسمية لاقتحام قلبها والولوج إلى قلعة أنوثتها الحصينة التى لم يقترب منها أى رجل حتى الآن، برغم أن هذه القلعة فتحت أبوابها على مصراعيها لبنات جنسها.

فى كثير من الأحيان كانت تصيبها نوبة إكتئاب غير مفهومة الأسباب لدرجة أنها كانت تغلق عليها غرفتها لمدة يومين أو ثلاثة وتتقطع للبكاء. أما عن حظها فى التعليم فقد كان عظيماً حيث تخرجت فى مدارس اللغات والتحقت بكلية الأعلام قسم الصحافة، وهى تجيد الفرنسية

والإنجليزية بطلاقة قراءة وكتابة ونطقًا ، كما تتقن العربية تمامًا ، وكذلك كان حظها فى العمل ، فلم يكن تعيينها محررة صحفية فى مؤسسة الأيام صدفة ، بل لعبت الوساطة الدور الأكبر بجانب مؤهلاتها وثقافتها الأوروبية ، وقد كانت تتمنى أن يكون حظها وفيرًا فى عالم الرجال لا الإناث.. لكن الأقدار لا تعطى للإنسان كل شئ فى وقت واحد!

ومنذ ما يقرب من ست سنوات ، وتحديدًا عندما تعرفت على ناجى شرف الدين لأول مرة ، ومنذ أول لقاء لهما فى السنة الأولى بالكلية أحست أنه بوسامته ، وقسماته الحلوة ، ورجولته ، ونبرة صوته الشجى الرخيم هو الأقرب إلى سويداء قلبها دون كل الغزاة الواهمين المفترضين ، كان جمالها أسرًا ، لكن خشونتها تضعها فى كثير من الأحيان فى خانة الرجال ولشراستها لم يجزؤ أحد من الجنس الخشن أن يغالزها أو يلقي بوردة فى طريقها أو يقذفها بكلمة إطراء!

وذات يوم بدت أكثر جرأة وغلظة وتمردًا على كل شئ ، تلبستها حالة من النزق والتهور لدرجة التحرش بناجى.. قالت له بصراحة أقرب إلى الوقاحة: _ لماذا لا تتحرك.. أنا أريدك.. ألا تفهم؟!

لزم الصمت وكان يعرف أنها أكثر من شخص فى شخص واحد سريعة القلب من النقيض إلى النقيض لدرجة تثير حيرته.. أعادت عليه السؤال الذى تجاهله فى المرة الأولى فرد عليها:

_ كيف لإنسان مثلى أن يفكر فى مثلك ، وأنت أعلم الناس بظروفى.. فلا وظيفة أتكسب منها ، ولا مسكن يأوينى.. بصراحة أنا لا أملك من حطام الدنيا شيئًا يا إيناس.. أين أنا.. وأين أنت؟! هل الأرض والسماء يلتقيان؟! بالطبع لا.

_ لا بأس يا ناجى.. فكل ما تحتاج إليه ستجده عندى.

_ تلك هى المشكلة.. أنا ريفى وفلاح ابن فلاح ، ولا أقبل أن أكون عالة على أنثى.

إمتقع وجهها ، وبدت غاضبة فتركت يده المقبوض عليها فى راحة يدها
بضراوة ، كما لو كانت هى الرجل.. وفى السيارة ظلت صامته للحظات
فقال لها مخففاً عنها وقع كلماته الصادمة:

— يا إيناس لا تغضبى منى فلا يعقل أن أدفن رأسى فى الرمال مثل النعام
وأترك جسدى للعراء عرضة للمخاطر ، والمهالك على طريقة هذا
المخلوق الجبان الأحمق.

فاجأته بجرأة قائلة بهمس:

— اقترب منى يا ناجى.. قبلنى.. إحضنى ولو مرة واحدة فى حياتك.. ألا
تشعر بما أنا فيه أيها المغفل؟!

— لكن.. لكن.. يا إيناس الناس..

قاطعت تلغثمه وتردده وخوفه بنبرة حاسمة مغلفة بالتهديد قائلة:

— هيا.. هيا.. قبلنى أو أنزل من سيارتى.

— أمرك يا ست هانم..

قالها باستسلام وخضوع العبد المطيع لسيدته الأميرة الأميرة الناهية ثم
إقترب منها على استحياء ، وضربات قلبه المضطرب تتزايد مثل دقات طبول
الحرب فى زمن الأوس والخزرج ، وبهدوء طبع قبله باردة منزوعة الإحساس
على خدها الأيمن واحتضنها ، فأحس بانتفاضة جسدها الساخن بين ذراعيه
كالمحمومة ثم ابتعد عنها ببطء فتشبث به قليلاً ، وأغمضت عينيها وبعد
ذلك أفاقت من نشوتها على تملصه منها برفق ، وصوت صرخات آلات
التبیه لعشرات السيارات يصك الأذان فى إشارة المرور ، ومئات العيون
كانت تتلصص عليهما فى عرض الطريق ، أحس هو بالخرج كما لو كان
قد إرتكب فعلاً فاضحاً على مرأى ومسمع من كل الدنيا ، وأحست هى
بالضيق والغضب منه وحده ، وليس من العيون المتلصصة المتطفلة!

" إذا أردت أن تعرف قيمة مسقط رأسك إرحل عنه بعيداً! "

فى الشقة الصغيرة الحقيمة التى شاء القدر أن يأوى إليها ناجى شرف الدين مع أربعة آخرين، لكل واحد منهم حدوده لا تقل إثارة، ودراماتيكية عن حدوده ناجى.. فى إحدى الليالى المقمرة ظل مسهداً متوتراً.. حاول أن يقتل وقته ويئد سهاده بالقراءة التى وقع فى غرامها منذ سنوات طويلة، كان هناك بائع صحف ومجلات، وبقايا كتب قديمة تستقر على رصيف محطة مترو الأنفاق.. فى طريق عودته للشقة التى كانوا يطلقون عليها " شقة الحرية " انتقى رواية أعجبه عنوانها " متحف البراءة " وهى الرواية الأولى التى أصدرها الروائى التركى الأشهر أورهان باموق بعد فوزه مباشرة بجائزة نوبل للأدب، وهذا الأديب التركى رسخ نجوميته الأدبية بنشره عدة روايات منها " الثلج "، " القلعة البيضاء "، " اسمى هو الأحمر " ويتمتع باموق بموهبة أصيلة ومتوهجة فى الحكى أصقلها بالقراءة الجادة والمنهجية وعمقها بالمعرفة التاريخية والحضارية منذ كان صبيّاً صغيراً، فهو ينتمى لأسرة موسرة وفرت له إمكانيات التعليم المتميز وفتحت أمامه أفاقاً رحبة للثقافة، وكان جده قد تمكن من جمع ثروة طائلة من عمله فى التجارة، غير أن والده وعمه بددا جانباً كبيراً من تلك الثروة عقب موت الجد ورحيله إلى العالم الآخر، لكن ما تبقى للأسرة من بقايا الثروة وفتاتها يسر لأورهان باموق وأفراد عائلته أسباب الحياة الكريمة المستورة! وقد أفاض أورهان فى كشف تفاصيل موحية من حياته، وتشابكها الوثيق المتداخل بتاريخ مدينة اسطنبول العريقة والتى هى مسقط رأسه حيث ولد فيها عام ١٩٥٢، ويطيب له ألا يغادرها ليعيش فى ربوع

مدينة أخرى، ويبدو هذا على نحو رائع وجلى فى كتابه " اسطنبول.. ذكريات مدينة ".

أما فى روايته التى تعد تحفة أدبية " متحف البراءة " والتى عكف ناجى شرف الدين على قراءتها، وأحبها من أول سطر.. فيبدو أورهان باموق مهموماً من خلال شخصيات الرواية بالتأرجح بين الأصالة والهوية التركية، وبين الحداثة والتغريب أى محاولة وطنه تركيا تقليد الغرب، والانتساب لحضارته والانطواء تحت لواء الإتحاد الأوروبى منذ شق الزعيم التركى الفذ كمال أتاتورك عصا الطاعة على الخلافة الإسلامية، ومزق عباءتها المزركشة برسوم عمرها يزيد على ١٤٠٠ سنة بعد هزيمة الإمبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى التى اندلعت شرارتها الآثمة فى عام ١٩١٤ ووضعت أوزارها عام ١٩١٨، وحينذاك أفصح أتاتورك عن رغبته العارمة فى تغيير الوجه الحضارى، والوجهة التاريخية لتركيا الوطن والتاريخ والجغرافيا.. الحجر والبشر.

وبرغم أن كمال أتاتورك كان حاسماً، وصارماً فى التوجه نحو الغرب، وقطع عرى علاقات تركيا التاريخية والحضارية بالشرق، إلا أن " كمال " بطل رواية " متحف البراءة " لم يحسم خياره، فقد كان مسئولاً عن إدارة ثروة عائلته، وعندما بلغ الثلاثين من عمره نشأت بينه وبين إحدى قريباته علاقة عاطفية ناعمة وساخنة والفتاة تدعى "موسون" وتتطلع لأن تصبح ممثلة شهيرة غير أن مشاعر كمال سرعان ما اعتراها الفتور عندما وقع فى هوى فتاة تركية تلقت تعليمها فى باريس فقد كان أبوها قنصلاً لبلاده فى فرنسا، وحاول كمال إقناعها بقطع علاقتها مع مخرج سينمائى حتى يمكنه الاقتران بها مدى الحياة!

برغم أن الرواية لا تمنح نفسها لقارئها من أول مرة إلا أنها خطفت انتباه وتركيز ناجى شرف الدين بشكل كبير.. الرواية تجرى أحداثها على خلفية سنوات العنف السياسى الدموى الذى شهدته تركيا خلال السبعينيات

والثمانينيات من القرن العشرين، وهو عنف كانت تؤجج نيرانه الصراعات الجامعة بين قوى اليمين واليسار.. وفى غصون التآرجح العاطفى لكمال، راقت له فكرة إقامة متحف للبراءة يجمع فيه أشياء وتذكارات فتاته الأولى "موسون".. ومن هنا يأتى اسم الرواية، لكن الطريف أن فكرة كمال بهرت أيضاً الروائى باموق، ولذلك إنخرط فى تأسيس متحفه الخاص بالبراءة، ومن المنتظر أن يفتتحه قريباً بالحي القديم فى أسطنبول.

ويبدى الروائى أورهان باموق سعادة غامرة بمتحفه المدهش.. ويقول:

إن الروائى الروسى العظيم تولسوى أنشأ مدرسة، وأصدر كاتب آخر مجلة، وروائى ثالث راودته الأحلام السينمائية، وإهتم أديب رابع بقضايا وطنية وأسس حزباً سياسياً.. وبالنسبة لى فهذا المتحف هو مدرستى ومجلتى وأفلامى وأحلامى السياسية.. متحف البراءة جزء منى!

إن باموق بدأ رحلته الأدبية فى السبعينيات من القرن العشرين، وكان قد درس الصحافة بالجامعة، كما أمضى نحو عامين فى الدراسة بجامعة كولومبيا بأمريكا أواخر الثمانينيات.. وصار باموق مثيراً للجدل فى وطنه تركيا لدرجة أن كبار المسئولين الأتراك عرضوا عليه أن يكون "فنان الدولة" غير أنه إعتذر عن قبول هذا اللقب، وهو مثل غيره كأى كاتب أصيل وموهوب يهوى أن يغرد فى فضاءات الحرية، وألا يحد من حريته وانطلاقه وسام أو لقب!

تجاوزت عقارب الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وتسلفت غفوة النوم على جفون ناجى شرف الدين، وبسط سلطانه عليه، ولم يعد يسمع فى سكون الليل وعتمته سوى الهسيس الناعم الذى يسرى فى أوصال الهدوء بلا ضجيج مثلما يسرى الدم فى الشريان لا يراه أحد، ولا يشعر به حتى صاحبه.. أغلق ناجى الرواية الممتعة وأغلق معها جفونه المرهقة من طول التحديق فى الحروف والكلمات، واضجع بكامل جسده، وطوى الوسادة التى كانت خلف ظهره، وأصبحت تحت رأسه،

ونام بعد أن أزاح الرواية قليلاً بجواره لتشاركه فراشه حتى الصباح..
فى تلك اللحظة الحاسمة بدأ الضجيج يدب فى المكان.. هاهم زملاؤه
شركاء السكن قد عادوا من سهرة جهنمية لا يعلم ما حدث فيها إلا
الله سبحانه وتعالى!

" ليس مهما أن تزور روما .. المهم أن تقابل البابا ! "

فى الموعد المحدد كان ناجى شرف الدين قريباً من المبنى المقصود تدثر قليلاً بغطاء رأس أسود ، وانكمش فى ملابسه الصيفية البيضاء فى يوم ممطر معتم .. ودليل فقر الفتى لبسه الأبيض فى الشتاء .. كما قال الشاعر العربى القديم .. لوقع قطرات المطر خدر ساحر على جسده ورأسه .. الشمس تختفى وراء تباشير الضباب والسحب القاتمة تبدو رهينة الموجة الباردة التى هبت على القاهرة فى ديسمبر ، وكأنها تتحدى ثقب الأوزون والاحتباس الحرارى !

فى بناية مشيدة من أربعة طوابق فى وسط البلد وعلى الطراز الفرنسى .. هناك إلتقاه فى مكتبه الوثير المريح الذى تفوح من جوانبه روائح عطور فرنسية معتقة تشى بأن امرأة ما كانت هنا فى هذا المكان منذ لحظات أو أنها ما زالت موجودة .. لا يدرى لماذا ألحت عليه هذه الفكرة الشيطانية .. المكان معتق بعطر امرأة .. آثارها تبدو جلية .. بقايا سيجارة حريمى ما تزال تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وكأس فيها بقايا شراب راقدة على المنضدة ، وكأس عمر الشهابى رئيس تحرير جريدة " مصر اليوم " فى يده ، بدا الرجل خمسينى العمر أصلع قليلاً ، مجعد الشعر على جانبى الرأس ، له بشرة سمراء مثل الآباء فى جنوب مصر ، ويتميز برنة صوت هادئة رصينة واثقة كأنه مذيع فى صوت العرب !

صافحه الرجل بحفاوة ، وقابله بترحاب وبشاشة كما لو كان يعرفه منذ سنوات طويلة خلت ، أشار إليه الرجل بالجلوس أمامه .. استرخى ناجى شاكرًا وبعيون ذئب ما كثر تفحص مسرح المقابلة الذى يبدو مثل وكر لاصطياد الفريسات أكثر منه مكتباً تدار منه صحيفة فيها عشرات

المحررين و المحررات.. ظنون السوء دارت فى رأس ناجى، وطاردته الشكوك لما لاحظته فى المكتب من ٣ أبواب منها باب سرى يتخفى فى صورة مكتبة، فوجئ وهو جالس والرجل يتكلم بدخول فتاة ثلاثينية العمر ترتدى جيب قصير أسود اللون وبلوزة زرقاء مفتوحة الصدر.. الفتاة فارعة رشيقة مكتملة الأنوثة خميرية اللون شعرها ذهبى اللون من أثر الصبغة، تحمل شفاه أنجيلينا جولى، وقوام كاترين زيتا جونز وصدر مارلين مونرو، وسيقان ناعومى كامبل، صدمها وجوده فى المكان بصفته غريب فى مملكتها ووكر متعتها ونزوات رئيس التحرير.. تملكها ارتباك مفاجئ، وبسرعة بديهة، وذكاء مفرط وبخبرة العمر، وحنكة السنين إستطاع عمر الشهابى أن يتدارك الأمر ويتفهم مشاعرها فقدمها لناجى قائلاً:

— ميرفت العطيفى مديرة مكتبى.

ثم قدم ناجى لها قائلاً:

— ناجى شرف الدين محرر صحفى جديد سينضم لأسرة جريدتنا

تبادلا التحيات بحذر وفتور وابتسامة مصطنعة..

بدا الرجل ودوداً عطوفاً أليفاً مثل قط سياى إلتهم وجبة دسمة، ويرغب فى النوم لعدة ساعات.. وبعد عدة تساؤلات عن ناجى ودراسته وحياته واقامته وأحواله فى القاهرة كلفه عمر الشهابى بأن يتولى مهمة "محرر الجمهور" هكذا أطلق عليه، وعندما بدت الدهشة أقرب إلى الاستفهام على وجه الفتى..

قال عمر الشهابى رئيس التحرير:

— هذا المسمى استحدثته بنفسى فى أعقاب العاصفة التى أثّرت مؤخراً بعد اكتشاف فضيحة إختلاق أحد المحررين السابقين للعديد من القصص الكاذبة!

وعلى فكرة وظيفة "محرر الجمهور" هو أنه يتعامل فقط مع شكاوى

القراء وينقلها إلى رئيس التحرير جاهزة للنشر، وأنا اخترتك تحديداً لأننى أتوسم فيك المواصفات المطلوبة لهذا العمل الصحفى، وهذه هى فرصة عمرك لتثبت ذاتك وتتطلق إلى مجالات أخرى فى العمل الصحفى.

تساءل ناجى بخجل:

— وما تلك المواصفات؟!

اعتدل عمر الشهابى فوق كرسيه واحتسى ما تبقى فى كأسه ثم قال:

— اسمع يا ناجى أنا أثق فى اختيار إيناس مندور وهى التى رشحتك لى وحدتتى عنك بشكل رائع، وتنبأت لك بمستقبل باهر فى بلاط صاحبة الجلالة.. على كل الأحوال دعنا نرى.. وعموماً المواصفات المطلوبة لوظيفة "محرر الجمهور" هو أن يكون شخصاً ذكياً وفضولياً، ومتفتح العقل ومستقل التفكير، ويقوم بنقل التقارير إلى إدارة الصحيفة لكى تعمل على اتخاذ القرار المناسب، ولمعلوماتك هذه الوظيفة يتولاها فى كبريات الصحف الأمريكية أكثر المحررين حنكة وخبرة، لكننى اخترتك رغم حداثة عهدك بالصحافة لكى أمنحك فرصة العمر.

تمتم ناجى بكلمات شكر هامسة، وهو يفرك يديه قلقاً وتوتراً حيث كانت عيون ميرفت العطيفى تراقبه كأفعى متمرة، والسيجارة مشتعلة بين أصابعها، وهى أيضاً مشتعلة كسيجارتها ماركة "ميريت".

قال عمر الشهابى بثقة واعتزاز:

— لو نجحت فى هذه المهمة سوف أضعك فى وظيفة جديدة جداً على الصحافة المصرية كلها.. سوف أجعلك تدخل التاريخ لأننى أنوى تطوير الهيكل الصحفى للجريدة مع إضافة وظيفة "المراقب الصحفى"

تساءل ناجى:

— وما وظيفة "المراقب الصحفى" هذا؟!

تكلم عمر الشهابى وكأنه يلقى محاضرة على طلاب قسم الصحافة فى كلية الإعلام ولم يقطع استرساله وثرثرته عن فكرته الأفلاطونية سوى رنين الهاتف المزعج.. قال:

المراقب الصحفى هو محامى القراء وضابط للمحررين.. وبرغم أن عدد المراقبين الصحفيين فى الولايات المتحدة الأمريكية يفوق عددهم فى أى دولة أخرى فى العالم حتى ألمانيا واليابان، إلا أن الفضل يعود إلى السويد لأنها فى سنة ١٨٠٩ فتحت أول مكتب فى الصحف لمراقبة الحكومة، واستلام شكاوى المواطنين والتحقيق فيها، بينما يعود الفضل إلى اليابان لأنها فى عام ١٩٢٢ شهدت ميلاد أول مكتب مراقبة صحفية، وكان ذلك فى جريدة "أساهى شمبيون" التى أنشأت لجنة لإستلام شكاوى القراء.. ولم ينتقل "المراقب الصحفى" إلى الولايات المتحدة الأمريكية إلا فى سنة ١٩٦٧ عندما عينوا أول مراقب صحفى فى جريدة "لوفيل تايمز" وتم تعيين أول مراقب حكومى فى السويد عام ١٨٠٩.. وتبقى صحيفة "الشرق الأوسط" هى الصحيفة العربية الأولى التى عينت مراقباً صحفياً على مستوى العرب من المحيط إلى الخليج، والمراقب الصحفى ليس مسئولاً عن آراء القراء وتعليقاتهم أو ما يسمى.. "خطابات إلى رئيس التحرير" ولكنه مسئول عن شكاوى القراء فى الجريدة، ونزاهتها وحيادها، والعاملين فيها وعلى رأسهم رئيس التحرير، وبقية المسئولين ثم ينشر ردودهم فى نفس الجريدة.

توقف عمر الشهابى قليلاً يلتقط أنفاسه، ويتأمل رد الفعل على وجه ناجى الذى بادره بالسؤال:

– وكم عدد المراقبين الصحفيين فى الولايات المتحدة الأمريكية؟

هذا سؤال فى محله يا عزيزى.. وأؤكد لك أن أمريكا وحدها فيها ٤٠ مراقباً صحفياً، ويختلف أسلوب كل واحد عن الآخر.

تساءل ناجى: وما أوجه الاتفاق والاختلاف فيما بينهم؟

تبسم الرجل قائلاً:

— يتفقون على العديد من الأمور.. أقولها لك:

أولاً: رفع مستوى الجريدة بمراقبة الأخطاء والعمل على تلافيها.

ثانياً: إشراك القراء فى هذه العملية ضرورى للغاية لكسب ثقتهم، ولو نجحت يا ناجى فى القيام بدور " محرر جمهورى " ستكون أول شخص فى مصر يؤدى مهمة " المراقب الصحفى " وبذلك تدخل التاريخ!

— أتمنى أن أكون عند حسن ظنك يا أستاذ عمر، وأدعو الله أن أحوز ثقتك.

ثم ضغط الرجل على زر أمامه فدخلت سكرتيرته، وهى نحيلة سمراء ضامرة مثل عود القصب الممصوص.. قال لها بإشارة من يده:

— اصطحبى ناجى إلى صالة التحرير ليتعرف على نواب رئيس التحرير ويتسلم منهم المواد الصحفية الخاصة بالصفحة التى سيتولى تحريرها ابتداء من الغد بمشيئة الله.. شكره الفتى وانصرف وهو يرمق ميرفت العطيفى بنظرة لا تخلو من الريبة والتساؤل الصامت الغامض!

" يجلس على قمة العالم من لا يشتهى شيئاً ولا يخشى شيئاً "

بدأ ناجى شرف الدين عمله الصحفى الجديد كمحرر جمهور فى مكتب صغير حقير خصصوه له بجوار عطا الهلالى مدير التحرير ، وكان عطا الهلالى هو المشرف على تحرير صفحة بريد القراء أو مشاكل الجمهور ، وقد استدعاه الأستاذ عطا ، وبعد التعارف والترحيب أعطاه الأستاذ عشرات الخطابات المغلقة ، وبكلمات طيبة شجعه على العمل والإبداع قائلاً :

ـ يا نجم صاحبة الجلالة الواعد أؤكد لك أن الجمهور ينتظرك بشغف ، ويتربص منك العمل على حل مشاكله عبر قلمك.. هيا اكتب وأبدع وانشر ما تراه صالحاً من هذه الرسائل ، وما يستدعى السؤال والاستفسار فلا تتردد فى اللجوء لى ، ويمكن لك أن تعتبرنى أخاً أكبر لك ، أو صديقاً جديداً قديماً.. ولا تنسى أنى بدأت حياتى المهنية كمحرر لبريد القراء.

شكره ناجى على مشاعره الطيبة ، وهز رأسه بامتنان وإعجاب ، وحمل خطباته وخرج متوجهاً إلى مكتبه المجاور ، وهناك استوى فوق كرسيه الهزاز الجلدى الأسود ، وانهمك فى فض بكاره خطابات القراء وتصفحها ، كانت تلك الخطابات مثل عالم خفى مملوء بالأسرار والحكايات ، فيها الألم والأمل.. الأنين والحنين ، هى صوت المحكوم عليهم بالصمت ، وعبر هذه الرسائل يتنفسون ويطلقون صرخة المظلومين.. بعد أن استغرق فى القراءة ما يقرب من ساعتين أحس برجفة وثقل المهمة وأن المسئولية كبيرة قد لا يقدر على حملها ، لكنه عقد العزم والله المستعان!

فى لحظة إسترخاء رشف كوباً من الشاي بالنعناع الأخضر الذى يهواه ، وعاد للقراءة من جديد استوقفه خطاب فضه ، وقرأ ما فيه

"أنا إسمى عبد البارى عطوة صعيدى من محافظة أسيوط وتحديداً من بلدة القوصية.. حكايتى غريبة وحزينة ومؤلمة، فقد تزوجت منذ حوالى عشرة أعوام تقريباً، وشاء حظى العثر أن أسافر لدولة الكويت الشقيقة بحثاً عن الرزق مثل آلاف من الصعائدة الآخرين وحتى أتمكن من تدبير نفقات أسرتى، فأنا العائل الوحيد لأمى وخمسة أخوة قصر لا عائل لهم سوى بعد رحيل أبى عن الدنيا، وعندما تزوجت وأنجبت زادت أعبائى فسعيت للسفر إلى الخليج، وكانت لؤلؤة الخليج العربى كما يطلقون عليها هى قبلتى ووجهتى ويا ليتها ما كانت.. هناك طلب منى الكفيل الكويتى أن أشاركه فى محل تجارى، ووجدتها فرصة طيبة لكى أوسع رزقى، وأحصل على دخل مناسب ومستقر أدخر منه جزءاً للزمن، وأرسل لزوجتى وأمى ما يفيض عن حاجتى بعد ذلك، فوافقت ورحبت بعرض الكفيل الذى ألقى على عاتقى عبء كل شئ يتعلق بالإدارة والجهد والعمل لدرجة أننى لم أكن أحصل على الراحة أو النوم إلا ساعات قليلة جداً، وأحياناً كنت أواصل الليل بالنهار حتى أثبت كفاءتى وجدارتى بهذه الشراكة وينجح المشروع.. وبعد فترة تحقق النجاح المنشود، وقبل أن أجنى ثمرة كفاحى، وعنائى فوجئت بكفىلى يقدم إقرار دين للشرطة ضدى، وكنت قد وقعت على هذا الإقرار مقابل الشراكة معه، وبدلاً من أن يمنحنى الكفيل الكويتى حقى المشروع وثمر نجاحى وعرقى طمع فيه، وقرر إبعادى عن الشراكة ليحظى وحده بالأرباح دون اعطائى أى مقابل، وللأسف الشديد صدر ضدى حكماً بالحبس لمدة أربع سنوات فى قضية إقرار الدين، وكانت تهمتى النصب والاحتيال وخيانة الأمانة والذمة المالية، وضعونى فى سجن رهيب يشبه الحصن وفى الكويت يطلقون عليه معتقل "جوانتانامو الخليج" مرت علىّ حتى اليوم ثلاثة أعوام لم أر فيها النور، ولم أتمكن حتى من إبلاغ أهلى بما حدث لى إلا منذ شهر واحد فقط حيث استطعت بمعجزة الاتصال بهم فى أسيوط وإخبارهم بمحتنى، وكانت صدمة كبيرة لهم جميعاً حينما علموا بما حدث لى!

ويضيف عبد البارى فى رسالته المأساوية:

"أما هنا فى هذا السجن المرعب فنحن نتعرض لأبشع معاملة يمكن أن يتعرض لها إنسان، فهم يعاقبوننا لأننا مصريون، وكأنها تهمة وسبة يلعنوننا بها ليل نهار.

أرجو أن تصل صرختى إلى الرئيس المصرى ووزير الخارجية وإلى كل المسؤولين الشرفاء فى بلدى الغالى مصر.. أقول للجميع.. أنقذونا فأنا لست وحدى فى هذا الجحيم، بل مئات من المصريين الأبرياء يقبعون خلف أسوار معتقل جوانتانامو المرعب.. فهل تتحرك مصر لإنقاذ فلذة أكبادها؟"

فرغ ناجى من قراءة الرسالة، وقد تجهمت ملامحه، طوى الرسالة بعصبية وظل شاردًا صامتًا يفكر ماذا بوسعه أن يفعل إزاء هذه المصيبة التى تطل برأسها من فوق السطور.. ويكاد يسمع أنين وآهات صاحبها.. ماذا يفعل فى أول اختبار له.. اختبار صعب؟

نحى ناجى الرسالة جانباً، ومد يده ليسحب رسالة أخرى عساها تكون أقل وطأة وأكثر رحمة وإنسانية عن سابقتها.. مزق مطروفاً وبدأ يقرأ كلماتها.. كانت الرسالة بتوقيع فؤاد عبد العليم من مدينة بورسعيد يقول فيها:

"يا سيدى أغلقت مدينتى الحرة أبواب الرزق فى وجهى، وضاق بى السبل فوليت وجهى شطر دولة البحرين سعياً وراء حياة أفضل عابراً حدود بلدى تاركاً أهلى، وبالفعل سافرت بعقد عمل، عملت سائقاً لتاكسى بعد أن أجبرنى كفىلى لعنه الله فى كل كتاب على التوقيع على شيك على بياض لكى يمنحنى سيارة أعمل عليها، وبعد عام من الجهد المضنى والشقاء المؤلم لم أحصل ألا على القليل من المال.. فئات لا يكفى حاجتى وحاجة أسرتى فما كان منى سوى أن طلبت من كفىلى أن ينقل كفالتى إلى غيره.. هنا وقعت الواقعة، وكأننى ارتكبت أكبر الكبائر فهاج وماج، ورفض بشدة، ولم يكن أمامى سوى اللجوء إلى إدارة شؤون المغتربين، ولكنى

فوجئت بنتيجة عكسية تماماً فقد صدر قراراً بضبطى وإحضارى، وألقوا القبض على بلا ذنب اقترفته، ووجدت نفسى فى السجن غريباً بين أربعة جدران منذ أكثر من شهرين دون محاكمة ولا اتهام ولا تحقيق عادل، ولا أدرى متى يرفع الله عنى هذه الغمة، والأيام والليالى تمر بطيئة ثقيلة كئيبة، وأنا أموت ببطء، ورأيت وسمعت وعرفت هنا حكايات لمظالم أبرياء يندى لها جبين البشرية.. وتحيا الأمة العربية.. وأمجاد يا عرب أمجاد!

بمجرد أن انتهى ناجى من قراءة الرسالة الثانية، وكانت أكثر درامية من الرسالة الأولى.. عكف على قراءة الرسالة الثالثة، وكانت أكثر غرائبية وفضائحية:

يقول صاحبها ويدعى حامد اللبoudى من الجيزة:

"ماذا تفعل يا سيدى لو وجدت زوجتك عارية تماماً فى أحضان رجل غريب؟! هذا هو ما حدث معى حيث وجدت زوجتى كما ولدتها أمها تعاشر أكثر من رجل فى وقت واحد على شبكة الانترنت!

الصدفة وحدها جعلتنى أكتشف الفضيحة المخجلة.. لم أصدق عيونى فى البداية برغم أنها كانت هى زوجتى بكل تفاصيلها.. الوجه والجسد وكل شئ.. واجهتها أنكرت فى البداية.. ثم بكى واعترفت بأنها لجأت لممارسة الجنس الجماعى مع الغرباء بدافع الملل من الحياة الزوجية!

هل هناك زوج عاقل فى الدنيا يصدق هذا.. ولو كنت مكانى يا سيدى ماذا تفعل؟! هل تقتلها؟! هى تستحق الشنق، لكنى طلقته ولم أسترح..

إننى أحذر الأزواج والزوجات من دخول "بوابة الشيطان" التى اسمها غرفة الشات حتى لا تنزلق الأقدام إلى هاوية الفسق، والفجور وعظائم الأمور.. أمور تشيب لها الولدان.. علاقات محرمة.. كلمات معسولة خادعة كاذبة، والوعود البراقة بين عشاق الشات.. لقد اتضح أن حوالى ٨٠٪ من الشباب يدخل الشات لإقامة علاقات مشبوهة مع الجنس الآخر.. ونحو ٢٠٪ يدخلون إلى الشبكة العنكبوتية الانترنت من أجل العلم والمعرفة لا أكثر!

ولكن لم تتوقف المحاولات المشبوهة لتحويل شبكة النت من خدمة العلم والعلماء والباحثين.. إلى شبكة لتجارة الرقيق الأبيض، والترويج للعلاقات المشبوهة حتى أن ٦٠٪ من المواقع على شبكة النت تحولت من رسالتها السامية إلى رسالة سوقية حقيرة تروج صراحة للخلاعة والرديلة، والمجون والتخلي عن برقع الحياء، والدعارة المباشرة.. لدرجة أن عدد المواقع الإباحية على شبكة الإنترنت وصل إلى ٧ ملايين موقع.. وتلقى هذه المواقع رواجاً وانتشاراً في مصر والدول العربية على حد سواء لدرجة أن حجم انفاق هواة الشات بلغ ٥٠٠ مليون دولار كل سنة بمتوسط ٣٠ دولاراً شهرياً مقابل التعرف على شريك يمارس معه علاقة محرمة حتى لو كانت رديلة إلكترونية.. الغريب في الأمر يا سيدي أن دراسة عربية حديثة كشفت أن ٩٥٪ يدخلون على الإنترنت للتسلية وإقامة علاقات سريعة أو غير مشروعة والاستمتاع بعلاقات حرة متحررة وبلا مسؤوليات أما الـ ٥٪ الباقية فيدخلون للترفيه، وقتل وقت الفراغ.. وأشارت الدراسة إلى أن ٧٠٪ من البنات والنساء يدخلن للنت للبحث عن عريس و ٢٠٪ للتسلية، وإقامة صداقة مع الجنس الآخر و ١٠٪ لإضاعة الوقت، وسماع الكلمات المعسولة!

ولأنني أعمل باحثاً في مركز الدراسات والبحوث الجنائية والاجتماعية أحدثك يا سيدي بالأرقام والإحصائيات ولأنني رجل من أصول ريفية.. ولأنني فلاح ابن فلاح طلقها.. هزمت شيطاني ولم أقتلها وأقضى ما تبقى من عمري في السجن على العموم فهناك حالة طلاق كل ٦ دقائق.. كل ٦ دقائق يلقي رجل بيمين الطلاق على زوجته أو يرسل لها ورقة الطلاق عبر البريد الإلكتروني، أو يطلقها أمام مأذون شرعي!

لن تكون زوجتي آخر المطلقات.. من يتصور أنه مع كل طلعة نهار تدخل نحو ٢٤٠ امرأة في قائمة المطلقات، وأن حصيلتنا من طابور المطلقات في السنة الواحدة نحو ٩٠ ألف امرأة مطلقة يضمن كل سنة إلى حصيلة مصر الرسمية من المطلقات وهو ٦ ملايين مطلقة!

أفاق ناجى شرف الدين من دوامة الأرقام المزعجة، والمؤلمة بجيش المطلقات وظن أن كل نساء مصر، وكل رجالها فى طريقهم إلى أبغض الحلال عند الله، وسأل نفسه:

لماذا تخون المرأة؟!

لم يجد جواباً حاضراً.. لكن سالت من مقلتيه دمة ساخنة، فرت رغماً عنه، وبدا مشلولاً عاجزاً عن فعل أى شئ، فهو لا يملك سوى حبر قلمه، وإن كان يشك فى أن مداد حبر قلمه مهما كان دفاقاً جارياً يستطيع أن يحرر الأبرياء من سجنهم، ويفك قيود غربتهم ويضع حداً للانحرافات الزوجية، ويوقف قطار المطلقين والمطلقات!

أخذ ناجى شرف الدين الرسائل، ودلف إلى مكتب مدير التحرير عطا الهلالى يسأله المشورة.. تبسم مدير التحرير قائلاً:

— يمكن أن تنشر الرسالتان الأولى والثانية تحت عنوان.. " إلى وزير خارجية مصر!.. أما الرسالة الثالثة فيمكن أن تنشرها تحت عنوان.. " الشيطان فى بيتى! " لكن دعنى أحكى لك يا ناجى ما حدث معى أنا شخصياً فى الكويت.. عسى أن تعرف لماذا أهل الكويت يكرهوننا؟! ليس كلهم طبعاً.

اضجع عطا الهلالى فى كرسیه المريح، وقال بنبرة ساخنة هادئة:

— " منذ عدة سنوات ذهبت للعمل فى الكويت حيث تعاقدت معى إحدى المؤسسات الصحفية الكبرى هناك بأجر مغرى، وبالفعل سافرت، وكان أول ما فعلته أن قمت باستئجار شقة مفروشة من أجل الإقامة، وتسلمت المفتاح من الشركة المالكة للعقار، وسارت الأمور فى الأيام الأولى على ما يرام.. لاشئ ينغص على حياتى ولا يزعجنى، ولكن بعد أسابيع قليلة بدأ جرس التليفون فى الشقة لا يتوقف عن الرنين، وكانت كل الاتصالات تسأل عن شخص واحد اسمه رؤوف ذهنى، وعرفت من المتصلين أن رؤوف هذا كان الساكن السابق بنفس الشقة التى

أوقعتنى حظى السئ فيها كما عرفت أيضاً أن رحيله عن الشقة، وعن الكويت كلها كان أمراً مفاجئاً لهم جميعاً، والحقيقة أن الدهول كان هو رد الفعل للجميع بمجرد علمهم بأننى الساكن الجديد، ولست رؤوف ذهنى!

وجدت نفسى غاضباً مستاء من فكرة أن أكون أنا من يبلغهم الخبر الصادم المفاجئ، خاصة أن بعضهم كان يستحلفنى بالألا أبخل أو أضن عليهم بأى معلومة أعرفها عن مكانه.. حفلت المكالمات الهاتفية من المتصلين ومعظمهم من الكويتيين بقصص متضاربة عن المدعو رؤوف ذهنى هذا.. فبعضهم وصفه بالشهامة والمروءة والرجولة، ونبيل الأخلاق، والبعض الآخر تحدث عن خسته ونذالته وحقارته، وسفالة أخلاقه غير أنه جمع بين أصحاب المكالمات جميعاً أن رؤوف ذهنى خدعهم، وأخذ فلوسهم وطار إلى غير رجعة وبلا مقار!

رثيت لحالهم بعد أن قصوا على حكايات غريبة، وعجبية عن الأموال التى لهنها على سبيل الاقتراض أو المساهمة فى شراكة تجارية، والطريف أنه كان من بين ضحاياه بعض النساء، والفتيات بعضهم من الكويتيات، وغير الكويتيات مثل الهنديات والفلبينيات والسيرلانكيات اللاتى وعد كلاً منهن بالحب والزواج والغرام وانجاب البنين والبنات، والسعادة الدائمة والنعيم المقيم فى القفص الذهبى إلى يوم الدين، وعلى الفور قمن بمنحه المال والمصاغ وتحويشة العمر كلها ليؤسس شركته الخاصة، ويبنى عش الزوجية، ويشيد مؤسسة الأحلام ليستقر مع من اختارها قلبه على شاطئ الأمان على حد قولهن لكن المفاجأة المفجعة أن رؤوف ذهنى اختفى فى ظروف غامضة بعد أن اختطف الفلوس وأشياء أخرى!

بدا ناجى شرف الدين ذاهلاً مشدوهاً مستغرباً لحكاية مدير التحرير عطا الهلالى الذى أكمل الحدوتة قائلاً:

— لقد أكدت لكل هؤلاء المتصلين أنه رغم تعاطفى الإنسانى الشديد

معهم، إلا أنني لا أعلم شيئاً عن صديقهم الهارب، وبعد ذلك رجوتهم أن يترفقوا بى، ويكفوا عن إزعاجى بإتصالاتهم الليلية التى تفرغنى من أحلامى الوردية، وتحولها إلى كوابيس جهنمية، وسألتهم أن يبحثوا عن أخباره بعيداً عنى لكن هذا الرجاء لم يشفع لى عندهم، ولم تتوقف الاتصالات المزعجة فقامت بنزع القابس من الحائط، وقررت أن أستغنى عن خدمات التليفون طوال فترة وجودى فى الكويت أو غير الرقم، وأمرى إلى الله.. ظننت أنني بهذه الفكرة الذكية أستطيع النوم ملء جفونى بهدوء، وأنعم بالطمأنينة والسكينة بعد أن أصبح التليفون جثة هامدة بلا حرارة، ولا رنين لكن هيهات.. بدأ اليائسون من العثور على ضالّتهم ينفذون إلى شقتى، ويطرقون بابى للتأكد من أن الأمر برمته ليس حيلة جديدة مبتكرة من حيل رؤوف ذهنى، وقد ذكرنى أمرهم بضحايا توظيف الأموال الذين توافدوا على مقار الشركات فى مصر بعد أن قامت الحكومة بتضليلهم، وتولى أصحاب اللحن الطويلة سرقة فلوسهم بإسم الدين، وقد اضطرت لإستقبال عدد منهم، واستمعت إلى حكاياتهم.. كانت هناك الممرضة الرومانية التى بكت، وهى تروى لى كيف منحته عن طيب خاطر عشرة آلاف دولار هى كل ما إدخرته من العمل فى الكويت كمساعدة منها لإتمام زواجه بها!

وكان هناك التاجر الكويتى الذى سحب منه رؤوف ذهنى أجهزة كهربائية بعدة آلاف من الدولارات، وصاحب مكتب السياحة الذى أعطاه تذاكر سفر على الحساب ومدير البنك الوطنى الكويتى الذى أقرضه مبلغاً من المال بضمان صداقتهما الشخصية.. ناهيك عن ضحاياهم من المهن، والفئات الأخرى.. فهناك البقال والجزار والفاكهى والحلوانى.. الرجل فى الحقيقة بارع للغاية فلم يترك أحداً يعرفه لم يقترض منه، أو يسحب أمواله بالحيلة والمكر والدهاء!

كنت مذهولاً مدهوشاً من براعة رجل واحد ، وقدرته على خداع كل هؤلاء ومنهم المتعلم المثقف ، والتاجر المحنك ابن السوق ، والعربي والأجنبي لم يسلم من براثته أحد على الإطلاق!

وإن كان أحد الضحايا قد قدم لى تفسيراً لوقوع كل هؤلاء فى فخ هذا الرجل المحتال بدرجة امتياز.. قال لى بعد أن سمحت له بالدخول ، ودعوته إلى فنجان شاي :

_ لقد كان هذا الرجل المدعو رؤوف ذهنى شخصاً استثنائياً فى كل شئ ، ويندر أن تقابل مثله.. كان باسمًا بشوشًا دائماً ، حلو الحديث يأسرك من أول لقاء ، بل كان كالساحر يجعلك تخرج الفلوس من جيوبك ، وتتوسل إليه راضياً مرضياً أن يأخذها!

وأردف الرجل قائلاً لى ونحن نشرب الشاي فى صالون شقتى :

_ سأحكى لك حكايتى الشخصية مع رؤوف ذهنى.. كنت قد دفعت له خمسة آلاف دولار كجزء من ثمن سيارته التى عرضها للبيع ثم عرفت بعد ذلك أنه باعها لشخص آخر ، ظللت أطارده عدة أيام عبر الهاتف ، وهو يروغ منى ويزوغ مثل الثعلب الجبلى الماكر اللئيم حتى أطبقت عليه أخيراً بزيارة مفاجئة فى صباح يوم جمعة جميل مشمس ، وكنت فى هذا اليوم الطيب على أتم استعداد لإرتكاب جريمة أو قتله لأشفى غليلى ، وأحصل على فلوسى السلبية.. فتح الباب لى وعلى غير ما توقعت منه رأيت وجهه هاشاً باشاً متهللاً بمجرد رؤيتى ، وقال لى بكل ترحاب وود وألفة كأنه كان ينتظرنى :

_ أنت والله ابن حلال.. لقد كنت أجهز الإفطار لنفسى ، وقد أرسلتك العناية الإلهية لى فى الوقت المناسب حتى لا أفطر وحدى.. الوحدة قاتلة والغربة مؤلمة..

فقلت له بغضب شديد فى نبرة حادة وحازمة :

_ لا أريد إفطارك.. أنا هنا من أجل استرداد فلوسى فقط..

ضحك طويلاً ضحكة صافية ملائكية ، وهو يخرج الفلوس من جيبه ،
ويناولنى إياها بكل بساطة ، وبإبتسامة عريضة على وجهه مثل الساحر
البارع قائلاً :

_ لم أكن أعلم أنك بهذه القسوة ، وكنت أحسب أننا أصدقاء ، ولن
تفرقنا أبداً حفنة دولارات.. هل ظننتى لصاً أو نصاباً؟! لقد كنت
يا صديقى فى أزمة مالية ، والحمد لله فرجت من أوسع الأبواب.. لا
تغضب يا عزيزى وهيا نفطرم ثم نذهب إلى بيت الله نصلى الجمعة ،
ونكيد الشيطان اللعين..

وأضاف الرجل يواصل سرد الحكاية المثيرة قائلاً :

_ فى الواقع لقد أعد رؤوف ذهنى إفطاراً شهياً لذيذاً ، وتعامل معى بود
بالغ ، وحميمية مفرطة ، وسأل عن أفراد أسرتى فرداً فرداً بالأسماء ،
وأشهد أن جلستى معى ملأتنى بالسعادة و غمرتتى بالسرور ، وانشرح
الصدر لكرمى ، ودماثة خلقه ، وحديثه الودى المتسامح حتى أننى لعنت
نفسى التى جعلتلى أسئ الظن بصديق كريم مثله ، وبغضت شيطانى
الذى وسوس فى ضميرى ، وبعد ذلك ذهبنا للصلاة ، وفى الطريق إلى
المسجد إستأذنتى لدقائق فى الوقوف أمام إحدى ماكينات الصرف
الآلى ، وأدخل بطاقته فى الآله ، وفجأة تغير وجهه إلى الحزن والكآبة ،
والماكينة تخبره أن رصيده لا يسمح بسحب المبلغ المطلوب.. لاحظت
أنه يجاهد دموعه ثم سار بجوارى صامتاً منكس الرأس.. سألته من
باب حب الاستطلاع الغريزى :

_ ما بك يا رؤوف؟!

قال بصوت واهن مخنوق والحروف تتلعثم فى حلقه :

أبداً.. الحسابات اختلطت على ، وكنت أعتقد أن رصيدى يكفى لشراء
علاج أمى لهذا الشهر لكن لا بأس سأصرف!

لم أشعر بنفسى إلا وأنا أخرج الفلوس التى أخذتها منه منذ قليل ، ورجوته

وتوسلت إليه أن يأخذها مني.. رفض في إباء، وسار مبتعداً عني في كبرياء..
لحقت به، ووضعتها في جيبه رغماً عنه وهو يقاوم يدي!
سكت محدثي عن الكلام فقلت له: وماذا بعد؟!
قال: لا شيء.. الملعون جعلني أعيد إليه الفلوس التي لم أهنأ بها سوى
دقائق.. وبعدها بساعات كنت أنت الذي يرد على التليفون في شقته!

" فى كل بقعة من العالم توجد شعلة مضيئة هى المعلم..

ويوجد من يطفئها وهو رجل الدين!"

سرت حالة من الألفة والود بين عطا الهلالى ، وتلميذه فى الجريدة ناجى شرف الدين ، ودائما ما كان عطا الهلالى يعرض على ناجى أن يخرج معه فى أيام العطلات ، أوحتى فى الأيام العادية بعد انتهاء ساعات العمل.. جمع بينهما حب كبير وشعر كل منهما رغم فارق العمر أنه يعرف الآخر منذ سنوات بعيدة.. حالة روحانية وحدث بينهما.. فالأرواح جنود مجندة ما تآلف منها إتفق ، وما تتافر منها اختلف ، وكل شئ بأمر خالق الأرواح ، وصانع الأجساد ، ولأن حياتهما تكاد تكون متشابهة تماما إقتربا ، وصارت بينهما علاقة إنسانية ودية ترقى إلى درجة الصداقة الحقيقية ، أو الأخوة المخلصة إن لم تكن تزيد.. كان عطا الهلالى كريما لأقصى حد مع ناجى.. كان الرجل أكرم معه من الريح المرسلة فى موسم الشتاء فقد كان يتكفل بالإنفاق عليه لأسابيع طويلة!

تعلق ناجى به كثيرا واعتبره أستاذه ومعلمه فى الصحافة ، وشقيقه الأكبر الطيب فى الحياة.. لم يكن يفارقه سوى للنوم فقط ، وكثيرا ما سهر معا حتى منتصف الليل ، وذات يوم أصر عطا الهلالى أن يوصله بسيارته حيث يسكن ، وصعد معه للمكان الذى يأويه فوجد فى الشقة حوالى ٢٠ شابا من مختلف محافظات مصر المحروسة ، يمرحون ويلعبون " الكوتشينة " ويتسامرون بصوت عابث وضحكات عالية مجلجلة ، وكأن الدنيا نهار والفجر لم يقترب بعد!

سأله باستنكار:

يا ناجى.. من هؤلاء؟!

— هؤلاء أقارب، وأصدقاء، وزملاء من يقيمون معى هنا.. إنهم أصحاب أصحابى!

— وكيف تهنأ بنوم هادئ؟ وكيف تعيش فى ظل هذا الصخب والضجيج؟

أطلق آهة مكتومة ذات مغزى وقال:

— لقد اعتدت على ذلك.. وماذا عسأى أن أفعل وليس لى مأوى فى هذه المدينة العظيمة سوى هذه الشقة الحغيرة مع هؤلاء الأوباش.

— اسمع يا ناجى هذا المكان لا يليق بك على الإطلاق، فأنت صحفى موهوب وسيكون لك شأن كبير فى المستقبل، سوف تصبح كاتباً مرموقاً ذات يوم وأنا لا أرضى لك أن تبقى فى هذا الجوبرغم أننى بدأت حياتى فى غرفة ضيقة، وقحة فوق السطوح مع عدد من زملاء الكفاح ورفاق الطريق، لكن الآن الظروف تغيرت تماماً!

من الغد يا عزيزى تأتى لتعيش معى، فأنا أقيم وحدى فى شقة لا تقل عن ٣٠٠ متر.. أى أن مساحتها تساعدنا على أن ننظم فيها مسابقة لجرى الخيول.. إجمع أغراضك فى الصباح ولا تتأخر سوف أنتظرك.

تلعثم ناجى شرف الدين ثم قال بخجل وانكسار: لكن.. لكن..

— يا ناجى هذا أمر عليك أن تنفذه فوراً.. فى الجريدة أنا وأنت نتشاور ونتناقش ونتبادل الرأى حول أمور شتى فى الصحافة والحياة، لكن هذه المرة سوف أطبق عليك مبدأ.. ديمقراطية الحوار وديكتاتورية القرار.. باعتبارى رئيسك المباشر فى العمل أعطيك أمراً عليك السمع والطاعة والتنفيذ. تبسم ناجى قائلاً:

— لكن هذا كثير وكرمك أخجل تواضعى، وإن كنت أخشى أن أكون عبئاً عليك فى الجريدة، وأيضا مصدر إزعاجك فى البيت.

— يا ناجى.. لا عبء ولا يحزنون.. أنا وحيد، والوحدة رفقتى وحالك من

حالى فليؤنس كل منا الآخر.

هز الفتى رأسه بارتياح وبنبرة ود ورضا :

_ أمرك مطاع يا أستاذى، فأنا لا أستطيع أن أشق عليك عصا الطاعة مهما حدث.. من الغد بمشيئة الله ستجدينى عندك، وأرجو أن أكون ضيفاً خفيفاً.

_ لن تكون ضيفاً، بل ستكون صاحب بيت!

قالها وقد ارتسمت على وجه عطا الهلالى معالم البشاشة والسرور ثم ربت على كتف ناجى، وانصرف.. فى تلك الليلة لم ينم ناجى شرف الدين فقد ظل مسهداً ساهراً، عيونه شاخصة إلى سقف الغرفة، وجسده مسجى فى الفراش، يحدق فى المجهول، ولا يدرى كيف ستكون أيامه القادمة، وإلى أين تقوده عربة الزمن التى لا ترحم، خاصة وأن عطا الهلالى برغم أنه الأقرب إليه فى الوقت الحالى، وبرغم عشرات الساعات، والأيام التى قضياها سوياً فى أحضان صاحبة الجلالة إلا أنه لم يعرف عنه سوى القليل، لا يعرف عنه سوى معارضته لأى شئ وكل شئ وتمرده على التابوهات الدينية، والجنسية والسياسية، فهو صعب المراس عنيد صلب الإرادة لا يعبأ بأى شئ، كتاباته فيها جرأة وشراسة غير عادية، يظن نفسه هو المسئول عن إصلاح الكون وتغيير ما أفسده الناس فى كل المواقع، وعلى كل المستويات.. يبدو الهلالى غامضاً فى كل الأحوال، فهو لا يحكى أبداً عن حياته الخاصة بل دائم الحديث عن كتبه، ومشروعاته الصحفية والأدبية التى ينوى إصدارها، ودائم الحديث باستفاضة عن قراءاته المتعددة فى شتى أنواع المعرفة، ويتباهى باستمرار بأن كل ثمار المطابع سواء فى مصر أو العالم تسقط بين يديه مثلما سقطت التفاحة على إسحق نيوتن، وفجرت بركان عبقريته فكان قانون الجاذبية الذى غير وجه الدنيا والإنسانية، وجعلها تحلق فى فضاءات أرحب!

وكان من شدة حب عطا الهلالى للكتب أنه أصبح يعيش فى مكتبة

أقرب ما تكون إلى البيت، وفي كل أركان الشقة تتناثر الكتب كحبات المطر في ليلة شاتية ممطرة بغزارة، وتضم مكتبته ما يزيد عن ستة ملايين كتاب في مختلف فنون الثقافة، بعض هذه الكتب بلغتها الأم سواء كانت الفرنسية أو الإنجليزية، وكان نجمًا دائمًا، وضيئًا لا يشق له غبار في برامج "التوك شو" التليفزيونية ذائعة الصيت نظرًا لرجاحة عقله وصلابة رأيه، وثقافته الموسوعية، وبراعته في الحديث بالحجة والبرهان، وكانت كتبه ومؤلفاته تثير الجدل وتحرك المياة الراكدة في المجتمع لدرجة أن بعض كتبه تسببت في أزمات دولية، حيث أثار كتابه

"انهيار أمريكا.. ليلة سقوط الإمبراطورية العظمى" أزمة دبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية، ولجأت الإدارة الأمريكية إلى وضعه على قائمة ممنوعين من دخول أراضيها، وفي هذا الكتاب قام بتشريح أمريكا من الداخل، ووضع يده على مواطن ضعفها وذللها، وأكد بالأدلة على انهيار قيمها الأخلاقية، ومبادئها في العدالة والإنسانية والحرية وحقوق الإنسان.. عراها تمامًا من ورقة التوت، ونزع عن وجهها أقنعة الزيف، والتضليل، وأعلن صراحة أن وطن الأحلام سوف يسقط ويتراجع على يد المتشددین من الجماعات الإسلامية التي تتحاور مع الآخرين بلغة السلاح على أصوات البارود والانفجارات.. وبعد صدوره بأسابيع قليلة جاء الحادث المروع الذي أذل الإمبراطورية العظمى، ومرغ كرامتها وكبريائها في التراب يوم الحادى عشر من سبتمبر، بتدمير برجى مركز التجارة العالمى، ونال من البنتاجون ووزارة الخارجية الأمريكية، ودفع الرئيس الأمريكى إلى أن يفر كجرو مذعور ليختبئ في قاعدة عسكرية حتى تنتهى الطائرات المغمومة التى جاءت من السماء بلا موعد ولا عنوان.. كل هذا جعل الأمريكىين يعتبرون عطا الهلالى خطرًا على الأمن القومى الأمريكى نظرًا لتخصصه فى تاريخ الجماعات الدينية المتطرفة، وتاريخها الملطخ بالدم بجانب دراسته للتاريخ والحضارة كما كان له أنواع أكثر جرأة من المؤلفات منها كتاب

"عاهرات فى فراش الحكام العرب" وله كتاب آخر أصدره مؤخراً بعنوان "أميرات منحرفات" تعرض فيه لتمرّد أميرات الخليج العربى على تقاليد أسرهن الحاكمة، وهروب معظمهن مع شباب أجنب ومصريين بعد قصص حب ساخنة، ومثيرة.. وكانت إحدى الأميرات قد حملت سفاحاً من شاب مصرى، وهربت من بلدها، وجاءت لتتزوج وتعيش معه فى حى شعبي بالقاهرة فى شقة من غرفتين وصالة بعد أن كانت تسكن القصور الفخمة، وتنام على ريش النعام، وتتغذى بالحرير كما لو كانت تقيم فى حى من الجنة!

ذات مساء كان الجو هادئاً، والموسيقى الكلاسيكية التى يهواها عطا الهلالى تصدح فى أرجاء الشقة الواسعة، ومع الوقت أحس عطا بالملل من القراءة والكتابة حيث كان يعكف على إعداد كتاب جديد اختار له عنوان "نهاية إسرائيل" ولم يجد أمامه سوى أن يجلس على البار يحتسى مشروباً كحولياً من نوع فاخر معتق، ويتحدث مع ناجى شرف الدين، كانت بداخله رغبة ملحة فى أن يحكى بنفسه عن نفسه، وهى إحدى المرات النادرة التى يسعى فيها إلى الفضفضة..

سأله ناجى:

— لماذا اخترت الوحدة، وأنت كاتب شهير وفى منصب مرموق؟! قال عطا الهلالى بعد لحظة صمت ثقيلة أنهاها بجرعة من مشروبه المثلج:

— الوحدة قدرى، وليست إختيارى، وقد سبق لى خوض تجربة الزواج لكنها للأسف الشديد كانت تجربة مؤلمة للغاية، وكما يقول المثل الإنجليزى..

"إذا خانتك زوجتك، وذهبت لتضاجع رجلاً غيرك فاتركها له فهى عقوبة يستحقها!"

هذا هو ما حدث معى بكل صراحة.

بدا ناجى مستغرباً مدهوشاً مستكراً:

— خيانة.. زوجتك خانتك مع غيرك.. أعوذ بالله.. أعوذ بالله من غضب الله.

— يا صديقى لا تتدهش، فأنت مازلت صغير السن، وفى مطلع حياتك
والأيام حبلى بالأهوال، والعجائب والغرائب التى لا يستوعبها عقل ولا
يصدقها عاقل!

— ما الذى حدث بالتحديد؟!

استرخى عطا الهلالى فى مقعده قائلاً:

— أنا أوّمن بأنه لم يعرف المرأة بعد مَنْ عرف ألف امرأة وإمراة.. بمعنى
أن الرجل مهما كانت خبرته بجنس النساء فهو أمى جاهل لم ولن
يفهمهن أبداً!

واسترسل قائلاً:

— أحياناً يعتبرنى البعض مثل الصندوق الأسود للطائرة أبدو غامضاً لا
يعرف أحد ماذا أخبئ بداخلى، وأنا بطبعى أميل للكتمان، ولا أحب
الشهرة، ولا تهزمنى شهوة الكلام إلا فى لحظات نادرة.

وبرغم أننى محاط ببريق الأضواء سواء فى الصحافة أو عبر الشاشات
التليفزيونية إلا أن قلّة قليلة فقط تعرف أننى عشت قصة حب عظيمة مع
النجمة السينمائية اللامعة ريهام شاهين استمرت على مدى عام كامل
ثم توجناها بحفل زفاف أسطورى تحدثت عنه مصر كلها، وقضينا شهر
العسل على شواطئ أسبانيا الساحرة، وبعد ذلك استمرت حياتنا الزوجية
لمدة عامين على خير ما يرام، لم يعكر صفوى خلالهما سوى رفضها أن
تتجب أطفالاً خوفاً على نجوميتها، وابتعاد الأضواء عنها، وكذلك رغبة
منها فى الحفاظ على رشاقتها وجمالها الذى تعتبره رأس مالها و ضمان
استمرار أفلامها، ومسيرتها الفنية الناجحة.. وبرغم غضبى وحزنى إلا
أننى كظمت غيظى وقلت لنفسى.. كل امرأة فى حاجة إلى الأمومة، ولا

يوجد فى الدنيا ما يفتنيها عن إنجاب طفل.. وهذه الغريزة هى الأقوى على الإطلاق، وما على سوى الصبر، ومع مرور الزمن سوف تحن حتمًا نجمتى إلى طفل يروى عطشها لإحساس كل أنثى فى حاجة ملحة إليه، وتتألم بدون أن تصل إليه مهما كانت إنجازاتها الأخرى فى الحياة.

ترك هذا الأمر غصة فى حلقى، ومرارة فى وجدانى لكنى تحاملت على نفسى، وفى الوقت الذى كنت أحاول مجددًا أن أقنعها بأن تحمل منى، وتهبنى طفلًا من صلبى يحمل اسمى، فوجئت بها وكانت تصور فيلمها الجديد " عودة الغائب " فى الساحل الشمالى مع النجم الشاب عادل عز تتصل بى وتقول لى: لقد انتهى تصوير الفيلم اليوم.

قلت لها: عرفت بالأمر من المخرج أثناء تصويرك لآخر مشهد، وكنت أحاول الاتصال بك لكن هاتفك كان مغلقًا.. هيا عودى لقد اشتقت إليك كثيرًا

قالت: لكننى لن أستطيع العودة اليوم.

— عودى غدًا يا حبيبتى.

— لا.. لا سأبقى عشرة أيام مع زميلى الممثل الشاب عادل عز.

— وأين ستبقين؟

— فى الشاليه الخاص به هنا.. اشتراه حديثًا ويريد الإقامة فيه لبعض

الوقت، وسوف أبقى معه.. أرجوك يا عطا طلقنى لأننى مللت الحياة

معك، وأنا الآن أحب عادل عز، طلقنى وسوف نبقى أصدقاء!

هكذا بكل بساطة يا ناجى خانتنى وطلبت الطلاق وقالت نبقى أصدقاء..

هل هناك عاقل يتصور ذلك؟!

— وماذا فعلت؟

— أعطيتها ما أرادت طبعًا.. لقد قالت مللت حياتى معك وأحببت غيرك..

فماذا بوسعى أن أفعل بعد ذلك؟! إما أن أقتلها أو أطلقها، وأتركها

تكمل بقية فصول خيانتها وفى النهاية آثرت السلامة ، وطلقتها غير
أسف عليها كان جرحى غائراً عميقاً مؤلماً.. لم أبج به لمخلوق ،
وبقدر ما كان حبى لها عظيماً بقدر ما عدت قادراً على الاقتراب من
إمرأة أخرى من بنات حواء.. أصبحت فاقداً للثقة فى رجولتى ، عاجزاً
عن التواصل مع الجنس الآخر!

كنت قد أشرعت قاربى معها ليمضى بنا إلى بر الأمان لكنه غرق بين
الأمواج فى مرفأً مجهول!

فى اليوم التالى مباشرة سافر عطا الهلالى فى مهمة عمل صحفية إلى
اليونان بتكليف من الجريدة لحضور أعمال المؤتمر الأوروبى متوسطى ،
وتغطيته صحفياً ، وترك ناجى شرف الدين يغط فى نوم عميق حتى الظهيرة ،
تسللت الشمس الذهبية عبر النافذة ، ووجدتها ترقد فى فراشه ، وتداعب
جفونه.. كان اليوم هو الجمعة ، وفرصة لكى ينفذ عن جسده ونفسه
غبار الإرهاق ، والتوتر العصبى والذهنى من عمل شاق طوال الأسبوع..
وبينما هو بين النوم واليقظة شعر بحركة غريبة داخل الشقة الفسيحة ،
سمع وقع أقدام تتحرك ، وتدب على الأرض بخفة ورشاقة ، وصوت ارتطام
أطباق ببعضها يصطك بأذنيه قادمًا عبر الردهة المؤدية إلى المطبخ القريب
من غرفة نومه ، نهض ناجى متثاقلاً متثائباً ، وتسلى بملابس النوم الخفيفة
الشفافة التى أعطاها إياها عطا الهلالى.. فرك عينيه ، ولم يصدق ما يرى..
ألجمته المفاجأة تصور أنه مازال نائماً يحلم.. لم يخبره عطا فى أحاديثهما
الطويلة بأمرها.. كانت - هناك - امرأة يافعة بيضاء طويلة ممشوقة
القوام أربعينية العمر ، جسدها ملفوف بعناية مثل راقصة فى فرقة فنون
شعبية ، مؤخرتها مستديرة ومحبوكة فى ملابس نصف عارية ، ترتدى
جلباً شفافاً هفهاً بربع كم يكشف عن ذراع بض مثل المرمر الأبيض ،
والثوب مفتوح الصدر على اتساعه فيظهر النهدين والسرداب الفارق بينهما..
كان النهدان نافران فى حالة انتصاب لا إرادية ، وهى منهمكة فى غسيل

الأطباق بانسجام تام، وتغنى بشجن وتهز مؤخرتها فى رقصة أفريقية لذيذة ومثيرة.. أصابته حالة من الدهشة..

فمن تكون تلك المرأة؟! وكيف دخلت إلى هنا؟!

همس فيها بصوت رخيم نائم:

— من أنت يا حلوة..؟! ومن سمح لك أصلاً بالولوج إلى هنا؟!

كان يتفرس ملامحها وثيابها، ويحدق فى مكان من أنوثتها ويدقق فى هضابها وسهولها ووديانها بشهوة ذئب مفترس!

أخرسها صوته عن الغناء، وألزمها الصمت والسكون والتوقف عن الرقص الخليع تلفتت حيث الصوت، وشهقت وضربت صدرها بيدها وتجدعت خطوط وجهها وتمتمت قائلة برجفة:

— بسم الله الحفيظ.. يا خفى الألفاف نجنا مما نخاف..

— أنت إنس أم جن.. من تكون؟!

ضحك فجأة بهسترية كالمجنون وقال بنبرة ناعمة:

— أنا إنس والحمد لله.. واسمى ناجى شرف الدين زميل الأستاذ عطا فى الصحافة وشريكة فى البيت.

— زميلة فى الصحافة وشريكه فى البيت دون أن يخبرنى.. سبحان الله على طبع الأستاذ وتصرفاته.. وأين الأستاذ طالما أنك هنا وحدك؟!

— الأستاذ سافر اليوم خارج مصر.

قالت بحيرة وتلعثم:

— سافر.. سافر خارج مصر.. عموماً يرجع بألف سلامة.. وعلى كل الأحوال أنا معى مفتاح للشقة، وأتى إليها مرة أو مرتين كل أسبوع لترتيب شئون الأستاذ من غسيل وطبخ وتنظيف وهكذا.

— من أنت إذن يا ست هانم؟!

قالها بنبرة ساخرة، فردت عليه قائلة:

_ أنا الخادمة.. وكيف سافر الأستاذ دون أن يخبرك بأمرى؟!

_ لا أدري، لكنه لم يقل لي شيئاً بشأنك.

_ المهم ما إسمك يا ست هانم؟!

_ فوزية.. خادمتك فوزية..

_ الله يخرب عقلك يا فوزية.. أنت أكيد ملكة جمال متكرة فى صورة

خادمة.. تابعى عملك.. الله يساعدك يا سيدتى!

دلف ناجى شرف الدين إلى الحمام أفرغ مثانته التى أزعجته، وقضت مضجعه ثم خرج من الحمام بسرعة، وارتقى على فراشه مجدداً.. وبعد دقائق معدودات، دخلت عليه بجلباب أكثر احتشاماً، وهمست له بدلال قائلة:

_ يا أستاذ ناجى.. هل تحب أن أعد لك طعام الإفطار؟!

فتح عينيه بصعوبة فرآها قد عدلت من هندامها، وبدت أكثر أنوثة.. قال بصوت ناعس متحشرج:

_ نعم.. نعم.. جهزى الإفطار يا ست فوزية.

_ حالاً.. حالاً يا أستاذ.

بعد لحظات عادت إليه حاملة كوب من اللبن الساخن، وقطعة جبن دانماركى ورغيف أبيض ناصع الوجه.. جلست بجوار جسده المسجى فى الفراش.. جلست على حافة الفراش، ووضعت ما تحمله على طاولة صغيرة بجوار السرير.. أحس ناجى بلحمها الطرى ودفء جسدها.. كان ملمسها ناعماً غامضاً مبهماً سريالياً يحرك الحجر الصوان!

مد يده يتحسسها، ضحكت بمجون، وجنون وخلاعة وهما على فراش واحد.. قالت بنبرة ذات مغزى، وهو يعبث بيده وتلهو أصابعه فوق فخذيها ونحو مؤخرتها:

— يا سلام عليك يا أستاذ ناجى.. يبدو أن الشقاوة فى طبعك مثل الأستاذ عطا الهاللى.. لا.. لا.. ليس هذا وقته.. وهربت بعيداً عنه وكأنها تدعوه ليطاردها!

فهم ناجى شرف الدين من مغزى كلماتها أن عطا الهاللى يواقعها بين الحين والحين، وعرف بذكائه ومن نبرة صوتها أنها ستكون فريسته، وطريدته فى هذا اليوم.

نهض من فراشة الدافئ، إلتهم افطاره بشهية، وجلس على الإنترنت لحظات يتابع خلالها آخر أخبار الدنيا على بعض المواقع الإخبارية، ثم عاد إلى الحمام واغتسل ورجع إلى غرفته.. استبدل ملابسه، وتعطر بعطر فرنسى فاخر كان قد اشتراه له عطا الهاللى من باريس بعد عودته من إحدى رحلاته إلى فرنسا.. تلصص ناجى بأذنيه وعينيه على فوزية.. سمع صوتها فى دندنة هادئة لذيذة، وصوت الغسالة يتهدى مثل لحن موسيقى شجى لدندنتها الرخيمة الخليعة.. كانت تغسل ملابس الأستاذ عطا بحماس وحب، وكأنها زوجته المخلصة الوفية.. ذهب ناجى إليها واحتضنها من الخلف، فأحس بحرارة جسدها المكتنز.. تسلفت أصابعه بخفة ساحر، ورشاقة حاوى تعبث فى صدرها، وقضيبة المنتصب الممشوق صار مثل السيف المشهر متجهاً نحو دبرها، وثار دم الشهوة فى عروقه بينما هى تحاول أن تتملص من قبضته بخفة ودلال وإشارة متعمدة.. وبنبرة فيها غواية لإمرأة مجربة خبيرة بنزق الرجال، وغواياتهم الجنونية. وطيش غرائزهم التى لا تعرف الطبقيه، والفوارق الاجتماعية والتصنيفات البشرية الغبية.. قالت:

— ليس هذا وقته يا ناجى.. ألا ترانى مشغولة فى غسيل ملابس الأستاذ عطا.. اصبر يا رجل.. آه.. أنت متعجل تماماً مثل الأستاذ.. يبدو أنكم جميعاً هكذا معشر الرجال.. معشر الجورنالجية!

سحبها من يدها ببطء وهو يقبلها ويحتضنها ثم حملها وسار بها حتى

السرير ثم ألقاها فوقه بلا مبالاة.. استسلمت بين أحضانه كالنائمة أو المخدرة، وفي فراشه نزع عنها ملابسها وهو يلهث مثل الكلب الشبق الذى يلحق عورة أنثاه بهستيرية ونهم.. فوجئ ناجى بأنها لا ترتدى ملابس داخلية، فأدرك بأنها أعدت نفسها لهذا اللقاء!

هذه المرة لن يتواصل فيها سرّاً مع جسده كما كان يفعل تلك العادة كثيراً كلما هاجمته الرغبة المتوحشة.. هذه المرة سيتواصل لأول مرة مع جسد آخر غير جسده ألا وهو جسد فوزية.. بدا عصبياً عنيفاً.. كل شئ فيه منتصب منتفض صلب قوى، وأحس أن شخصاً آخر خرج من بين أضلعه، وبدأ يضاجعها بعنفوان وشهوانية لدرجة أنها كانت تتلوى تحته كالحمومة ثم ارتفعت حدة تأوهات لها لتصبح صرخات مكتومة مكبوتة مشبوبة باللذة والنشوة حتى وصلت إلى ذروتها وارتعشت كأن زلزالاً ضربها وهز كيائها، كان كل جسده ملتصق بكل جسدها، وقد قبضت تماماً بيديها على ظهره، وبين لحظة وأخرى تجذبه إليها بقوة وشراسة، بدا وجهها ساخناً متورداً وابتسامة البهجة والمتعة ترتسم على وجهها، وفمها مفتوح وعيونها مغمضة كأنها فى حلم تحلق فى كوكب آخر غير كوكب الأرض!

وبمجرد أن فرغ منها وفرغت منه، ارتمى بجوارها على السرير، ونبيرة هامسة طلبت منه أن يقبلها ويحتضنها.. استجاب لها على الفور، وعاد مجدداً يواصل سبر أغوار جسدها، ويقتحم كهف متعتها، ويفك شفرتها فى جولة جديدة من اللذة، وبعد أن إنتهى سوياً من هذه الغزوة ارتاحا بعض الوقت، وذهبت هى إلى المطبخ وعادت بطبق عامر بالتفاح والموز، وبدأت تطعمه فى فمه بقطع من التفاح الذى قطعه شرائح صغيرة يسهل إلتهاמהا بينما هو يضع الموز فى فمها، ويضحك سوياً، وهما يتأملان شكل الموز الذى يوحى لهما بأفكار ورموز مثيرة!

سألها فى فترة الاستراحة بعد زوال التوتر والإحساس بالانسجام النفسى،

وراحة الأعصاب عن حياتها الخاصة.. وهل هى الآن على ذمة رجل آخر أم لا؟

سادت لحظة صمت ثم قالت:

— تزوجت ثلاثة رجال.. الأول كان سعودى الجنسية عاشرنى على سنة الله ورسوله لمدة عام ثم تركنى عائداً إلى زوجاته فى الرياض، وبرغم أنه كان يحبني كثيراً ويغدق علىّ بالهدايا والعطايا إلا أنه طلقنى رغماً عنه استجابة لضغوط زوجاته هناك!

سالت دموعة حزن على خدها فمد ناجى يده يمسحها، ويربت عليها ثم احتضنها مواسياً دون أن ينطق بكلمة.. وقالت من بين صوت متهدج ونهنيات بكاء مكتوم:

— أما زوجى الثانى فقد مات فى حادث سيارة مفعج بعد زواج دام خمس سنوات.. الله يرحمه كان طيب القلب لكنه كان سريع الغضب، ويحبني كثيراً ويغار على من كل الرجال.. آه.. هذا هو حال الدنيا.. أرحام تقذف، وأرض تبلع!

تلك هى الحياة.. لعبة غريبة كلنا فيها خاسرون مهما ظن الكثيرون أنهم رابحون.

توقفت عن الكلام برهة كأنها تفتح صندوق ذكرياتها مع أزواجها، وتنبش فى دهايز وأسرار الماضى، واستجمعت شجاعة البوح وقالت:

— أما زوجى الثالث فوا أسفاه عليه إنه يقضى الآن عقوبة السجن المؤبد لاتهامه بقتل رئيسه فى العمل.. على كل حال فقد نجا من الإعدام بأعجوبة.. ويا ليتهم أعدموه فأراحوه وأراحونى حتى لا تكون لقصتى معه بقية.. كان المسكين المأسوف على شبابه يعمل حارساً فى أحد المصانع، وحدثت مشاجرة بينه، وبين رئيسه على ترتيب ورديات العمل ونوبات الحراسة، فثار زوجى وهو بطبعه عصبى ساخن الدم ملتهب الأعصاب، مهتاج المشاعر، وأطلق عليه الرصاص من السلاح

الميرى، فأرداه قتيلاً فى الحال.. الحمد لله أن خلقنى الله عاقراً، ولم يرزقنى الذرية من أزواجى الثلاثة، وإلا كنت اليوم فى أزمة لا يعرف مداها سوى رب السموات والأرض..

له فى كل شئ حكمة لا ندركها.. وها أنذا أمامك أعيش أيامى..
صحيح أنتى لست سعيدة بما يكفى لكن يكفينى أنتى أعيش حرة!
تبسم ناجى ابتسامة ذات مغزى دون أن ينبس بكلمة، وهو ينظر إلى لحمها العارى فى فراشه ويقبض براحه يده على ثديها الأيمن، وبشفتيه يلعب الأيسر وقال هامساً لنفسه فى سره دون أن تسمعه:
_ فعلاً حرة.. تعيش الحرة.. ولا تأكل بثديها!

" لا يوجد فى هذا العالم أصدقاء وأعداء، ولكن أعداء بدرجات متفاوتة! "

لم تثمر جلسات العلاج النفسى فى شفاء إيناس مندور من مرضها العضال.. لم تبرأ من إدمان المثلية ، وممارسة العادة السرية مع أجساد الحسنات من بين صديقاتها البنات.. لم تحصل على صك الخلاص من الإثم ، ولم تفلح زيارة الأراضى المقدسة ، والبكاء بحرقة وندم أمام الكعبة ، ولم تصفو روحها من العويل عند قبر سيد الأنام محمد بن عبد الله ، وفى مسجده ، لم تتقدها كل محاولاتهن للتطهر من خطيئة نفسها وجسدها ، كانت تشعر بالذنب العظيم ، ولا تقدر على الفكاك من درن الرذيلة ، وسرطان السحاق!

فكرت فى حل مثالى ينتشلها من كل ما هى فيه.. ويحميها من عذابها واحتقار المجتمع لها ولأمثالها ، أرسلت لها العناية الإلهية بفرصة على طبق من ذهب عيار ٢٤.. فبعد أن برعت فى عملها كمحررة رياضية فى مؤسسة " الأيام " ، تم تعيينها فى اتحاد كرة القدم المصرى لتصبح أصغر عضو ضمن أعضاء المجلس.. سعدوا بها لعدة أسباب:

أولاً: لبراعتها الصحفية ، وكتاباتها المتميزة فى مجال كرة القدم ، وتحليلاتها العقلانية البعيدة عن الأهواء لما يجرى على الساحة الرياضية.

ثانياً: لاتساع دائرة علاقاتها الرياضية فى مصر والعالم.

ثالثاً: لإجادتها عدة لغات حية فى مقدمتها الإنجليزية والفرنسية.

رابعاً: لقدرتها على التواصل مع الإتحاد الدولى لكرة القدم المعروف باسم "الفيفا" للاستفسار عن كثير من القضايا ، والمشاكل التى تواجه كرة القدم فى مصر وتتصدى لها فى كتاباتها الصحفية ، وفى تلك الأثناء

نجحت القاهرة فى استضافة بطولة كأس العالم للشباب، وخلال إقامة هذا المونديال وقع اختيار الإتحاد الدولى على إيناس مندور لتكون المنسق الإعلامى للفيفا فى مصر بهدف معاونة الإعلاميين الأجانب المكلفين بتغطية أحداث تلك البطولة التى أقيمت على أرض مصر للمرة الأولى فى تاريخها، وبعد أربعة أشهر من انتهاء فعاليات هذه البطولة الكبيرة فوجئت إيناس مندور بمكالمة هاتفية على تليفونها المحمول من مدير الإعلام بالفيفا يخطر بها فيها بترشيحها لتكون المستشار الإعلامى للإتحاد الدولى بمنطقة الشرق الأوسط..وعليها أن تبدى رأيها فى خلال أسبوع واحد، وفى حال موافقتها سوف تنتقل للعمل بمقر الإتحاد الدولى فى زيوريخ بسويسرا حيث أن مكتبها ينتظرها، وكذلك مسئوليات، وملفات كثيرة تتعلق بكرة القدم فى أفريقيا والشرق الأوسط بصفة عامة.

لم تستغرق إيناس مندور سوى لحظات لتبدى فرحتها بهذا الترشيح، وسعادة غامرة لإختيار أكبر منظمة رياضية فى العالم لها دون آلاف الصحفيين غيرها لتكون المسئول الإعلامى للفيفا لشئون كرة القدم فى أفريقيا وآسيا، ومهمتها التحدث باسم الإتحاد الدولى لوسائل الإعلام فى دول القارتين.

جاءها الحل من السماء، وعليها أن تحزم حقائبها، وترحل إلى أجمل دولة فى الكون، وهناك لن تعدم الرفيقة، وسوف تعثر على ألف رفيقة ورفيقة تمارس معها الحب والهيام، والسحاق ليل نهار فى أى مكان كان.. فى المكتب أو المنزل أو الشارع أو حتى فى الحدائق العامة.. هناك فوق مرتفعات جبال الألب لن يراها أحد من أهل مصر، ولن يعاتبها أحد من المتزمطين الذين يرون أن الجسد ليس ملكًا لصاحبه، بل هو ملك لخالقه، لذلك لا يجب أن يدنس إنسان جسده بعلاقة سرية مع مخلوق مثله، أو يدنسه بعلاقة سرية مع نفسه.. تلك هى القضية..وقد خسرتها إيناس فى وطنها وبين أهلها بكل المقاييس!

تأهبت للرحيل إلى سويسرا ، وقد لا تعود أبداً إلى وطنها لو أعجبها الحال فوق جبال الألب ، وشعرت بالسعادة والإرتياح بلا ضغوط ، ولا تابوهات! فى بلاد تؤمن بالحرية ، وتتخذها دستوراً لها ، ولا تعترف بالحلل والحرام.

حرية الانسان وكرامته فوق كل اعتبار إلا فيما ندر.. شددت الرحال وسافرت وهى تعرف أنها لن تواجه مشكلة ، فاللغة الرسمية فى هذا البلد الأوروبى المتقدم جداً هى الألمانية والفرنسية والإيطالية ، فلا أزمة عندها فى التعامل مع السويسريين بالفرنسية ، وهذا البلد لا تعرف مدنه زحام القاهرة على الإطلاق ، فعدد سكان سويسرا بكل مدنها لا يزيد عن عشرة ملايين نسمة وأكبر مدنها زيوريخ وبرن ، ونظام الحكم فيها اتحاد برلمانى.

وأكثر ما كان يطمئن إيناس مندور هو موقع سويسرا ، فهى جمهورية فيدرالية فى وسط أوروبا ، وتتكون من ٢٦ كانتونا ، وتعد مدينة برن مركز سلطاتها الإدارية ، وعاصمة الاتحاد الفيدرالى السويسرى ، وتحد سويسرا من ناحية الغرب فرنسا ، ومن الجنوب إيطاليا ، ومن الشرق النمسا.

وكانت إيناس تشعر بالاطمئنان والأمان بعيداً عن مناطق الصراعات الدولية ، والحروب الأهلية ، والمناطق الملتهبة من العالم لأن سويسرا تتبع سياسة خارجية محايدة يعود تاريخها إلى عام ١٥١٥ ، وتعد من أغنى دول العالم ، ويعتبرها الكثيرون وإيناس منهم طبعاً بأنها أجمل دولة على وجه البسيطة.. والطريف أن مدينة زيوريخ أكبر المدن السويسرية حصلت على لقب أفضل مدينة يمكن أن يعيش فيها الإنسان معزراً مكرماً سعيداً لثمانية أعوام متتالية.

وبعد أن غادرت إيناس مندور القاهرة شعرت براحة نفسية ، فقد كانت فى قرارة نفسها تعرف سمات أبناء بلدها من المصريين.. معظمهم يتظاهرون بالتدين ، ويحترمون من يفعل ذلك ، ومعظمهم عكس ذلك

تماماً، معظمهم أفاقيين، ويتمسحون فى عباءة الدين، ومعظمهم من عشاق الكذب الاجتماعى والنفاق الإنسانى، يدمنون ارتداء الأقنعة، والتزلف لأصحاب السلطة حتى ولو كان صاحب السلطة شيخ حارة أو شيخ خفراء، تحمل الشخصية المصرية كل المتناقضات.. الخوف والشجاعة.. الشهامة والنذالة.. المروءة والخيانة.. تعلن الحب، وتضمر الكراهية.. الشخصية المصرية لديها قدرة غريبة على المداواة والخداع.. لكن إلى متى يظل الخداع مستمراً ومستتراً؟! لابد أن تحين اللحظة لإسقاط الأقنعة، وكشف الحقيقة وتعرية الشخصية من زيفها، ونسف ألوانها، وإزالة ما كياجها المضلل للآخرين! كانت إيناس ترى الشخصية المصرية بعيوبها، وتعتبرها الأسوأ على وجه الأرض!

تراها تحمل زيف ٧ آلاف سنة من القهر والرعب والعبودية، وكثيراً ما بررت ذلك للكثيرين، ولنفسها فى مناسبات عديدة عندما تدهشهم آرائها الجريئة المستفزة.. كانت تقول لهم:

المصرى منذ لحظة ميلاده وحتى لحظة مماته، وهو يعيش تحت سطوة القهر والسلطة والخوف والتسلط من الأب والأم إلى العريف فى الكتاب ثم المدرس فى المدرسة، والأستاذ فى الجامعة، والشاويش والضابط فى الجيش، والمدير فى العمل، والحاكم فى الدولة!

كل مراحل حياة الإنسان المصرى البسيط ذل وخضوع وركوع لمن هو أقوى منه نفوذاً ومالاً وسلطاناً وصولجاً، ويتحكم فى مصيره.. تلك هى النتيجة المؤسفة! لكل ذلك تبدو الشخصية المصرية فيها العجب العجاب من غرائب المتناقضات.

ومصر.. الإنسان والمكان والزمان فيها عبقرية التاريخ والجغرافيا، والشخصية المصرية فيها كل تشوهات الجغرافيا والتاريخ.. تلك هى المأساة التى يعيش فيها المواطن المصرى حتى عاصمته تدعى القاهرة.. من قهرت تلك المدينة يا ترى؟! وهل هى تحمل هذا الاسم العدوانى الإستفزازى لأن

المواطن يعيش فيها أسير الزحام والضحيج ، والتلوث وتحت قهر الحكومة والظروف وكل سلطة لا ترحم تلك هى المعضلة الكبرى!؟

فى أول يوم لها فى سويسرا استقبلتها فتاة بارعة الجمال ، فائقة الحسن ، فاتنة إسمها " جانيت " تعمل فى العلاقات العامة بالإتحاد الدولى لكرة القدم.. اصطحبته الفتاة السويسرية إلى شقة صغيرة فوق ربوة عالية محاطة بالجبال والأشجار ، وتستقر الشقة على أطراف مدينة زيوريخ ، وفى أول لقاء وتعارف بينهما تفحصتها إيناس مندور ، ودققت فيها النظر بعين خبيرة مدربة على التقاط مواطن الإثارة ، النقاط الحصينة الشهية التى يمكن أن تجعلها ترفع الراية البيضاء وتستسلم.. كانت تفكر بعقل ذئب بشرى قناص ، يحلم بنهش جسد جانيت والتهام فاكهتها بعين أنشى حسودة غيورة شبقية!

فمن يدري.. قد يجمعهما فراش واحد فى يوم من الأيام أو ليلة من الليالى..
من يدري!؟

جانيت شقراء بيضاء هيفاء جسدها ناصع البياض مثل الشمع الأبيض ، ونتف الثلج الرابضة فوق جبال الألب فى موسم الشتاء الممطر.. شعرها أصفر ذهبى لامع طويل ينسدل على وجهها وظهرها ، وعيونها الخضراء البراقة مثل قطة شقية ، تنتظر من يروضها ، كانت ترتدى بلوزة وردية اللون شفافة ، ولا ترتدى تحتها حاملة صدر ، وبنطلون جينز أزرق وحذاء رياضى أبيض.. جانيت تشبه مهرة جامحة ، تبحث عن فارسها الضال! الابتسامة لا تفارق وجهها البشوش ، وهذا أكثر شئ جعل إيناس ترتاح إلها من أول نظرة.. وفى اليوم التالى اصطحبته جانيت فى جولة داخل سويسرا لإستكشاف معالمها ، وتلمس ملامحها.. كانت جانيت تحكى لإيناس والسيارة الجيب السوداء تطوف بهما الأماكن كما لو كانت مرشدة سياحية خبيرة بدروب سويسرا..

قالت: أرض سويسرا جبلية فى مجملها وحوالى ٧٪ من مساحتها من

مرتفعات جبال الألب، وهذا القطاع يضم ٣٠٪ من السكان، وتتصدر بمقدمات نحو الهضبة السويسرية التي تحتوى على عدة بحيرات.

كانت إيناس مندور مبهورة وهى ترى عبر نافذة السيارة سلاسل الجبال الذهبية الأشهر فى العالم.. بينما جانبى تحكى بطلاقة باللغة الفرنسية ودون توقف مثل مذيعة نشرة إخبارية مخضمة فى البرنامج الأوروبى:

تنقسم جبال الألب إلى عدة سلاسل، وأعلى قمة فى الألب السويسرية "مونتى روزا" وتشغل سويسرا قسمًا من جبال "جورا" حيث يتبعها القسم الجنوبى الشرقى من هذه الجبال، وتحتوى العديد من الأودية والحافات، وتخرقها بعض الممرات، وتمتد الهضبة السويسرية على شكل دهليز بين جبال الألب وجبال جورا ويختلف ارتفاع الهضبة من مكان إلى آخر، وقد وهبت الطبيعة الجبلية الغنية بالغابات سويسرا قيمة سياحية عظيمة.. وتنتشر بسويسرا أيضًا البحيرات العذبة التى تعد بالنسبة لها مصدرًا سياحيًا فى غاية الأهمية.

فى هذه الأثناء همست إيناس قائلة لجانبى:

— إغلقى النافذة.. لقد بدأت أشعر بلفحة برد تخترق جسدى..

ضحكت جانبى على طريقة نطق إيناس مندور للفرنسية، وبالفعل أغلقت النافذة بلمسة رقيقة من أناملها على زر بجوارها ثم قالت:

— ينتمى المناخ هنا إلى طراز وسط أوروبا، وهو كما يسميه علماء الجغرافيا، والطقس "المناخ الألبى" وهو بارد بصفة عامة حيث تغطى الثلوج معظم أراضى سويسرا فى الشتاء وتتحول إلى ثلجات نستغلها نحن السويسريون فى السياحة لمزاولة رياضة التزلج على الجليد، وفى الصيف يسود هنا مناخ دافئ، عمومًا المناخ بصفة عامة مناخ رائع سواء كان باردًا فى الشتاء، أو دافئًا فى الصيف حيث الطبيعة الخلابة، والمناظر الرائعة تداعب عينيك فلا ترين إلا الجمال والسحر، ولا تشعرين بتقلبات الجو.. وسوف تشعرين بصدق ما أقول

عندما تعيشين هنا لفترة ما ، وتتأقلمين على الجو السويسرى.

قاطعتها إيناس مندور قائلة بنبرة ساخرة:

_ فرق كبيرين هنا وهناك.. القاهرة شوارعها مزدحمة بالبشر والسيارات هناك..بينما هنا الشوارع شبه خاوية.. ما الحكاية؟ هل اليوم عطلة رسمية عندكم؟

هذه المرة أطلقت جانيت ضحكة عالية أشبه بصرخة قائلة:

_ لا.. أبداً.. اليوم الثلاثاء ليس أجازة عندنا ، ولكن عدد السكان فى سويسرا منذ عشر سنوات كان لا يتجاوز سبعة ملايين ، واليوم أصبحنا حوالى عشرة ملايين ، ويعيش معظم السكان فى مناطق الهضبة السويسرية حيث تتركز مدن البلاد الرئيسية من بينها مدينتان عالميتان هما جنيف وزيورخ إضافة إلى مدن أخرى مهمة مثل بازل ولوزان ، وتقل الكثافة السكانية تدريجياً فوق المرتفعات ، وينتمى السكان هنا إلى الجماعات الألمانية ويشكلون أغلب سكان سويسرا ، ويتحدث ٧٥٪ منهم اللغة الألمانية ومن بين السكان عناصر فرنسية ، فحوالى ٢٠٪ من إجمالى السكان يتحدثون الفرنسية ، كما توجد عناصر إيطالية وحوالى ٤٪ من السكان يتحدثون الإيطالية ويوجد بين السويسريين عدد كبير من الأجانب يصل إلى حوالى مليون نسمة معظمهم قادمون من دول الاتحاد الأوروبى ، وللأسف الشديد فى السنوات الأخيرة ظهرت العنصرية هنا ضد العرب والمسلمين ، وعندما فاز حزب " الشعب " السويسرى بالانتخابات الفيدرالية أصدر قوانين ضد العرب والمسلمين ، وتفضيل الأوروبين عليهم فى سوق العمل ، وكل الإمتيازات والمميزات الأخرى.

فجأة قالت إيناس مندور معلقة على حديث " جانيت " عن العنصرية:

_ ألهذا أصدرتم فرماناً بإلغاء مآذن الجوامع فى كل الأراضى السويسرية حتى لا يرفع اسم الله إلى السماء مع كل أذان لصلاة المسلمين؟

— للأسف الشديد يا إيناس حكومتنا المتعصبة أخرجتنا مع كل الشعوب والحكومات الإسلامية برغم أن عددًا كبيراً من الشعب السويسرى يعرف قصة القديسة "فيرينا" التى جاءت من مصر، وعلمت سويسرا العبادة، والنظافة، وعلمت بنات سويسرا العفة والطهارة.

تساءلت إيناس مندور بدهشة:

— أول مرة أسمع هذه الحكاية.. وهل القديسة "فيرينا" فعلاً مصرية وماذا فعلت بالضبط يا جانيت؟!

— قصة الفتاة "فيرينا" القديسة الصعيدية التى جاءت من مصر قبل نحو ١٧٠٠ سنة أذهلت أوروبا كلها، وهذه الفتاة ترجع نشأتها إلى قرية جراجوس بمركز قوص بمحافظة قنا بجنوب مصر حيث كان التعليم الطبى فى ذلك الوقت ينتقل من شخص إلى آخر لديه الرغبة والقدرة على تأدية رسالة الطب، والتطبيب.. كانت فيرينا آنذاك ضمن الوفد الطبى من الأطباء والممرضات المصريات اللاتى صحن الكتبية الطبية التى أرسلت إلى سويسرا بأمر من الإمبراطور "ماكسيمان" إمبراطور الغرب للقيام بالأعمال الطبية، وكان الإمبراطور ماكسيمان قد أباد هذه الكتبية لرفضهم مشاركته فى التبشير مع كهنة المعبد، وتقديم العبادة للآلهة، ثم قام بتسريح الممرضات، لكن "فيرينا" فضلت أن تبقى ومكثت مع مجموعة من الفتيات العذارى فى كهف صغير، وكانت تقوم بأعمال التمريض، وحياسة الملابس سرّاً، وفى عام ٣٠٥م انتهى حكم ماكسيمان، وبدأ حكم الامبراطور قسطنطين الذى اعترف بالمسيحية كواحدة من الديانات المسموح بممارستها فى الإمبراطورية، وهنا انطلقت فيرينا المصرية الصعيدية للتبشير بالمسيحية كدين سماوى.

وتمكنت هذه الفتاة التى نشأت فى محافظة قنا أن تغير عادات وتقاليد جاهلية قديمة وبالية فى مجتمعات أوروبا العصور الوسطى التى كانت

تعيش فى الظلام حتى رسخت بينهم أسمى المبادئ الإنسانية والدينية،
وأعظم القيم الأخلاقية ثم اعتكفت فى قلاية صغيرة حقيرة فى زهد
وتقشف حتى رحلت عن الدنيا عام ٣٤٤م، وفى مصر تم تكريمها بما يليق
بما قدمت للإنسانية حيث شيدت لها كنيسة بالقاهرة، حملت اسمها "
القديسة فيرينا" ووضع بها رفاتاها التى عاد بها وفد سويسرى إلى مصر
عام ١٩٨٦ وتسلمها قداسة البابا شنودة الثالث بعد غياب فيرينا عن تراب
الوطن، وحضن الأهل وعطر الأحباب ١٦ قرنا من الزمان..

قالت إيناس بصوت هامس واهن:

— يا سبجان الله.. فتاة مصرية فعلت كل هذا بسويسرا؟!

هتفت جانيت:

— نعم.. ويا ترى هل تكونين أنتِ فيرينا الجديدة؟!

لم تعجبها المقارنة، وتذكرت إيناس مندور سرها الدفين، وتذكرت ما
هى عليه، فشعرت بالخجل من نفسها، ولم تعلق سوى بكلمات قصيرة:

— إنها قديسة.. أما أنا فقد أكون غانية.. أين أنا من فيرينا؟!

قالت جانيت بمرح:

— على كل الأحوال.. تحية إلى روح فيرينا بنت مصر التى علمت بنات
أوروبا عامة، وبنات سويسرا على وجه الخصوص حب الله والصلاة،
والطهارة والإيمان والخلق القويم والسير على الطريق المستقيم قبل
١٧ قرناً من الزمان.. ليجئ أحفادهم ويصدروا فرماناً غيباً متخلفاً
بمنع اقامة المآذن هنا فى كل أنحاء سويسرا.. إنها مأساة عبثية
سوف يسجلها التاريخ بحروف سوداء، وبمداد من الخزي والعار على
صفحاته الخالدة!

أرادت إيناس مندور بذلك أن تغير مجرى الحديث فتساءلت:

— حدثينى يا جانيت عن أهم شئ فى بلادكم.. حدثينى عن العملة..

اليورو.. الفرنك السويسرى.. الدولار.. الإسترليني.. أهم شئ يا صديقتى.. الفلوس!

تبسمت جانيت كعادتها وقالت بارتياح:

— اطمئنى يا عزيزتى.. عقدك مع الفيفا برقم كبير، وأجرك مغرى جداً ويجب أن تعلمى أن سويسرا دولة متقدمة، وتعتبر من أكثر بلدان العالم ثراء حسب دخل الفرد اليومى.. إذ يصل دخل الفرد فى المتوسط فى الاجمالى من الناتج المحلى إلى ٦٨ دولاراً يومياً، كما أن زيورخ وجنيف احتلتا المركزين الثانى والثالث فى ترتيب أعلى مستوى للحياة المرفهة فى مدن العالم المختلفة.. ويعود إرتفاع دخل الفرد إلى مستوى كبير نتيجة لتنوع الأنشطة الاقتصادية حيث تمارس الزراعة فى الوديان المنخفضة، وفوق الهضبة الوسطى، وتبلغ نسبة العاملين بالزراعة حوالى ٤٪ من القوة العاملة، وتنتج سويسرا ٥٠٪ من حاجتها من المحاصيل والحبوب والفواكه.. وهناك حركة رعى فوق سفوح الجبال فى فصل الصيف، وتشتهر سويسرا بمنتجات الألبان، وتصدر للخارج كميات كبيرة منها سواء كانت مجففة أو معبأة أو فى صورة منتجات أخرى.. كما تشتهر سويسرا أيضاً بالصناعات الإلكترونية الدقيقة مثل الساعات والأدوات الطبية والأجهزة الكهربائية، وتشكل السياحة عصب الاقتصاد السويسرى إلى جانب بنوكها وتداول الأوراق المالية على مستوى العالم.

توقفت جانيت لحظات، فباغتتها إيناس بالسؤال:

— معروف أن سويسرا بلد العلم والعلماء.. فما سر حرصكم على هذه الميزة؟

تنهدت جانيت واسترسلت:

— مازلت أذكر قول القائد العظيم نابليون بونابرت لجنوده فى إحدى معاركه الكبيرة.. إذا كانت جبال الألب الشاهقة تمنعنى من التقدم

وتحقيق طموحاتى فيجب أن تزول من على وجه الأرض ولو بالقوة!
وسويسرا تحتل المركز الأول فى أوروبا إهتماما بالعلم والعلماء حيث
أكبر عدد للطلاب الأجانب فى مدارسها وجامعاتها ومعاهدها ، وثانى دولة
فى العالم بالنسبة لإجمالى عدد الطلاب فى البلاد ، والطريف أن بلدنا تضم
بين حدودها أكبر عدد من العباقرة والمبدعين الحائزين على جوائز نوبل
طبعاً بالنسبة لعدد السكان على مستوى العالم ، وتحتل سويسرا المرتبة
الأولى فى العالم أيضاً من حيث الأبحاث العلمية المنشورة ، وتصنف جامعة
زيورخ ثالث أفضل جامعة فى أوروبا كلها ، وجامعة بازل تعد من أقدم
جامعات العالم وعمرها اليوم ٥٥٥ سنة.

توقفت السيارة أمام مطعم رابض فوق ربوة صغيرة ساحرة ، كأنه قطعة
من جسد الجبل حسب رغبة جانيث ثم قالت:

أظن الآن أنك يا إيناس عرفت سويسرا أكثر من أهلها ، ولكن علينا ألا
تنسى أنفسنا.. إننى أكاد أموت جوعاً وأظنك فى مثل حالتى.. هيا بنا إلى
هذا المطعم الذى يقدم وجبات لذيذة جداً ، وشهية للغاية.. هيا هيا يا إيناس
لا تخافى سوف أدفع أنا فلا تقلقى..

ضحكتا سوياً.. ودخلتا المطعم

وإيناس ممسكة بيد جانيث.

" حينما خلق الله الروح أعجب بها، ومن شدة إعجابه حبسها
بين ثلاثة جدران.. الزمان والمكان والجسد! "

عاد عطا الهلالى من السفر حاملاً معه عدة مفاجآت لناجى شرف الدين
أهمها أنه يحمل له عرضاً مغرياً للانتقال للعمل فى مؤسسة " الأيام " أكبر
وأعرق مؤسسة صحفية قومية فى مصر ، فقد كان عبد العليم طابع
رئيس مجلس إدارتها ، ورئيس تحرير صحيفتها اليومية التى تصدر بنفس
الاسم معه فى رحلة اليونان لمتابعة أعمال المؤتمر الأورومتوسطى الذى
جاء لتغطيته ضمن رؤساء التحرير وكبار الصحفيين فى مصر ، وذلك
نظراً لمشاركة رئيس الجمهورية فيه.. وخلال أعمال المؤتمر الذى استمر
أسبوعاً واحداً طلب عبد العليم طابع من عطا الهلالى أن يبحث له عن محرر
صحفى صغير السن موهوب لكى يساعده فى كتابة مقالاته ، ووعد عطا
الهلالى أن يقدم له هدية ألا وهى موهبة صحفية سيكون لها شأن كبير مع
الأيام ، وكان حينها قد عزم أمره ، وقرر أن يبعث إليه بناجى شرف الدين ،
وتلك ستكون فرصة العمر لهذا الفتى الريفى الذى اختار مهنة البحث عن
المتاعب.. وبالفعل رحب ناجى شرف الدين بالعرض ، وهما هى تأتية الفرصة
وتواتيه على طبق من ذهب ليعمل فى المؤسسة التى حلم بها كثيراً ليس
هذا فحسب ، بل إنها المؤسسة التى تعمل فيها إيناس مندور!

وهو يعرف أن انتقاله لهذه المؤسسة العظيمة يعد بمثابة حصوله على
تأشيرة هجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية.. أرض الأحلام.. بلا شك
ستكون نقلة كبيرة بالنسبة له على كل الأصعدة ، وخاصة الصعيدين
المالى والمعنوى.

دهش ناجى شرف الدين وسأل عطا الهلالى قائلاً:

– ولماذا اخترتني أنا بالذات يا أستاذي؟ لماذا وأنا الفقير البائس..
الصغير المبتدئ الذى لا يملك الخبرة فى بلاط صاحبة الجلالة؟
لماذا يا سيدى قررت أن ترسلنى لأعمل مع أكبر، وأهم رئيس تحرير
فى البلد كلها وأكثر الكتاب شهرة ونفوذاً؟

تكلم عطا الهلالى بصوت رخيم رزين وكأنه يلقي محاضرة أو درساً
فى فنون الحياة:

– اسمع يا ناجى.. يجب أن تعرف أنك موهوب، وخريج إعلام وتحب
الصحافة بجنون وهذه كلها مؤهلات للتألق فى بلاط صاحبة الجلالة..
ولا أريدك أن تنتظر لفقرك وعمرك باعتبارهما من العقبات التى تحد
من طموحك فى مهنة الصحافة، لأن الإسكندر المقدونى غزا العالم
وعمره لا يتجاوز الثلاثين عاماً، والملكة فيكتوريا حكمت بريطانيا
العظمى، وعمرها ١٨ عاماً فقط.. هذا بالنسبة لمسألة العمر.. أما
بالنسبة للفقر فلا تحزن فكل العظماء كانوا فقراء.. شكسبير أعظم
المبدعين كان ابناً لبائع صوف!

كما أن الإمبراطور "ديو كلشيان" الرومانى كان والده عبداً بائساً
فقيراً.. وإبراهيم لينكولن محرر العبيد هذا الرجل العظيم عمل حملاً فى
بداية رحلة كفاحه مع الحياة!

وفى نهاية المطاف بدا ناجى فى قمة سعادته بالانتقال إلى عالم آخر..
عالم الصحافة القومية.. بعيداً عن الصحافة المستقلة أو الحزبية.. والفارق
بينهما كالفارق بين السماء والأرض.. لكنه قال لأستاذه عطا الهلالى:

– برغم فرحتى الكبيرة بالانتقال للعمل فى "الأيام" إلا أننى حزين للغاية
لأننى سأفارقك.

رد الرجل ضاحكاً:

– لن تفارقنى يا عزيزى.. سنظل معاً أخوة وأصدقاء.. بيتى مفتوح لك
وكذلك مكتبى.. ولا تنسى أننى أكتب مقالاً أسبوعياً فى "الأيام"

"وعبد العليم طايح صديقى ورفيقى فى دروب الصحافة، وزميل دفعتى فى الجامعة، ولا يهمنى سوى مستقبلك.. أنا حققت ذاتى فى الصحافة، وأتمنى لك ألا تواجه الصعوبات التى واجهتها فى مطلع حياتى الصحفية، ويجب أن تعرف يا ناجى أن الكتابة بالنسبة لى لذة وعذاب أيضًا.. وأحب أن أقول لك أن المكان المثالى عندي للكتابة والإبداع هو جزيرة مهجورة فى الصباح، ومدينة صاخبة بالليل وفى الصباح أحتاج إلى الهدوء، وفى الليل أحتاج إلى قليل من الأصدقاء المقربين لتجاذب أطراف الحديث.

أما المفاجأة الثانية التى أعدها لناجى فكانت مجموعة أعمال ماركيز الذى يعشقه منذ قرأ روايته الأشهر "الخب فى زمن الكوليرا" .. كان ناجى مغرمًا بالكولومبى ماركيز مثلما هو مغرم بالتركى أورهان باموق، وقد ازداد حبه لجابريل جارسيا ماركيز المولود فى بلدة أركاتاكا بشمال كولومبيا عام ١٩٢٨ والذى درس الحقوق وعمل بالصحافة، حيث بدأ حياته محررًا صغيرًا فى بعض الصحف الإقليمية ثم تفرغ للكتابة الروائية والقصصية التى خاض غمارها صدفة فى محاولة منه لكى يثبت لأحد أصدقائه أن بإمكان جيله أن يخرج أدباء.. وبعد ذلك وقع فى فخ عشق الكتابة، والاستمرار فيها عن حب وإيمان لدرجة أنه لم يعد هناك شئ أحب إليه فى الدنيا كلها من الكتابة والإبداع.

ناجى يرى مثله الأعلى فى ماركيز، ويتمنى أن يسير على دربه خاصة أنه كتب مجموعة من القصص القصيرة التى لم يقرأها أحد غيره.. وكتب إرهابيات رواية، ويعرف ناجى أن ماركيز عانى كثيرًا فى حياته حتى حقق النجاح والشهرة، ووصل إلى القمة بكده وعرقه وموهبته حيث تنقل بين المكسيك وأسبانيا وفرنسا وألمانيا وكولومبيا.. وظهرت أولى مجموعاته القصصية عام ١٩٥٥، ولكن شهرته لم تبدأ إلا مع صدور روايته التى تعد تحفة فنية فى مجال الكتابة الأدبية "مائة عام من العزلة" عام

١٩٦٧ وهى من أعظم الروايات الإنسانية والتي تمنى ناجى قراءتها ، وأهداه إياها مؤخرًا أستاذه عطا الهلالى بالإضافة إلى أعماله الأخرى " جنازة الأم العظيمة " ، " خريف البطريق " ، " قصة موت معلن " ، " الخطاب المنتظر " ، " فى ساعة نحس " وكان سعيداً جداً بذلك لأنه لا يعرف قدر ماركيز الحائز على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٢ إلا من قرأ رواياته ، واستمتع بكتاباتة الساحرة.

فى هذه الأثناء كانت الهواجس المخيفة تطارد ناجى شرف الدين.. لا يخاف الفتى على نفسه.. بل يخاف على أستاذه ، وصاحب الفضل عليه بعد الله.. الرجل الذى احتضنه ، وأواه فى بيته وعلمه أصول الكتابة الصحفية.. كان يدرك بالحاسة السادسة أن عطا الهلالى فى خطر.. أسر لأستاذه بذلك الأمر.. ضحك عطا كثيراً وعلق بجملة واحدة:

العمر واحد والرب واحد ، والحذر لن يمنع أبداً الخطر.. كان خوف ناجى مصدره المقالات الجنونية الجريئة التى يكتبها عطا الهلالى فى الفترة الأخيرة.. فقد نشر تقريراً سرياً حصل عليه بطريقته الخاصة.. وكان عنوان ما كتبه:

" تقرير خطير يكشف قضية فساد كل دقيقتين فى مصر! "

وجاء فيه:

أثار التقرير الخطير الذى أعدته هيئة الرقابة الإدارية سراً حول جرائم الفساد المالى والإدارى داخل الأجهزة الحكومية فى مصر الكثير من القلق داخل الأجهزة الرقابية التى تخوض حرباً ضد الفساد بكل أشكاله وألوانه وصوره دون النظر إلى المناصب التى يشغلها الأفاسد والمفسدون ، أو مراكزهم الاجتماعية المرموقة أو حتى قوة وسطوة وبطش من يساندونهم فى غيهم!

وأكد التقرير أن هناك ٣٠ قضية فساد وإهدار مال عام فى الساعة.. وهذا يعنى أن هناك قضية فساد كل دقيقتين تقريباً ، وهو ما يكشف عن

صور مخيفة للانحراف والفساد تثير الخوف والقلق على مصير المال العام بين أيدي العاملين عليه ، والمسؤولين عن إدارته والتصرف فيه باسم الشعب وللصالح العام والمعنيين بحراسته والسهر على حمايته!

وأشار عطا الهلالى فيما كتبه معلقاً على البيانات ، والأرقام الواردة فى هذا التقرير قائلاً:

من أبرز نماذج وصور الانحراف المالى والإدارى داخل الأجهزة الحكومية والتي أدت إلى إهدار المال العام ، والسطو عليه ونهبه.. تلك القضية المعروفة بقضية الجمارك الكبرى ، والمتهم فيها ٢٩ موظفاً من قيادات مصلحة الجمارك من بينهم رئيس المصلحة ، وهؤلاء حرموا خزانة الدولة من ٣٥ مليون جنيه من خلال مساعدتهم لرجال الأعمال على التهرب دون وجه حق على حساب المال العام.

وكذلك قضية " القمح الفاسد " الذى تم استيراده من الولايات المتحدة الأمريكية بقيمة ٢٢ مليون جنيه تكبدتها خزانة الدولة بسبب فساد ضمائر المسؤولين عن توريد غذاء آمن وصحى للمواطنين!

كان ناجى شرف الدين يشعر بأن الكبار لن يتركوا عطا الهلالى فى حاله ، وقد يغتالونه لو استدعى الأمر ذلك.. لأن اللعب مع الكبار دائماً محفوف بالأشواك والمخاطر.

تابع الفتى الريفى كتابات أستاذه فى الصحف العربية المعارضة التى تصدر فى عواصم أوروبية ، وتكشف المستور ، وتخوض فى المحظور ، وتفضح أمراء وأميرات ورؤساء ووزراء ومشاهير فى الدول العربية.

فقد كتب فى صحيفة " عرب تايمز " سلسلة من الموضوعات الصحفية عن الأميرات الخليجيات.. بدأها بحلقة تحت عنوان:

" أميرة خليجية تطلب اللجوء السرى لبريطانيا خوفاً من عقوبة الموت فى بلدها لارتكابها جريمة الزنا!"

وتحت هذا العنوان كتب القصة المثيرة واللافتة للانتباه يقول فيها :

حملت الأميرة الخليجية الشابة سفايحاً بطفل غير شرعى من رجل بريطانى ، ومنحت سرّاً حق اللجوء إلى بريطانيا بعد أن أخبرتهم بأنها ستواجه عقوبة الموت إن هى أُجبرت على العودة إلى بلادها حيث تقطع الرؤوس من غير حساب ، ولا محاكمة ولا عدالة .. ربحت الأميرة العربية التى مُنحت أيضاً حق السرية فى البوح بقضيتها للقاضى وأخبرته بأن ممارسة الحب دون زواج يعتبره الأوروبيون حرية بينما بلادها تعتبره زنا ، وهى الآن فى نظر أهلها وأبناء وطنها زانية والموت ينتظرها بفارغ الصبر على شاطئ الخليج !

ويروى عطا الهالى قصتها كاملة بقلمه الفصيح قائلاً :

إن الأميرة سليلة عائلة ملكية ثرية جداً ، وقابلت الشاب الإنجليزى وهو غير مسلم أثناء زيارة لها إلى لندن ، وعاشت معه قصة حب عنيفة تورطت خلالها بالحمل من الفتى الإنجليزى ، وبرغم أنها زوجة لملياردير عجوز مسن عقيم عضو العائلة الملكية الحاكمة إلا أنها أصبحت حاملاً وفى أحشائها تتحرك نطف الأجنبى ، وسرعان ما صارت النطفة علقه ثم أصبحت ثمرة حبها جنيناً يتحرك بداخلها ، حاولت بشتى الطرق إقناع زوجها المزواج بأن يتركها تسافر إلى لندن لكى تلد سرّاً بعيداً عن عيون البصاصين والمتلصصين والمتربصين ، وبعد جهد جهيد وافق زوجها على مضض خوفاً من أن يلحقه العار ، وتلوّثه الفضيحة ، وعلى أمل أن تعود فارغة البطن ، نظيفة الرحم لينتقم منها لشرفه الجريح على طريقته الخاصة فيشفى غليله ، وبدهاء الأنثى نجحت فى الهروب من الفخ الذى نصبه لها ، واستطاعت اقناع المحكمة بأنها إذا عادت إلى مملكتها هى وطفلها ستكون خاضعة للرجم حتى الموت !

وبالفعل مُنحت الأميرة الجميلة الشابة إقامة دائمة فى عاصمة الضباب بعد أن تعاطف القاضى الانجليزى مع قصة غرامها ، وأعطتها المحكمة حق اللجوء الإنسانى ، ومن وقتها توقفت عائلتها وعائلة زوجها عن الاتصال

بها، ومحاولة استرجاعها حتى ولو كانت جثة هامدة بعد أن عرفوا بتفاصيل الفضيحة.

شعر ناجى شرف الدين بأن مجرد نشر كواليس وأسرار هذه القصة التى يعتبرونها فى المملكة تمس قدس الأقداس كفيل بأن يجعل أصحابها، وهم يملكون المال والسلطان والصولجان والجاه والنفوذ يسعون للثأر من الشخص الذى تجرأ وأتاح فضيحتهم للجميع وجعلها على كل لسان، وهو بالطبع الكاتب الصحفى عطا الهلالى، ولكن ها هى الأيام تمر، ولا يحدث أى شئ، وعطا الهلالى يضحك بثقة، ويقهقه بسخرية من كل شئ، ويأكل ويحيا ويكتب ويعتبر الحروف التى يكتبها هى الرثة التى يتنفس بها، لا يهاب المجهول ولا يخاف أحداً على الإطلاق، يبدو كما لو كان محصناً من الخوف والإيذاء.. وما زال يواصل كتابة سلسلة فضائح المشاهير فى العالم، والتى أعلن أنه سوف ينشرها فيما بعد كلها فى كتاب.. وكتب فى الحلقة الثانية فى صحيفة "عرب تايمز" قضية أكثر خطورة.. كتب يقول تحت عنوان مثير من كلمتين فقط.. "فسوق الأميرات!"

لاشئ على الإطلاق يأتى من فراغ حتى الأساطير، وحواديت السحرو الجان والخيال العلمى، لابد أن يكون لها أساس واقعى لينطق منه العقلاء، ويواصلوا بناء الأسطورة التى نتوه فى خباياها، وندهش من أسرارها.. الناس لا تخلق الحواديت من العدم، قد تبالغ فى سردها وتهول من أحداثها وتفاصيلها، وقد تعيد ترتيب الأحداث والكلمات والروايات لتأخذ وقعاً أفضل على الأذن وتترك بصمات على الوجدان، وقد تضع واقعة هنا، وتسحب أخرى من هناك لتصبح الحكاية أكثر سحراً واثارة وابهاراً، ولكن الناس لا تأتى أبداً بالحكايات من باطن الأرض.. الناس ببساطة شديدة قادرة على نسج الملابس، ولم تكن يوماً ما مصدر الخيوط.. وحينما تتكون صورة جماعية لدى المصريين، فلا بد أن تعرف أن هناك تراكماً، ولا بد للدخان الذى يتطاير فى الهواء، وتذروه الرياح من نار.. كل ذلك أجبر المصريين

على صناعة تلك الصورة، والإيمان بها.. فهناك أسماء ومصطلحات يكفى ذكرها حتى تطبع أذهانهم صورة واحدة وكأنها كربون تماماً مثلما تكون نسخ الصحف متشابهة، بغض النظر عن كل الفوارق الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.. انزل إلى الشارع، واسأل أحدهم.. ماذا تعنى لك كلمة أميرة خليجية؟! مع العلم بأن عدد الأميرات الخليجيات يصل إلى ٨ آلاف أميرة جميعهن يحملن اللقب السامى.. دعنا نتفق أولاً قبل أى شئ على أن الكثير من الأميرات خارج كادر تلك الصورة المخجلة تماماً بعلمهن وتعليمهن وأخلاقهن وثقافتهم واندماجهن مع العالم الخارجى!

على كل الأحوال سوف تأتيك الإجابة واحدة أينما طرحت السؤال.. فى شوارع الزمالك مثل حوارى بولاق الدكرور وإمبابة، وفى قرى الصعيد مثل قرى الساحل الشمالى، وفى العمارات الشاهقة الفاخرة مثل عشش الصفيح والبؤر العشوائية.. صورة كربونية واحدة رسمتها أفعال جامحة، وتصرفات جنونية لأميرات خليجيات داخل العقل المصرى، وقد حولها مؤشر البذخ والسفه والجبروت المادى إلى صورة أسطورية يكرها المصريون جميعاً مثل كراهية الأطفال للنداهة، وأبو رجل مسلوخة وأما الغولة والبعبع الأزرق فى الليل الأسود، ويرفضونها مثلما رفضت آيات الذكر الحكيم فى القرآن الكريم أفعال وأقوال قارون.. سوف تسمع كلمات متشابهات إذا فتحت مع أى مواطن مصرى حواراً حول الأميرات الخليجيات وقصصهن المثيرة، ومغامراتهن المشينة على ضفاف نيل القاهرة وداخل أفخم فنادقها العامرة بكل ما لذ وطاب وتشتيهه الأنفس والأجساد.. قد تختلف الحكايات، وتدور رحاها، وتتوغل بين ما هو جنسى فاضح ومادى سافر وقهرى نادر، ولكنها فى النهاية سوف تستقر على تلك الصورة: أولئك النسوة اللاتى كن مقبضات بديئات قبل أن تنقذهن عمليات التجميل وشفط الدهون.. تلك الكتل السمراء اللاتى حرمن حكامهن من الخروج للنور وقيادة السيارات، وتحجبن الجلايب السوداء والنقاب القاتم الذى يشبه الخيمة المتحركة عن أجواء الحرية والشهرة التى تبحر فيها

السيدات الأول ووريشات العرش فى بقية البلدان العربية والأجنبية، هؤلاء المتناقضات اللاتى يخلعن ملابسهن، وينزعن عن وجوههن وأجسادهن برقع الحياء، ويفصن فى بحار أوروبا، ويسبحن بين شواطئ مصر المترامية الأطراف بالبكينى، ويرمحن بسياراتهن الفارهة بأقصى سرعة فى الشوارع والطرق كالأخيول الجامحة، وكأنهن ينتقمن من حكامهن، وأولياء أمورهن وبلادهن التى ترفض منحهن حق الحياة الطبيعية العادية وقيادة السيارات، والسير فى الشوارع والطرق.. هؤلاء اللاتى يعوضن حرمان الظهور والخروج لشمس النهار، وقمر الليل، والتجول فى الشوارع بوجوه تلامس الهواء بالحفلات الصاخبة والمجون والبذخ، والتبجح والتبذير فى الانفاق مثلما يبذر الشياطين.. هن أصحاب الحفلات الساهرة حتى الصباح التى يأتيتها زمرة من الفنانين والمطربين صاغرين أذلاء طمعاً فى الهدايا والملايين وعطايا الأميرات من السيارات والمجوهرات، تلك الحفلات التى تأتيتها الوجبات ساخنة دسمة شهية من العواصم الأوروبية، بينما الغلبة يموتون جوعاً فى شوارع العرب، ودروب فلسطين المحتلة، وتحت أنقاض الصومال والعراق ودارفور وفى طوابير الخبز أمام الأفران بحثاً عن رغيف يسد رمق المساكين من فقراء وبؤساء العروبة.

الأميرات الخليجيات يتفاخرن فى شوارع القاهرة، وفنادقها الخمس نجوم بأموالهن ومجوهراتهن ودولارات آبار وبراميل النفط التى لا تتضب أبداً.. هن اللاتى لا تملك ألسنتهن أدنى فكرة عن الذوق، واللباقة حينما يخاطبن الباعة والعمال والخدم.. هن اللاتى تظهر أسماءهن المفخمة وصورهن المبجلة فى الصحف الأوروبية عارية من كل احترام مقترنة بفضائح أخلاقية، ودهشة من اسرافهن وعبثهن الجنونى.. هن اللاتى أصبحن مؤخرًا طرفاً أصيلاً فى قضايا نصب وبلطجة، وابتزاز ورشوة سواء فى مصر أو فى عواصم أوروبا!

تلك هى الصورة الرائجة فى خيال المصريين عن الأميرات الخليجيات

أو فكرة الثرى العربى القادم من بلاد البترول والصحراء والجلباب سواء كان رجلاً أو امرأة، هى صورة لم يتم تحميضها بعد فى أذهان الناس، بل الأحداث والوقائع وعدد الحوادث والمحاضر والقضايا المتداولة فى المحاكم المصرية والتي دائماً ما يكون أحد أطرافها أميرة عربية واسعة الثراء تقيم فى فندق فاخر على النيل، وترفل فى النعيم، وتحجز لنفسها، ولذويها أكثر من جناح تعربد فيه معهم كما تشاء وحسبما يحلو لها بلا حسيب ولا رقيب ولا ضمير!

وأخطر هذه القضايا قضية خلود العيسى مع رجل الأعمال الشهير المليونير حمدى الكومى وهناك حكايات أخرى، وفضائح ساخنة على النيل، وأكثرها سخونة واثارة حكاية الأميرة هند العباسى وزوجها الأمير طایل وابنتها جواهر.. عن هذه العائلة الملكية الكريمة حدث ولا حرج!

ويجب ألا ننسى أن القاهرة بالنسبة لأصحاب الدماء الملكية من الأمراء والأميرات من أبناء الخليج العربى ليست هى العاصمة الأثرية أو البلد ذوالأجواء الدافئة الذى يأتیه الأوروبيون للإستمتاع بشمسهِ، والإطلاع على جزء مهم من حضارة العالم.. هى بالنسبة لهم ولهن قبلة السهر، والعريضة وكعبة الحرية والعبث والهروب من قسوة تقاليد البادية وجفاء الصحراء فى بلاد الخليج.. هى بالنسبة لهم ولهن تلك العاصمة التى يمكنهم أن يفعلوا فيها ما شاءوا، وقتما شاءوا بأموالهم التى لا تنفذ، وسلطانهم الممتد من الخليج إلى النيل.. القاهرة بالنسبة لهم ولهن شارع الهرم وليست الأهرامات.. القاهرة بالنسبة لهم ولهن كباريات وبارات، وليست مقتنيات حضارية ومعالِم تاريخية.. القاهرة بالنسبة لهم ولهن.. مواطنون غلبة يخضعون لجبروت الجنيه وذل الدولار والدينار والريال.. ليسوا أشقاء فى العروبة بل أولاد حرام، وبؤساء فقراء تعساء لا يأكلون اللحم إلا مرة واحدة فى الشهر.

الأميرات القادمات إلى عاصمة الأزهر والحسين.. مدينة الألف مئذنة

حلوا عليها ليس طلباً للبركة، ولا بحثاً عن نفحات أولياء الله الصالحين وآل البيت، بل جاءوها من أجل الحفلات والسهرات، والتفاخر أمام خلق الله والإنفاق ببذخ على أشباه المطربين أمثال تامر شوقي وسيد الصغير، وأبو شعيشع الذى عمل كمكوجى قبل أن يحترف الغناء ويحرص على ارتداء ثياب الأنتريه فى حفلاته الغنائية الشعبية، وغيرهم الكثير من رواد الأغنية الشبابية الذين هبطوا على الساحة الفنية بالباراشوت حيث الغناء للحمير والفاكهة، وهز الأرداف ورجرجة المؤخرات والعبث بالنهود!

وإذا ذكر اسم الأميرة جواهر فى مصر ذكرت الحفلات الليلية الأسطورية والدولارات التى تلقى تحت أقدام المطربين والسيارات الهامر، والكثير من الشائعات، وأحاديث النيمة الجنسية وغير الجنسية!

وإذا ذكرت أمها الأميرة هند العباسى ذكر الكثير من القضايا والحوادث والجرائم البشعة التى يندى لها الجبين.. فتلك الأسرة سلية الملوك سيئة السمعة، وسجلها فى القاهرة حافل بالشغب والأفعال المشينة والفضائح والجرائم التى لا تمت لأخلاق الأمراء والملوك بصلة.. هل تذكرون حادثة فندق مدينة الإنتاج الاعلامى حينما اصطحبت الأميرة هند العباسى وابنتها جواهر ١٣ كلب حراسة فى غاية الشراسة، والوحشية للإقامة داخل الفندق بشكل نشر الذعر والهلع بين رواد الفندق بأكمله، وجعل النزلاء يفرون منه فرار السليم من الأجرى؟!

وهل تذكرون ما حدث منذ عامين فقط عندما كان الطبيب المصرى مسعود حسان يقضى أجازته الأسبوعية مع زوجته وأطفاله الثلاثة نورهان وحبيبه وأحمد وذهبت حبيبه الصغرى تلهو، وتلعب ببراءة فى حديقة الفندق فهاجمتها ثلاثة كلاب مفترسة أشبه بالأسود الجائعة، ونهشوا وجهها الطفولى الطازج وجسدها النحيل الصغير بلا رحمة حتى فقدت الوعى؟!

وقتها لم يرتجف رمش، ولم تهتز شعرة واحدة فى رأس الأمير طایل وزوجته الأميرة هند العباسى، وابنته جواهر وتم اجبار الطبيب المسكين

على الصلح مقابل ١٠٠ ألف جنيه ثمن علاج ابنته سيئة الحظ
وماذا كان يستطيع أن يفعل طبيب صغير بسيط الحال لا حول له ولا قوة
أمام نفوذ ، وجبروت فرع رئيسى من فروع العائلة المالكة؟!

وهل تذكرون عندما احتجرت الأميرة هند العباسى وأفراد حراسها
الغلاظ القساة عمالاً مصريين وفلبينيين ، وعذبوهم داخل فندق الهيلتون
بسبب شكاوى عادية تقدم بها العمال الغلابة ، اتهموا فيها الأميرة بعدم
سداد رواتبهم وإساءة معاملتهم؟!

أما الأميرة المدللة جواهر ربة الصون والعفاف ، وملكة حفلات منتصف
الليل وصاحبة الهامرات التى تملأ سوق المطربين ، فلم ينج مغنى مصرى
ركب سيارة هامر من ثرثرة عن وجود علاقة غرامية سرية تربطه بالأميرة
الصغيرة التى يتمنى المطربون جميعاً بلا استثناء الحصول على دعوتها
لإحياء حفلة أو تقبيل اليد هناك!

هذه هى أميرة الليل والسهرة ، وشباب المطربين ، والمراهقين من نجوم
برامج "ستار أكاديمى" وهى ذاتها الأميرة التى لا تجد مانعاً فى عدم
سداد ٥٠٠ ألف جنيه بعد الدعوى القضائية التى رفعها ضدها مورد اللحوم
لها ولأسرتها وحاشيتها وكلابها المفترسة!

التهموا اللحم مثل الأسود الجائعة فى البرارى ، ورفضوا دفع الفاتورة
هل هناك عاقل يفعل ذلك؟! هل هذه أخلاق الأمراء والأميرات والنبلاء
والنبيلات؟!

كما أن الأميرة جواهر سبقت الأميرة خلود فى مسألة النصب والإحتيال
واغتصاب مجوهرات ليست ملكاً لها ، وذلك مثبت فى أوراق رسمية ، وفى
حيثيات حكم صادر عن محكمة "جنايات أبو العلا" غيابياً بسجن الأميرة
هند العباسى ٤ سنوات مع الأشغال الشاقة بتهمة سرقة مجوهرات قيمتها
٦ ملايين جنيه ، ولم تجد الأميرة مفرّاً من حكم المحكمة إلا بالتصالح
مع الجواهرجى ، وإعادة المجوهرات إليه ، ويبدو أن الأميرة خلود قررت

استكمال مسيرة الأميرة هند وابنتها جواهر فى القاهرة عبر حدوده نصب
كشفتها قضية غريبة مع رجل الأعمال حمدى الكومى والتى اتهمها فيها
بأنها أبداً لم تسرقه ، وأنه تزوجها عرفياً ١٩ يوماً فقط ، وأعطاهما كل شئ
عن طيب خاطر ، والعصمة كانت فى يدها وعندما دبت الخلافات بينهما
طلقته ، فاستشاط غضباً واتهمها بالسرقة!

وبينما حمدى الكومى ينكر زواجه منها كانت هى تؤكد للجميع وفى
تحقيقات النيابة أنها مزقت بيدها ورقة زواجهما العرفى فى لحظة غضب
أثناء شجارها معه ، وقالت اسألوا الشهود على زواجى منه ومعاشرتى إياه
وأكدت أنها نامت فى فراشه عشرة أيام فقط ذاقت خلالها عسيلته ، وذاق
عسيلتها!

وسواء كانت خلود العبسى أميرة حقاً وزوجة سابقة لابن جلالة الملك أو
كانت مجرد متمسحة ثرية فى الأسرة الملكية بعد انفصالها عن ابن الملك
تبقى فى نهاية الأمر هى نموذج جديد لشراء الأنثى الخليجية التى تستغل
الخيال المصرى عن الأسرة الحاكمة ، ولعاب رجال الأعمال الذى يسيل
على مغامرة نسائية مشبوبة قد تقربه من كرسى العرش الخليجى الذى
يفيض بالمال والذهب ، والنفوذ والوجاهة ، وهنا تنصب الأميرة شباكها
وتضرب ضربتها ، وتتهب فريستها حتى ولو كان فى الأمر فضيحة أخلاقية
أو ورقة عرفية تتنافى تماماً مع الأجواء السائدة فى بلدها الخليجى.

الناس فى بلادى يتساءلون:

أين الحجاب.. أين النقاب؟!

أين ذهب هيئة الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر؟!

أين ذهب تطبيق الشريعة الاسلامية التى تعمل بمبدأ الثواب والعقاب؟!

لماذا تركت الأسرة المالكة سمعتها تتلطح فى الوحل على أيدي

أميرات الهامر؟!

هذا السؤال سيبقى مطروحاً فى مصر مادامت حفلات الأميرة جواهر
الجهنمية مجلجلة فى سماء القاهرة مهد الأزهر وحصن الاسلام.. وسيبقى
السؤال مطروحاً مادامت الأميرات الخليجيات مثل هند وخلود وغيرهما
مقتنعات بأن أموالهن تمنحهن حق استعباد البشر، واستغلالهم للمتعة
الشخصية، وتعذيبهم وقتلهم إذا لزم الأمر!
اختتم عطا الهلالى مقاله النارى قائلاً:

لم أتحدث عن حوريات من عالم ألف ليلة وليلة، بل أتحدث عن أميرات
من لحم ودم وأحاسيس وخطايا.. ولست أنا أول من يخوض فى هذا العالم
الشائك بالألغام الحافل بالأسرار والخفايا، وما لا يصدق عاقل أو مجنون..
ولست أنا صاحب الفضل الأوحى فى الجرأة والشجاعة، وكشف المستور
من عظام الأمور فهناك الكاتب المشهور "روبرت ليسى" الذى وضع
كتابه الأشهر "المملكة" عن فضائح الأميرات الخليجيات، ونزقهن
وعريدهن بصورة تفوق الخيال الجامح!

لكل هذا كان ناجى شرف الدين خائفاً على أستاذه، متوجساً من أن
يصيبه مكروه لا يعلم من أين يأتیه لكنه قادم لا محاله برغم عدم وجود
دلائل تؤكد هواجسه اللهم إلا حاسته السادسة التى تنذره بأن عطا الهلالى
على شفا حفرة من الهلاك!

" القلوب تحيا بالحب وتموت بالحقدا "

مضت الأيام الأولى لإيناس مندور فى سويسرا هادئة لذيدة ، وبسرعة بدأت تتكيف على الأجواء ، والناس والنبات.. أحبت الهدوء ، وبعين خبيرة كانت تبحث لها عن رفيقة ، أو أنثى تواصل معها علاقتها الحميمية الأثيرة ، وجاءت جانبى بالطبع فى المرتبة الأولى ، ولكن الصدفة جاءتها سريعة عندما عرفت أن جانبى تركت منزل عائلتها منذ أكثر من عام ، وتعيش بصحبة صديق لها فى شقة صغيرة بشمال مدينة زيورخ اختارت أن تنتقل للحياة مع صديقها بعد قصة حب عابرة سريعة وقصيرة ، وبرغم عدم رغبتها فى الإنجاب منه إلا أنها تحبه ، وتفضل أن تؤجل الحمل منه حتى تحقق طموحاتها أولاً حيث تعد دراسة فى الجامعة لنيل درجة الماجستير فى " علم المصريات " .. حزنت إيناس مندور كثيراً بعد أن عرفت تفاصيل حياة جانبى ، فقد خيبت آمالها فيها ، حيث كانت تراها رفيقة نموذجية لها بامتياز تشاركها خصوصياتها وعملها ، وفى آخر الليل وأيام الأجازات تشاركها أحضانها وفراسها !

أول شئ فعلته بعد أن استقرت بها الأحوال فى سويسرا بعثت برسالة قصيرة إلى ناجى شرف الدين على بريده الالىكترونى تقول فيها :

" ناجى .. كيف حالك يا جورنالجى .. هيا يا فلاح صاحبة

الجلالة أخبرنى عن عملك وحياتك وأحوالك .. أريد أن

أطمئن عليك يا صديقى العزيز! "

مع تمنياتى لك بالتوفيق.

إيناس مندور / سويسرا.

تلقى رسالتها بسعادة غامرة برغم ما فيها من روح دعاية ساخرة لكنها

لطيفة ومقبولة ، وهو يتقبل من إيناس أى شئ وكل شئ ، فهو معجب بشهامتها ، وشجاعتها ، وخروجها على المألوف فى كثير من الأحيان ، ولا يعجبه فيها أشياء كثيرة أيضاً يفضل ألا يتحدث عنها لأنه يؤمن بالحكمة القائلة :

" لا تتحدث إلا عن الخير الذى تعرفه فى كل الناس ،
وتغاضى عن عيوبهم وصغائرهم ."

وهو فى نفس الوقت لا ينسى ما فعلته من أجله ، فهى التى فتحت أمامه أبواب صاحبة الجلالة الصحافة بعد أن غُلت كل الأبواب فى وجهه ولم تشفع له شهادته العليا فى الإعلام والصحافة من جامعة القاهرة أعرق الجامعات العربية والأفريقية برغم التصنيف العالمى الذى استبعدها من بين أفضل ٥٠٠ جامعة على مستوى العالم.

رد ناجى شرف الدين على رسالة إيناس الموجزة برسالة أبدى فيها سعادته لإحساسها بالراحة والسعادة فى سويسرا ، وتسلمها لعملها الجديد فى أجمل بلاد الدنيا وجنة الله على الأرض ، وتمنى لها التوفيق فى حياتها الجديدة ، ثم حكى لها عن المفاجأة التى لم تتوقعها ألا وهى انتقاله للعمل فى مؤسسة " الأيام " للصحافة والنشر.

لقد أصبح الآن زميلاً لها فى ذات المؤسسة العريقة وقال لها :

يبدو يا عزيزتى أن القدر يابى ألا يفرقنا وألا يجمعنا أبداً ..
ها أنذا أنتقل بمعجزة لم أكن أتوقعها على الإطلاق إلى نفس المكان الذى تعملين فيه ، لكن وأسفاه حدث ذلك بعد مغادرتك للمؤسسة ومصر كلها .. على كل الأحوال نحن متفقان فى أشياء كثيرة .. واليوم أنت يا إيناس حققت حلمك الجميل بالعمل فى إمبراطورية كرة القدم العظمى المسماه بالفيفا ، وأنا يا صديقتى حققت حلمى

أيضاً بالعمل فى مؤسسة " الأيام " العظمى للصحافة.
نحن متعادلان فى كل شئ.. تمنياتى لك بالتوفيق والنجاح
فى مهمتك الجديدة، وفى انتظار رسائلك يا إيناس.

ناجى شرف الدين

القاهرة

لم تفرح إيناس بانتقاله للعمل فى مؤسسة " الأيام " التى تعتبر حكرًا على
أبناء الكبار من المسئولين والكتاب، وقدامى الصحفيين والوزراء، بل
أحست فى صدرها بشئ من الغيرة والحقد، وبرغم أنها تعرف أنه غير لائق
لهذا المكان إجتماعيًا!

ولم تتوقف كثيرًا أمام رسالته وهمست لنفسها:

الحياة فى مصر مثل الأرجوحة.. يوم فى السماء ويوم فى الأرض.. هى
فوضى.. والنجاح فيها حين ميسرة.. الصدفة والمحسوبة هما الأساس
وهناك هامش ضئيل للنظام.. وقد يأتى الصعود للقمة بطريقة عشوائية،
وقد لا يأتى لمن يستحقونه..

ومضت لحال سبيلها تواصل عملها بين زملائها فى " الفيفا " وكان لها
زميلًا فرنسيًا فى الأصل لكنه سويسرى الجنسية يدعى " إيمانويل " بدا الفتى
معجبًا بها، ويحاول قدر طاقته أن يستدرجها إلى علاقة عاطفية.. صداقة
حميمة أو لقاءات غرامية ملتعبة، فلا وقت هناك للعواطف والرومانسية،
والحب العذرى، فالحب لديهم هو طريقة مهذبة للجنس.. الحب لديهم أسرع
طريقة لمواقعة الجميلات!

أحست من نظراته وإيماءاته بما يدور فى ذهنه، أغلقت فى وجهه كل
الأبواب، أعادت شيطان نزواته إلى القمقم، وعاملته بغلظة وبطريقة جافة
فضة، فأدرك على الفور أنه غير مرغوب فيه وأنه أبدًا لن يكون فارسها.

وقال لجانيت:

— ما بال صديقتك المصرية عنيدة مشاكسة ومتخلفة مثل الكثير من الذين يفدون علينا من الشرق الأوسط.. ماذا تظن نفسها؟! هل تعتبر نفسها نفرتيتى أو كليوباترا؟!

لكن أود أن أسألك يا جانيت.. لماذا تتمنع على؟! هل لديها صديق فى سويسرا أو زوج فى مصر؟! ضحكت وقالت متسائلة:

— ماذا أصابك يا إيمانويل؟! هل سحرتك الفتاة المصرية؟! أم أصابتك لعنة فرعونية من بنت قادمة من أرض الهرم وأبو الهول ومسلات الأقصر؟! قال بغيظ:

— نعم.. أريدها.. أريدها يا جانيت.

— ولكنها لا تريدك يا عزيزى.. وهذا يكفى لكى تكون رجلاً متحضرًا ، وتتعامل معها بلباقة فى ضوء ذلك وعليك أن تحترم مشاعرها ، وهذا هو الشئ الوحيد الذى لا يمكن أن يحدث بالقوة ، بل بالتفاهم والود ، وانسجام القلوب والعقول والأرواح قبل اندماج الأجساد وتلاقيها.. هز رأسه مستكراً وتركها وانصرف غاضباً ناقماً!

" لا تصدق هؤلاء: التاجر عندما يحلف.. والسكير عندما

يصلى.. واللعب عندما تبكى! "

" عندما تعجز المخابرات الأمريكية عن فهم ما يدور حولها فى أنحاء العالم وبالتبعية المخابرات الإسرائيلية ، فإنها تسعى إلى اختراقه وتغييره بكل الوسائل.

" كانت هذه العبارة التى استخدمها الصحفى الأمريكى " تيم فينر " الحائز على جائزة بوليتزر أهم وأعظم الجوائز فى الصحافة العالمية ، وهو الرجل الذى قرأ ٥٠ ألف وثيقة سرية من قلب أرشيف المخابرات الأمريكية ، وهو ذاته صاحب كتاب " التاريخ السرى للمخابرات الأمريكية " والذى يجسد فيه فشل المخابرات الأمريكية فى معاركها منذ الحرب الباردة مع السوفيت وحتى أحداث أيلول الأسود فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ التى مثلت قمة الفشل والإخفاق فى حماية أمريكا والحفاظ على سمعة المخابرات الأقوى والأعظم فى العالم.

كان عطا الهلالى من أشد المعجبين بهذا الصحفى المغامر المغوار ، وكتاباته الجريئة ، لذلك لم يتوقف عن كتابة مقالاته وموضوعاته الصحفية الهجومية _ اقتداء بالصحفى الأمريكى التى تخترق المناطق المحظورة ، وتتجاوز الخطوط الحمراء ، وتنتهك المحرمات وتنتهك التابوهات المقدسة بالنسبة للمجتمعات العربية ، وتقاليدها البالية ، وتناقضاتها المضحكة !

كان حريصاً كل الحرص على أن يمزق بقلمه المسموم كل القيم الشائكة ، وكأنه يكتب بحبر إلهى قادر على تطهير جسد أمته العربية من المحيط إلى الخليج من كل الخطايا والآثام ، لا يخاف من لومة لائم ، ولا يخشى فى الحق من بطش حاكم ظالم.. يكتب ما يقتنع به ، ورزقه

على الله.. والكثيرون يظنون أنه مسنود من مسئول كبير، بينما الحكاية تتلخص فى أنه ليس لديه ما يخشاه أو يخشى عليه، فلا زوجة، ولا مال، ولا عيال.. والحديث الشريف يؤكد أن العيال مخافة مجبنة.. بمعنى أن الأب دائماً يخاف على نفسه حرصاً على أولاده الصغار.

وهذه المرة كتب عطا الهاللى يقول تحت عنوان:

"طبيب اسرائيلى يعالج العجز الجنسى لملك العرب!"

كشف الطبيب الاسرائيلى "موشيه مانى" المختص فى علاج العجز الجنسى والمسالك البولية فى مقابلة صحفية أجرتها معه صحيفة "يديعوت أحرونوت" الإسرائيلية عن أسرار العجز الجنسى لدى ملك أكبر دولة خليجية، وعدد من الأمراء فى الأسرة الحاكمة الذين خضعوا للعلاج سراً تحت يد الخبير الإسرائيلى فى قصورهم الفخمة على شاطئ الخليج العربى.. لكن الأمر لم يتوقف عند العلاج فقط، ومعرفة الأسرار الجنسية لدى هؤلاء القادة، بل تعداه إلى قضايا أخرى أهم من ذلك بكثير لدرجة أن رئيس المخابرات الاسرائيلى "الموساد" ديب كيمحى "قال فى هذا الخصوص:

"إن ما قام به الطبيب الإسرائيلى "موشيه مانى" لصالح وطنه إسرائيل يعد عملاً رائعاً وخدمة جليلة لإسرائيل فى صراعها مع العرب.. لقد عانى كثيراً وعرض حياته للخطر من أجل بلده، وهو يستحق التكريم."

هكذا إذاً لم تكن المهمة طبية فقط، بل كانت مهمة مخابراتية من الدرجة الأولى!

البداية كانت من ضابط المخابرات فى "الموساد" يومها المدعو يعقوب نمرودى، وشريكه العربى رجل الأعمال المعروف الملياردير حسان خاشوقجى فى ربيع العام الماضى حيث عقدا لقاءً مشتركاً فى جنيف عرف خلاله خاشوقجى تخصص البروفيسير موشيه مانى، وعرف أيضاً أنه على درجة عالية من المهارة والكفاءة بحيث يستطيع تحسين النشاط

الجنسى لمن يعانى من العجز بواسطة أدوية خاصة ، وتركيبات كيميائية يحضرها فى معمله الخاص ، وذلك بالإضافة إلى إجراء عملية زرع جهاز طبي إذا لزم الأمر..

خاشوقجى على حد تعبير موشيه مانى فى المقابلة المذكورة طار فرحاً ، وقال : إن لديه مهمة خاصة ، وسيعود ويتصل به بعد فترة وجيزة.. من هنا بدأ مشوار موشيه مانى إلى رحاب القصور العربية لزعماء العالم العربى من العجزة فى التعامل مع تضاريس النساء! وعندما وصل موشيه إلى المملكة بجواز سفر بريطانى تم استصداره أو تزييفه ، ونقل فى سيارة فارهة إلى القصر الملكى الكبير برفقه خاشوقجى وحاشيته.. ومن ثم قام بالإنفراد بالملك الذى يعانى من العجز الجنسى برغم أن عدد حريمه ، والقائمات منهن على متعته لا يحصى!

وبعد ساعات حدثت المعجزة حيث قدم الطبيب الإسرائيلى العلاج اللازم بعد أن كشف الملك أسرارهِ الجنسية ، وباح بها للطبيب ، وخرج بعدها الملك المفدى منفرج الأسارير ، منبعج الأوداج لأن عقدة حياته انتهت ، وشعر بتحسن فورى فى قدرته الذكورية على حد وصف موشيه مانى ، ومرافقه حسان خاشوقجى مما أدى إلى فتح أبواب القصور الملكية الأخرى أمامه سواء كانت تلك القصور على شاطئ الخليج أو فى عواصم عربية أخرى.

وأحس الملك إحساس الزوج الذى تعاطى حبة فياجرا قوية جداً وصار جاهزاً لمصارعة أنثاه فى معركة الفراش الحاسمة ليلة الجمعة ، وهو الموعد المحب لدى الأزواج العرب للتوقيع بالحضور والانصراف فى كهف المتعة!

وأكد البروفيسور موشيه مانى أنه شعر بالارتياح التام عقب نجاحه فى هذا الامتحان العسير لدرجة أن مكتب رئيس الحكومة الإسرائيلية أصدر أمراً لإدارة مستشفى "تل هشومير" فى العاصمة تل أبيب بعدم توجيه أى سؤال له بشأن اختفائه عن عمله بالمستشفى الحكومى ، وأن تدفع الإدارة

راتبه كاملاً مع كل المكافآت، والحوافز والبدلات، وأطلق عليه لقب "طبيب بلا حدود" لأنه تمكن من التجول فى عدد من العواصم العربية وزرع أجهزة تنصت فى قصور الملوك والرؤساء والأمراء العرب لتتقل المعلومات والمحادثات والأسرار مباشرة لحظة بلحظة إلى من يهيمه الأمر فى تل أبيب. هذا ما كان بالفعل.. وعندما وجه أحد زملائه الأطباء سؤالاً له قائلاً:

— أين كنت يا موشيه طيلة مدة غيابك عن المستشفى؟! كان جوابه..

فى مشوار علاجى لمرضى إيرانيين فى العاصمة طهران!

وهكذا تطورت العلاقات مع حسان خاشوقجى على حد تعبير موشيه مانى لدرجة أنه أصبح المسئول عن الاستقبال والضيافة للوفود العربية التى تصل إلى قصوره ومكاتبه، وتم منحه حق الإنفاق غير المحدود على ضيوفه، وعلاجهم جنسياً، بما فى ذلك توفير فتيات لهم لمعرفة حقيقة تحسن وضعهم الجنسى.. والسؤال:

من كان يدفع هذه الأموال الباهظة يا ترى؟!

هل هو حسان خاشوقجى أم شركاؤه مثل نمرودى، وغيره من ضباط الموساد الاسرائيلى؟!

وتواصلت العلاقات مع الملك، وامتدت تلك العلاقات إلى بقية الأمراء فى القصر الملكى، وعندما تعذر على البروفيسور "موشيه مانى" الوصول إلى المملكة لسبب ما قام الملك، وغيره من الأمراء بالسفر إلى أسبانيا، وتحديداً إلى منطقة ماربيا السياحية حيث يملكون القصور هناك أو إلى الريفييرا الفرنسية، ويكون بانتظارهم هناك "موشيه مانى" وغيره من الأطباء لتقديم العلاج الجنسى، وتحسين مستواهم فى الفراش.. وأكد موشيه فى المقابلة مع صحيفة "يديعوت أحرونوت" أن حسان خاشوقجى كان ينفق الأموال لهذا العلاج.. وانتشر صيت الخبير الإسرائيلى بين الزعماء العرب، واستدعاه ملوك ورؤساء آخرون فى العديد من العواصم العربية لنفس الغرض.

وممن يذكرهم موشيه مانى هو الزعيم السودانى السابق حيث تم استغلال هذه العلاقة لضمان هجرة اليهود الفلاشا من إثيوبيا إلى إسرائيل عبر الأراضى السودانية.

ويقول موشيه مانى: أنه نجح فى اقناع الزعيم السودانى السابق بتقديم المساعدة وفتح الحدود لإقامة المخيمات، ودخول الطائرات أيضاً لنقل المهاجرين إلى إسرائيل أثناء جلسات العمل، بالإضافة إلى الثمن الذى قبضه الزعيم السودانى السابق ٦٠ مليون دولار ودخل حسابه السرى فى بنوك سويسرا.

" كلمة الحب عند الفنانين مثل كلمة الديمقراطية عند
السياسيين لا معنى لها! "

قبل أن ينتقل ناجى شرف الدين للعمل فى مؤسسة " الأيام " للصحافة حدثت حكاية غريبة فى جريدة " مصر اليوم " كانت بطله هذه الحكاية نهير السياجى المحررة فى قسم الفن بالجريدة.. تلك الفتاة السمراء مكتنزة الشفاه ذات الشعر الأسود الناعم والجسد الفاتر ، والعيون العسلية.. كان جمالها فيه مزيج من الشرق والغرب من أوروبا وأفريقيا ، وبين الحين والآخر كان ناجى شرف الدين يشعر بأن قلبه ينبض لها و من أجلها ، وأنه معجب بها ، وأن نظراتها له تبادله الإعجاب ، وبين الحين والآخر كان يفتعل الأسباب ليجلس معها فى صالة التحرير ، ويحكى معها عن شئون الحياة و شجون الصحافة ، ورسائل القراء وأخبار الفن والفنانين فى مصر والعالم.. كانت بوادى الحب فى أولها ، وبذرة الشوق تنمو فى قلبيهما ، ولأنهما يلتقيان دائماً بحكم العادة والعمل اليومى ، ولأن العادة أقوى من الحب.. كان لا يطيق أن يمر يوم دون أن يراها ويحدثها ، وذات يوم وقعت الواقعة ، فقد كلفها عمر الشهابى رئيس التحرير بإجراء حوار صحفى مع المطرب الشهير عمرو الدقاق فى فندق الميريديان الذى يفضل الإقامة فيه معظم شهور العام ، وخاصة حينما يكون فى فترة راحة واسترخاء بعيداً عن الوسط الغنائى والحفلات والمهرجانات ، ولم تتأخر نهير السياجى.. وعلى الفور أجرت اتصالاً هاتفياً بالمطرب الشهير ، ولم يرد عليها كعادته ، وأرسلت له رسالة على هاتفه المحمول ، وبعد يومين جاءها الرد ، وبالفعل عاودت الاتصال به ، وحدد معها موعداً لإجراء الحوار ، وعندما ذهبت إليه فى الفندق حاولت انتظاره فى قاعة الاستقبال على أن ينزل إليها لإجراء الحوار لكنه رفض ، وطلب منها أن تصعد إليه فى غرفته ، فكرت فى التراجع ، وتذكرت أنها

على وشك التعيين وتريد ألا تفقد ثقة رئيس التحرير فيها ، لو أخفقت فى إجراء هذا الحوار مع المطرب الشهير المغرور ، والأهم بين مطربى جيله فى مصر والوطن العربى.

تحاملت على نفسها ، وصعدت إلى غرفته مضطرة مكرهة ، وفجأة وجدت أنها بين أنياب الأسد ، فلم يكن أبداً المطرب الرومانسى الناعم الهامس الذى تتهافت عليه الفتيات المعجبات فى الحفلات ، وتلقى عليه الدباديب والورود وتقابله بالقبلات والأحضان فى كل مكان يذهب إليه.. هاجمها مطرب الرومانسية كوحش كاسر جائع شره ، مزق ملابسها ، شرع فى اغتصابها لكنها كانت أكثر منه شراسة فى صمودها ومقاومتها ، دافعت عن شرفها ببسالة بكل ما أوتيت من قوة ، وصرخاتها تدوى فى جناحه الخاص بالفندق الكبير المطل على النيل ، ولم ينقذها سوى عاملة خدمة الغرف التى طرقت الباب عندما سمعت الصرخات!

لعنها المطرب عمرو الدقاق ، واتهمها بالغباء والجنون والحماقة ، وأن هناك بنات أجمل منها مليون مرة يحلمن بأن يقضى معهن ليلة واحدة لنيل شرف النوم فى فراشه والتقلب بين أحضانه !

خرجت باكية حزينة مذهولة مفزوعة ، مهوشة الشعر ، دموعها تبلل وجهها وثيابها مهلهلة كأنها كانت فى معركة ، وعلى شريط التسجيل الذى أدارته لإجراء الحوار قبل أن يفكر المطرب فى افتراسها سجل كل ما دار بينها وبين ملك الأغانى العاطفية ، ومطرب الحب والرومانسية.

لم تكن تعلم أن الشريط دار ليرصد تفاصيل تلك المهزلة ، وذهبت إلى رئيس التحرير ، وأبدت أسفها وندمها وحسرتها على عدم قدرتها على إجراء الحوار الصحفى لأنها تعرضت لفعل فاضح ، وتحرش جنسى سافر من ذئب بشرى يتكرر فى رداء فنان ، وعندليب الأغانى لعصرنا الحالى.

وعندما شكت لرئيس التحرير كل ما حدث من المطرب المجرم الذى يظنه ملايين من عشاق أغانيه أنه ملاك هبط من السماء!

بعد لحظات من الصمت والتفكير العميق قال عمر الشهابى:
اسمعى يا نهير.. أكتبى الواقعة كاملة فى موضوع صحفى، وأعطينى
هذا الموضوع، وسوف أنشره إذا لزم الأمر..

فعلت نهير ذلك بأسى ومرارة، وكأنها كانت تكتب شهادة وفاتها،
لكنها كتبت الموضوع التى اعتبرته أفضل ثأر لكرامتها الجريئة،
وأحسن رد اعتبار لكبريائها المهزوم، وبمجرد أن حصل رئيس التحرير
على الموضوع بخط يدها، والشريط المسجل عليه كل الحوار والصراخ
والآهات، والشد والجذب بين نهير السياجى وعمرو الدقاق، وهو يساومها
ويغازلها فى البداية ثم يحاول افتراسها فى النهاية بعد يأسه من استباحة
جسدها بالحسنى.

اتصل رئيس التحرير بالمطرب الأشهر، وأخبره بما بين يديه من أوراق
ومعلومات وأدله تدينه وتشوه صورته فى عيون جمهوره، وأنه بإمكانه نشر
الموضوع فى الجريدة، وتكون فضيحة مدوية، أو يأمر نهير السياجى
بتقديم بلاغ رسمى للنائب العام، وتكون الفضيحة أكثر دويًا.. كانت
نبرة صوته فيها ابتزازاً صريحاً لا موارباً، وفهم المطرب الرسالة، وفى
نهاية الأمر أعطى رئيس التحرير مليون جنيه، وحصل منه على الموضوع
الصحفى الذى كتبه نهير بيدها، واسترد الشريط الدليل المادى على
محاولة الاغتصاب المخجلة، وطلب المطرب من رئيس التحرير أن يطرد
تلك الصحفية من الجريدة خاصة وأنها مازالت تحت التمرين.. لكن عمر
الشهابى استذكر هذه الفكرة، وأقنعه بأن وجودها فى الجريدة أمام عينه
وتحت رقابته يضمن له ألا تفتح فمها، وألا تثير الموضوع مجدداً.. أما لو
طردها فمن يدرى فقد تتهور وتنتشر ما حدث فى جريدة أخرى..

اقتنع المطرب عمرو الدقاق بهذه الحيل، ورضى بالصفقة الوقحة..
وانتهى الأمر عند هذا الحد!

لاحظت نهير صمت رئيس التحرير المريب وتخاذله المعيب، وأحست

بشبهة تواطؤ بينه وبين المطرب إياه، فكرهت كل المطربين ونقمت على
الفن والفنانين الأخيار منهم والأشرار، وطلبت نقلها من قسم الفن إلى قسم
التحقيقات عساها تهدأ نفساً، وتتخلص رويداً رويداً من ذكرياتها المؤلمة
وكان لها ما أرادت!

" منذ متى كانت الذئاب معنية بحراسة الحملان بدلاً من التهامها؟!"

أحس عمر الشهابى بما يدور فى نفس نهير السياجى ، واستشعر خيبة أملها فيه ، لذلك طلبها لمقابلته فى مكتبه ، وكان لطيفاً ودوداً معها إلى أقصى درجة ، وإن كان يتحاشى النظر مباشرة إلى عينيها لأنه لمح فيهما الغضب المكتوم ، واللوم المكنون وقال لها :

_ لقد وافقت على انتقالك إلى قسم التحقيقات مراعاة لظروفك النفسية ، وأتمنى أن تكونى أكثر جدارة بالعمل فى هذا القسم خاصة وأن قسم الفن يحتاج لمحتررين لا محررات حيث السهر لما بعد منتصف الليل ، ومتابعة أخبار الفنانين والفنانات فى البلاتوهات والكباريهات والسهرات فى الفنادق والكازينوهات والحفلات.

قالت نهير بتحد وعناد :

_ أرجو أن توافق على أن يكون أول تحقيق صحفى أجريه عن التحرش.. وسوف يكون عنوانه.. " كلاب الشوارع "

_ فكرة عبقرية ورائعة يا نهير.. وأنا موافق من حيث المبدأ على تنفيذها لكن بشرط.

_ شرط.. ما هذا الشرط؟!

_ أن يكون هذا التحقيق مدعماً بالدراسات والأرقام والإحصائيات ، ولا تحدثين فيه عن أسماء أو حالات فردية طبعاً مفهوم يا نهير وأفضل أن يكون عن التحرش فى الوطن العربى بصفة عامة ، ومصر بصفة خاصة.

أريد أن يكون هذا التحقيق على مكتبى على وجه السرعة يا نهير.
— أمرك يا أفندم.

انصرفت من مكتبه ، وحالة الإحباط التى تسيطر عليها قد خفت حدتها وخفت وتيرتها ، وإن كانت ترى أن تعرية المتحرشين وفضحهم أمام المجتمع هو الحل ، والمطالبة بتشديد العقوبات على هذه الفئة الضالة لتصل إلى الإعدام.. هذه هى قضيتها التى ستدافع عنها وسوف تكسبها من خلال عملها فى قسم التحقيقات ، ولحسن حظها كانت القاهرة فى تلك الأثناء تشهد أعمال مؤتمر " التحرش الجنىسى والعنف الاجتماعى ضد النساء " الذى تشارك فيه ٢٢ دولة عربية بالتعاون مع المركز المصرى لحقوق المرأة العربية ، وبرنامج الأمم المتحدة للسكان والأسرة لحماية حقوق النساء..

وبعد أيام معدودات عادت نهير السياجى لرئيس التحرير ، وفى يدها التحقيق الجرى المثير الذى كتبت فيه :

" المرأة العربية مهانة فى بلادها ، جسدها مستباح ، وكرامتها مهدرة ، وأنوثتها سر عذابها.. الرجال اعتبروها مثل لوحة نيشان يفرغون فيها طلاقات غرائزهم وكبتهم وضعفهم.. الذكور يعتبرونها لعبتهم المفضلة ، ومن خلال التحرش بها يحاولون إثبات رجولتهم وفحولتهم المهدرة تحت أقدام حكامهم.. يختلف العرب فى كل شئ ، واتفقوا على التحرش بنسائهم من المحيط إلى الخليج وبنفس الأساليب الوقحة".

وطالب المؤتمر بقانون موحد لتجريم التحرش ، وتغليظ العقوبة لتصل للإعدام شنقاً على اعتبار أنه جريمة العصر فى بلاد العرب ، والتى أعلنت أكثر من ٨٠٪ من نساء العرب من معاناتهن من هذه الظاهرة المخجلة!

ورغم انتشار التحرش فى معظم الدول العربية فإن بلاداً قليلة فقط هى التى تنبته لخطورته ، وسنت القوانين لحماية نسائها من الذئاب البشرية الجائعة بشراهة للحم أبيض،

وكان على رأس تلك الدول الجزائر التى أكد وفدها فى دراسة علمية قدمها للمؤتمر أن ٢٧٪ من بنات الجزائر فى الجامعات والمعاهد والمدارس تعرضن لمضايقات من الأساتذة والمدرسين وزملاء الدراسة، كما شكّا ٤٤٫٦٪ منهن من المضايقات اللفظية والإشارات الإباحية الصريحة.. بينما أفصحت ١٣٫٨٪ عن تعرضهن للمضايقات الجسدية.

وفى قطر نجد أن ٢١٫١٪ من الفتيات قد أفصحن عن تعرضهن لذات الأذى، وكذلك هناك ٣٠٪ من النساء العاملات قد تعرضن للتحرش فى مكان عملهن من جانب الزملاء والرؤساء..

وفى السعودية يتعرض ٢٢٪ من الأطفال للتحرش من الكبار.. وتلك جريمة أخلاقية بشعة يجب بترها من جسد المجتمع العربى، وأشارت الدراسات والإحصاءات الرسمية فى المملكة أنه فى عام واحد وقعت ٩٨٠٠ جريمة أخلاقية كان منها ١٥٠٠ جريمة تحرش!.

أما فى اليمن فنجد أن ٩٠٪ من نساء هذا البلد الأفقر فى العالم العربى والذى يطلقون عليه اليمن السعيد قد اشتكين من تعرضهن للتحرش سواء فى أماكن العمل ودواوين الحكومة أو فى الأماكن العامة..

وفى دراسة مهمة وخطيرة أجراها المركز المصرى لحقوق النساء كشفت أن ٨٣٪ من النساء المصريات تعرضن بالفعل للتحرش بأنواعه المختلفة سواء التحرش الجسدى أو اللفظى أو بالإشارات والإيماءات والحركات والنظرات.

ومن خلال دراسة أجراها المركز المصرى لحقوق النساء تحت عنوان: "غيوم فى سماء مصر" أثبتت الدراسة أن ٥٩٫٤٪ من ضحايا التحرش شعرن بالغضب الشديد، كما أكدت أن ١٩٫٥٪ من النساء شعرن بالخوف والألم، وأنهن مهددات بالتحرش مجدداً فى أى وقت بينما ١٢٫٩٪ شعرن بالإحراج والخجل، بينما أشارت الدراسة أن ٩٫٢٪ شعرن بالإكتئاب، فى حين أن ٥٫٦٪ شعرن بالاضطراب والصداع والأرق والكوابيس المفزعة، كما نجد

أن ٣٪ عاتبن أنفسهن على تعرضهن للتحرش، لأنهن يتحملن جزءاً كبيراً من المسؤولية كما أكدت الدراسة أن ٤١٪ من الأجنيات شعرن بأنهن تحت تهديد المتحرشين في كل مكان يذهبن إليه في مصر، وأشارت الدراسة إلى أن ٣٥٪ من الأجنيات قد شعرن بالارتباك، وعدم القدرة على التصرف ومواجهة المتحرشين!

وكشفت نتائج دراسة "غيوم في سماء مصر" أن ٤٣٫٧٪ من النساء أكدن أن تعرضهن للتحرش أثر بالفعل على حياتهن بشكل سلبي، وترى ٥٠٪ أن التحرش أثر بالسلب على ثقتهن في الآخرين، كما أكدت ٤٢٪ من عينة الدراسة أن التحرش انعكس على طريقة التعامل مع الآخرين..

وحول مدى إحساس النساء بصفة عامة بالأمان في الأماكن العامة، والخاصة كشفت الدراسة أن ٨٣٫٩٪ من النساء لا يشعرن بالأمان في الشارع، ووسائل المواصلات العامة، بينما ٢٧٪ من العاملات إعرفن بأنهن لا يشعرن بالأمان على أنفسهن في أماكن عملهن، ومازالت مصر كلها تتذكر الوزير الشهير الذي كان يتعاطى الفياجرا يومياً كما يأكل ويتنفس، وبداخل مكتبه غرفة نوم كاملة مجهزة لممارسة الحب فيها مع موظفات وزارته، وقد ضاجعهن بالدور وعلى مدى خدمته في الوزارة التي تصل إلى ربع قرن في تلك الوزارة السيادية المهمة المطلة على النيل واقع هذا الوزير الذئب عشرة آلاف موظفة، ولم يفرق بين محجبة أو متبرجة.. مسلمة أو مسيحية، ولم يكن ينقصه سوى أن ينضم إلى موسوعة جينس للأرقام القياسية، وهو يستحق دخولها بجدارة!

وعندما تطايرت تقارير إلى الرئاسة تفيد إصابته بمرض الإيدز صدرت إليه الأوامر بالبقاء في بيته تحت الحراسة المشددة.

ومن مصر إلى سلطنة عمان التي أكد وفدها النسائي المشارك في المؤتمر بدراسة علمية أن التحرش منتشر في معظم المجتمعات الخليجية بصورة رهيبه ومن بينها السلطنة، وقسمت الدراسة هذه

الظاهرة إلى نوعين:

الأول: تحرش داخل الأسرة، وينتشر عن طريق زنا المحارم، كذلك التحرش من الخدم والسائقين والعمال داخل المنزل.

الثانى: التحرش خارج الأسرة وهو ينتشر أكثر فى أماكن العمل والأسواق والمحلات التجارية والنوادر الترفيهية.

أما فى اليمن وبالرغم من عدم وجود إحصائية دقيقة بعدد المتعرضات للتحرش فإنه لا يمكن تجاهل أو إنكار انتشار هذه الظاهرة المخجلة فى مجتمعات كانت مشهورة فى غابر الأزمان بالشهامة والمروءة والشرف وحماية النساء.. وترصد بعض الباحثات هذه الظاهرة فى البلد الأفقر المكتظ بالسكان، والمنتشرة فيه الأمية بصورة تفوق الوصف أنها تحدث فى الأماكن العامة حيث يقوم الذكور فى وسائل النقل العامة، وفى الطرقات المزدهمة بالتعري، وكشف العورة لخدش حياء الإناث، وملامسة أجسادهن بالأيدي، والتصريح لهن بالصوت بألفاظ خادشة للحياء، والدعوة لممارسة الحب معهن جهاراً نهاراً، وبصورة علنية فجة جارحة، وكذلك ملاحقة النساء والفتيات، وتتبعهن فى السيارات والشوارع والمحلات والنوادر ومحاولة النيل من أجسادهن، وهناك أيضاً تحرش رؤساء العمل وأصحابه بالموظفات والعاملات، واستغلال حاجتهن للمال وابتزازهن نفسياً وجسدياً!

ولا تتوقف هذه الظاهرة البشعة فى اليمن السعيد عند هذا الحد، بل تنتشر أيضاً فى الحرم الجامعى بين الطلاب والطالبات، وكذلك ممارسة أعضاء هيئة التدريس فى بعض الكليات ضغوطاً ضد الطالبات لإجبارهن على الرضوخ لهن، والانتقال من القاعات والمدرجات إلى غرف النوم، وتقديم أجسادهن رشوة كشرط لحصولهن على درجات كافية للنجاح فى المواد والمناهج الدراسية.

بينما فى المغرب، وحسب ما جاء فى تقرير الوفد المغربى المشارك فى

مؤتمر مناهضة التحرش بالقاهرة.. أن المغرب أصبح من البلدان المتورطة بالإتجار فى النساء لحساب متعة السائحين الأجانب، وقد تتبعت السلطات المغربية للدعارة واستغلال الأجانب للأجساد الوطنية، وأدركت السلطات أن هذا عار على البلاد يجب مكافحته بشتى الوسائل ورفعوا شعار (فلنسقط ظاهرة السياحة الجسدية) وبالفعل فككت الحكومة المغربية ٢٨٠٠ شبكة دعارة أجنبية تستهدف الفتيات والنساء المغربيات، وبصفة خاصة القادمات من الساحل الصحراوى "

كان هذا هو الجزء الأول والأساسى من تحقيق نهر السياجى عن التحرش، أما الجزء الثانى، والمهم أيضاً فكان عبارة عن اعترافات مجموعة من الفتيات والسيدات تعرضن بالفعل لحالات متنوعة من التحرش، وسجلت اعترافاتهن بكل صراحة ووقاحة حيث كتبت فى تحقيقها الصحفى:

" خرجت إيمان طالبة كلية الآثار فى جامعة القاهرة من محاضراتها بمدرج الكلية لتفاجأ بما لم تتوقعه ولا يخطر لها على بال أبداً.. إذا بزميل لها يعرى نصفه الأسفل مع سبق الإجماع والتربص، وبدا عضوه منتقضا منتصباً كمسمار صلب طويل مستقيم، وهو يضحك أمامها بجنون وهستيرية، فأصابها الذهول، ولم تنطق أو تحرك ساكناً، وبعد لحظات من الصدمة المروعة أخفت وجهها بيديها، وجرت فى الاتجاه الآخر حيث أطلقت ساقها للريح.. وروت حكايتها تلك على استحياء رغم مرور بعض الوقت على ما حدث لها قائلة:

" تعرضت لمعاكسات ومضايقات كثيرة لكننى لم أتوقع أن يحدث ذلك، وفى حرم الجامعة.. فقد شعرت بالامتناع المر والذهول المذل!"
أما منى فتروى حكايتها المثيرة للاشمئزاز والشفقة قائلة:

" كنت أسير فى أحد الشوارع المزدحمة بوسط البلد وفجأة اقترب منى شاب أصغر منى بكثير، وهو تقريباً فى الخامسة عشرة من عمره، وأخذ

يتلفظ بكلمات إباحية بذيئة ، وعندما لم أجبه ولم أعره إهتماماً هجم على فى لحظة خاطفة ثم احتضنى وقبلنى بعنفوان وحرارة ثم جرى فى الاتجاه المعاكس بسرعة رهيبية وهو يصيح كالمجذوب.. قبلتها.. قبلتها.. قبلتها!" وتعتزف سماح وهى طالبة جامعية بإحدى كليات جامعة عين شمس بما حدث لها قائلة:

"كنت أسير فى شارع جامعة الدول العربية قبل غروب الشمس بقليل وإذا بولد يركب دراجة يضربنى بكف يده من الخلف على مؤخرتى بمنتهى الوقاحة والبجاجة ، وقلة الأدب ، ويفر من الشارع مسرعاً عائداً فى الاتجاه الآخر وشعرت وقتها بلسعة الألم على مؤخرتى ، وأحسست أيضاً بالإهانة والاشمئزاز خاصة وأن بعض المارة شاهدوا ما حدث لى.. والحقيقة أن بعضهم تعاطف معى ، والبعض الآخر ضحك من الموقف الغريب الذى تعرضت له أو بالأحرى الذى تعرضت له مؤخرتى على مرأى من الناس فى الشارع!"

وتقول صفاء بغيظ ونقمة على جنس الرجال:

"كنت قد صعدت الميكروباص ذات يوم صيفى حار ، وفى المكان الخالى جئت أجلس فإذا بالرجل الجالس بجوارى يضع يده تحتى لأجلس فوق أصابعه ، وبمجرد أن لمست مقعدتى يده انتفضت واقفة وصرخت فى وجهه!"

أما غادة وهى موظفة بوزارة الزراعة فتتذكر تجربتها المريرة قائلة:

"فى أحد الأيام من خريف العام الماضى ركبت الأتوبيس المكيف من مقر سكنى حتى مقر عملى ، وبعد فترة قصيرة من تحرك الأتوبيس وجدت يداً تمتد من الكرسى الخلفى لتتحنس منطقة حساسة من جسدى ، فتحركت بسرعة من مكانى ، وتلفت خلفى مصوبة نظراتى القاسية لصاحب اليد الآثمة فوجدته رجلاً فى السبعين من عمره أشيب الرأس ، لم تردعه شيخوخته ولا نهار رمضان فى ذلك اليوم المبارك من

الشهر الكريم، وأنا من المحتشمات فى ملابسى ومظهرى!"

فرغ عمر الشهابى رئيس التحرير من قراءة التحقيق المدهش، وبدأ مسرورًا مبهورًا لما يحتويه من تفاصيل مثيرة موثقة بالمعلومات والأرقام والإحصائيات وأشار عليه بقلمه الحبر الأسود بكلمات موجزة حاسمة: ينشر فورًا على صفحة كاملة.

وأثنى الرجل على نهير السياجى بحرارة قائلاً:

– التحقيقات هى الأنسب لك يا نهير.. وعلى فكرة سوف أصرف لك مكافأة كبيرة عن هذا الموضوع.. فرب ضارة نافعة.. أنت الآن المحررة المناسبة فى القسم المناسب.
شكرته بابتسامة باهتة وانصرفت راضية.

" عش فى الدنيا .. ولا تجعل الدنيا تعيش فيك! "

كان آخر ما كتب عطا الهلالى فى الصحافة قبل اختفائه الغريب المريب _ والذى لم يستطع الكثيرون أن يفسروه سوى بأنه حادث اختطاف مع سبق الإصرار والترصد! _ هذا المقال وكتبه تحت عنوان: مصر المفروسة! كتب يقول:

" الفقير والمريض فى بلدنا أفضل له ألف مرة أن يموت، ويلقى بنفسه فى أقرب مقبرة أو حتى خرابة " .. مقولة سمعتها كثيراً وتؤكد صحتها المبالغ الضخمة التى تتقاضاها وتطالب بها المستشفيات الخاصة فى مصر المحروسة من أجل العلاج أو اجراء عملية جراحية، وتؤكدها أيضاً مستشفى مثل المستشفى الميرى الحكومية فى القاهرة، والتى لا يكاد يمر يوم إلا ويدفعك حظك العثر أن تمر أمام بوابتها، وتسمع الصرخات والولولات من أهالى المرضى الذين يدخلونها أحياء ويخرجون منها فى صناديق وعلى نقالات.. طبعاً أموات.. أموات طبعاً.. فكلما مررت من أمام بوابة هذه المستشفى انقبض قلبى من هول ما أسمع ومن بشاعة ما أرى، ولمن لا يعرف المستشفى الميرى هى تلك التى تقع داخل مجمع الكليات الطبية وهى الطب والصيدلية وطب الأسنان والعلاج الطبيعى التابعة لجامعة القاهرة.. تلك مستشفيات الناس الغلابة التى تعج بهم مصرنا المحروسة، ويتدرب فى هذه المستشفى طلاب الامتياز بكلية الطب.. والآن عندى ثلاث حكايات واقعية حدثت داخل هذه المستشفى الحكومى..

الحكاية الأولى:

قالت لى صديقة عزيزة أنها كانت طبيبة امتياز منذ ما يقرب من عامين رأت بعينيها ولو سمعت من أحد ما صدقت.. رأت كيف كانت الممرضات

يقمن بعملية التوليد للنساء الحوامل ، وفى البداية كانت هى وزميلاتها وزملاؤها من طلبة الامتياز يقفون مذعورين فى ركن هادئ داخل حجرة قذرة سداح مداح تمر بها كل المخلوقات من البشر وحتى القطط التائهة والكلاب الضالة ، وفيها أكثر من عشرة أسرة على كل سرير سيدة تستغيث من الألم حيث تقوم الممرضة بعملية توليدها بطريقة بدائية همجية ، وكأننا نعيش فى العصر الحجري ولم نفارق زمن الكهوف بعد ، وكانت هناك سيدة تصرخ من أوجاع الطلق.. بينما الممرضة تمطرها بوابل من الصفعات على وجهها واللكمات فى جسدها الواهن حتى تصمت وتكف عن الصراخ ، وكأنها فى حلبة مصارعة حريمى.. هل يمكن لعاقل أن يسمى هذه عملية ولادة؟! إنها عملية إهانة ليس إلا.. وتخليلوا معي أيها السادة أن طفلاً يولد فى هذه الظروف وأمه تتألم وتتأوه من جحيم الولادة ، وتتلقى الصفعات والركلات واللكمات فى أنحاء متفرقة من جسدها.. كيف يكون حال الأم مع طفلها بعد ذلك؟!

الحكاية الثانية:

سمعتها من رجل بسيط على باب الله ، فقد قال لى الرجل أن صديقاً له من الناس ذهب بوالده إلى المستشفى الميرى الملعون ، وعندما وضعه على السرير أشار له أحد المرضى هامساً.. فلما ذهب إليه قال له المريض: لا تتركه هنا سوف يعطونه حقنه هواء فى كعب قدمه لكى يموت فى الحال ، ويتخلصون منه لأن المكان كما ترى مزدهماً للغاية فقرر الرجل أن يظل بجوار والده فى المستشفى ليل نهار ليس هذا فحسب ، بل طلب من أحد أصدقائه ، وهو ضخيم الجثة قوى البنيان أن يرافقه ليحميه هو ووالده من القتلة ملائكة الرحمة!

يا سبحان الله لم أكن أعرف أن حقنة من الهواء الذى نتنفسه ، ولا نستطيع الحياة بدونه إذا دخلت جسد الإنسان تقتله على الفور!

الحكاية الثالثة:

هى حكاية قديمة جديدة ، وأعتقد أنكم جميعاً تعرفونها ، وهى حكاية الممرضة عايده التى اتهمت بأنها كانت تحقن المرضى بمادة سامة قاتلة فى غرفة الإنعاش ، وربما كانت هى أيضاً ضحية ، وتنفذ تعليمات الكبار لأسباب مجهولة.. ولكن الغريب فى الأمر أن الممرضة عايده أثناء استجوابها ، والتحقيق معها قالوا إنها قفزت من أحد أدوار قسم الشرطة ، وأصيبت بكسور لكن الحقيقة هى أن عايده لم تقفز بمزاجها ولا بإرادتها واختيارها فقد كان من وسائل استجوابها البشعة إلقتها من أعلى قسم الشرطة حتى تعترف على نفسها فقط ، ولا تجرؤ على ذكر أسماء أسيادها الآخرين الذين خططوا بطريقة شيطانية لتلك الجرائم الجهنمية!

الطريف أن هذا المقال نشر بعد عدة أيام من اختفاء عطا الهلالى ، وبمجرد أن قرأه ناجى شرف الدين مزق الجريدة بجنون وهيسيرية قائلاً:

— حرام عليك.. والله حرام عليك! هل هذا مقالاً تكتبه؟! هل تظن نفسك قادراً على إصلاح الكون والعباد والبلاد؟!

كل الدنيا تعرف ما يدور فى هذا البلد.. وكل من يخاف على نفسه ، وعلى أولاده وأهله يلوذ بالصمت ، ولا يتكلم إلا الأغبياء.. فلماذا تكون أنت بالذات بين الأغبياء مع أننى أعرفك جيداً وأشهد لك أنك فى منتهى الذكاء.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. من المؤكد أنهم لن يتركوك فى حالك.. لا بد أن أعداءك الآن أكثر من قرائك.. يارب سترك.. يارب أعده إلنا سالماً آمناً.. يارب احفظه من كيدهم ونجه من تدبيرهم.. ثم بكى بحرقة وبصوت مسموع.

" الحياة كوميديا هزلية لمن يفكر.. وتراجيديا محزنة لمن يحس! "

لا يدري لماذا تذكر هذا القول الحكيم للكاتب الرومانى القديم أوفيدىوس؟! صحيح أن لكل مجرم بصمة لكن بصمات المجرم لا تقتصر على الآثار التى تتركها أصابعه فى مكان الجريمة ، وإنما تشمل أيضاً الأسلوب الذى ارتكبت به الجريمة وطريقة التنفيذ ، وسلاح الجريمة وما يحيط بها من تأويلات.. فلا يوجد جريمة تظل غامضة للأبد.. هذا هو العالم المثير المشوق الذى أبدعت فى تجسيده الكاتبة البوليسية العبقريّة أجاثا كريستى ، ونجحت باقتدار فى رسم ملامح دنيا الإجرام والمجرمين!

لقد اختفى الكاتب الصحفى عطا الهلالى بالقرب من منزله قبل أسبوعين بشكل مفاجئ ومثير للحيرة ، ولم يترك خلفه أى أثر يمكن تعقبه لحل لغز الاختفاء المريب لكاتب صحفى مرموق يشغل منصب مدير تحرير جريدة " مصر اليوم " واهتمت الحكومة المصرية بكشف لغز الاختفاء لدرجة أن وزير الداخلية ترأس بنفسه مجموعة من أكفأ ضباط الوزارة للبحث عن الصحفى المختفى.. هذا اللغز إن لم تجد له الشرطة تفسيراً سيتحول إلى كابوس يطارد كل الكتاب والصحفيين المصريين الذين قد يتعرضون للمصير نفسه ، من هنا لم تترك الشرطة احتمالاً إلا ودرسته ، وحققت فيه ومحضت ، وشمل هذا دراسة تفصيلية لحياة عطا الهلالى الخاصة ، وعلاقاته السوية وغير السوية ، السرية والعلنية على كل المستويات ، حتى أن الشرطة بحثت عن إمكانية وجود علاقة سرية بينه وبين سيدة تدعى سامية نجأتى قد تكون هذه العلاقة هى سبب اختفائه المريب.. الأمر الذى لا جدال فيه هو أن الشرطة تؤمن بأن الشك يؤدى إلى اليقين.. ولها باع طويل فى كشف الجرائم الغامضة ، وفك ألغازها وحل

طلاسمها ، ومن المؤكد سيتم إزاحة الستار إن آجلاً أم عاجلاً عن حقيقة غياب عطا الهلالى.

الكثيرون فى الوسط الصحفى ، وخاصة رفاق القلم فى بلاط صاحبة الجلالة يخشون أن تنتهى التحقيقات إلى طريق مسدود ، وأن يكون مصير عطا الهلالى مثل مصير " منصور الكيخيا " وزير الخارجية الليبى الأسبق الذى اختطف من أحد فنادق القاهرة ، وتلاشت آثاره بصورة تدعو للحيرة ، أو مثل مصير " موسى الصدر " الذى طار فى زيارة رسمية إلى ليبيا بدعوة من الزعيم الليبى معمر القذافى ، ولم يخرج منها ولم يعرف أحد كيف كانت نهايته.. وأين اختفى؟ هل اغتالوه أم ساقوه إلى السجن المؤبد؟ هل غدروا به ثم ألقى به فى البحر.. أم دفنوه حياً فى الصحراء؟ العلم عند عالم الأسرار والمطلع على السرائر.. العلم عند رب العالمين..

الاحتمالات الشخصية واردة ، وحاضرة بقوة فى هذه القضية بما فى ذلك احتمال أن يكون الأستاذ قد لقى مصرعه فى جريمة ساذجة من جرائم القتل التى تقع كل يوم.. لكن أين الجثة؟ هذا هو السؤال الصعب.. وإن كانت الاحتمالات الأخرى ذات البعد السياسى مازالت قائمة ، وإلا ما معنى أن تطلب الحكومة المصرية رسمياً من "الانتربول" الدولى مساعدتها فى فك لغز اختفاء الكاتب الصحفى عطا الهلالى؟

إن خبراء البحث الجنائى لا يكتفون فى عملهم بالأدلة المادية لكشف الجرائم ، وحل الألغاز ، وإنما يلجأون أيضاً إلى الأدلة المعنوية بما فى ذلك دراسة بصمات المجرم التى تركها فى مسرح الجريمة ، وأعنى بها طريقة تنفيذ لجريمته ، والتوقيت والهدف المحتمل من اختيار هذا الأسلوب ثم البحث عن الدوافع لاختيار الضحية من بين ملايين البشر ، وها هم خبراء البحث الجنائى فى مصر يحاولون فى ظل غيبة الأدلة المادية ، والشواهد الدامغة فك لغز وغموض الغياب السريالى غير المفهوم لكاتب صحفى كبير يشغل منصباً مهماً وحساساً فى جريدته.

بدأت الجهات الأمنية تراجع كل المقالات، والموضوعات الصحفية التى نشرها عطا الهلالى سواء داخل مصر أو خارجها قبل اختفائه بعدة أسابيع لعلها تصل إلى طرف خيط يقودها إلى جماعة أو جهة أو دولة قد يكون لها مصلحة فى اختطافه أو قتله، وهذا احتمال وارد خاصة فى ظل مجتمعاتنا العربية التى لا تحتل الرأى والرأى الآخر، ولا تطبق الخلاف أو الاختلاف فى وجهات النظر، وترتفع النسبة إلى أقصاها فى بعض الدول التى تحكم رعاياها بالحديد والنار.. مثل تونس والمغرب واليمن وليبيا والأردن وسوريا.. لكنها تقل وقد تتلاشى فى دول تتمتع بخط أوفر من حرية التعبير مثل مصر التى تكاد تكون الدولة الوحيدة بعد لبنان التى تنتشر فيها مقالات صحفية ضد رئيس الجمهورية شخصياً دون أن يعاقب كاتب المقال أو تجازى الصحيفة بالإغلاق أو يتعرض الصحفى للسجن خلافاً لما هو موجود فى البلدان العربية الأخرى حيث يسود قانون يسمى "التطاول على الذات الملكية" وهو القانون الذى تم بموجبه الزج بالعم، وأشهر شخصيه سياسيه فى الأردن إلى السجن مرتين إنه "ليث شبيلات" لا لشيء إلا لأنه تطاول على اسم الملكة نور والملك عبد الله فى محاضرة ألقاها بإحدى الجامعات الأوروبية!

التاريخ يثبت أنه حتى فى زمن الملك فؤاد والملك فاروق، وبل وزمن عبد الناصر لم نسمع أن صحفياً مصرياً اختفى، أو تلاشى هكذا بدون سبب.. صحيح إن هناك اعتقالات وقعت فى صفوف الصحفيين والكتاب، لكنها كانت اعتقالات مبررة بالنسبة للنظام حيث وجهت للمعتقلين اتهامات بالانتماء لأحزاب أو منظمات سياسية، وتنظيمات محظورة بعضها كان يسعى لقلب نظام الحكم.. لكن لم يحدث أبداً أن اختطف صحفياً أو اختفت آثاره حتى فى أحلك الأوقات، وأكثرها حرماً فى تاريخ مصر، فكيف يمكن أن يحدث ذلك فى وقتنا الحالى؟!

هذا يقودنا إلى العامل الخارجى الذى حاول إدخال هذا الأسلوب

فى التعاطى مع الخصوم إلى حياة المصريين سواء كانوا صحفيين أو سياسيين.. إن ما حدث للكاتب الصحفى عطا الهلالى يقودنا إلى ما حدث فى رواية بوليسية شهيرة لأجاثا كريستى اسمها " الرسالة الغامضة " تحمل ملامح متشابهة مع عملية اختفاء عطا الهلالى.

وذات الأمر يقودنا أيضاً إلى مثل مصرى شائع يقول:
" اضرب الطويل.. يخاف القصير! "

وعطا الهلالى هو الطويل فى الصحافة المصرية فهو صحفى كبير تملأ كتبه المكتبات، ومقالاته الصحفية تحرك الصخر، وتثير الجدل فى الأوساط السياسية، والإعلامية، وهو نجم مفوه فى القنوات الفضائية لا يخاف فى الحق لومة لائم!

مرت الشهور وأجهزة الأمن تنقب وتفتش، وتبحث وتمحص دون أن تصل إلى شئ.. ولم تعلن أن المخابرات الأجنبية أو العربية هى التى اختطفته، ولم تثبت أنه راح ضحية خصومة شخصية أو نزوة نسائية.. ظل الأمر غامضاً مجهولاً مريباً، ولا يتعدى مجرد ملف مهم على مكتب وزير الداخلية، ومجموعة صور ومعلومات لا تقدم ولا تؤخر على الإطلاق، وتحول صاحب اللغز إلى رقم فى أرشيف وزارة الداخلية وأجهزتها الأمنية، يحمل الملف العديد من المعلومات من بينها أنه تخرج فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ثم سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد ذلك، وخلال دراسته هناك تغيرت قناعته الفكرية من التأثر بالفكر الماركسى لتقترب من الليبرالية ذات التوجه العلمانى، لكن توجهاته الليبرالية لم تمنعه من توجيه سهام النقد لليمين الأمريكى المسيحى، والمحافظين الجدد.. وبرغم انتقاد عطا الهلالى للعلاقة الوثيقة بين واشنطن، وتل أبيب إلا أنه كان من المؤيدين للسلام بين العرب وإسرائيل، وهو الموقف الذى أثار حفيظة معارضى التطبيع ضده، وخاصة من التيارين القومى العربى والإسلامى، وبعد مرور خمس سنوات على إسدال الستار عن اختفائه وإغلاق أجهزة

الأمن ملفه نهائياً ، فجر شقيقه مفاجأة مدوية نشرتها كل الصحف آنذاك حيث أعلن أنه تلقى معلومات من أحد ضباط سجن برج العرب بالقرب من مدينة الإسكندرية تفيد بأن عطا الهلالى محتجز بالسجن!

أما المفاجأة الأكبر فهي أن وزارة الداخلية نفت هذا الأمر جملة وتفصيلاً.. وأكد مدير الإعلام بالوزارة أن هذه المعلومات عارية تماماً عن الصحة!

مرت سنوات على غيابه ، ومازال ناجى شرف الدين ينتظر عودة أستاذه ، ويتوق لرؤيته والسهر معه ، والاستمتاع بحلو حديثه ، والنيل من فيض ثقافته الموسوعية!

" حتى الوحوش الضارية فى البرارى تتألم لفراق صغارها! "

فى الوقت الذى كان ينتظر فيه الجميع مفاجأة تفك طلاسم اختفاء الكاتب الصحفى عطا الهلالى، فوجئ أفراد أسرته بوصول خطاب من مجهول يؤكد أن الهلالى لا يزال على قيد الحياة، وأنه بخير وأقسم كاتب الخطاب أنه شاهده فى منطقة " أرض اللواء " قرب حى المهندسين بالقاهرة..

وسلمت الأسرة المكلومة الخطاب إلى أجهزة الأمن التى قامت بفحصه، ومحصه وتتبع مساره للوصول إلى الشخص الذى قام بإرسال الخطاب، وحقيقة ما جاء فى هذا المكتوب من معلومات، وقال مصطفى الهلالى الشقيق الأصغر لعطا والذى يعمل مدرساً للمواد الاجتماعية بإدارة ميت غمر التعليمية:

الأمّل فى عودة عطا إلى أهله ومحبيه وعمله وزملائه لا يزال كبيراً، وجميع التكهّنات مفتوحة، وقائمة.. لكننا كأُسرة لنا عتاب على بعض زملائه من الصحفيين الذين راحوا يخوضوا فى سيرته عن جهل، وينهشون لحمه وسمعته دون إلمام بحياته الشخصية وظروفه الإنسانية، وتحدثوا عنه بما يحمل إساءة كبيرة إله رابطين بشكل عجيب، ومريب غيابيه بحياته الخاصة وزواجه الفاشل من نجمة سينمائية شهيرة، وخيانتها له مفضلة عليه ممثل شاب، وأشاعوا أنه شهيّار الصحافة وله علاقات غرامية سرية متعددة، وأضاف شقيقه قائلاً:

ما أغضبنا أكثر هو الربط بين اختفاء عطا الهلالى، وبعض قصص الاختفاء الأخرى التى كان أبطالها شخصيات كانت مواقفها تثير عداوات لجهات ودول ومؤسسات مختلفة، وهو ما لا ينطبق أبداً على شقيقى عطا الذى كان حريصاً على الدعوة للحرية والديمقراطية، وحقوق الإنسان

ومحاربة الفساد بشتى صوره، وأشكاله دون تعمد الإساءة لأحد، ولم يكن يستخدم أى سلاح فى كل معاركه سوى قلمه الشريف وحبسه الطاهر النقى.

وأكد مصطفى الهلالى بما لا يقبل مجالاً للشك عدم صحة ما قاله بعض زملاء شقيقه من الصحفيين، والإعلاميين من أن حالته المزاجية كانت على غير ما يرام قبل اختفائه بأيام، وأشار إلى أنه زار شقيقه، وقضى معه يوماً كاملاً قبل يومين فقط من غيابه، ووجد حالته النفسية والمعنوية طيبة، ولم يكن هناك ما يعكر صفوه! عطا الهلالى لم يختف فى صحراء مترامية الأطراف.. عطا الهلالى اختفى فى قلب القاهرة أكثر مدن العالم ازدهاماً، وآخر مكان شوهد فيه هو شارع القصر العينى، فى وسط الزحام وفى عز النهار.. إن مرور كل هذه الشهور دون العثور عليه تعد مؤشراً خطيراً.. والسؤال الذى يتردد الآن بين الجميع، وبصفه خاصة فى الأوساط الصحفية والثقافية، وكل التجمعات الإنسانية ومنظمات وجمعيات حقوق الإنسان هو.. أين اختفى عطا الهلالى؟! وهل مازال على قيد الحياة أم أن الأرض فتحت فمها وابتلعتها فى بطنها؟! إن اختفاء إنسان فى مصر ظاهرة غريبة وجديدة لأن أم الدنيا ليست قرغيزستان.. إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق فى وسط آسيا، وقد عانى سكانها كثيراً من الحكم الشمولى القمعى، وتنفسوا الصعداء بعد انهيار الشيوعية، وانفصال بلدهم كدولة مستقلة تسعى للحرية والديمقراطية، وكانت المفاجأة أن الأنظمة التى تولت السلطة فى قرغيزستان عقب الاستقلال لم تكن تختلف كثيراً فى سياساتها المعادية للحرية، وميلها لقمع المعارضين، والتنكيل بمخالفاتها فى رأى بوحشية ربما تتجاوز حتى ما كانت تفعله المخابرات السوفيتية السابقة "KGB".. وتتحدث وسائل الإعلام العالمية هذه الأيام عن جريمة بشعة ارتكبتها أجهزة الأمن فى قرغيزستان، وراح ضحيتها الصحفى البارز "جينادى بافيلوف" الذى توجه زوار الفجر إلى غرفته بأحد فنادق الماتا العاصمة التجارية لدولة كازاخستان المجاورة حيث كان فى رحلة عمل، ورافقه إلى الخارج، وبعد ساعتين تم إلقاؤه

من الطابق السادس بأحد المباني المرتفعة، وعثر على جثته مقيدة اليدين والقدمين.. كان جينادى بافليوف يبلغ من العمر ٤٠ عامًا، وهو أب لطفلين ويعمل رئيس تحرير الطبعة المحلية التى تصدر فى قرغيزستان لصحيفة " براهذا " الروسية، وقد عرف بتأييده لرئيس البرلمان السابق عمر تيكاتيف الذى يقود المعارضة فى بلاده، وكان بافليوف من أشرس المناهضين للفساد والفسدة، ومن أقوى المطالبين بالديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، ورغم أن حكومة قرغيزستان نفت تمامًا مسئوليتها عن اغتيال الصحفى الشهير إلا أن المعارضين لنظام الرئيس كerman بكاييف يؤكدون أن هذه الجريمة تأتى فى إطار حملة قمع، وتصفية جسدية شملت الكثير من رموز المعارضة فى البلاد، وخلال الأسابيع الأخيرة تعرض أستاذ جامعى، وصحفى كبير وأحد المسئولين السابقين الذين انضموا إلى المعارضة لإعتداءات بالضرب الوحشى من مجهولين قساه غلاظ يرجح أنهم من أفراد الأمن، وقيدت جرائم الاعتداء هذه ضد مجهول تمامًا مثل اغتيال الصحفى اللامع جينادى أفليوف! وتتهم المعارضة فى قرغيزستان نظام كerman بكاييف الذى تدعّمه الولايات المتحدة الأمريكية بتوجيه ضربات متلاحقة للديمقراطية، وقمع الحريات منذ توليه السلطة قبل عدة سنوات، وهو ما عرضه لانتقادات مريرة من جانب المنظمات المعنية بالدفاع عن حقوق الإنسان خاصة فى أعقاب اغتيال الصحفى الشهير اليشر سايبوف بإطلاق الرصاص عليه أثناء انتظاره لسيارته أمام مقر جريدته فى وسط النهار، وفى ميدان مزدحم بالمارة والسيارات.. وقد وجهت الولايات المتحدة الأمريكية أصابع الاتهام فى ذلك الوقت إلى حكومة قرغيزستان، ووصمتها بتهمة انتهاك حقوق الإنسان، فما كان من الرئيس كerman بكاييف إلا أن هدد باغلاق القاعدة العسكرية الأمريكية فى بلاده..

لكن ظل السؤال يتردد صداه المدوى، وألف علامة استفهام واستفهام.. أين اختفى عطا الهاللى؟ هل مات غدراً واغتيالاً؟ وإذا كان هذا مصيره.. فأين الجثة؟

" قد يبدو للناس أنهم مسحوبون من الأمام، والواقع أنهم مدفوعون من الخلف! "

فى هذا اليوم بالذات أدرك ناجى شرف الدين بما لا يقبل الشك أن الألم شرط أساسى من شروط العبقرية ، بمجرد أن وصل صالة التحرير بمؤسسة " الأيام " شعر بأن هناك جلبة غير عادية ثم دق جرس الهاتف فى الصالة ، فإذا بمدير مكتب رئيس التحرير يسأل عنه ليبلغه بأن الأستاذ عبد العليم طابع رئيس مجلس الادارة ورئيس التحرير يطلب منه أن يعد موضوعاً صحفياً للنشر غداً فى صفحة الأدب والثقافة عن الكاتب والروائى الإنجليزى الشهير " إيريك سيغال " الذى رحل عن عالمنا اليوم.. وعلى الفور هرول ناجى شرف الدين إلى الأرشيف ، وكانت تديره امرأة خمسينية العمر هادئة طيبة تدعى " هنية " وتعامله بود وترحاب غير عادى وحنان كأم رؤوم ، ساعدته قدر استطاعتها وجاءته بملف فيه بعض قصاصات الصحف ، والمجلات التى تتحدث عن الكاتب والأديب العملاق باقتضاب.. خرج من الأرشيف ، وقد كتب سطوراً قليلة عن " سيغال " لكنها لا تكفى على الإطلاق لكتابة موضوع صحفى يرضى تطلع رئيس التحرير، وجاءته فكرة عبقرية.. فكرة يضرب من خلالها ثلاثة عصافير شاردة بحجر واحد.. وعلى الفور نفذها.. قام بزيارة سريعة لأستاذه جلال الغيطانى وزوجته شادية فى منزلهما ، وفى غرفة الغيطانى المسجى بسلام على فراشه بلا حراك سوى رموش عينيه ، بلا كلام ولا سلام.. تبسم بود صامت فى وجه ناجى الذى همس له قائلاً: يا أستاذى أريد عونك ومساعدتك.. طلبوا منى فى المؤسسة أن أكتب موضوعاً على وجه السرعة عن " إيريك سيغال " الذى وافته المنية اليوم إثر أزمة قلبيه بعد صراع طويل مع المرض.. انفرجت أسارير الأستاذ ، ولمعت عيناه ، واستعاد من ذاكرته كل تاريخ هذا الأديب العالمى ، وأشار جلال

الفيطاني لناجى بأن يعطيه الورقة والقلم، وعلى الفور بدأ الرجل المسجى فى فراشه بين الحياة والموت.. وببدا مرتجفة مرتعشة، وبحروف متنافرة متباعدة مهتزة، وبسطور مائلة مترقصة كتب:

" إيرك سيجال هو الروائى، وكاتب السيناريو الشهير، ومؤلف الرواية الخالدة "قصة حب" التى حققت أعلى نسبة مبيعات فى العالم قبل تحويلها لفيلم سينمائى بطولة رايان أونيل.. الفيلم حقق نجاحاً مذهلاً، وحصل على الأوسكار، وشاهده الملايين فى أرجاء المعمورة، وخرجوا من دور العرض وقد بللت الدموع وجوههم حزناً على موت البطلة، واعجاباً بقصة الحب التى ربطت بين قلبى البطل والبطلة.. ولد سيجال لأب حاخام يهودى فى ١٦ يونيه عام ١٩٣٧ فى مدينة نيويورك، درس الأدب والشعر فى جامعة هارفارد، ونال الدكتوراه عام ١٩٦٥ فى الأدب المقارن.. عمل سيجال أستاذاً للأدب الكلاسيكى فى جامعتى بيل وهارفارد وعمل كأستاذ زائر فى جامعات ميونيخ وبرينستون، وله مقالات عديدة فى الأدب اليونانى القديم، والأدب اللاتينى.

وفى عام ١٩٦٨ شارك سيجال فى كتابة سيناريو فيلم " الفواصة الصفراء" لفريق البيتلز، وفى عام ١٩٧٠ كتب سيجال واحدة من أروع قصص الحب فى العالم ورشح الفيلم المستوحى من الرواية لسبع جوائز أوسكار من ضمنها جائزة أفضل سيناريو... لكنه فاز بجائزة أفضل موسيقى تصويرية والتى ألفها الموسيقار الفرنسى المتألق فرانسيس ليا.

جسد سيجال من خلال تلك الرواية قصة شاب، وفتاة يتصفان بالبساطة وحب الحياة، والبعد عن العقد النفسية، ويملاً قلوبهما أحاسيس الغرام الجياشة.. هاتان الشخصيتان هما أوليفر طالب الحقوق الوسيم الثرى، وجنيشر الفتاة الرقيقة الجميلة الفقيرة، وسرعان ما تتوطد علاقتهما وتتوحد مشاعرهما، ويقرر أوليفر الزواج من حبيبته بغض النظر عن الفارق الإجتماعى، فيذهب بجنيشر إلى قصر أبيه ظناً منه أن والده سيبارك هذه

الزيجة، لكن يخيب أملة، ويرفض والده الارتباط بعائلة متواضعة، وتدور مشاحنات ومناقشات حامية الوطيس بين الأب والابن، ويصر أوليفر على المضى فى طريق الحب منصتاً إلى صوت القلب ساعياً للزواج من جنيثر، وفى المقابل يبدو الأب صلباً عنيماً لا يلين، ولا يتزعزع عن موقفه بل يهدده بحرمانه من ثروته!

استطاع سيجال أن يجسد لنا من خلال رائعته الأدبية " قصة حب " مشاعر إنسانية راقية من الحب والرومانسية بين العاشقين، ولكن ذلك الحب الفياض جاء ما يعكس صفوه حيث فوجئ أوليفر ذات يوم بأن شريكة عمره، وحبيبته التى ضحى بكل شئ من أجلها مصابة بالسرطان اللعين، فيقرر الذهاب ليستجد بوالده الذى أعطاه شيكاً بالمبلغ الذى طلبه دون أن يوضح له أن زوجته مريضة بالداء القاتل، وتهرول الأيام وتموت جنيثر بين أحضان حبيبها الذى تملكه الحزن وكسره الأسى، فيذهب إليه والده معرباً عن ندمه وأسفه وأساه، ويواصل أوليفر حياته ويصبح محامياً ناجحاً لكنه لم يعثر على الحب الذى افتقده مع فقد محبوبته، ويظل محطم القلب دافع العين وفيّاً لحيه الضائع!

وفى عام ١٩٧٧ كتب سيجال الجزء الثانى من روايته " قصة حب " بعنوان دال ومؤثر " قصة أوليفر " تابع فيها مسيرة بطله بعد رحيل حبيبته ومعاناته من جراح الوحدة، ووحشة الفراق.. وفى خلال عام واحد سارعت هوليوود إلى تحويل الرواية لفيلم سينمائى.. لكنه للأسف الشديد لم يلق النجاح المأمول الذى حصده الجزء الأول.. وفى عام ١٩٨٥ كان على موعد مع الحظ من جديد حيث حققت روايته " الفصل " إيرادات عالية وغير متوقعة، وأحداث هذه الرواية مستقاة من حكايات وقعت بالفعل فى أحد الفصول بجامعة هارفارد، وقد حازت على العديد من الجوائز من فرنسا وإيطاليا، وقد حققت روايته " الأطباء " نسبة مبيعات تفوق الخيال وهذه الرواية تعد بحق تحفة فنية وأدبية.

أصيب سيغال على مدى ثلاثين عاماً بمرض الشلل الرعاش الذى جعله يفقد نشاطه وحيويته ، وقدرته على الكتابة والإبداع ، ولكنه ظل يقوم بالتدريس فى الجامعات المختلفة.

وقالت ابنته فرانشيسكا الصحفية ، والناقدة الأدبية أنه ظل يناضل بإصرار شديد وعزم أكيد من أجل أن يتنفس الحياة ، ويعيش كل ثانية من عمرة خلال الثلاثين عاماً التى رضى فيها لمشيئة السماء رهن المرض ، وتحت رحمته حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ، وصعدت روحه الطيبة إلى ربها عن عمر يناهز ٧٣ عاماً.

عاش سيغال ومات فى لندن وسط زوجته كاردينى وابنتيه فرانشيسكا وميراتدا.. تاركاً للعالم قصة حب لا تنسى ولا تتكرر!"

كان ناجى شرف الدين مذهولاً مدهوشاً من قدرة جلال الغيطانى الذهنية ، وعقله الذى يعمل كما لو كان " كمبيوتر " بشرى.. الجسد عاجز تماماً عن الحركة بينما العقل فى قمة النشاط والتألق والتوهج.

طبع ناجى قبلة دافئة على جبين الأستاذ الغيطانى ، وقبلة أخرى على يده اليمنى التى كتب بها ، وطار بالموضوع إلى مؤسسة " الأيام " وهو فى غاية الدهشة الممزوجة بالإعجاب والفخر والامتنان للرجل ، والتقدير لذاكرة أستاذه وألمعيته ، وعبقريته رغم إرادة الجسد العاجز عن مجاراة العقل الهائج اليقظ المتأجج العاشق للحياة!

" الصحافة الآن لا تقود الشعب، بل تجرى وراءه "!

تسلم ناجى شرف الدين عمله الجديد فى مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر حلمه الكبير الذى استعصى عليه فى البداية.. وبعد محاولات يائسة كثيرة سلم بالقضاء والقدر واستسلم للمكتوب فى صحيفته العليا عند رب الدنيا ، ولكن الفرصة جاءتة تسعى هذه المرة على طبق من ذهب ، ودون أن يسعى إليها ، جاءتة من حيث لا يحتسب على الإطلاق.. هكذا هى الدنيا يظل المرء يجرى وراءها فلا تأتية بل تتمنع عليه ، وفجأة تقبل عليه بحماس ، وتأتيه هرولاً فى الوقت الذى يكون قد نسيها وطلقها طليقة بئنة.. تلك هى الدنيا.. غانية لعوب مثل أنثى متمردة عنيدة تهوى العبث وتحطيم القيم ، والتقاليد ومبارزة الأخلاق والمبادئ!

وبمجرد أن علم عبد العليم طابع رئيس مجلس الإدارة ، ورئيس التحرير بأن الفتى تسلم عمله بالمؤسسة أعطى على الفور أوامره للسكرتاريه بمكتبه أن يرسلوه إلى الكاتب الصحفى جلال الغيطانى وزوجته شادية الجندى ، وهما المسئولان عن القسم الأدبى بجريدة " الأيام " لكى يكون تحت التمرين ، والاختبار قبل أن يستعين به فى كتابه مقالاته الافتتاحية فى الجريدة اليومية ، والاصدارات الأخرى المتعددة التى تقدمها المؤسسة لقرائها من جرائد ، ومجلات متخصصة فى الفن و الرياضة والسياسة والأدب والسينما والانترنت سواء كانت اصدارات أسبوعية أو شهرية أو دورية.

استقبله جلال الغيطانى بحب وترحاب وود وحبور كأنه يعرفه منذ عشرات السنوات.. بدا له الرجل من النوع المألوف الحبوب فهو أسمر الملامح لهجته صعيدية محببه للقلب والأذن.. قصير القامة.. نحيل الجسد.. ضيق العينين ، أصلع الرأس يتجاوز العقد الخامس من عمره بقليل ، ويرتدى

ملابس بسيطة للغاية عبارة عن قميص أبيض فيه خطوط زرقاء، وبنطلون أسود وحذاء أبيض ناصع، ويدخن طوال الوقت بشراهة كما لو كان ينتقم من نفسه.

وأثناء اللقاء بينهما دخلت امرأة بيضاء ملفوفة القوام عسلية العينين فى الخمسين من عمرها وعلى وجهها طيبة وبشاشة، وابتسامة عريضة..قدمها الغيطانى لناجى قائلاً:

– الأستاذة شادية الجندى الكاتبة الصحفية المرموقة فى مؤسسة الأيام وفى نفس الوقت زوجتى، وأم بناتى فى البيت طبعاً..
ثم أشار ناحية ناجى قائلاً:

– ناجى شرف الدين موهبة صحفية واعدة.

لقد كنت دائماً تتمنى يا جلال أن يكون لنا ابناً.. ها هو جاءك ناجى.
تبسم الرجل قائلاً بعد تنهيدة عميقة:

الحمد لله على ما رزقنا.. لقد وهبنا رب العالمين أربع زهرات يانعات جميلات..هن الآن آيات فى التدين والخلق الرفيع والتفوق، وهن الأوائل دائماً فى دراستهن.

وبالفعل مضت الأيام والأسابيع مهرولة مثل تسابق الخيول فى صحراء شاسعة وناجى شرف الدين فى غاية الارتياح، تغمره السعادة بعمله الجديد فى القسم الأدبى بجريدة الأيام تحت رعاية جلال الغيطانى وزوجته شادية الجندى، وكثيراً ما وجها إليه الدعوة لزيارتهم فى البيت لتناول الغداء أو العشاء معهما، وكان جلال الغيطانى يحب أن يقول عنه إنه ابنه الذى لم ينجبه من صلبه.. وصار الغيطانى وزوجته وبناتهما وناجى كأنهم أسرة واحدة.. وكثيراً ما تمت شادية أن يكون ناجى من نصيب ابنتها الكبرى رقية التى تدرس فى السنة النهائية بكلية الآداب جامعة القاهرة، وتحدثت مع زوجها فى هذا الأمر فرحب الرجل بالفكرة قائلاً بعفوية:

— أتمنى ذلك.. لكن كل شئ قسمة ونصيب ، ولا أحد يدري ماذا تخبئ الأيام.

قالت:

— يا رجل.. اخطب لإبنتك ولا تخطب لابنك! كما يقول المثل القديم.

— هل تريدن منى أن أفاتحه فى الموضوع يا شادية؟!

— ولم لا يا جلال؟! أنا أشعر أنه يميل نحو البنت ، وهى كذلك.. وقد يكون يحبها فعلاً ، ولا يجرؤ على البوح بسر قلبه لأنه فى بداية حياته الصحفية ، وظروفه المادية ليست على ما يرام.

وبعد هذا الحديث العائلى الحميم عن زواج البنات ، وناجى والمستقبل ، وقبل أن يشرع جلال فى فتح هذا الموضوع مع ناجى شرف الدين حدثت المفاجأة التى لم تكن أبداً فى الحسابان.. صدمة كبيرة قلبت حياة هذه العائلة رأساً على عقب.. كانوا جميعاً قبل حدوث المفاجأة المروعة يعيشون حياة هادئة هائلة مستقرة دافئة يملؤها الإيمان والحب فى الله ، ولله والإقتداء بنبيه ، والسعى فى خدمة المحتاجين والفقراء والمساكين.. جلال الغيطانى وزوجته شادية الجندى لهما من زينة الحياة الدنيا أربع زهرات رائعات يانعات يافعات.. الزوجة مثلاً يحتذى به فى الإخلاص والوفاء والزهد.. وتحرص على الحضور بانتظام فى أحد المراكز الدينية لتعلم أصول الفقه والتجويد وتفسير وحفظ القرآن الكريم ، ومن شدة تدينها وإخلاصها لربها ولزوجها سألتها ذات مرة قائلاً:

ماذا تفعلين لو تزوجت عليك يا شادية؟!

تبسمت ببشاشة وقالت ببساطة:

— إن من هو خير منك ومن الرجال جميعاً تزوج على من هى أفضل منى ومن النساء جميعاً.. حبيبى رسول الله وهو القدوة للناس أجمعين.

كانت شادية الجندى صوامة قوامة تراعى ربها فى كل شئون حياتها

حتى جاء ابتلاؤها على قدر عزيمتها ، فعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم ، وكانت تردد دائماً.. إن أكثر الناس ابتلاء هم الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل كما قال النبي الحبيب ، وما سمعت عن مثله ابتلاء بين البشر في زماننا هذا.. وقع الزوج ولم يسقط.. غاب جلال الغيطاني الكاتب الصحفي والأديب المرموق ولم يميت!

نامت جوارحه ، ولم تغفل نفسه أو روحه.. هداً الجسد ولم تسترح الروح ولم ينم العقل ، كان متوهجاً والجوارح متيقظة وثابة.. بدا الغيطاني الإنسان كما لو كان أيوب هذا الزمان.. عاش جلال الغيطاني على هذا الحال خمس سنوات.. ظل خلالها راقداً لا يفارق فراشه.. هذا الزوج الطيب والأب الحنون الصحفي والأديب الصادق الوفي لقلمه وأهل بلده يفتح عينيه حيناً ويغمضهما أحياناً.. لا ينطق ولا يتقلب ولا يحرك ساكناً ، ولا يدرى الأطباء أيشعر بما يدور حوله أم لا بعد أن أتلقت الجلطة مخه ، ولم تتلف روحه أو تهلك نفسه فكانوا يرجحون أنه لا يشعر على الإطلاق.

خمس سنوات مرت ، وهذه الزوجة الصابرة الصامدة تقلبه في الفراش كل ساعة تقريباً حتى لا تصيبه قرحة الفراش فتزداد آلامه.. مما أثار عجب الأطباء فقد كانوا لا يصدقون أن هذه حالة الجسد الساكن خمس سنوات من فرط نظافته وطهارته وسلامته.. خمس سنوات وهي تذهب به للاستحمام والإغتسال.. خمس سنوات وهذه الزوجة تعمل ليل نهار بدأب وتقاني في البيت ، وفي المؤسسة ثم تعود منهكة ومع ذلك تحكى لزوجها بحب كل ليلة قبل أن ينام أحداث اليوم كله ، تسرد عليه مشكلات البنات ، وأعباء الحياة ، وتقسم بأنه يشعر بها برغم أن الطب لا يعترف بذلك ، لكنها متأكدة من أنه يسمع ويحس ويفكر.. اعتبرته يؤدي طوال خمس سنوات صلاة التأمل ، ودموع عين الزوج العليل تتساب على خده في كبرياء رجل مهزوم كسره سيف المرض ، وتشهد دموعه السخية الساخنة التي تتساب على وجهه ، وهي تحكى له مثل شهرزاد ، وهو بين يديها أنه

مازال ينبض بالحياة بكل ما فيها وما لها وما بها.. ورغم كل هذا كانت تمارس شادية الجندى مهنتها كصحفية على خير وجه وتؤدي مهامها كأم على أفضل ما يكون، ولم تتوقف يدها البيضاء عن تقديم مساعداتها، ومشاركاتها للمحتاجين والغلابة، والفقراء الذين لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً، وكانت تجمع أموال الزكاة، والصدقات لتعيد توزيعها على المساكين.

خمس سنوات بلا كلل ولا ملل ولا شكوى.. لم تياس من شفائه، وما قصرت أبداً ولا تهاونت على الإطلاق في حق الزوج الغائب الحاضر.. الميت الحى.. ودائماً كانت تقول لكل زملائها وزميلاتها في مؤسسة الأيام للصحافة حينما يسألونها عن الزوج والزميل العزيز:

سيعود يوماً إلى الحياة.. سيعود يوماً إلى عالمنا.. أنا واثقة ومتأكدة من ذلك بقدر ثقتي في وجوده على قيد الحياة بينكم.

خمس سنوات من الصبر والمثابرة، والأمل والألم والدموع والابتسامات حتى رحل عن الدنيا.. صعدت روحه إلى بارئها منذ أيام، وتوقف الجسد الطيب الطاهر عن الحركة.. تلك مشيئة السماء، ومصير محتوم لكل حى يدب على الأرض.

ذهبت شادية إلى أمها المريضة لتواسيها في زوج ابنتها، وتصلى لله تدعوه وتستجديه برجاء حار أن يغفر لها ويتغمد زوجها برحمته، ويكون مثواه جنة الفردوس ويسامحها إن كانت قد قصرت في رعايته، والاهتمام به والترويح عنه والسهر على راحته، والقيام على علاجه مما ابتلاه به رب الأرباب سبحانه في علاه.

وذات يوم كان ناجى شرف الدين يحكى عنها مع زملائه في المؤسسة وتحديداً في صالة التحرير.. قال عنها بإعجاب وحب:

لا أعرف إن كانت هذه السيدة من البشر.. أم نحن الذين لسنا بشراً..! إنها زوجة مؤمنة محبة مخلصة إلى أبعد درجات الاخلاص، ووفية وفاء

القديسات.. لم تضعف أو هكذا خيل لى ، ولم تتصل فى لحظة من لحظات محنتها الزوجية لشريك حياتها ، ووالد بناتها ، وما سمعت أنها شكت أو تملكت فى لحظة من اللحظات ، بل دائماً رأيتها هادئة مستبشرة حتى وقتنا هذا.. بدت كأنها السيدة ناعسة الصابرة على مرض أيوب ، وحتى بعد رحيل الزوج الرحيل الأبدى ، ما زالت تتمسك بحبل الصبر وتتعلق بالأمل.

وقال أيضاً والدموع تطل من عينيه :

من منا الذى لا يبكى على نفسه التى تغويها الدنيا الملعونة فتحرضه على الفسق والعصيان والانحراف عن طريق الهداية ، والحيد عن الصراط القويم المستقيم؟ وهذه المرأة الفاضلة هى النموذج المثالى الذى لم أر له مثيلاً فى بلاط صاحبة الجلالة ، وفى حياتى كلها ، فهى القدوة للأنتى التى تراعى ربها فى رجلها ، ومن المؤكد أنها غرست ذلك فى بناتها.. ومن منا فى هذه الدنيا الذى لا يتمنى كل هذا الصفاء والعطاء والحب ، والايمان بتعاليم السماء وأحكام القضاء والقدر ، والصبر على البلاء ، والرضا بكل شئ فى السراء والضراء؟!

" عندما خلق الله المرأة لم يخلقها من رأس الرجل فتسوده،
ولم يخلقها من عظام قدمه حتى لا يدوسها، وإنما خلقها
من ضلوع صدره لتكون قريبة من قلبه! "

صباح كل يوم جمعة من كل أسبوع كان مجلس تحرير صحيفة " الأيام
" يعقد اجتماعاً مع المحررين من مختلف الأقسام، وكان هذا الاجتماع
المقدس أسبوعياً بمثابة جامعة حقيقية تربي فيها العديد من نجوم صاحبة
الجلالة الذين تلقوا مبادئ، وأسس فنون الكتابة الصحفية بين جدرانها
وعلى صفحاتها.

وهذا الاجتماع الذى يعد أخطر، وأهم اجتماع فى تاريخ الصحافة
المصرية.. لم يكن أبداً اجتماعاً عادياً، بل كان على مدار سنوات شاهداً
على طرح، ومناقشة أهم أحداث مصر السياسية والاقتصادية والثقافية
والاجتماعية والإنسانية.

فى اجتماع الجمعة الأول بالنسبة لنا جى شرف الدين رأى بعينه مجموعة
من فرسان، ونجوم الكلمة المكتوبة التى كان يطالع صورهم فى جريدة
الأيام بانبهار مقرونة بمقالاتهم.. ها هو يراهم شخصياً، ويقف أمامهم وجهاً
لوجه!

تجمهر الجميع فى صالة التحرير التى تتسع لأكثر من ٥٠٠ محرر،
وجلسوا فى صمت وسكون كأن على رؤوسهم الطير حتى جاء عبد العليم
طايع رئيس مجلس الإدارة، ورئيس التحرير الرجل القوى المهاب الجانب..
هلّ الرجل بطولته البرونزية وصلعته الفسيحة المميزة، وسيجارته الكوبية
المستوردة، وبعد أن جلس فى مكانه المعروف وبجواره ميرفت العطيفى،
والجميع يتحلقون حوله فى شكل دائرى.. حياهم بثقة فى كلمات موجزة

ثم سحب نفساً عميقاً من سيجارته الغليظة، وبسرعة البرق كان الساعى النحيل الغارق فى زيه الرسمى الواسع عليه قد أحضر له فنجان القهوة السادة التى يفضلها.. التقط الرجل فنجانه واحتسى منه رشفة واحدة ثم إستهل حديثه قائلاً:

سوف تلعب المرأة دوراً فى غاية الأهمية لتطوير مهنة الصحافة، وتجديد شبابها بجانب الرجل بالطبع أقصد هنا الشباب من الجنسين فيجب الاعتماد على بصيرة الرجل، وعلى بديهة المرأة فى إلتقاط الخبر الصحفى.. الرجل قادر على تحصيل أخبار كثيرة، وتفاصيل قليلة عكس المرأة التى حباها الله بالقدرة على التقاط تفاصيل أكثر وأخبار أقل.. وكلاهما يكملان بعضهما، ويصنعان الخبر الجذاب، والموضوع الصحفى المتميز.. وفيما يتعلق بكشوف الإنتاج هناك بعض المحررين حاولوا زيادة إنتاجهم فقسموا الخبر إلى خبرين، وهذا لا يليق بهم ولا بإسم المؤسسة، وبعضهم قدم أخباراً قديمة، وتلك خطيئة لا تغتفر فى عالم الصحافة الحديثة النزيهة، وفى ظل انفجار المعلومات الحالى فى الفضائيات، وعبر الأقمار الصناعية، وشبكة الإنترنت العنكبوتية، وغيرها من وسائل ضخ وتبادل المعلومات.. وأرجو أن يعلم المحررون جميعاً صغارا وكبارا مبتدئين أو محترفين مخضرمين أن أول مهمة للمحرر الصحفى هى تحرى الدقة والأمانة والشفافية، والمحرر الذى يزور خبراً أو يزور كشف إنتاج مثل المحرر الذى يزور كشف حساب.. وأنا أفضل أن يقول المحرر ويعترف بأنه لم يعمل شيئاً على أن يكتب خبراً غير حقيقى وينسبه لنفسه!

وابتداء من هذا الأسبوع سنخصص صندوقاً لكى يضع فيه المحررون أخبارهم لأنه فى بعض الأحيان توضع الأخبار ولا يلتفت إليها أحد، وفى أحيان أخرى يسطو المحرر على أخبار غيره، ويدعى أنها ملكه! وفى كثير من الأحيان يطلع بعض المحررين على الأخبار قبل نشرها، ويحكونها فى جلساتهم خارج المؤسسة فتكون النتيجة أن تتسرب الأخبار إلى أماكن

أخرى، وتنتشر فى جهات إعلامية، وصحفية أخرى قبل نشرها فى جريدتنا، وهذا عبث لا بد من التصدى له لأننا فى زمن المنافسة، وعصر الصراع الصحفى والاعلامى!

وأرى أن نظام الصندوق هذا وضع لحماية المحررين أنفسهم لأنه من غير المعقول أن يتساوى المحرر المنتج مع المحرر الكسول الخامل الغافل الذى يعتبر نفسه موظفًا فى ديوان الصحافة!

الفرق شاسع يا حضرات بين الموظف والصحفى أى بين المبدع والتقليدى.

وواجبكم أنتم جميعاً حماية هذا النظام لأنكم تحمون أنفسكم، وأحب أقول لكم أيضاً.. إن إنتاج الأسبوع بلغ ٨٢٠ خبراً صحفياً، وهو رقم قياسى، ويوجد ٩ محررين قدموا أكثر من ٥٠ خبراً، ويوجد محررون قدموا أقل من ٥ أخبار لكل محرر، وذكر عبد العليم طابع أسماء المحررين الذى زاد إنتاجهم الصحفى عن ٥٠ خبراً.. واستطرد فى حديثه قائلاً كأنه أستاذ للصحافة فى كليه الإعلام، وأمامه مجموعة من التلاميذ لا كوكبة من الصحفيين:

على كل الأحوال موضوع حديثنا اليوم يا سادة هو.. كيف ينجح المحرر الصحفى؟! وما الذى يصنع الصحفى الموهوب؟! لكى تعرفوا الإجابة على هذا السؤال أنظروا لأنفسكم فى جريدتكم "الأيام" أكثر الصحف انتشاراً وأعرقها فى مصر.. بينكم عدد لمع وتوهج، وبينكم أيضاً عدد أخفق وتهاوى، وإن كنت أظن أن فرصة النجاح والسطوع والنجومية متاحة أمامكم جميعاً بنفس القدر، صحيح أن الفروق الفردية تؤثر لكن يبقى التفانى فى العمل هو الذى يصنع المجد، وأؤمن أن هذه الصالة سيخرج منها عدد لا بأس به من نجوم الصحافة، وفرسان القلم.

ولعلكم لاحظتم يا حضرات عندما زادت مؤسسة "الأيام" فى عدد محرريها والضجة التى أثارت فى الوسط الصحفى بزيادة عدد المحررات..

وكيف أن بعض المحررين جاءوا واعترضوا على سياسة الإكثار من المحررات، والبعض الآخر لم يكن لديه الشجاعة ليقول لى، ويعبر عن رأيه، وكان يكتفى بالإعلان عن ثورته المكبوتة على هذا النظام فى صمت.

لقد سبق لى أن قلت إن "الأيام" يجب أن تسبق الجميع بانتصاراتها الصحفية، وريادتها الإعلامية لا أن تجرى وراءهم!

من مبادئ مؤسسة الأيام أيها السادة وتقاليدها العريقة أن تأخذ بزمام المبادرة وتتطلق، وتترك الصحف الأخرى تلهث وراءها.. وأنا أؤمن بأن المرأة ستلعب دوراً كبيراً وخطيراً وحاسماً فى المعارك الصحفية.. دور المرأة فى الصحافة لا يختلف إطلاقاً يا حضرات عن دورها الوطنى فى المخابرات وأعمال الجاسوسية.. وأرجوكم لا تفهمونى خطأ!

ضجت القاعة بالضحك.. بدا له أنه ضحك غير مبرر، لم يهتم وواصل كلامه كأن شيئاً لم يحدث، وناجى شرف الدين يراقبه عن كثب، وينصت إليه بإمعان بالغ، واصغاء فائق..

نحن نرى أن فى هذا وسيلة للتفوق الصحفى فى المستقبل القريب.. فيجب أن نبدأ نحن بهذا الأمر، وليتبعنا الآخرون، أو يسيروا عكس إتجاهنا لا يهم.. لقد كان الدليل على تفوق المرأة فى بلاط صاحبة الجلالة بدون شك هو عدد الجمعة الأسبوعى من الجريدة، وتحديدًا عدد الأسبوع الماضى.. فقد كان من أفضل الأعداد التى أصدرتها "الأيام" فى السنوات العشر الأخيرة، وقد يدهشكم أن ذلك حدث بفضل عدد من المحررات الموهوبات!

إن موضوع الأمير وليام وقصة غرامه بفتاة مصرية فى المرحلة الإعدادية، وتقدمه رسمياً للزواج منها، ورفض والدها هذا العرض وهذا العريس الملكى ساهم فى زيادة توزيع الجريدة، والفضل يرجع إلى ذكاء وفطنة وموهبة المحررة الصحفية سميرة حلمى التى كانت فى حفلة ومعها العشرات

من الصحفيين ولكنها فكرت ، واستطاعت أن تحصل على انفراد لنفسها وسبق صحفى لجريدها ومؤسستها من خلال قصة ممتازة إنسانياً واجتماعياً ويكفى أن تعرفوا أن عشر صحف من أكبر صحف العالم نشرت هذا الموضوع فى صفحتها الأولى بعد نشرها فى صحيفتنا.. نشروها فى الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا وفرنسا ، وطلب مراسلوا الصحف الأجنبية الكبرى فى القاهرة السماح لهم بالحصول على الصور التى نشرتها الأيام لنشرها مع الموضوع فى صحفهم!

لاذ عبد العليم طابع بالصمت قليلاً ثم عاود الإسترسال قائلاً :

يجب على كل محرر ومحررة فى هذه المؤسسة أن ، يدرك تماماً أن الأخبار هى أسرار مقدسة ، لا يجوز أن يعطيها أو يحكيها لأحد.. وحتى أنا عندما أعرف خبراً مهماً أو خطيراً لا أحكيه لأى مخلوق ، ولا حتى لزوجتى وقد تفاجأ هى به منشوراً فى الجريدة صباح اليوم التالى.. ومن عادة المرأة أنها ثرثرة كثيرة الكلام لا تكتم السر أبداً ، وتصاب بمغص كلوى إذا احتفظت بسر داخلها ، وإن كان هناك عدد من محررات الأيام أثبتن أنهن على مستوى الرجال فى مسألة الكتمان.

شرد ناجى شرف الدين ، ودارت فى رأسه عدة تساؤلات.. ما الذى أتى بميرفت العطيفى هنا؟! ولماذا تجلس مثل ملكة متوجة على عرشها بجوار عبد العليم طابع الرجل صاحب السطوة فى أعرق مؤسسة صحفية رئيساً لتحريرها ولمجلس إدارتها سنوات طويلة حتى وصفه ذات يوم نقيب الأطباء بأنه الصحفى المزمّن!

جاء رد رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير على تساؤلاته عاجلاً فوراً كأنه سمعه ، وعرف ما فى نواياه.. قال :

أحب أقول لكم يا حضرات أنكم أصحاب سلطة.. نعم سلطة القلم وقوة الحق.. أنتم أصحاب السلطة الرابعة.. وأود أن أقول لكم أيضاً إن أسرة مؤسسة الأيام تسعد ويسرها انضمام العديد من المواهب والكفاءات سواء

الجديدة، أو الوافدة إلنا من إصدارات صحفية أخرى تبسم فى وجهها وهو يشير ناحيتها وأخص بالذكر هنا الزميلة العزيزة ميرفت العطيفى التى كانت تعمل فى صحيفة "مصر اليوم".

ولا يفوتنى هنا أن أقول لكم إن الطريقة الحديثة فى الصحافة العالمية اليوم هى الاعتماد على نوعين من الفوتوغرافيا.. فوتوغرافيا الرجل الصحفى وهى تستطيع أن تلتقط عددًا كبيرًا من الصور.. فالعدسات فى رأس الرجل الصحفى أكثر منها فى رأس المرأة الصحفية! ويجب الاعتماد أيضًا على الكاميرا العقلية للمرأة الصحفية، لأن العدسات التى فى رأسها تلتقط تفاصيل أكثر بكثير مما تلتقطه عدسة عقل الرجل الصحفى.. بمعنى أنه إذا ذهب صحفى وصحفية إلى حفلة، وحضرا أحداثها ووقائعها ومراسمها، سوف نلاحظ أن الصحفى الذكر يستطيع أن يعرف أسماء جميع من حضروا الحفلة بينما الصحفية الأنثى تستطيع أن تعرف بحاستها وغريزتها تفاصيل أدق، ووقائع صغيرة وكثيرة لعدد قليل منهم!

الصحفى قادر بلا شك على معرفة مائة اسم من المدعوين.. والصحفية قادرة على تقديم معلومات دقيقة ووافية عن عشرة أسماء من الموجودين فى الحفلة مثل لون ملابسهم.. مَن منهم حليق الذقن، ومن منهم كان أنيقًا فى ملبسه.. ومَن منهم تعطر بعطر فرنسى فاخر ومن منهم كان شاردًا أو مهمومًا فى هذه الحفلة!

وأذكر أننى عندما بدأت حياتى الصحفية كنت مندوبًا فى إحدى الوزارات لا داعى لذكر اسمها الآن.. لكن على كل الأحوال كنت ألتقى الوزير يوميًا، ولم أكتشف أن هناك ثقبًا صغيرًا فى أذنه إلا عندما ذهبت إليه إحدى زميلاتى وقابلته! اكتشفت الثقب من أول لقاء بينما لم أكتشفه أنا على مدى سنوات.

وكان لهذا الثقب الصغير قصة طريفة حكاها لى الوزير فيما بعد، وهى أن أمه أنجبت خمسة من الذكور، وكان هو آخرهم، وأشار عليها

البعض أن تثقب أذنه مثل البنات حتى يرزقها الله فى المرة السادسة بطفلة تكون مسك الختام فى رحلة الإنجاب.

وقد تبدو ملاحظة ثقب أذن الوزير تافهة وبلا قيمة ، لا تقدم ولا تؤخر.. لكنها فى نهاية الأمر تثبت أن الصحفية الأثنى تستطيع رصد وتحليل ، وتسجيل تفاصيل أكثر من الصحفى الرجل.. وهذه حقيقة علمية لا شك فيها ، ولا جدال ، وأثبتتها نتائج التجارب العلمية ، والمعملية والبحوث الميدانية!

سحب عبد العليم طابع نفساً عميقاً هادئاً من سيجارته الكوبية الفاخرة المتورمة واحتسى معها آخر ما تبقى فى فنجانه من القهوة ثم قال:

يا أعزائى.. سوف أذكر لكم الآن واقعة تاريخية حدثت بالفعل عام ١٩٣٤ عندما كان عبود باشا فى انجلترا يخطب فى حفلات "هايد بارك" الشهيرة فى قلب العاصمة لندن ، ويتكلم بكل فخر عن مشروع خزان أسوان وفى ذلك الوقت كان هناك العديد من الصحفيين والصحفيات ، واهتموا جميعاً بتفاصيل المشروع العظيم بينما محررة صحيفة واحدة فقط اهتمت بشئ آخر مختلف تماماً عما اهتم به الآخرون من زملائها.. فقد اكتشفت تلك الصحفية أن بنطلون عبود باشا ممزق ومن منطقة حساسة للغاية!

واهتمت بهذه اللقطة وكتبت هذه الحدوته فى مقدمة موضوعها الصحفى تقول إن المليونير ، ولو أن بنطلونه ممزق إلا أنه تكلم فى كل شئ عن مشروع خزان أسوان ببراعة يحسد عليها!

سردت التفاصيل والهناات التى سردها زملاؤها.. إنما قصة البنطلون الممزق كانت حديث عاصمة الضباب!

هذا يعنى أن على الصحفى أن يحرص على التقاط التفاصيل ، ولا يتجاهل الصغائر بجانب القفشات الذكية ، واللقطات الخفية الطريفة التى تعجب القراء مهما كانت جنسياتهم ، وثقافتهم وانتماءاتهم الفكرية والعقائدية.. يوجد فى هذا العالم صحفيون يخطفون الأخبار خطفاً مثل القراصنة

الصوماليين الذين يتربصون على امتداد سواحل المحيط لاختطاف سفينة عابرة للمياة الإقليمية، واقتناص بضاعة متحركة فوق الأمواج!

وفى رأى.. إن عملية الخطف لا تفيد كثيراً، بل بجانب التقاطك للخبر يجب أن تحصل على تفاصيل أكثر لكى تستطيع التفوق فى ماراثون السباق، والمنافسة اليومية الشرسة مع الصحف، والإصدارات الأخرى، كما يمكنك بالتفاصيل الصغيرة التى تبدو تافهة أن تلعب فى الخبر، وتحوله من خبر روتينى عادى إلى سبق خبرى متفرد!

ومن شروط الصحفى الناجح أيضاً تفانيه فى عمله، وحبه وإخلاصه لمهنة البحث عن العذاب والمتعة.. يوجد صحفيون يذهبون إلى الجرائد والمجلات المنافسة ليبيعوا الأخبار والموضوعات الصحفية مثل مندوبى المبيعات، وتجار الشنطة هذا يحدث للأسف.. فليس كل الصحفيين ملائكة.. وليس أيضاً كلهم أبالسة! وبعض الصحفيين يعرضون أنفسهم وبضاعتهم للبيع لدى صحف منافسة لصحفهم لأنها تدفع أكثر.. مثل هؤلاء لا نفاتحهم فى هذا الشأن، إنما ننقلهم من قائمة المحررين الدائمين إلى قائمة المحررين المؤقتين أو المحررين الترانزيت!

وإذا كانت هذه قوانين التجارة، فليست الصحافة وكالة أو سوپر ماركت! إنما مهنة قيم ومبادئ وأخلاق، ورسالة سامية قبل أن تكون مصدراً للتكسب والارتزاق، ونحن نشعر أن الصحفى الذى يبيع ذاته، ويتاجر بقلمه وبضاعته الصحفية مكانه الطبيعى على سلالم المؤسسة، وليس فى داخلها، ولا نستطيع أن نسند له أعمالاً مهمة على الإطلاق لأنه أصبح فى نظرنا مثل الخائن الذى يبيع أسرار وطنه للأعداء مقابل حفنة دولارات، وقد يلجأ هذا الصحفى العميل غير الوفى لمؤسسته إلى الجرائد المنافسة ليبيعهم انفراداته الصحفية مقابل ما يحصل عليه هناك من أجور مجزية ومكافآت سخية!

وهذا أمر طبيعى جداً بالنسبة للنفس البشرية التى تطمح، وتطمع فى

المزيد دائماً ولا تمل ولا تكل ولا تشبع من التحصيل حتى ولو امتلكت
ثروة قارون!

إننا يا حضرات نترك لهؤلاء المحررين الصحفيين حرية الاختيار والتنقل ،
وليس مطلوباً منا أن نعاملهم معاملة المحررين الدائمين على الإطلاق فهم
ليسوا أصحاب البيت ، بل نعتبرهم من الضيوف!

وأقول لكم بكل صراحة أنه لا يمكن لفريق أن يعتمد على لاعب لن
يستمر في فريقه مهما كانت قدراته ، وطالما أنه سينتقل ليلعب مع الفريق
المنافس ولصالحه ، فلا بد من الحرص والحذر ، ومثل هؤلاء اللاعبين ولو
أننا لا نشجعهم على ترك الفريق ، إلا أنه يجب أن نتصورهم خارج الفريق
تماماً ولا نعتد عليهم ، ولا نعول عليهم كثيراً!

إن الإخلاص والوفاء والولاء يا سادة للجريدة أو المجلة ليس سلعة تباع
وتشتري ، بل هو قيمة عظيمة ، وهو أول شرط للنجاح والتميز..

قد يحدث أن نسمع أن محرراً يلعن صحيفته أو يسب مجلته هذا أمر
وارد.. ولكنى لا أثق في هذا المحرر ، ولا أعتد عليه أبداً.. أنا شخصياً
أحب الصحفي المخلص لجريدته أو مجلته لآخر لحظة.. أنا أفضل أن يعمل
المحررون غير المخلصين في الجرائد والمجلات الأخرى المنافسة لأنهم
في رأيي المتواضع طابور خامس!

إن أهم صفة في المحرر الصحفي هي الإخلاص.. فإذا غاب الإخلاص
فقل على الصحفي السلام.

وأضرب لكم مثلاً يهمكم جميعاً.. عند تعيين الدكتور سعد أبو المجد
مديراً عاماً بمؤسسة " الأيام " همس في أذني عدد من الناس بأن سعد أبو
المجد كان يهاجم " الأيام " أثناء وجوده في صحيفة " مصر اليوم " ، وكان
يقول أنها سوف تعلن إفلاسها ، وتغلق أبوابها ، ويصرح بآرائه تلك آناء الليل ،
وأطراف النهار ، ويقولها على الملأ وفي وسائل الأعلام المختلفة.. وقد قلت
لهم.. هل أنتم متأكدون من هذا؟! الحقيقة كنت أخشى من أن تكون

وشاية خبيثة.. لكنهم قالوا نعم.. نحن واثقون ومتأكدون.. وعلى الفور وقعت عقداً مع الدكتور سعد أبو المجد ليعمل معنا لأن الرجل الذى يخلص لمؤسسته، وعمله سوف يخلص بنفس الطريقة فى أى عمل آخر فى مؤسسة أخرى، إنما لو قالوا لى أنه كان يعطى أخبار جريدته لصحيفة أخرى غير الصحيفة التى ينتمى إليها حتى لو كان يعطيها لصحيفتنا لكنا رفضنا تعيينه عندنا لأنه سيعمل فى هذه الحالة بمبدأ الخيانة المهنية ذاتها!

وأذكر أنه أثناء عملى فى مؤسسة "الهلال" خلال مرحلة من مراحل حياتى الصحفية، كنت عند مرورى على حجرة مضاءة أطفئ النور.. هذه كانت عادتى التى أحرص دائماً عليها، برغم أننى لا أدفع فاتورة الكهرباء من جيبى ولا يعينى الأمر من قريب أو بعيد!

لم يكن يهمنى أن يخسروا جنيهاً واحداً أو جنيهين، ولن يؤثر هذا على ما أتقاضاه من راتب، ولكنى كنت أشعر أننى مالك لهذه الجريدة، ومسئول عن كل شئ فيها، وعندما أجد أى خطأ، أذهب لأصححه على الفور حتى ولو لم يكن من صميم عملى، لأن المحرر يجب أن يشعر أنه مالك كل شئ فى المؤسسة الصحفية التى ينتمى إليها، لا أن يستخدمها كورقة ضغط، وقوة نفوذ لتحقيق مآرب شخصية، ومنافع ذاتية.. تلك هى القضية يا حضرات المحررين والمحررات!

توقف لحظات.. التقط فيها أنفاسه، وتجرع شربة ماء ثم قال:

لا يفوتنى هنا إلا أن أشيد بدور بنات حواء فى الصحافة وأسجل فخرى واعجابى، واعتزازى بانتصاراتهن فى بلاط صاحبة الجلالة، ولا يفوتنى أيضاً أن أذكر أن إحدى المحررات حاولت ذات مرة بمكر ودهاء خداع رئيس قسم الأخبار، فقدمت له ٤٠ خبراً صحفياً، وبعد ذلك إتضح أنها نقلتها من النشرات التى تصدرها الوزارات، وترسلها بالفاكس للجميع من خلال إدارة الاعلام والعلاقات العامة بكل وزارة، وهذه النشرات تصل مكتوبة، لكن المحررة المخادعة فكرت أن تقدم شيئاً جديداً فقالت

لمسؤولى الإعلام والصحافة بالوزارة التى تغطى أخبارها.. لا ترسلوا النشرة لرئيس التحرير وارسلوها لى، واكتشف رئيس التحرير لعبتها الوقحة، ولم تنطل عليه خدعتها الساذجة!

هذه المحررة أخطأت فى حق نفسها، وفى حق جريدتها، وعلى فكرة خط نشرة الوزارة أحسن من خطها!

ضجت القاعة بالضحك.. وانفجر الجميع فى نشوة القهقهات بصوت مرتفع، وتناثرت الهمسات بين الجميع يتساءلون بهمهمات مكتومة عن صاحبة هذه التهمة الطريفة.. اختتم الكاتب الصحفى عبد العليم طابع رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير كلامه بالشكر لهم جميعاً متمنياً التوفيق والنجاح لكل أبناء مؤسسة الأيام واصداراتها المختلفة فى مهنة البحث عن المتاعب..

ابتسم الرجل بهدوء، ونهض من مكانه، وتحرك فى اتجاه الباب لمغادرة صالة التحرير أو قاعة الاجتماعات كما يطلق هو عليها، وإتجه إلى مكتبه، وسارت بجواره ميرفت العطيفى التى لا تفارقه كظله، بل تكاد تمسك بيده، وهو ينظر إليها بابتسامة مأكرة خبيثة مراوغة مثل ابتسامة ثعلب جبلى شرس هى وحدها تفطن مغزاها ومعناها!

بينما وقف ناجى شرف الدين شاخصاً يرقب المشهد فى ذهول ودهشة!

" ما من بستان إلا وبه أكثر من أفعى! "

سرى الهمس والغمز واللمز فى المؤسسة مسرى النار فى الهشيم، وتبادل المحررون، والمحررات تفاصيل الخبر المثير الذى يدور كالنحلة فى مكاتب وردهاات المبنى العريق.. هو الحدث الأبرز والأهم، والشائعة الجذابة التى تدعو للبحث والفحص فى مدى مصداقيتها، والخبر الذى يجب معرفة عناصره، وخبائاه وأصل وفصل مصدره!

تفاصيل الخبر الذى تلوكه الأفواه، ويطوف على الآذان بسرعة البرق والرعد مفاده أن مؤسسة " الأيام " أكبر وأعرق المؤسسات الصحفية فى مصر المحروسة، وبقرار أشبه بالفرمان من رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير الكاتب الصحفى المرموق عبد العليم طابع ستصدر مجلة فنية أسبوعية بعنوان " نجوم الفنون "، وتتولى رئاسة تحريرها ميرفت العطيفى.. دارت مناقشات كثيرة، وجدل لا ينتهى بين المحررين والمحررات، وكل شخص يدلى بدلوه، ويهمس بالسروراء هذا القرار ويحكى الكواليس غير المعلنة لزميله كما لو كان يذيع سرًا حربيًا خطيرًا ويوصيه ألا يفشى الخبر، ولا يقول لمخلوق أنه سمع منه شيئاً.. بدا الأمر أشبه بمسرحية سخيفة ممله برغم أن فيها الجانب البوليسى المشوق أحياناً مثل روايات أجاثا كريستى!

تساءلوا جميعاً.. ولماذا ميرفت العطيفى؟! ومن تكون هى أساساً؟! وما تاريخها فى بلاط صاحبة الجلالة حتى تقتنص لقب " رئيس تحرير " وهو اللقب الأعلى والأعلى لكل من يمتهن ويحترف الكتابة الصحفية؟! وعلى الفور بدأت حفلات النعمة.. وشرع المحررون والمحررات فى جمع المعلومات عنها على طريقة شيرلوك هولمز، وبأسلوب المخبرين

المحترفين، وتكشفت أمامهم الحقيقة المروعة عارية كأنثى لعوب ترغب معاشرة زوجها المنشغل عنها، فتباغته ليلة الجمعة، وهو مضجع فى فراشة بعد منتصف الليل يشاهد التلفزيون، لا وقت عندها للمقدمات ولا المشهيات فقد استبدت بها النشوة الحارقة، فنزعت كل ملابسها، وألقت بنفسها بين أحضانه، كل شئ فوري وعاجل.. ضبط وإحضار.. مثلما يفعل رجال المباحث، وعناصر التحريات، حصل المحررون على صحيفة أحوالها التى ترصد سيرتها الذاتية، واكتشفوا العجب.. فهى حاصلة على مؤهل دراسى متوسط، وتم تعيينها سكرتيرة فى جريدة "مصر اليوم" وكانت تعد الشاي والقهوة بنفسها لرئيس تحريرها، وتتقرب إليه بكل الطرق والوسائل حتى تحقق مأربها!

ونظراً لطموحها الجامح، وقدرتها الهائلة على إثارة الرجال، وتحريك قواهم الكامنة ساعدها عمر الشهابى رئيس التحرير فى الحصول على منحة دراسية بالمعهد العالى للدراسات التعاونية، ومن هذا المعهد حصلت على البكالوريوس بعد أربع سنوات دراسية، كما ساعدها أيضاً فى تغيير تصنيفها الوظيفى من سكرتيرة عادية فى مكتبه إلى صحفية، ومن ثم نالت عضوية نقابة الصحفيين، وكان هذا حلم حياتها الكبير، وبرغم ذلك لم تشبع نهمها ولا طموحها، فقد كانت تفضل بدء حياتها فى مؤسسة صحفية كبيرة مثل مؤسسة "الأيام"، ووجودها لسنوات طويلة فى جريدة "مصر اليوم" جعلها تشعر بالنقمة، وظلت بجوار عمر الشهابى تدللّه، وترافقه فى كل رحلاته الصحفية داخل مصر، وخارجها حتى صارت تلعب دور عشيقته فى الظل وزوجته السرية، وامراته الخصوصية من وراء ستار! كان لدى الرجل زوجته الشرعية أم أولاده، ولا يفكر فى الزواج للمرة الثانية على الإطلاق.. كما أن ميرفت العطيفى تدرك جيداً أن عمر الشهابى ليس هو رجلها المناسب الذى يرضى طموحها، وإنما مجرد قارب نجاة ينقلها من نهر الفقر إلى محيط الغنى والثراء، مع أنها كانت تحصل على

مكافآت وحوافز، وبدلات تفوق عشرات المرات ما يحصل عليه أى محرر أو محررة فى صحيفة "مصر اليوم" ..و حينما حانت اللحظة الحاسمة، ورآها عبد العليم طابع الصحفى العجوز المخضرم الخبير بالنساء المتعدد العلاقات وصاحب النزوات والغزوات فى مملكة حواء.. القريب إلى عقل وقلب القيادة السياسية القابعة فى القصر الجمهورى.. ألقى ميرفت العطيفى بشباكها عليه، اصطادته هى، وظن أنه الصياد الماهر الذى لا يرد له رمح ولا يكسر له سيف، وللهولة الأولى فهم العجوز مغزى الرسالة، وسأل عنها بدهاء، وعلى الفور كان على مكتبه تقرير مفصل عن حياتها منذ ولدتها أمها بمستشفى الجلاء للولادة بقلب القاهرة وحتى الآن..هى تعيش مع أمها التى كانت تعمل فى صدر شبابها راقصة فى الفرقة المصرية للفنون الشعبية ثم اعتزلت بفعل الزمن الذى لا يرحم، وعندما انزوى جمالها، وتوارى وراء تجاعيد السنين تقاعدت فى البيت، واعتمدت على المعاش الذى تركه لها زوجها محمود العطيفى والد ابنتها الوحيدة ميرفت والذى كان يكفيهما بالكاد..

وذات يوم شتوى مشرق الشمس كان عبد العليم طابع فى رحلة عمل صحفية إلى إيطاليا مرافقاً لرئيس الجمهورية ضمن الوفد الإعلامى على طائرة الرئاسة وبالطبع كان بين أعضاء الوفد عمر الشهابى، وبصحبه ميرفت العطيفى فى هذا اليوم التاريخى لمحها عبد العليم طابع بعين الخبير الواعر المحنك فى شئون النساء مثل جواهرجى يستطيع فى لمح البصر أن يقدر قيمة أحجاره الكريمة من أول نظرة.. ظل يراقبها بعينه، ويتفحص ملامحها بشراهة ذئب مفترس يتربص بفريسته الشهية.. فأحست بغريزة الأنثى الماكرة ما يصبو إليه الرجل عاشق المغامرات فى بحور النساء.. تطلعت بطرف عينيها إلى شعره الأبيض القليل المتناثر على حواف صلته الرحبة.. وقالت لنفسها:

هاهى الفرصة قد حانت وتدلّت، وحن وقت قطافها، ويجب أن ألقى

القبض عليها.. راهنت على أنوثتها المتفجرة، ولهفة الرجل المتهالك الضعيف جسدياً القوى النفوذ فى بلاط صاحبة الجلالة، وكذلك فى مملكة السياسة أملاً فى أن تغير وجه حياتها للأفضل، وبالفعل نفذ سهم كيوييد، وأصاب القلب، وقبل أن تنتهى الرحلة على الطائرة الرئاسية التى تشبه من الداخل الفندق سبع نجوم كان قد طلبها عبد العليم طابع من عمر الشهابى الذى تردد فى البداية، وتلعثم وحاول التملص من هذا الفخ دون جدوى..فقد صدر إليه أمر عبد العليم طابع مغلفاً فى صورة رجاء براق يخفى بين طياته نبذة تهديد ووعيد.. قال له طابع:

— أريدها فى مكتبى.. غداً.

وبمجرد تفرق أعضاء الوفد الصحفى فى مطار القاهرة، تنحى عمر الشهابى بميرفت العطيفى جانباً وقال لها هامساً بنبرة قهر:

هناك موضوع مهم أريد أن أقوله لك، سوف أعرضه عليك ولك حرية الاختيار.. يا عزيزتى: أنت حرة فى حياتك ومستقبلك ومصيرك.. أما أنا فلست حراً على الإطلاق فى الرفض أو القبول..

لأن عبد العليم طابع رجل ذو جبروت، وقادر على أن يطيح بى إلى ما وراء الشمس، ويستطيع أن يزج بى فى غياهب السجن، أو يقذف بى فى ظلمات المجهول، وقد يتمادى فى انتقامه فيغلق الجريدة التى رأس تحريرها بكلمة واحدة منه كما يغلق مندوب رئاسة الحى أى محل مخالف للقوانين، ولا يدفع الضرائب المستحقة عليه، فهو الأمر الناهى فى شئون الصحافة المصرية، وهو قراقوش الإعلام فى المحروسة، وقد يشى بى فى أذن الرئيس أو وزير الداخلية، فيكون مصيرى السجن مدى الحياة وبش القرار.. والتهم جاهزة ومعلبة، والقائمة طويلة لا تنتهى.. خيانة الوطن.. التجسس لحساب إسرائيل.. الإساءة للعلاقات العربية العربية.. التطاول على دولة صديقة.. إهانة رئيس دولة أجنبية، كتابة ما من شأنه تكدير الأمن العام والسلم الاجتماعى.. وغيرها من التهم المطاطة التى تستوعب أى

شخص وتكون على مقاسه تماماً حسب تفصيل مقص ومازورة السلطة!
كانت الفرحة تقفز من عينيها ، والسعادة تكاد تطل من مقلتيها ، ولأنها
تدرك مشاعر عمر الشهابى وأنا نيته ، ورغبته فى امتلاكها مدى الحياة
تملك السيد لجاريته ، تظاهرت بالضيق والحزن لفراقه ، جاهدت قدر
طاقاتها للمدارة وإخفاء حقيقة ما تشعر به.. وقالت بمكر ساذج:

— وماذا يريد منى هذا الرجل؟!

قال بنبرة مكتومة نحاسية:

— يريدك أنتِ نفسك يا عزيزتى.. يريد جسدك وروحك وأيامك ولياليك..

تلك هى القضية!

ردت باستهجان:

— يريدنى.. ماذا تقصد بهذا الكلام؟!

يريدك فى مكتبه بمؤسسة الأيام.. وأنا لا مانع عندى إذا كانت لديك
رغبة فى ذلك.. وعلى كل الأحوال أنا أنصحك بقبول العرض والموافقة
على النقل إلى مؤسسة الأيام فهى مؤسسة قومية كبرى ، وستجدين فيها
مستقبلك

قالت بنبرة فيها سخرية واستخفاف:

— وأنت ماذا ستفعل بدونى؟!

باغته السؤال فتلعثم الرجل وقال:

— لن تكونى بعيدة عنى ، ولن أكون بعيداً عنك.. المهم مستقبلك يا
حبيبتي ، وفى الحقيقة أنا لا أريد أن أثير غضب عبد العليم طابع.. فهو
رجل جبار ولدغته والقبر.

هزت رأسها باستنكار ، وهمست لنفسها والسعادة الممتزجة بالحسرة
تسرى فى شرايينها:

— يا جبان.. يا خسيس.. يهملك مستقبلى.. أم أنك خائف على نفسك

ومنصبك ياسافل وتريدنى أن أمضى أبد الدهر إلى أسفل سافلين
وأسقط مع الساقطين والساقطات قلها.. تكلم؟!

ثم قالت بصوت مسموع:

— أنا موافقة على الانتقال إلى مؤسسة الأيام.. وليكن مايكون!

لم يتوقف الهمس بين المحررين جميعاً حتى صدر قرار عبد العليم طابع
بالفعل بتعيين ميرفت العطيفى رئيساً لتحرير مجلة " نجوم الفنون " أسبوعية
متخصصة فى السينما والمسرح والتلفزيون والفن التشكيلى، وخصص
لها ميزانية ضخمة ووفر لها كل الإمكانيات التكنولوجية والبشرية
والمادية لتخرج إلى دنيا الصحافة بأبهى صورة، وتكون على غرار المجالات
الأجنبية الراسخة والناجحة فى بلاط صاحبة الجلالة على المستوى العالمى
مثل " ستوديو "، " بيبول "، " التايمز " وغيرها..

أصبحت ميرفت العطيفى بقدرة قادر الأمرة الناهية فى المؤسسة،
والمسيطرة على كل كبيرة وصغيرة فى دروبها ودهاليزها وصلات
تحريرها.. والمحررون يتغامزون ويتهامسون بأنها صانعة كل القرارات،
وأن رئيس مجلس الإدارة مجرد واجهة أو صورة ليس إلا..

بدأت ميرفت العطيفى فى اختيار فريق عمل المجلة من المحررين،
والمحررات من الإصدارات المختلفة بالمؤسسة للعمل معها، كما نشرت
إعلاناً فى صحيفة الأيام تطلب فيه مواهب صحفية وخريجي إعلام، وكان
من بين من اختارتهم ناجى شرف الدين الذى سمعت عن دماثة خلقه،
وموهبته الفذة منذ كان يعمل معها فى جريدة " مصر اليوم ".. وقد نجحت
فى انتزاعه من عبد العليم طابع الذى حاول الاستئثار به ليكون مساعداً
له، لكنها أصرت على رأيها فرضخ الرجل صاعراً لرغبتها.. كانت تتعامل
مع الجميع من الصحفيين، والصحفيات بالمؤسسة وكأنها ملكة تربعت
على عرش الكون، والكل يحسب لها ألف حساب، بعد أن أدركوا عن
يقين بأن عبد العليم طابع صار دمية أو عروسة ماريونيت فى يدها تحركها

كيفما تشاء ، وضد من تشاء ، ولصالح من تشاء.

شرعت فى مهمتها بالإعداد لإصدار المجلة على ورق فاخر مصقول بأربعة ألوان لامعة براققة ، كانت تقضى بين المحررين والموضوعات الصحفية والبروفات ساعات طويلة ، ولا تنهى عملها الدؤب إلا بعد منتصف الليل يومياً ، ومن حين لآخر يلاحظ ناجى شرف الدين أن هاتفها يرن بلحن مميز ناعم ، وتتحدث بهمس خفيف وتبتسم بغرور وخبث ، وذات مرة سمعها تقول بصوت خفيض مثير.. يا عبد العليم ثم كررتها بصيغة أخرى أكثر تدللاً وعذوبة قائلة : يا عبده.

هكذا نطقها بدون ألقاب.. أو مناصب أو مقدمات..

وبعد أربعة أسابيع فقط من إعداد الماكيكات والبروفات ، وتجهيز العدد التجريبي صدرت مجلة " نجوم الفنون " وأقامت ميرفت العطيفى حفلة لطيفة جداً داخل مقر المجلة ، وأضاءت شمعة واحدة فى وسط تورتة كبيرة مكونة من تسع طوابق إشارة إلى طوابق مؤسسة الأيام ، وحضر الحفل كل المحررين ومديرى التحرير بالمؤسسة وكذلك رؤساء تحرير الإصدارات الأخرى يتقدمهم عبد العليم طابع الرجل الكبير الوقور المهاب الركن..

بدا مبتهجاً كطفل صغير يلهو ، وهو يضع يده فوق يد ميرفت العطيفى ، ويقطع التورتة.. والكاميرات بأضوائها المبهرة من حوله تلتقط الصور الفوتوغرافية وفى صباح اليوم التالى كانت الصور تسطع مع خبر صدور العدد الأول من المجلة.

كانت الإعلانات تتوالى يومياً فى الصفحة الأولى بجريدة الأيام عن مجلة " نجوم الفنون " حتى يترقبها القراء بشغف ، وكذلك الإعلانات المتكررة بمعدل مرة كل ساعة تقريباً على شاشة التليفزيون ، وبصفة خاصة على القناة الرئيسية ، ونجحت الحملة الإعلانية والدعائية للمولود الجديد فى دنيا الصحافة ، وتردد إسم ميرفت العطيفى كرئيس للتحرير مئات المرات

مقروناً بإسم عبد العليم طابع رئيس مجلس الإدارة ، وبالفعل إكتسحت
المجلة الأسواق ، ونفذت أعدادها الأولى فور توزيعها ، وتخطفها القراء
بلهفة وحرص على اقتنائها .

فى تلك الأثناء كانت ميرفت العطيفى قد استعانت بخادمة فلبينية ترى
أمرها وتقوم على خدمتها ، وتسهر على راحتها بينما استأجرت هى شقة جديدة
لنفسها فى منطقة راقية بحى المهندسين بناء على رغبة عبد العليم طابع ،
وكانت كثيراً ما تواعده وتلقاه فى تلك الشقة سرّاً .. تداعبه ويداعبها ..
تطارحه الغرام ويطارحها .. تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها .. كانت تحركاتها
تبدو للآخرين من المحيطين بها ، والمقربين منها مريبة غامضة ، كانت
حريصة أشد الحرص على ألا يهتك أحد سترها ، ولا يعرف سرها حتى لا
يفتضح أمرها ، ودائماً كان يساورها الشك بأن هناك من يراقبها ، وأن
عيوناً مجهولة تترصدها وتتربص بها لدرجة أنها كانت تمنع فى التكرار
والتخفى بكل الوسائل وهى فى طريقها إلى شقة المتعة ، وكانت تطلب
دائماً من سائق السيارة المخصصة لها من المؤسسة أن يتوقف بها فى ميدان
"سفنكس" لتستقل هى سيارة أجرة أخرى حتى لا يعرف السائق وجهتها ..
ولأن فئة السائقين فى مصر المحروسة لا تختلف كثيراً عن فئة الحلاقين
الذين يتميزون عن الفئات الأخرى بالثرثرة ، وتقصى الأخبار والتتقيب عن
الأسرار ، والنبش بين طيات النيات والضمائر ، كان سائقها يحكى هذه
الأمر الصغيرة ، والتفاصيل الدقيقة المثيرة لسكرتها الخاص حسام
التونى ، وفى أغلب الأحيان كان يرويها أيضاً لزملائه السائقين أثناء أوقات
الفراغ والراحة ، وهم جميعاً معاً فى غرفة السائقين يدخلون بلذة ، ويحتسون
الشاي بمزاج ، ويلعبون الطاولة بفوضى وغوغائية .. ومن خلال مجموعة
من الخيوط الرفيعة أدرك حسام التونى بحسه البوليسى أن هناك علاقة
مشبوهة سرية وخفية تجمعها بالرجل الكبير فى المؤسسة ، وأنها تغيب
عن المجلة ساعات طويلة ، ولا تذهب إلى بيتها وتغلق هاتفها المحمول .. كل
أسبوع تلقاه سرّاً مرة أو مرتين فى الشقة التى استأجرتها فى البداية ثم قالت

له وهى بين أحضانه ذات مرة:

أنها أحبت هذه الشقة ، وأحبت ذكرياتها فيها ، وتريد ألا تغادرها أبداً!

وعلى الفور اشتراها عبد العليم طايح وكتبها باسمها.. دفع فيها مليون جنيه نقدا وعدا.. صحيح مليون جنيه بالكمال والتمام.. ولم يكن سكرتيرها حسام التونى يشك لحظة واحدة فى أن عبد العليم طايح هو الذى دفع ثمن هذه الشقة ، ومن أموال المؤسسة التى يتربع على عرشها منذ أكثر من عشرين عاما ، ويتصرف فى ملايينها كما يحلو له ، ومثلما يتصرف السفیه فى الثروة التى هبطت عليه من السماء ، وورثها فجأة دون عناء أو جهد يذكر.. وتشير الأرقام السرية فى حسابات المؤسسة أنه يتقاضى ٢٠٠ ألف جنيه مع سطوع شمس كل نهار جديد ، حصته من إيرادات الإعلانات حسب نسبة العشرة بالمائة المقررة لرؤساء التحرير ، ورؤساء مجلس الإدارة من سيل الإعلانات المنهمر على المؤسسة وإصداراتها المختلفة ، ويحكى المحررون فى المؤسسة حوادث تفوق حوادث ألف ليلة وليلة فى شططها وهوسها ، وجنون أبطالها عن الإمبراطور عبد العليم طايح ، وكأنه رجل أسطورى خارق ، يذكرون قصره المنيف فى مدينة السادس من أكتوبر ، والذى أنفق على تشييده ٧٥ مليون جنيه ، واشترى كل أثاثه وتجهيزاته قطعة قطعة من إيطاليا ، ويضم بين جدرانه لوحات لأشهر الفنانين العالميين من بينها لوحات أصلية بريشة فان جوخ وبيكاسو ودانتى بجانب أشهر ، وأغلى لوحة رسمها فاروق حسنى وزير ثقافة مصر على مدى ربع قرن ، وفنانها التشكيلى الخالد على مر العصور ، وقدرت اللوحة بمليون دولار.. لكنه اتصل بالوزير ، وأبدى إعجابه الشديد بها وأثنى على عبقرية الفنان الذى يتخفى فى ثوب الوزير ، وأكد له أنه مستعد لاقتناء هذه اللوحة بأى ثمن ، ومهما كان الثمن ، وبذكاء الوزير الفنان ودهائه وكرم أخلاقه الحاتمی المعروف رفض أن يبيعها وأهداه إياها!

وهناك أيضا إستراحته الفارهة التى تشبه قطعة رائعة من الجنة ، ولا

يقل ثمنها عن عشرة ملايين جنيه ، وتقع فى مكان مميز للغاية على شاطئ الساحل الشمالى.. هذا بخلاف الأموال السائلة ، والودائع الذهبية المجمدة فى بنوك مصر وسويسرا وباريس وروما وأرصدته التى تضخمت وتجاوزت أموال قارون ، بالإضافة إلى الأراضى والشقق فى المدن الجديدة والشاليهات فى شرم الشيخ والغردقة والتى سجلها بأسماء أولاده وأحفاده وأقاربه حتى يظل بعيداً عن قبضة المساءلة ، وحتى لا يكون ضحية قانون الكسب غير المشروع أو تشريع من أين لك هذا؟!

حواديت وحكايات وأساطير تحكى عن هذا الرجل الذى يعد بحق أسطورة فى الصحافة والثراء ، والأقرب إلى قلب ووجدان وأذن الرئيس.. هذا الصحفى العبقري فى التسلق والوصولية مثل شجرة اللبلاب.. بدأ حياته مندوباً صغيراً فى وزارة النقل ثم تدرج بدهاء الثعالب حتى إرتقى الكرسى الأكبر فى مؤسسة الأيام للصحافة والنشر.. كان الحظ حليفه والدأب والصبر سلاحه حتى صعد القمة ، وتربع فوقها سنوات وسنوات.. وظلت المرأة كمخلوق أنثوى متميز مهما كان شكلها ووصفها هى غرامه الذى لا يفتر ، وشغفه الذى لا يهدأ ونقطة ضعفه الوحيدة!

"جسد الأنثى معبدها.. تمنحه لمن تشاء من الدراويش
العاشقين العابدين.. فالمعبد لا يدخله إلا التائبون!"

تواصلت اللقاءات الودية بين حمد الغامدى وإيناس مندور.. دبت بينهما الصداقة والألفة.. كان حمد يظنها حالة حب أو هكذا اعتبرها بالفعل بينما هو بالنسبة لها مجرد صديق.. أو طبيب نفسى ترتاح للثرثرة معه، وهما يعيشان كغريمين غريبين عن وطنهما العربى الكبير، وبينهما صفات كثيرة مشتركة، ويتقاسمان الحنين للوطن.

ولما ألح فى رغبته بالزواج منها مراراً وتكراراً.. سألته سؤالاً ذكياً خبيثاً.. قالت:

_ ولماذا لا تتزوج فتاة أوروبية.. إنهن جميلات فارعات قويات أجسادهن مثل نتف الثلج الأبيض، وشعرهن كأسلاك الذهب الخالص، وأنوثتهن طاغية غامرة فياضة تروى ظمأ العطشى من أبناء الصحارى مثلك يا حمد!

ضحكا سوياً ضحكة ذات مغزى مفهوم.

قال وكأنه يحكى فصولاً من رسالته الأكاديمية للدكتورة أمام لجنة التحكيم:

_ لم يعد خافياً يا إيناس أن المرأة العربية لا تطولها الدراسات، والاختبارات المتعلقة بالأداء الجنسى، والكفاءة ومكوناتها النفسية، وبدون خوض فى الأسباب التى أصبح أغلبها معروفاً للعامة والمتخصصين.. تبقى المرأة العربية جنسياً عvisية، وغير مدركة مع أن التكوين البيولوجى هو الصحة الجسدية التى تتمتع بها، وجيناتها الوراثية، وكذلك وقوع أغلب النساء العربيات فى المنطقة الدافئة،

أو الحارة مما يفرض ميولاً متكررة للتعبير عن الدافع العاطفى أو
رغبة الجماع، لكن الرائج هو غياب هذه المرأة عن وضع المواصفات
الجنسية للرجل، وعادة ما تكون هى ذاتها مادة لهذه المواصفات!
تبسمت قائلة:

— يا دكتور حمد.. أقسم لك بشرف الأمة العربية أننى لم أفهم منك
شيئاً.. ماذا تقصد؟!

اعتدل فى جلسته، ووضع كوب العصير من يده ثم قال:
— يا عزيزتى كتب التاريخ والسيرة تحدثت عن نوعيات مختلفة من
النساء الراغبات بمعاشرة من نوع خاص، وكذلك ذكرت نوعية
من الرجال ومن أشهر الرجال المذكورين فى هذا المجال هو "ابن
الغز" الشخصية التاريخية المعروفة الذى انتصر بذكورته، وفحولته
على امرأة عربية كان الرجال يخافون مضاجعتها، وعندما عرفت
بأن هناك رجلاً قوياً قادراً على إروائها جسدياً بدأ التحدى، ووافقت
تلك المرأة على معاشرة هذا الرجل، وبعد انتهائها من مضاجعته قالت
للناس:

هل بالركب تجامعون النساء؟! والإشارة إلى الركبة هنا مفهومة وواضحة
الدلالة.. لكن الطريف أن العرب عرفوا نساء يتباهين بعدم وجود رجل قادر
على إروائهن، واشباع احتياجاتهن النفسية والجسدية.. أى أن هناك إشارات
معينة تثبت أن المرأة العربية حارة فى المضاجعة، وليس هناك أى رجل
يقدر على إشباعها تماماً!

قالت ايناس وقد شد الحديث المثير إنتباهها تماماً:
— أظن أن ما تقصده بحديثك هو عن المرأة الأفريقية السمراء، وليست
المرأة العربية البرونزية اللون.. أليس كذلك؟!

قال: هذه ليست مغالطة.. وأؤكد لك أن للمرأة السمراء خصوصية بالغة

فهى تعكس جسداً مشدوداً ممشوقاً مزناً بالغموض ، والرائحة الغابية الحادة.. جسد ممسوك من شهوة بالغة العودة إلى التاريخ ، وإلى الحياة الأولى الشهوانية الهمجية.. كل امرأة أفريقية سمراء هى دافعة ضرائب وضحية ديون تاريخية وعرقية بغيضة.. بينما الأخريات يتمتعن بحماية لونية كئيبة لا يستطعن فى أغلب الأحيان مجارة السمراء فى اكتساب الحب والرغبة.. المرأة الأفريقية السمراء فكرة حب ، ولذة لا نهائية بين أصناف البشر. قاطعته إيناس بحنق وضيق وغيره:

— وبماذا تتميز المرأة السمراء عن غيرها من النساء فى الشرق والغرب والشمال الأوروبى؟

أقول لك يا إيناس:

يمتاز جسد المرأة السمراء بصفرة حزن تتغلغل بين دهاليز اللون الأسود المسيطر.. هى أنثى لا تشبع من خلق المتعة ، كما تعد وجبات الطعام.. كما تقدم ناستازيا كأس الفودكا للأمير ميشكين حتى تتفحص مواطن رجولته لترضى إعجابها به.. تقول إحدى بطلات الأفريقى بول سونيك: جسدى لحظة غرام دائمة ، ولا وقت عندى إلا للمس ، ومباركة الشهوة.. الأجساد النسوية الأفريقية تولد فى عين الشهوة ولا تشبع من الفراش!

— أعتقد يا دكتور حمد أن هذا كلام غير واقعى على الإطلاق ، ولا يصلح إلا فى كتب الأساطير والروايات!

— لا تنسى أن الروايات الأدبية تؤرخ للواقع الاجتماعى والانسانى بشكل كبير

— بمعنى؟

— أقول لك.. فى روايات ماركيز يأتى الرجل المشتاق ، ويدهن المرأة بمربى المشمش ثم يبدأ بتناوله من فوق جسد امرأته.. يلعب المشمش

بلسانه عن اليدين والعنق والسرة ، ويواصل لعق المشمش عن البقعة
التى لن تأتى إلا مصحوبة بالنيران.. كل امرأة أفريقية تمارس الحب
بحجم امرأتين فى أى مكان آخر فى العالم.. إذا كان السرير هو
الذى سيطفىء الحب فى الرواية فإن الجسد هو الذى يشعل تلك النار
من جديد.. الجسد الأسمر النسوى المتوحش القادم من أدغال أفريقيا
القارة السمراء الحنون!

— وكيف ترى الخلاف بين اللونين الأبيض والأسمر فى المرأة؟
يا عزيزتى.. يختلفون بين الأبيض والأسمر فى الجسد.. هذا السر
العظيم لا يخرج من أفواه المتمتعين فى العواصم بسهولة.. سر الجسد
الأسمر النسوى الممتلئ بأعذب الفاكهة الإستوائية.. تجيد المرأة
السمراء إمتاع نفسها بنفس القدر، فهى تدرك أن لذة الرجل طريق
يمضى باتجاه جسدها المعبّد بانتظار اللحظة.. كلما استيقظت امرأة
أفريقية من نومها ، وأبعدت غطاء السرير عن جسمها تتلأأ أضواء
على الفخذين العاريتين، والخصر المشدود المتوتر.. إشباع المرأة
الأفريقية ليس أصعب من حل أزومات الفقر فى تلك القارة العذراء
البكر!

وعندما تشبع المرأة الأفريقية من الرجل سينتهى الفقر فى أفريقيا.. كل
امرأة فى تلك الغابة عناق بين الجسد ونفسه.. على نحو يجعل من طالبى
الحب والمتعة طلاب علم ورهبان معرفة وثقافة!

— دعنا من المرأة الأفريقية.. خبرنى عن معلوماتك عن المرأة العربية يا
خبير شئون النساء؟

قال حمد الغامدى بثقة الحكماء وهدوء العلماء:

— تميل المرأة العربية إلى الضخامة فى تكوين الجسد.. كالوركين
والفخذين والثديين ، وإذا أضيف لهما طول فى الجذع تكون المرأة قد
اكتسبت مواصفات قياسية للفعل العاطفى.. لكن أخطاء فى الولادة

أو عملية التوليد يزيد من حجم عضوها التناسلى، ويجعله أكثر سعة من ذى قبل، وهى مسألة معروفة علميا وعمليا، إلا أن النقطة المهمة هنا أن المرأة العربية لا تلبث أن تستجمع جمال وتناسق جسدها، وعودة أعضائها إلى حجمها الطبيعى إلا وتكون قد دخلت فى حمل جديد، وولادة جديدة مما يبعدها عن أى إحساس سريع بالمتعة فى ممارسة الحب، وذلك بعد التوسع الكبير الذى أصابها فى كهف متعتها، وهنا تستقيل المرأة من ممارسة الرغبة، ويكون إرضائها لزوجها أمراً متعذراً.

قالت إيناس متسائلة بدهشة من غزارة معلوماته وثقافته النسوية الواسعة:

— وهل يعنى ذلك أن المرأة العربية أقل إثارة بالنسبة للرجل من المرأة الأفريقية والأوروبية؟
تبسم قائلاً:

— هذا سؤال فى غاية الذكاء.. على العموم المرأة العربية معشوقة بالنسبة للآخر، وهى مطلوبة فى وطنها، ومرغوبة تماماً لكن احتجاب معايير المرأة عن اختيار المواصفات الجسدية للرجل، يجعل من حياتها العاطفية غامضة وصعبة، وإن كان هذا لا يعنى أن الحال مأساوية على طول الخط، ويظل البحث فى منطقة معايير المرأة التى تحدد هى فيها مواصفات رجلها.. أسرع مكان يستدل به على المواصفات الذكورية التى تتطلبها النساء فى الرجال نراها فى الصحف، والقنوات التلفزيونية العربية التى تهتم بعرض رسائل الرغبة ما بين الرجل والمرأة.. وفى قراءة رسائل النساء اللواتى يرغبن فى الزواج، نلمح أهم الصفات التى تتمناها فى شريك حياتها!

تساءلت إيناس:

— وما أهم تلك الصفات التى تحلم بها المرأة فى رجلها وشريك

— أقول لك.. الصفات الأساسية التي تركز عليها أغلب النساء العربيات الراغبات في الإقتران برجل ما، هي طول القامة.. أغلب الرسائل إن لم يكن كلها تذكر العبارة التالية في المواصفات التي تريدها في الرجل: "أن يكون طويل القامة" ومن المعروف أن طلب المرأة للقامة الطويلة في الرجل هو بالأساس إحساس غريزي صرف، فالقامة الطويلة تعكس في نفس المرأة فحولة الرجل وخصوبته وسيطرته.. وبالتالي قدرته على الإرواء والإشباع.. طلب المرأة طول قامة الرجل هو طلب ينعكس لديها على بقية أعضائه.. ومن هنا فإن طلب المرأة العربية لطول القامة يعطى شيئاً ما عن دافعها الجنسي القوي الذي لا شك فيه على كل الأحوال وفي كل الظروف.

— وماذا أيضاً لديك يا عالم ببواطن أمور النساء؟ أكاد أجزم يا حمد أن رسالتك للدكتورة في أسرار المرأة وليس في فنون الإدارة.. أليس كذلك؟

ضحك حمد وقهقهه عالياً ثم قال متجاهلاً تعليقها:

— الصفة الروحية الأساسية التي ترد في رسائل الرغبات بالاقتران هي "اللطف" في الرجل، فأغلب الرسائل توجد فيها هذه العبارة "أن يقدر المرأة ويحترمها" أو "أن يكون لطيف العشرة" أو يحسن معاملة المرأة.. والإكثار من صفة اللطف تشي برغبة المداعبة والاقتراب السلس من الشريك لا الاقتراب الخشن ومن طرف واحد.. الإصرار على صفة اللطف عند الرجل هو طلب مسبق لنوعية من الممارسة التي يبدو أنها يجب أن تأتي مسبقة بمداعبات معينة!

وإذا انتبه القارئ إلى أن أغلب صاحبات الرسائل هن من المطلقات والأرامل فلا بد أنه سيتأكد من أن طلبهن لصفة اللطف في الرجل جاء عن خبرة سابقة إما بحرمانهن من هذا اللطف من الزوج السابق أو اعتيادهن

عليه قبل فقدانه ، وإن كنت أرجح حرمانهن منه فى معظم الأحوال.

وأعرف إمراة مصرية مطلقة قالت لى ذات مرة: "أنا أكره حتى الرجل الجيد الطيب..أنا أكره الرجل كرجل!" وقد وصلت هذه المرأة المسكينة إلى هذا الإحساس بسبب تعامل زوجها القاسى ، والمتوحش معها فى الفراش وبسبب طبيعته الأنانية المستبدة الكسولة والمرضية.

_ وما علاقة الجمع بين صفتى طول القامة واللفظ وحرص المرأة على توافرها فى الرجل الذى تختاره؟!

قال حمد بخبرة الحكيم الواعر المتعمق:

_ إذا جمعنا صفة طول القامة جسدياً.. بصفة اللطف روحياً.. وهما الصفتان اللتان تركز عليهما المرأة العربية ، فتكون النتيجة الواضحة أن للمرأة العربية ميلاً للرغبة الطويلة الأمد لا الرغبة القصيرة الوقت.. بالإضافة إلى أن لديها ميلاً للإشباع الكامل.. كما أن المعاشرة طويلة الأمد لا تتأتى إلا مع رجل يمتاز ببطء وصبر فى الفراش ، لأن سرعة الرجل تحول لحظة المتعة عند المرأة إلى جحيم لا يحتمل.. وعندما تركز المرأة العربية على طول قامة الرجل فذلك لاحتمال قوى بأن طول قامته سيمنحه نوعاً من الرضا عن الذات يمكنه من السيطرة على دافعه الجسدى ، والتحكم فى شهوته أطول فترة ممكنة ، وبالتالي السيطرة على اللحظة الحميمية الحاسمة ، خاصة وأن كثيراً من الرجال المغمورين الذين يعانون مشاكل فى التعبير عن الذات يكون رد فعلهم العاطفى سريعاً ومحبطاً وسوداوياً.

قالت ايناس بجراًة:

_ أعتقد أن طول القامة لا يضمن للرجل عنصر الفحولة ، والقوة فى الفراش

قال بإعجاب:

— هذه ملاحظة فى منتهى الذكاء.. وأؤكد لك أن اختيار المرأة العربية لطول القامة هو لضمان الحد الأدنى على الأقل من ثقة الرجل بنفسه، وبالتالي ميله لإشباع شريكته، وبسبب الطبيعة البيولوجية القوية، والخصبة للمرأة العربية التى تجعلها متأخرة فى الوصول إلى لحظة السعادة الكاملة "الأورجيزم" مع شريك حياتها فإنها تصر على صفة اللطف.. اللطف يمكن ترجمته فى شكل مداعبات وقبلات وحب وهمسات ساخنة مثيرة حتى تصل إلى لحظة الإرواء التى تتشدها مع الرجل.

— لكن يا حمد.. المرأة العربية مقهورة نفسياً وجسدياً تكبلها الثقافة المنغلقة، وتحريم التعرض للجسد والحديث عن شئونه وشجونه، لذلك هى دائماً متهمه بالتخلف العاطفى، وأنها لا تعرف إمتاع نفسها وإمتاع زوجها.. ألا تتفق معى؟!

قال: برغم كل ميراث الثقافة المؤلم والمقيد لحريتها، وتحرر جسدها فإن المرأة العربية تحسن التعامل مع الرجل فى اللحظات الحميمة، وهى تعرف كيف تساعد على إمتاعها وإمتاعه فى الوقت ذاته..

لكن دعنى أحكى لك تجربة شخصية.. من خلال متابعتى لبعض الصديقات المتزوجات لهذا الشأن النسوى: أخبرتنى امرأة أنها تحتاج لكاتم صوت وهى تمارس الحب بسبب قوة الصوت الذى تصدره تمتعاً وبهجة، وأن زوجها كان يتضايق من صرخاتها، وآهاتها خوفاً من أن يتسلل صوتها إلى خارج غرفة النوم!

وهذه القصة تشى بقوة الإحساس لدى المرأة العربية، وأنها بحق من أفضل نساء العالم للزواج والمعاشرة والحياة العاطفية المستقرة!

" لا أحد يمكنه التسلل إلى جحور الأفاعى سوى النمل! "

إرتاحت إيناس مندور لتقاليد السويسريين، وعقليتهم الحرة، وأجسادهم المتحررة وأحست أنها كان يجب أن تولد فى الغرب الأوروبى المستتير، وليس فى الشرق العربى المكبل بأفكار ظلامية رجعية، هذا العالم المأخوذ رهينة للجهل والتخلف.. كانت تعرف فى مصر عاهرات داعرات ساقطات يرتدين الحجاب، وتعرف أيضاً مومسات شاذات يحرصن على النقاب، يغطين الرأس والوجه والكفين، ويعرين العورتين!

تلك هى المأساة فى بلادنا الشرقية.. كل المتناقضات حاضرة..

فى الغرب الأوروبى حلمت إيناس بالحرية المطلقة، ووجدتها أكثر مما تتصور، وذات مساء كانت تتمشى فى حديقة عامة كبيرة تعج باللون الأخضر والورود، وتبدو خالية تماماً من الناس إلا قليلاً، وفوق الحشائش هالها ما رأت.. كان المشهد مثيراً للغاية.. شاب يمتطى فتاة بارعة الجمال، ونصفه الأسفل عارى تماماً، والفتاة كذلك ومفتوحة الساقين أيضاً، والفتى يدخل ويخرج فيها بطريقة ميكانيكية، يلجها بعنف وعصبية، والفتاة تتأوه تحته وتكاد تصرخ من متعة الألم، وألم المتعة، وكلاهما فى قمة النشوة والشهوة.. وقفت إيناس مبهورة مبهوتة على بعد أمتار معدودة.. إتكتأت على جذع شجرة، وظلت ترقب المنظر كما لو كانت تشاهد فيلم بورنو كامل الأوصاف، ومكتمل الإثارة، وفجأة لمحها الفتى وهو يبذل موقعه ليكون مضجعاً أسفل الفتاة بعد أن كان فوقها، وبسرعة إتقط هاتفه النقال الملقى بجواره على العشب الأخضر، وأجرى إتصالاً والفتاة منهمكة فى ممارسة الحب معه بشرائه.. تحدث الفتى من تحتها بأنفاس لاهثة وبكلمات سريعة بالفرنسية.. لم تسمع إيناس منها شيئاً يذكر، وما

هى إلا لحظات وجاءت عربية الشرطة تدوى بأبواقها الكلاسيكية، ونزل منها ثلاثة رجال بملابسهم الرسمية الأنيقة، وألقوا القبض على إيناس مندور، لم تصدق إيناس أنهم كبدوا أنفسهم عناء المجئ للإمساك بها، كانت تظن أنهم جاءوا للقبض على من يمارسون الحب جهازاً نهاراً فى حديقة عامة، وعلى الملأ وفى مكان مكشوف ومفتوح لكل العيون، لكن الصفعة التى تلقتها، والصدمة التى لطمتها أنهم جاءوا للقبض عليها، وببلاغ من الفتى الجريء الذى يمارس الرذيلة فى الحديقة، والتهمة التى وجهها لها رجال الشرطة السويسرية هى التلصص على الآخرين دون استئذان، وحرمانهم من حقهم فى التمتع بالحرية، والخصوصية التى كفلها الدستور والقانون السويسرى لجميع المواطنين بلا استثناء.. وفى قسم الشرطة ظلت تدافع عن نفسها دون جدوى حتى استأذنت فى إجراء مكالمة هاتفية لصديقتها جانيت التى جاءتها على الفور، وتدخلت ودفعت غرامة قيمتها ألف يورو نظير ارتكاب مخالفة التعدى على خصوصية الآخرين، ليس هذا فحسب بل وقعت إيناس مندور على إقرار بعدم تكرار هذه المخالفة وإلا عرضت نفسها للسجن.. خرجت إيناس مع جانيت، وهى فى غاية الذهول لا تصدق ما حدث، وبرغم ضيقها وغضبها من الموقف الصعب والطريقة المهينة التى تعرضت لها أثناء القبض عليها، وسخافة استجواب رجال الشرطة لها، ومعاملتها على أنها غبية جاهلة حمقاء جاءت من بلاد الشرق المتخلفة لتكد على أهل الغرب حياتهم، وتدس أنفها فى شئونهم الحميمة والخاصة جداً، إلا أنها وبرغم كل ذلك كانت فى أعماقها فى منتهى السعادة لأن هؤلاء الناس يحترمون حرية الإنسان وحقوقه إلى درجة التقديس، ويحافظون على خصوصية المرء حتى ولو كانت تلك الخصوصية فجوراً، وشذوذاً فى ميدان عام أو حديقة مفتوحة، ولكل فرد حرية التصرف فى روحه وجسده.. كل شئ مباح ومتاح لا محرمات.. لا ممنوعات.. بوتيك السعادة والتحرر الأبواب دائماً.

أوصلتها جانيت بسيارتها الفاخرة، واطمأنت عليها، وقبلتها واحتضنتها

وهى تودعها على وعد باللقاء فى الغد ، وتحسست إيناس تضاريس
جسد صديقتها ، مست بقوة نتوآته وبروزاته.. لامست دهاليزه ومرتفعاته
وتجويفاته ، وهى تتحسر من أعماقها على هذا الجسد الذى لا يستمتع به
أحد ، وقالت جانبى وهى تخلص نفسها من بين يديها : يا إيناس هناك مفاجأة
كبيرة تنتظرك فى ليلة الغد ، وسوف ترين مالا عين رأت ، وتسمعين مالا
أذن سمعت يا عزيزتى.. وتركتها وانصرفت ، بينما نظرات إيناس تتفحص
ملاحها من الخلف ، وتحقق فى مؤخرتها بإمعان بنظرات رجالية شرهة ،
تعرف مواطن الجمال والاثارة أين تنام ، وكيف يتم إيقاظها فى الوقت
المناسب وفى المكان المناسب.

" شئ عجيب.. المرأة تخاف وتفزع لو رأت فأراً، ولا تخاف ولا
تقلق إذا ذهبت إلى دُئب فى فراشه!"

فى كواليس مؤسسة " الأيام " شهد ناجى شرف الدين العجب العجائب،
ومرت أمام عينيه أحداث عبثية لم تكن تخطر له يوماً على بال، وطافت
بمسامعه حكايات أغرب من الخيال الجامح، وتقوَّق تصور المجنون
والعاقل معاً.. فى الفترة التى انخرط فيها بمجلة " نجوم الفنون " مع ميرفت
العطيفى عرف الكثير عن حياة المشاهير الخاصة وهتك أسرارهم،
وانتهك فضائهم القذرة، عرف منهم الشاذ والخائن والداعروالعاهر
والأفاق، وعرف منهم أيضاً الفنانة الطاغية الحسن والجمال التى عرضت
جسدها على المخرج الكبير وجدى الشامى ليعبر عليه فى الفراش ثم
تعبّر هى بعد ذلك من خلاله إلى دور البطولة، عرف أيضاً مَنْ تدعى أنها
ملاك هبط من السماء وتتبنى طفلاً من ملجأ الأيتام وترعاه لوجه الله، بينما
الحقيقة أنه ابنها الذى أنجبته فى الحرام فى لحظة حب جنونية طائشة،
وهجرها من غرس بذرته فى أحشائها!

نجوم براقّة تلمع، وتتألأ أمام الناس بينما هم فى الواقع شياطين تسعى
إلى الرذيلة والفاحشة، وارتكاب الكبائر واقتراف الموبقات، لكن
استوقفه فى هذا الوسط.. الوسط الفنى.. الذى أحبه فى البداية، وانبهر به..
وكرهه ومقته إلى درجة البغض فى النهاية!

شاب أربعينى العمر بدين أبيض وردى، متورد الخدين ناعم الشعر
كستائى اللون، عيونه عسلىة براقّة.. يعمل كمصور فوتوغرافى
بالمؤسسة، ونظراً لعلاقاته الواسعة بالفنانين والنجوم، وارتباطه معهم
بعلاقات غامضة ومشبوهة أطلقوا عليه.. " مصور النجوم "، وهو يمتلك
استوديو تصوير خاص به على أحدث طراز.. هذا الشاب ميسور الحال جداً..

إذا تكلم تلعثم، وإذا سكت تملكه الخجل مثل عذراء فى خدرها ليلة زفافها!

فى الاستوديو الخاص به كانت تبرم الصفقات، وفى جوف الليل المعتم والسهرات الحمراء والحفلات الصاخبة فى مجتمع النجوم، والمشاهير كان يعثر دائماً على ضالته.. الطريف فى الأمر أن هذا الشاب الأعزب كان يقيم معظم الأيام والليالى فى الفنادق الكبيرة فئة الخمس نجوم، والمطلة على نهر النيل بصفة خاصة لتيسير عملياته السرية! كان ماهراً بارعاً فى تصوير النجوم والجميلات والأميرات الخليجيات، كما كان بارعاً أيضاً فى اصطياد الحسنات، وتوريدهن إلى الأمراء العرب ورجال الأعمال من أصحاب المليارات هواة الإقامة فى الفنادق الفاخرة.

وكانت لياالى العهر والدعارة تقام فى كثير من الأحيان تحت إشرافه وبرعايته، ودوره رئيسى ومحورى فى عمليات تسهيل لقاءات الفراش، والاتفاق بين الأطراف منذ البداية وحتى النهاية.. بداية من السعر حتى ممارسة الحب مدفوع الأجر، وطبعاً نسبته فى كل عملية لا تقل عن ٥٠٪ من قيمة ما تتقاضاه الفنانة أو الحسنة التى يقودها إلى صاحب الحظ والنصيب لتمارس معه المتعة فى أحد الفنادق الفخمة، وأحياناً تزيد النسبة لتصل إلى ٦٠٪ لو كانت الأنثى نجمة كبيرة.. وذات مرة وفى إحدى الليالى كان يصور حفلة خاصة أقامها الأمير الثرى الوليد بن سلال بمناسبة شرائه سلسلة قنوات فضائية متخصصة فى الفن والرياضة والمنوعات، وكانت النجمة الجميلة ليلى عزمى متألئة فى الحفل المبهر، ومتوهجة بفستان أحمر قانى نصف عارى يكشف عن صدرها النافر الناهض، وظهرها النحاسى الأملس المثير.. سال لعاب الأمير، وزاغت عينه على جسدها البض الشهى، وعلى الفور استدعى الأمير مصور النجوم الفوتوغرافى الشاب البدين خالد طلعت وطلب منه أن يدعوها لقضاء ليلة حمراء مع الأمير فى أحد قصوره المتناثرة فى طول البلاد العربية وعرضها، تلعثم خالد كعادته، وتاهت منه

الحروف كالعادة وما عاد قادراً على النطق ثم قال :

— يا سيدى الأمير.. إن ليلى عزمى تختلف عن الأخريات فهى ترفض هذا الأمر نهائياً، وقد تبلغ عنى الشرطة لو فاتحتها فى الأمر، وتكون فضيحة لا أول لها ولا آخر!

قال الأمير محفزاً إياه:

يا خالد.. لقد سبق وقدمت لى من هن أكثر منها جمالاً.. هل نسيت أنك كنت همزة الوصل لى مع النجمة ميرفت حسين والنجمة دلال عبد العظيم، وسمية الخطاب وغادة عبد الراشد.. وكلهن فائزات شهيرات باهرات الحسن. هل نسيت يا خالد؟ عموماً اطمئن أنا أعرف أن الموضوع يحتاج منك للكثير من الجهد، ويحتاج منى إلى المزيد من المال والصبر حتى أنالها، وإن كنت غير قادر على الصبر دقيقة واحدة بعد الآن.. أريدها الآن.. الآن.

تلثم المصور خالد طلعت مجدداً، وبدأ يتشاغل بالكاميرا ويعبث فيها استعداداً للتصوير.

قال الأمير بحزم جنرال عسكرى صارم:

— إسمع يا خالد.. لك مليون جنيه لو نجحت فى إقناعها بقضاء ليلة واحدة معى.. وهى لها منى خمسة ملايين جنيه.. مبلغ مناسب أليس كذلك؟
لم يصدق خالد الأرقام التى يسمعهها ورد بسرعة وحماس:

— أمرك.. أمرك.. يا سمو الأمير سأحاول والله.. مليون لى وخمسة لها.. هذا ظلم والله.. ليتنى كنت أنثى!
ضحك الأمير وقهقهه من قلبه قائلاً:

— مليونان لك لو نجحت فى مهمتك، ولاحظ أن الوقت كالسيف تبسم خالد طلعت بابتسامة عريضة وقال:

— الفلوس يا سمو الأمير تحرك الحجر وتحوله إلى ملبن.. إن شاء الله

سوف أنجح، وقبل أن يمر أسبوع واحد ستكون الجميلة ليلي عزمي
فى مخدعك وبين أحضانك.. هى سوف تحظى بهذا الشرف يا سمو
الأمير!

وخلال ٤٨ ساعة قد كان.. خضعت فاتنة الشاشة للملايين، وفتحت
فرجها للأمير الذى يشبه الصعلوك فى ليلة من لياالى ألف ليلة، وفتحت
خزائنها للملايين التى حصدتها فى ليلة واحدة، ولكنها قررت ألا
تنتهى بنهاية تلك الليلة.. لقد صارت رفيقة خاصة وصاحبة دائمة للأمير،
والجميع فى الوسط الفنى والسياسى والصحفى، ومجتمع الليل والسهرات
والحفلات والأضواء والسينما والنجوم يعرف تمام المعرفة أنها أصبحت
النجمة الأكثر نفوذاً بملايين الأمير الخليجى بعد أن تحولت إلى محظيته
التى تتحكم فى كل قنواته ومحطاته الفضائية والأرضية، الإذاعية منها
والتليفزيونية.. ولها كلمة مسموعة فى تحريك ثروته، واقتطاع جزء كبير
منها إلى رصيدها فى البنوك.. ثروة المليونير الامبراطور تفوق ثروة قارون
مئات المرات.. صارت تتحكم فى أمواله ومشروعاته وقنواته تماماً مثلما
تتحكم فى جسده وعقله وقلبه!

" ليس هناك من يولد ضعيفاً بالوراثة.. ولكن الضعيف من
يجهل أسرار القوة بداخله! "

لم يكن خالد طلعت المصوراتى الفوتوغرافى الأشهر فى أوساط
الكبار، ونجوم مجتمع الليل يتوقف عند تصويرهم، بل كانت الكاميرا
ستاراً يتخفى خلفه ليروج بضاعته، ألا وهى توريد الحسنات المصريات
للسياح العرب، وتصدير الفنانات الناشئات الصاعدات إلى مخرجى السينما،
ورجال الأعمال الكبار العتاة ذوى الثراء الفاحش والنفوذ الطاغى، حتى
وقعت الواقعة، وحلت الكارثة التى لم يكن يحسب لها أى حساب فى
يوم من الأيام، حدث ما حدث نتيجة صداقته الوطيدة مع رجل الأعمال
الشهير الملياردير همام مصطفى صاحب الشركات العقارية العملاقة،
والمشروعات الاستثمارية الضخمة وعضو مجلس الشورى عن الحزب
الحاكم، وهو رجل طموح جموح، عاشق للنساء بشتى ألوانهن وصورهن
وتضاريسهن.. تلك نقطة ضعفه الوحيدة والخطيرة.. هذا الديناصور المالى
صاحب إمبراطورية الثروة والسلطة والتجارة فى رحلة صعوده إلى عرش
الملايين خمس نساء جميلات شكلن معالم حياته فى مشوار كفاحه..
إحدهن تعرف عليها فى إحدى السهرات الصاخبة عن طريق المصور
الفوتوغرافى خالد طلعت.. وهى مطربة لبنانية مغمورة ومجنونة بالشهرة
والفن والمجد تدعى سوزان عبيد.. وقد تمكنت هذه المغمورة المجهولة
من حرمان صاحب الجاه والسلطان والصولجان والحصانة البرلمانية من
نور الحياة، ونسمات الحرية، أطاحت بالملياردير خلف أسوار السجن..
وظلت روحه مهددة بالإعدام بسببها ما يقرب من ثلاثة أعوام!

أما المرأة الأولى فى حياة همام مصطفى فهى سيدة من الوسط الفنى
حيث إرتبط بالنجمة المعترلة " لورا " ورغم رفض والده مصطفى مبروك

بشدة إلا أنه تمسك بإختياره، وأصر على الزواج منها.. كان الأب فلاحاً عصامياً يعارض تلك الزيجة غير المتكافئة اجتماعياً وإنسانياً، ورأى أنها ستدمر حياة ابنه، وتبدد ثروته وتعرقل مسيرته ومع ذلك لم يقف أمام رغبة ابنه الجامعة فى "لورا".. هذه المرأة المطلقة من زوجها الممثل الشهير عاصم ذو الفقار بعد تورطه فى قضية مخدرات.. طلقت لورا نفسها من زوجها المدمن، وطلقت نفسها من الفن أيضاً.. اعتزلت التمثيل وارتدت الحجاب..

جاء زواج همام مصطفى من لورا قبل عقد من الزمان، كان عمره وقتها ٣٥ عاماً فيما تكبره هى بخمس سنوات، ولم تستمر الحياة الزوجية بشكل طبيعى بينهما طويلاً لأن همام مصطفى رجل متقلب المزاج، متطرف الرغبات، جامح الأهواء، فنشبت بينهما خلافات ومشاكل كثيرة، وكانت النتيجة أن ألقى عليها يمين الطلاق مرتين، وعادت إليه مرة ثالثة، ثم تجددت الخلافات بينهما فعاداً للانفصال والمشاحنات والشجار مجدداً، وفى هذه الأثناء تدخل والده وضغط عليه لكى يطلقها بصفة نهائية وبلا رجعة للمرة الثالثة!

أراد همام أن يعيد "لورا" إليه مرة أخرى بعد أن أحس أنه يشعر بالحنين إليها ويشتاق فعلاً لوجودها فى حياته، وأن حبها ملك عليه قلبه وتمكن من وجدانه.. وهنا علم أنه لا بد من فتوى شرعية من دار الإفتاء المصرية، لأن الطلاق وقع ثلاث مرات، والمرة الثالثة مثبتة فى أوراق رسمية، وعلى الفور توجه همام مصطفى إلى دار الإفتاء، وادعى أنه رفض فى البداية أمام المأذون واسمه الشيخ عبد الفتاح الدويب مأذون منطقة الزمالك.. لكن والده أجبره على التوقيع على أوراق الطلاق رغماً عنه، ودون رضاه إلا أن دار الإفتاء خيبت ظن همام مصطفى، وأكدت له أن إثبات بطلان الطلاق إذا تم أمام مأذون لا بد له من اللجوء إلى المحاكم الشرعية، ولكن همام تراجع عن هذه الخطوة أمام ضغوط أسرته، وخاصة والده ولم يكمل رغبته فى

العودة إلى زوجته السابقة ، وحبيبته النجمة المعتزلة لورا حتى لا يصطدم
بوالده من جديد ، وقد تكون العواقب وخيمة لا يقدر على احتمالها!

أما المرأة الثانية فى حياة رجل الأعمال الملياردير همام مصطفى فهى
هويدا التى اختارها له والده لتكون سنده فى مشوار الثروة والسلطة ،
وبالفعل استقر همام معها رداً من الزمن ، وأصبح صاحب أقوى إمبراطورية
عقارية فى مصر والوطن العربى ودخل مجلس الشورى ، وحظى بعضوية
لجنة السياسات بالحزب الحاكم إضافة إلى أنه أنجب منها أولاده ، كل
ذلك ولم تظهر هويدا فى الصورة على الإطلاق ، ولم تسلط عليها الأضواء ،
ولم تحظ بالشهرة التى حظيت بها سوزان عبيد المطرية التى كانت مغمورة
قبل أن تدمر حياته ، وتهدم مستقبله وتقوض أركان إمبراطوريته!

المرأة الثالثة فى حياة همام مصطفى هى سوزان عبيد صاحبة القضية
الأشهر والأبشع فى الصحافة خلال السنوات العشر الأخيرة ، ارتبطت معه
بقصه حب مثيرة وجريئة وغريبة منذ قدومها إلى مصر هاربة من زوجها
اللبنانى عادل مسعود ، واستأجرت شقة فى شارع مصدق بحى الدقى
بالقاهرة ، وتعرفت على همام آنذاك من خلال صداقتها لمصور النجوم
خالد طلعت الذى رأى أمه وهو طفل صغير تخون والده مع عمه ، فبدت كل
الأمور بعد ذلك مختلطة فى ذهنه ولا مانع عنده من أن تكون كل النساء
لكل الرجال.. شعاره المرأة للجميع والحرية للجميع.. المهم ألا يكون
هناك أى ضغط أو إكراه.. فلا إكراه فى المعاشرة!

ومنذ البداية إنجذبت سوزان عبيد إلى همام مصطفى ، وبنفس القدر
كان هو أكثر إنجذاباً إليها.. أحبها بجنون ، ووطد علاقته معها قرابة
الثلاث سنوات.. هى أكدت أنه حب عذرى رومانسى طاهر برئ لكن كل
الشواهد والأدلة وطبيعة الرجل الذئب الذى يعيش الحياة بطريقة عملية
تثبت عكس ذلك تماماً!

عائلة همام رفضت زواجه منها ، ووضعوا كل العراقيل والمطبات أمام هذا

المشروع وقيل أنه تزوجها عرفياً ، ونظراً لأن جواز سفرها الأصلي مثبت فيه أنها سيدة متزوجة من رجل الأعمال اللبناني عادل مسعود ، استخرج لها همام مصطفى جواز سفر جديداً بعلاقاته وماله ونفوذه ، أثبت فيه أنها سيدة مطلقة ، وظن همام أنه تمكن من إزاحة العقبة القانونية التى تحول بينه وبين الزواج من فتاة لبنان سوزان عبيد ، لكن والدته ظهرت فى الصورة ، ورفضت إتمام هذه الزيجة بإصرار وعناد لا يلين ، فما كان من همام إلا أن نظم رحلة عمرة إلى الأراضى الحجازية المقدسة ، وهناك كان اللقاء المرتقب بين سوزان وغريمتهما أم همام ، ودارت بينهما حوارات وأحداث ومواقف وتفاصيل قربت بينهما ، لكن ظلت أم همام على موقفها الصلب المتشدد الراض لزوج ابنها من هذه المطربة المغمورة ، أو نصف المشهورة التى لم تصدر سوى ألبوم غنائى واحد يتيم!

استغلت سوزان ثراء همام ، وتجولت معه فى بلدان كثيرة من العالم بطائثرته الخاصة ، وعاشت كأميرة فى القاهرة وشرم الشيخ والغردقة ومارينا ، وكان الرجل كريماً معها إلى أقصى درجات الكرم ، فأغدق عليها بالأموال الطائلة ، وحقق لها ما كانت متمسكة به لأقصى حد ألا وهو تطبيق زوجته أم أولاده ، فكان دائماً يتهرب من رغبتها تلك بإغراقها بالأموال والهدايا والمجوهرات ، وأنتج لها بعض الأغنيات فى سويسرا ، وللأسف الشديد لم تذع هذه الأغانى حتى الآن لأسباب غامضة ومجهولة.. وقيل إن سوزان عبيد كانت شاهدة على معظم الاتفاقات المتعلقة بأراضى مشروعه الأضخم " بلدى " لبناء وتشبيد العقارات والفيلات والشقق السكنية ، وكان همام يستقبل فى كثير من الأحيان فى بيتها عدداً من ضيوفه المهمين والكبار فى مجال المال والاستثمار فى الأراضى والعقارات ، كما كانت شقتها أيضاً ملتقى لعدد من أكابر السياسة ورموز البرلمان والحزب.

فجأة وبلا مقدمات دبت الخلافات بين سوزان وهمام بسبب الغيرة..

جن جنونه وقرر الانتقام منها ، ودبر لقتلها فى دى مدينة الثراء والعقارات وسوق المال ، وذلك من خلال استخدام ضابط أمن دولة سابق أعطاه مليونى دولار لينفذ جريمته خارج الحدود ، وأوصلته تلك الخطة الجهنمية إلى حبل المشنقة!

لكن من تكون المرأة الرابعة فى حياة همام مصطفى العاطفية ، وكيف ارتبط بها هذا العاشق الولهان للمال والسلطة والجوارى الحسان؟
المرأة الرابعة فى أجنده الحمرء هى المذيعه اللامعة ياسمين حسان ، وقد ربطته بها علاقة عاطفية غرامية سريعة ، وعابرة ثم تزوجها فوراً حتى تعلم سوزان عبيد أنها بالنسبه له مرحلة وانتهت للأبد من حياته بدليل زواجه من صديقتها المذيعه!

وكأنه أراد أن يكيد لها ، ويشير حنقها وغيبتها ليس إلا!
وبالفعل تزوج ياسمين حسان ، واليوم التالى مباشرة لنشر خبر زواجه فى الصحف والمجلات تم القبض عليه ، وخضع للتحقيقات فى مكتب النائب العام بتهمة التحريض على قتل المطربة اللبنانية سوزان عبيد ، وبرغم ساعات العسل القليلة التى عاشتها ياسمين حسان مع همام إلا أنها نصبت نفسها مدافعاً قوياً عنه أمام الناس ووسائل الإعلام والرأى العام ، وأشادت كثيراً بخلقه الرفيع ، وكرم أخلاقه وحسن سلوكه ، وبراءته من دم سوزان ، لكنها سرعان ما توارت عن الأضواء واختفت عن العيون ، ولم تعد تحضر جلسات محاكمته ، وصدرت أوامر عليا من وزير الإعلام بمنعها من الظهور على شاشة التلفزيون المصرى ، وعدم تقديمها لأى برنامج لحين حسم قضية همام مصطفى فى ساحات القضاء ، والتى إعتبرها الوزير قضية رأى عام بإمتياز!

" الحب سيناريو تقوم المرأة بتمثيله، ويقوم الرجل بتمويله! "

أظهرت جلسات محاكمة الملياردير همام مصطفى فى قضية ذبح المطرية سوزان عبید امرأة خامسة فى حياته ألا وهى سمر شقيقته التى لعبت دوراً مهماً ، ولقبت بالدينامو.. إنها امرأة بمليون رجل ، فقد وقفت بجوار شقيقها فى محنته بكل شجاعة واصرار على براءته ، ولم تتغيب جلسة واحدة من جلسات محاكمته الطويلة والمتعددة ، وكانت طوال شهور المحاكمة هى المحرك الرئيسى للعائلة كلها ، وكانت هى الوحيدة من نساء العائلة التى تحضر إلى قاعة المحكمة من البداية إلى النهاية ، وظهرت سمر قوية صلبه متماسكة.. لذلك كان همام يلجأ إليها ، ويهمس فى أذنها بيلغها بما يريد ، فتذهب مباشرة إلى المحامى الذى كان وزيراً سابقاً للعدل أثناء وجوده فى الصف الأول وأمام منصة المحكمة مباشرة ، وتحدث معه وتأمره أن ينفذ رغبة شقيقها القابع فى القفص الحديدى!

حتى آخر جلسة حضرت المرأة القوية سمر مصطفى برغم تأكدها من أن الحكم سيكون بالإعدام ، ومع هذا جاءت لتؤازر شقيقها وتقوى عزمه ، وتطمئنه بأنها لن تتخلى عنه ، ولن تياس من دعمه ومساندته والوقوف إلى جواره طالما أن هناك فرصة للدفاع عنه ، وإنقاذ رقبتة من حبل المشنقة! وقد كذب القاضى إيمانها بالإعدام ، وحكمت محكمة النقض بإلغاء حكم الإعدام الصادر بحق شقيقها همام مصطفى.. خيب القاضى ظنّها فكانت فى قمة السعادة ، ورقصت وقفزت فى الهواء من الفرحه بهستيرية وجنون!

فى هذه اللحظة أحست أن الله لن يتركها تحزن على شقيقها.

دخل مصور النجوم خالد طلعت فى استجوابات وتحقيقات لا أول لها ولا

آخر ضمن هذه القضية، بصفته كان شاهداً على كل الأحداث والوقائع من البداية إلى النهاية، منذ جاءت سوزان عبيد من بيروت واستقرت في القاهرة ٣ سنوات حتى هربت إلى عاصمة الضباب لتعيش مع رجل آخر في لندن ثم تعود لكي تستقر في مدينة دبي بعد مطاردة مستمرة من زوجها رجل الأعمال ومنظم الحفلات اللبناني عادل مسعود لتكون المدينة الإماراتية مستقرها الأخير الذي شهد نهايتها المأساوية، ونحراها في ساعة نحس!

قدم خالد طلعت للنيابة والمحكمة كل ما يملك من صور، ومعلومات تتعلق بسوزان وعلاقاتها المتعددة مع الرجال، وبصفة خاصة الفترة التي قضتها مع همام مصطفى، وكيف استضافها في أحد فنادقه الشهيرة المطلة على النيل على مدى أكثر من عامين، وأنفق عليها حوالى خمسين مليون جنيه غير المجوهرات والماس والهدايا الثمينة الأخرى.

لكن من تكون سوزان عبيد تلك التي مزقت قلوب الرجال، وفي النهاية مزقوها إرباً بسكين حاد شفرته قاتلة؟! ما تاريخها وماذا أنجزت!؟

درست سوزان عبيد في كلية الصيدلة حتى السنة الثالثة، ولم تكمل دراستها بعد أن تقدمت إلى برنامج "ستوديو الفن" وفازت بجدارة بالمركز الأول، ونالت الميدالية الذهبية.. وسبق لها الزواج مرتين.. الأولى من مخرج تليفزيونى لبنانى، ولم تستمر حياتها الزوجية سوى ستة أشهر والثانية من عادل مسعود منظم حفلات، وبعد عشرة أشهر طلبت الطلاق منه، لكنه رفض تطليقها، وتمسك بالحياة معها فأصرت على موقفها وانفصلت عنه، وتركته وانتقلت إلى القاهرة وكان زوجها يملك حقوقاً فنية عليها من خلال عقود احتكار لشركته لإنتاج الألبومات الغنائية، لذلك رفع ضدها دعوى قضائية في لبنان، وطالب نقابة الموسيقيين في مصر بمنعها من ممارسة أى نشاط فنى فى هوليوود الشرق، بل ونجح فى منع القنوات الفضائية والمحطات الإذاعية من عرض أغانيها وكليباتها على الشاشة وأمام الميكروفون.

عاشت حياة قصيرة لا تتجاوز الثلاثين عاماً ، ورحلت بطريقة دراماتيكية جهنمية ، حيث لقيت مصرعها فى دى عندما عُثر عليها مذبوحة فى شقتها بعد أن عاجلها القاتل بمجرد دخوله الشقة بسكين على رقبتها فى البرج السكنى الذى تقيم فيه ، وذكرت شرطة دى أن القاتل تم تصويره بكاميرات أمن البرج السكنى ، وأنه غادر عائداً إلى مصر بعد ساعة واحدة من إرتكابه الجريمة ، وبالتعاون مع السلطات المصرية تم إلقاء القبض عليه ، وهو ضابط أمن دولة سابق ، ويعمل مديراً لأمن أحد الفنادق المملوكة للملياردير همام مصطفى ، والذى اعترف بتقاضيه مليونى دولار ثمن قتلها وإزهاق روحها..

ولأن القضية كبيرة ، وتهم الرأى العام نظراً لاستثمارات الملايين فى البورصة وارتباط آلاف المواطنين بشركات وعقارات همام مصطفى ، ولها جانب سياسى وفنى ، واقتصادى كلفت ميرفت العطيفى رئيس تحرير مجلة " نجوم الفنون " بمؤسسة الأيام المحرر الصحفى ناجى شرف الدين بمتابعة القضية بالتفصيل مع اجراء حوارات مع أفراد أسرة سوزان عبيد وكذلك نساء همام مصطفى.. الناس تحب قراءة هذه الحوارات الإنسانية.. وبالتعاون مع زملائه المحررين أعد ملفاً متميزاً ، وعرضه على رئيسة التحرير بعد أن أصبح بروفات جاهزة للطبع فأعجبت به وأثنت على الجهد الصحفى المبذول تحريرياً واخراجياً.

ولإعجابها بما فعله ناجى شرف الدين حاولت أن تعرب له عن تقديرها لجهوده كلفته بكتابة عمود صحفى أو مقال ينشر مع ملف القضية التى اختار لها ناجى عنوان " الدم والعشق " .. وشعر بالسعادة والإمتنان لميرفت العطيفى وكتب مقالاً بعد أن زار همام مصطفى فى سجنه كتب يقول :

" إن قضية سوزان عبيد وهمام مصطفى أعادت إلى أذهان الناس مسلسل الجرى والجماليات ، وإن كان الواقع أن هذا المسلسل فى نسخته العربية يمكن أن يطلق عليه " المليونير والجماليات " .. لكن ما الذى يجعل رجل

أعمال ناجح وسياسى بارز من طراز فريد له مكانة عظيمة، ومستقبل واعد فى حزب السلطة الحاكم ليصرف ملايينه بهذا البذخ على سوزان وحدها؟ إنها بكل تأكيد ليست ملكة جمال الكون، وليست آخر اللبنانيات الفاتتات كما أن أمواله الطائلة المتدفقة من كل صوب وحذب تستطيع أن تؤمن له أجمل جميلات الكون لو أراد وحتى نهاية العمر.. فماذا كان لدى سوزان عبيد أكثر مما لدى غيرها من مئات الجميلات اللواتى لا يكلفن الرجل ربع ما أنفقه عليها همام مصطفى فى يوم واحد؟

ما الذى يجعل رجل أعمال له مشروعات عملاقة، وشركات هائلة من الممكن أن تنهار من مجرد شائعة لأن يغامر باسمه وسمعته، ومكانته ونفوذه وشركاته من أجل إقامة علاقة غرامية مشبوهة مع مطربة نصف مشهورة وعلى ذمة رجل آخر؟

أستبعد أن تكون لدى همام مصطفى شهوة التملك.. فماذا كانت سوزان عبيد ستضيف إليه؟ فالرجل لديه من الشهوة والمال والنفوذ ما يكفيه مدى الحياة، وإذا لم تكن علاقته بها مثل غيرها من نوع تزواج المال والشهرة.. كما رأينا فى زيجات الفنانات من رجال أعمال لتكتمل دائرة الضوء والنجومية.

لقد كانت تلك الدائرة مكتملة تماماً حول همام مصطفى.. لكن السؤال الآن.. هل هو فعلاً وقع فى حبها، وغامر بكل شئ من أجلها؟ ربما يعتبره الكثيرون سؤالاً ساذجاً، ولكن ما الذى يجعل أولاد الملوك يتزوجون من عامة الشعب، ويتنازل الرجال عن عروشهم، وألقابهم من أجل نساء قد لا تبدو فيهن مسحة من الجمال؟

ولكن تحت سلطان وهم اسمه الغرام يفعل بعض الرجال ما نعتبره نحن العقلاء درباً من الجنون.. ألم يتنازل الملك ادوارد الثامن عن العرش ليتزوج من المطلقة الأمريكية السيدة واليس سميبسون؟ ألم يتحدى الأمير تشارلز القوانين الملكية التى تحتم الزواج من عذراء ليتزوج من حبيبته المطلقة

كاميلا باركر التى عرفها فى عام ١٩٧٠.. وبعد أكثر من عشرين عاماً تخللها زواج لها وآخر له وأولاد ينجح الأمير تشارلز فى أن يتزوج حبيبته ليجمع بين الحب والعرش معاً!

أنا على يقين أن سوزان عبيد كانت تتمتع بذكاء أنثوى خارق لتجعل كل رجل ارتبط اسمها به يشعر أنه شمشون الجبار أو طرزان أو سوبرمان، وهو المخلص الذى على يديه وحده دون سواه يكون خلاصها من المعاناة التى برعت فى نسجها حتى توهم كل رجل أنها أنثاه التى لا تتشد غير الحب والحنان والحماية والأمان فى كنفه، وحفنه من الدولارات يومياً، ولذلك أغدقوا جميعاً عليها العطايا والهدايا والخدمات!

وزاد همام مصطفى عن الجميع، وفاضت هداياه وعطاياه داخل مصر وخارجها.. ومن أجل عيونها الساحرة أنقذ والدها وشقيقها من تهم وقضايا خطيرة..

لم يتخيل أنها من الممكن أن تتمرد عليه فى يوم من الأيام، فقد أعطته الشعور بأنه هو الفارس الوحيد الذى نجح فى اقتناء الحسناء الفاتنة التى تهوى الزواج وتعدد الرجال فى حياتها على طريقة أفلام الويسترن.. أو كما يسمونها أهل الشام.. الخطيفة.. زواج الخطيفة!

الشئ المحير.. هو لماذا تلجأ سوزان عبيد لهذا السلوك فى اقتناص المليونيرات من رجال الأعمال ونجوم المجتمع والمشاهير؟! ولماذا كلما أغدق عليها أحدهم أدارت إليه ظهرها لتبحث عن آخر يخلصها من سابقه؟! ولماذا تحرص دائماً أبداً على أن توحى لرجلها الجديد أنها شهيدة الحب والاخلاص، وضحية الرجل السابق الخائن؟! ألم يكفها رجال يتسابقون لإرضاء نزواتها وتطلعاتها، وشهوتها للحب والمال والشهرة؟! وبرغم أن قائمة غرامياتها والرجال فى حياتها طويلة وممتدة إلا أنها محظوظة.. فما زال الذكور يتكالبون عليها مثل ملكة النحل.. وهمام مصطفى أيضاً لا يشبع، هو مثلها تماماً.. ألم يكفه ما عرف من النساء؟! هل تريد الأنثى أن

تكون محاطة بالحب والرعاية والحنان والمال من أكثر من رجل؟ هل ترغب المرأة فى تعدد الأزواج؟ ماذا كان ينقصها فى علاقتها مع همام مصطفى؟ وماذا كان ينقصه ليقيم معها علاقة.. ف لديه المال الذى لا ينتهى، والجاه والمركز والسلطان والصولجان والنساء أيضا؟

لماذا كل هذا.. وما سر حرصها على أن تتماذى فى محاولة إستمالة والدته من أجل مباركة زواجهما؟

هناك خلل بالتأكيد فى تركيبتها النفسية يجعلها تفتقد الشعور بالأمان والحماية ويدفعها للفرار هنا وهناك.. من حصن إلى حصن.. ومن حصن إلى حصن.. ومن بنك إلى بنك بحثاً عن الرجل المدجج بالمال، والحنان ليكون بمثابة الدرع الذى يحميها من غدر الزمن أو من غدر رجل آخر!

وربما كان لديها هاجس يزعجها ألا وهو أن رأس مالها هو جمالها الذى سيدبلل لا محالة مع الأيام، حتى وإن توافرت عمليات التجميل، وضمنها لها أحد عشاقها المغرمين.. كما ذكرت هى ذلك بنفسها!

كانت سوزان عبيد تشعر ببعض الراحة فى بداية كل علاقة غرامية حتى تكتشف بعد ذلك أن كلمة الحب عند الفنانين والمشاهير مثل كلمة الديمقراطية عند السياسيين لا معنى لها فى نهاية المطاف، وبعد فترة من الغرام الملتهب تشعر بالفتور والملل، وتشك فى إمكانية دوام هذا الغرام، فتفضل أن تكون هى التى تبادر بهجر رجلها، وتركه عندما يستنفذ وطره منها، وتستنفذ وطرها منه.. ربما ن ظلمها لو قلنا أنها المرأة اللعوب، ولكنها كانت فتاة الحواديت التى آمنت تمام الإيمان أنها الجميلة التى يطاردها الوحوش المفترسة، آكلة لحوم الحسناوات، ونهش أجسادهن بلا رحمة!

ولكى تنتصر عليهم، وتهزمهم عليها أن تجعلهم دائماً فى اشتباك، وصراع لا ينتهى من أجلها.. فالغنائم فى كل الأحوال من نصيبها، والجروح والدماء، ووجع القلب من نصيبهم، سواء أكانوا قد وقعوا فى حبها أم طمعوا فى التلذذ بأنوثتها.. فهى مع كل واحد من رجالها قبل همام مصطفى كانت مشروع

فنانة ثرية تسير على الطريق الصحيح.. وتبقى الحقيقة الكاملة هي أن همام مصطفى لم يكسب من ورائها دولاراً واحداً بل خسر الملايين، فالرجل ليست لديه شركة إنتاج فنى، ولا إعلانات ولا ألبومات غنائية ليستغل صوته وجمالها مثلما فعل سابقوه من الرجال، وخاصة زوجها اللبناني الأصل الفرنسى الجنسية عادل مسعود، بل قام همام بدور الرجل النبيل المنقذ الذى تطوع للدفاع عنها وحمايتها، وتعيضها عما مرت به فى حياتها من أهوال وحرمان وقسوة.. وسواء إشتراك بالتحريض، والتمويل فى جريمة قتلها أم لا إلا أنه كان يعانى مثلما يعانى أى رجل تخلت عنه امرأته التى أغدق عليها بلا حساب، وفوق كل ذلك كان الرجل مستعداً لأن يتحدى الدنيا كلها فى سبيل الزواج منها مانحاً إياها اسمه الذى هو بكل تأكيد أهم من جسدها، واسمها.. من المرجح أنه كان يعانى، ويشعر بإهانة رجولته، ويشعر بالصدمة من أن يتمرد عليه تمثال جميل ساهم فى صنعه بيده وماله!

إن همام مصطفى كان هو "بجماليون" الذى وقع فى غرام تمثال العاج الذى صنعه بأنامله، وزينه بالأزياء الملونة المبهرة، وجمله بالؤلؤ، وتوسل لفينوس أن تبث فيه الروح، وتهبه الحياة الأبدية، وفى مقابل ذلك أعطاه كل شئ وقدم لها الغالى والرخيص!

لكل ذلك لم يكن من المعقول أو المقبول فى نظره أن يتمرد التمثال على صانعه المليونير همام مصطفى، والحسنة سوزان عبيد مجرد إخراج عصرى برؤية عبقرية جديدة قديمة لكوكيتيل يمزج بين الجميلة والوحش، والجرئ والجماليات وأسطورة "بجماليون" الخالدة.. تلك هي فتاة الحواديت مع المليونير التى شغلت رأى العام، والجورنالجية بصفة عامة فى مؤسسة "الأيام" ومجلة "نجوم الفنون" بصفة خاصة، والتى تورط فيها مصور النجوم المخنث خالد طلعت بشكل غير مباشر، ورصد تفاصيلها الجورنالجي الشاب ناجى شرف الدين بقلمه على مدار عدة أسابيع!

" إن العقول كالقلوب تذهب إلى حيث تقدر حق قدرها! "

فى ليلة رأس السنة أقامت جانبيت حفلة فى منزلها ، ودعت مجموعة من زملائها وزميلاتها وأصدقائها فى العمل ، ومن بينهم بالطبع أعضاء الجالية العربية ، والمصريين المقيمين فى سويسرا سواء لدواعى العمل ، أو الهجرة الدائمة أو الدراسة.. فى الحفلة أكلوا وشربوا ، ورقصوا وغنوا ، وتناقشوا وأثناء الحفلة همست جانبيت فى أذن إيناس مندور قائلة :

_ هناك مفاجأة كبيرة فى انتظارك قبل نهاية الحفل.. مفاجأة ليس لها مثيل فى بلدك مصر ، وكل بلاد الشرق على الإطلاق.. نوع مختلف من المفاجآت مثير ومدهش لم تعرفوه أنتم يا أبناء الضاد الناطقون بالعربية.

ثم ضحكت بقهقهة عالية ، ولم تضيف كلمة أخرى ، بل تركتها وانصرفت والشروود يسيطر على إيناس.. سألت نفسها.. يا ترى ماذا تخبئ لى جانبيت الملعونة؟!

وبعد لحظات نسيت الأمر كله ، وجلست مع شاب فى العقد الرابع من عمره أسمر البشرة أسود الشعر.. خصلاته ناعمة مسترسلة بإهمال فوق جبهته ، فى يده مسبحة لا تفارقه أبداً ، يرتدى بدلة رمادية اللون أنيقة ، هو إماراتى الجنسية ، ويدعى حمد الغامدى جاء إلى سويسرا للحصول على درجة الدكتوراه فى فنون الإدارة الحديثة ، وتطوير المجتمعات النامية.. وبسرعة حدثت ألفة بينهما.. قدم لها شراباً مثلجاً ، وأشعل لها سيجارة وتعارفا وتآلفا!

تحدثا فى أمور شتى من بينها الغربية عن الوطن حتى جاء الحديث عن العرب ، وأحوالهم فى أوروبا بصفة عامة ، وسويسرا بصفة خاصة ، وشردت

إيناس قليلاً بعد أن تذكرت كلمات جانبية عن المفاجأة المذهلة التي تتنظرها ، ولا مثيل لها في بلاد العرب وأوطان العروبة.

في تلك الأثناء كان حمد الغامدى يتحدث بفلسفة مشوبة بالحزن عن أحوال بنى جلده من العرب.. قال لا فض فوه ولا انصرف عنه سامعوه بعد أن فرغ من تجرع شرابه ، وألقى بقايا سيجارته :

لم يدرك العرب كعادتهم إلا بعد فوات الأوان ما ضاع منهم ، ونزيف عقولهم المستمر بالهجرة إلى الشمال..

تساءلت إيناس مندور : ماذا تقصد يا حمد؟!

ثم عادت لشرودها وترقبها لمفاجأة جانبية الفريدة من نوعها.. أحست بشئ من التوتر ، ورجفة في جسدها خشية أن تكون المفاجأة صادمة وكارثية.. غابت عن شرودها ، وعادت تتابع كلماته بنصف وعى ونصف انتباه ، بينما واصل هو كلامه قائلاً :

_ لقد خسر العرب أكثر من ٨٠٠ ألف من أبنائهم العلماء أصحاب العقول الفذة المبدعة ، والتخصصات الدقيقة النادرة المتفردة في الهجرة إلى الدول الغنية المتقدمة.. هؤلاء العلماء هاجروا لأوروبا بعد أن ضاقت بهم سبل العيش في بلادهم العربية ، وخاضوا معارك ، وصراعات ضارية مع القوى المعوقة للإبداع ، القاتلة للكفاءات ، واستشرى الفساد والروتين ، بجانب فقر الإمكانيات ، وغياب نظام تعليمى ، وعلمى قادر على إنتاج علماء جدد في دولهم التى لا تقدرهم حق قدرهم ولا تتركهم في حالهم بل تشن عليهم الحرب ، وتتواطأ ضدهم كل الظروف حتى أصبحت الأوطان العربية طاردة لعقولها العبقريّة ، وقاسية عليهم قسوة زوجة الأب على ابن زوجها!

وعلى العكس من ذلك تماماً اتبعت الدول المتقدمة خاصة الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وبريطانيا تجاه هؤلاء العلماء سياسة " اصطيد العقول " فحققت منها ٢٠٠ مليار دولار عائد سنوياً وذلك باستقبال ٥٠ ألف

عالم كل عام من ثماني دول عربية هي مصر والعراق وسوريا ولبنان والأردن وتونس والمغرب، والجزائر، وتوفير كل عوامل النجاح لهم حتى نبغ وذاع صيت معظمهم.

ونتيجة لنبوغ عدد كبير من العلماء العرب في التخصصات الدقيقة ورفضهم البقاء في الدول المبتعثين إليها، وذلك على عكس ما يفعله ٧٠٪ من المبعوثين العرب احتدم الصراع بين أجهزة المخابرات، ونشأت ظاهرة الاغتيالات العلمية الشهيرة لحوالي ٤٠ عالماً عربياً نووياً من بينهم الدكتور مصطفى مشرفة صاحب نظرية النسبية الصغرى، وسميرة موسى التي توصلت إلى تفتيت ذرات رخيصة جداً من المعادن، ومتاحة أيضاً لاستخدامها في إنتاج قنبلة ذرية قليلة التكاليف، وكذلك الحال مع الدكتور يحيى المشد عالم المفاعلات النووية.

ولأن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت تستأثر وحدها بأكبر عدد من العلماء العرب، والرابح الأكبر منهم، فقد أطلق عدد من الدول الأوروبية واليابان والصين على الولايات المتحدة "صائد العقول" خاصة بعد أن أصدر الكونجرس الأمريكي عام ١٩٩٠ تشريعاً لمساعدة شركات صناعة التكنولوجيا والمعلومات على اصطياد العلماء حتى أصبح ثلث العلماء العاملين بوادي السيليكون الأمريكي للصناعات الإلكترونية من الذين ولدوا وتربوا وتعلموا في الدول العربية النامية واصطادتهم أمريكا وغيرها من القوى العظمى!

استفاقت إيناس على خطورة القضية، والأرقام والمعلومات التي يطرحها حمد الغامدي فتساءلت بإستكار:

وما المطلوب من العرب في رأيك لمواجهة هذه القرصنة الأمريكية؟
تبسم حمد قائلاً:

— سؤال في منتهى الذكاء.. المطلوب من العرب يا سيدتي كي يحدوا من اصطياد العقول العربية أن يتبنوا سياسات جديدة جاذبة للعلماء العرب

داخل وخارج الوطن العربي، تركز على الترغيب والجذب لا التضيق والطرد واستدراك هجرة العلماء إلى الداخل كتلك التي حدثت للعالم الجليل الدكتور جمال حمدان، وأودت بحياته بعد احساسه القاتل بغربته فى وطنه.. وكانت النتيجة نهاية مأساوية!

احتسوا جميعاً كئوس الويسكى والشمبانيا، وأنواع أخرى فاخرة معتقة من الخمر اللذيذ، ورقصوا وغنوا.. كان عددهم لا يتجاوز الثلاثين.. وأصدقاء الموسيقى الكلاسيكية تصدح فى المكان، وسط غلال من أضواء خافتة تسبغ الرومانسية على أجواء الحفلة، أوقفت جانيت فجأة مصدر الموسيقى، فالتفتوا جميعاً إليها.. بدت على ملامحها الجدية كما لو كانت ستلقى بياناً عسكرياً حاسماً أو ستعلن إنقلاباً ثورياً على نظام الحياة، وطبيعة الكون.. ثم قالت:

_ الآن حانت اللحظة الحاسمة الفارقة التى لا مثيل لها فى كل بلاد الشرق، ونظرت نحو إيناس نظرة ذات مغزى) وكثير من بلاد الغرب أيضاً.. الآن سنختتم الحفل الذى أقمناه على شرف " دافيد وساندرا " .. ثم أشارت إليهما.. هما كما تريان شابان رائعان فى منتهى الجمال والحب والإنسجام.. جمعتهما قصة عاطفية خلابة منذ عام، وحتى اليوم لم يمارسا الحب سوياً بالمعنى الكامل.. هل تصدقون ذلك؟! عام كامل من الحب بلا ممارسة للحب.. يبدو أمراً غريباً هنا فى أوروبا.. لقد قررا أن يقيما هذا الحفل هنا فى هذا المكان، وفى هذه الليلة ووجهها الدعوة لكم جميعاً لتشاركوهما فرحتهما بفض بكارة ساندرا.. الآن أمام عيونكم.. دافيد سيقوم بالمهمة وأنتم جميعاً سوف تشاهدونها حالاً، وسيتم تصوير هذا الحدث المثير بالفيديو والموبايل، ولكم الحق فى الاستمتاع بمشاهدة قص الشريط وإزالة الشمع الأحمر، وتسجيل هذه اللحظة النادرة.. لم تصدق إيناس الواقع، وشعرت أنها فى حلم كئيب أو كابوس مفرع مزعج، وبعد أن إنتهت جانيت من حديثها.. وعزفت الموسيقى من جديد، وكلهم يراقبون

المشهد ، وكأن على رؤوسهم الطير الجارح ، بدأ دافيد ينزع عن ساندرا ملابسها قطعة قطعة حتى حانت اللحظة الحاسمة.. ونزع الفتى عن نفسه ملابسها هو أيضاً ، وسط تصفيق الجميع وصيحاتهم.. صرخت ساندرا بمتعة مؤلمة وألم ممتع ، وسالت قطرات دم حمراء قانية على فخذيهما.. وإيناس تصرخ من أثر ما ترى ، ولا تغمض عينيها ، بل تبخلق فى ساندرا ، وما يجرى لها ، وكأنها هى التى فضت بكارتها فى تلك اللحظة وليست ساندرا.. الباقون يهللون ويقفز بعضهم فى الهواء فرحاً ومرحاً والبعض الآخر يصور ، ويلتقط بالكاميرا والموبايل تفاصيل اللحظة المثيرة المدهشة الجريئة.. انفضت الحفلة الغريبة ، وانتهت الليلة المريية التى لم تشهد إيناس مثيلاً لها فى حياتها ، ولم تسمع عنها فى الحوادث والأساطير ، وحكاوى ألف ليلة وليلة ، ولم تقرأ عن مثل هذا فى الكتب ، أو تشاهد ذلك فى الأفلام العربية ، ولا الأجنبية التى تفضلها منذ طفولتها.

وعندما همت بالخروج ، وهى شاردة تفكر فيما حدث ، وفيما رأت بعينيها منذ قليل جاءها صوت حمد الغامدى طالباً منها أن تسمح له بتوصيلها بسيارته ، هزت رأسها بابتسامة ساذجة دون أن تنطق بكلمة واحدة ، ففهم الرجل ما يجول بخاطرهما ، وأدرك بسرعة ما تحس به وما تعانيه.. كانت تتخيل نفسها لو كانت مكان ساندرا.. كيف ستقابل هؤلاء الناس مرة أخرى؟ وبأى وجه تلقاهم؟!

أدرك حمد الغامدى بذكائه وسرعة بديهته وقع الصدمة الفاضحة الجارحة عليها.. كانت فى قرارة نفسها تتساءل دون أن يسمعها.. لماذا يصبر بعض الناس على فضح أنفسهم طالما أن الله أتاح لهم نعمة الستر والكتمان ، وارتكاب كل المحرمات المبوقات فى السر؟!

وكان حمد الغامدى كان يسمعها ، فقال الرجل المثقف واسع الإطلاع بلباقته وفطنته :

— هل تعرفين يا إيناس أن هناك بعض الرجال فى الصحراء الغربية ،

وتحديداً فى بلاد المغرب العربى يمتهنون فض البكارة بالنيابة عن العريس فى ليلة الدخلة؟!

بدا عليها الاستغراب، وكسرت حاجز الصمت متسائلة:

— كيف يحدث ذلك يا حمد فى جزء من الوطن العربى؟!

قال الرجل بثقة وهدوء:

— تحتفى بعض القبائل المتواجدة فى منطقة الصحراء الغربية بليلة الدخلة وفق عادة غريبة جداً على مجتمعاتنا الشرقية العربية حيث ينوب رجل معروف يكون محل ثقة القبيلة عن العريس فى فض بكارة العروس، ونسف عذريتها.. إذ يتسلل هذا الرجل إلى غرفة مطبقة بالظلام حيث تتمدد فيها العروس مستورة الوجه والجسد، لينحنى هذا الرجل صوبها متحسباً منطقة فرجها، ويدس يده بين فخذيها داخلاً إلى كهف المتعة فيطأ بكارتها بإصبعه، ثم ينسحب بهدوء عقب إنهاء هذه المهمة!

إن هذه الظاهرة يا إيناس طقس إرادى، ويرتبط فى أحيان كثيرة بطقوس السحر.

وأحياناً أخرى يستعين العريس بامرأة لفض بكارة عروسه، خاصة حين يواجه صعوبة فى الانتصاب أثناء مراسم الدخلة، وهو ما يعرف بالربط حيث يظل العريس عاجزاً عن اختراق أسوار عروسه، وفك شفرة أنوثتها وإسقاط حاجز عذريتها حيث يكون مربوطاً، وعاجزاً بفعل فاعل ساحر كان أو ساحرة، وفى تلك الحالة يتم الاستعانة بالشياطين، والقوى الخفية لإصابة منطقة المركز المهيمن على أعضاء التناسل فى المخ فلا يحدث الانتصاب فى هذه الليلة الموعودة، ويصبح العريس مثل طفل صغير لم يبلغ الحلم، ويفشل اللقاء الحميم بين العروسين!

وهذه العملية السحرية تعتمد بالأساس على الفتح والإغلاق من خلال مجموعة الأدوات التى تفتح، وتغلق مثل القفل والمقصر، والباب والشباك والصندوق!

كما أن ليلة الدخلة التى يطلق عليها المغاربة " الصباح " تشكل لحظة انتظار وترقب، ولهفة لدى جميع أفراد عائلة العريس والعروس لرؤية " الإزار " وهو ثوب أبيض ترتديه العروس فى تلك الليلة ليخضب بقطرات دم قليلة ترسم عنوان شرفها ، وتجسد عفة وطهارة جسدها.

قالت إيناس مندور:

_ أهذا صحيح.. أم أنه من صنع خيالك الجامح؟!

ضحك حمد الغامدى قائلاً:

_ فى هذه المناطق العربية تعود تلك الممارسات الغريبة ، واللامعقولة إلى تمسك القبائل هناك بمفهوم الشرف المقترن بالبكارة ، وغشاء العذرية وللتأكد من الخبر اليقين لابد أن يأتى من رجل غريب يكون محل ثقة القبيلة!

وفى معظم الأحيان يتفاخر هؤلاء الرجال فيما بينهم بعدد النساء اللواتى فضوا بكارتهن بأيديهم نيابة عن الأزواج فى ليلة العرس.. وبذلك يحظى هؤلاء الرجال الذين يمتهنون أغرب مهنة فى التاريخ باحترام وتقدير القبيلة ، واحتقار الأزواج الذين تركوا زوجاتهم للغرباء لكى يفضوا بدلاً منهم الشمع الأحمر ، ويقصوا شريط افتتاح دخول الدنيا الجديدة!

" عيون الرجال التى لا تعشق الجمال فى النساء.. عمياء! "

دارت الأيام ومعها طالت المحادثات الهاتفية اليومية بين حمد الغامدى وإيناس مندور.. سرت حالة من الألفة والود بينهما، شعر الشاب الإماراتى ببزوغ فجر الحب فى قلبه، وأدرك أن إيناس مندور المصرية سحرته بجمالها، وأنوثتها، ورشاقتها، وكان يتصل بها يومياً مرتين.. فى الصباح وقبل النوم.. يتحدثان ويتجاذبان أطراف الحوار فى كثير من الشئون الصغيرة، ويتناقشان فى الأمور الكبيرة.. لم يكن بينهما حواجز ولا خطوط حمراء.. هو يحمل عقلاً مستنيراً وهى تحمل عقلاً حراً وجسداً حراً.. لا تكبلهما قيود الشرق وعاداته.. رفعاً راية الحرية، وتناقشا فى كل شئ بداية من قضية فلسطين، والصراع الأبدى بين العرب وإسرائيل، وهيمنة أمريكا على العالم، وحتى آلام الدورة الشهرية.. رفعاً حاجب الحرج، ونزعا برقع الخوف من المجتمع.. بل كانت حبال الود موصولة بينهما لأنهما عاشقان للحياة، وينتميان لعالم واحد، وجذور راسخة فى الشرق، وعقول طائرة تحلق فى سماء الغرب.. وذات يوم، وهما فى ساعة صفاء، وقد عزمها على العشاء فى مطعم لبنانى يقدم الوجبات الشرقية، وعلى نغمات موسيقى موتسارت، وضوء الشموع الخافت قدم لها هدية عبارة عن خاتم من الماس.. وقال لها:

— كل سنة وأنت طيبة.. اليوم عيد ميلادك.. أليس كذلك؟!

ذهلت إيناس مندور من المفاجأة السارة.. وسألتها:

— كيف عرفت يوم ميلادى، وقد نسيت أنه أنا شخصياً؟!

— من يسأل لا يتوه.. كما تقولون أنتم فى مصر.

— سألت من عن يوم ميلادى يا حمد؟!

— سألت أوراقك وبياناتك فى جهة عملك.

— لا.. لا أظن.. لابد أنها المجنونة چانیت هی التي أخبرتك..

تلعثم حمد الغامدى، وضحك سعيداً بذكائها المتوقد وقال:

— لقد عرفت وإنتهى الأمر.. هل ضايقتك ذلك؟!

— أبداً.. أبداً على العكس تماماً.. يسرنى اهتمامك بدون شك ولكن..

— ولكن ماذا يا إيناس؟!

لم تنطق.. لاذت بالصمت، فقد مد يده يتحسس يدها، ويمس ببطن يده
ظهر يدها الساكنة أمامه على الطاولة.. سحبته ببطء، وقد إحمر وجهها
خجلاً، وتوردت أوداجها..

قال:

— إيناس.. أريد أن أتزوجك.. ما رأيك؟!

— تتزوجنى.. هكذا مرة واحدة؟!

— نعم.. أتزوجك مرة واحدة.. وهل يمكن أن أتزوجك على مراحل؟!

ضحكت وقالت:

— لا.. لا.. ليس قصدى ولكن أنت تعرف أننى مصرية، وفى مصر أهلى
وناسى، ولا بد فى مثل هذه الحالات من الحديث مع الأسرة، وإجراءات
كثيرة يجب مراعاتها والالتزام بها.

— لو وافقت يا إيناس فأنا مستعد لأن أسافر إلى مصر، وأفعل أى شئ
من أجلك.. ويشرفنى طبعاً أن ألتقى مع أفراد أسرتك وأطلب يدك منهم
قالت إيناس:

— وماذا عن أهلك وأسرتك أنت يا حمد فى الإمارات؟! مع العلم بأننى لا
أعرف عنك إلا أقل القليل!

— وماذا تريد أن تعرفنى عنى يا إيناس؟!

— أريد أن أعرف رأى عائلتك يا حمد فى فكرة الزواج من فتاة مصرية

مثلاً.. وهل يرحبون بهذا الزواج أم لا.. وأشياء أخرى كثيرة.. أظن أنك
تعجلت فى هذا الطلب يا حمد؟

— لا.. لا والله يا إيناس لم أتعجل على الإطلاق، بل العكس تماماً.. لقد
تأخرت وتجاوز عمري الأربعين!

— إذن دعنى أسألك سؤالين يا حمد..

— إسألى يا سيدتى كما تشائين..

السؤال الأول هو: ألا تخشى الزواج من فتاة غير إماراتية؟
تبسم حمد قائلاً:

— أقولها لك يا إيناس بكل ثقة.. أنا أفضلها مصرية.. صحيح إن أحدث
دراسة علمية صدرت تؤكد أن المرأة المصرية صاحبة الرقم الأعلى
فى ضرب زوجها بنسبة وصلت إلى ٢٨٪ متفوقة بذلك على المرأة
الأمريكية التى جاءت فى المرتبة الثانية من حيث ضربها لزوجها
بنسبة بلغت ٢٣٪ بينما جاءت المرأة الإنجليزية فى المرتبة الثالثة بنسبة
١٧٪ ثم المرأة الهندية التى جاءت فى المرتبة الرابعة بنسبة ١١٪.

ضحكت إيناس مندور من قلبها قائلة:

— ألا تنسى أبداً أنك باحث، وتعد رسالة دكتوراة؟ دائماً تتحدث بشكل
رسمى وعلمى موثق بالمعلومات والأرقام!

— عموماً يا إيناس أنا أفضل المرأة المصرية على غيرها من بنات حواء فى
شتى بلاد العالم برغم ما يقال من ضربها للزوج أو التخلص منه، وتعدد
وسائلها فى ذلك الأمر من السكين والسم والأسلحة النارية وماء النار..
وأحياناً المقشعة، وهى أخف أسلحتها فى معركتها المنزلية ليصبح
الرجال دمعتهم على خدهم! وبدلاً من أن يصرخ الزوج سى السيد بأعلى
صوته فى الست أمينة فوجئ بها تصرخ فيه، ولو عاش نجيب محفوظ
حتى يومنا هذا لأمعن النظر من جديد فى رؤيته للعلاقة بين الرجل

والمرأة، ونفض يديه من رائحته الثلاثية " السكرية، قصر الشوق،
بين القصرين " بعد أن أصبح الرجال بفعل تحولات الزمن هم الجنس
اللطيف، والضعيف!

واليوم أصبح من المألوف أن نرى ونسمع زوجاً يستغيث من بطش زوجته
التي تضربه، وتتكلم به كلما حانت لها الفرصة، وسمحت لها الظروف..
ولا حول ولا قوة إلا بالله!

تبسمت إيناس مندور وقالت بنبرة فيها ود وعتاب رقيق:

— كل هذا فى قلبك وتكتمه؟! عموماً لا تصدق كل ما يقال عن المرأة
المصرية.. فهى الأم المناضلة الرؤوم، والزوجة الوفية المخلصة،
والحبيبة العاشقة المتيمة.. المرأة المصرية يا سيدى صنعت الرجال
وأهدت الدنيا العلماء والحكماء والمبدعين فى كل المجالات..
شيدت أركان الحضارات عبر حقب التاريخ!

— لقد أجبت عن سؤالى الأول يا حمد.. أما السؤال الثانى فهو:

لماذا تأخرت فى الزواج حتى وصلت سن الأربعين أو تجاوزتها؟!
تتهدد بعمق، وبدأت الجدية على ملامحه كأنه يفكر فى أمر جلل ثم
قال:

— تأخرت فى الزواج لأننى أحب النساء!

ضحكت بصوت مرتفع:

— كيف هذا؟! المفروض أن يحدث العكس.. بمعنى أنه طالما أنك
تحب النساء كان يجب الاقتران بواحدة منهن قبل الآن بعشرين عاماً..
— سوف أعترف لك وأمرى إلى الله:

— ليس من هواياتى حرق أكباد النساء.. وليس من هواياتى التحرش
بالجماليات أو حتى لعب الورق، وتصفح الجرائد الصفراء، ولم أعتد
يوماً على النوم بين ذراعى أميرة حسناء سمراء سواء كانت بأعين

سوداء ، أو شقراء بأعين زرقاء.. أنا لم أجد يوماً امرأة أحبها ، وكأن سيف الحجاج خلف ظهرى لأننى ببساطة أكره الاستبداد ، ولست حفيد شهريار حتى أغتال كل ليلة على الفراش واحدة ، ولا أنا سليل آل فرعون حتى أبني أهراماً من رؤوس الإماء ، وحلمات البنات ، ولم أكن فى حياتى زير نساء حتى أمضى ساعات الليل بأكملها ، وأنا أتسكع فى شوارع المدن المخملية.. عساي أحظى بامرأة طاغية الأنوثة تحجب بنهديها قرص الشمس ، وتجعل الشمس تشرق فى المساء ، أنا لست مهتماً بالتقيب فى أوساط الحسنات عن سراويل الجينز الضيقة ، وعن الصدور العارية ونادراً ما أدع عينى تسافر عبر جسد امرأة..

سألته ايناس مندور بدهشة:

— وهل أنت بائع الحب؟!

رد عليها بتلقائية:

— لا.. لا لست أنا الذى يبيع كلام الحب بالدراهم ، ولست من الذين لا يرون الوردة جميلة إلا عندما يقطفونها ، وكل من يظن أننى لا أرى فى المرأة سوى الجسد والغزل والإغراء إما مخدوع فى شخصى أو واهم..

لمعت عينا ايناس بانبهار ، وسألته وحمرة الخجل تضج فى وجنتيها:

— ولماذا تحب النساء يا دنجوان؟!

قال بثقة وأريحية:

— أنا أحب النساء ولا أنكر ذلك.. أنا أحب حتى أتمكن من الحياة وحتى لا أرى كوابيس الأحلام ، ولست مهتماً بتعداد النساء اللواتي أعرفهن ، لأننى ببساطة أكره الأرقام ، وآخر شئ أفكر فيه بعد كل تجربة حب هى الاحتفاظ بالأسماء!

— وهل أنت ضعيف أمام جمال النساء يا حمد؟!

_ أحب النساء ، ولا أنكر ذلك ، والعين حين ترى الجمال ولا تبالى به إما أنها باردة أو مخمورة أو عمية!

_ أحب النساء.. نعم.. أحب النساء ، فهن حديقة ورد لا تعرف الإنتهاء ، أحب النساء ولا أنكر ذلك ، ولولا هن لكان مذاق الحياة علقماً ، ولكانت كلمات العشق والكراهية سواء بسواء!

_ وما الذى يغريك يا حمد فى بنات حواء؟!

_ أحب النساء ولا أنكر ، وتغرينى المرأة الجميلة ، ويذبحنى ذلك الشعر الأسود الملقى على ظهرها ، ويفتتننى ذلك الكحل الدامس فى رموشها ، لكن بعد دقائق من زيارتى عقلها ، إما أن تظل فى عينى جميلة ومثيرة وفاتنة ، وإما تلحق بالأخريات ، وتذوب كالملح فى كوب ماء!

أنا يا إيناس الذى لا ييأس من البحث عن الحب فى كل مكان.. أبحث عنه فى أعشاش العصافير ، وفى رحيق أزهار الرمان.. أبحث عن حب يعترف بأننى إنسان ، حب يدفعنى للإحساس بأننى مالك هذا العالم ، وشاعر هذا العصر والزمان.. إن الحب يا سيدتى هو عصارة كل الثقافات ، وكل من لم يحس به إما بارد أو جاف ، أو تمثال مجهول الهوية معرض فى أى لحظة للنسيان ، أو طائر خرافى لم يستطع التحليق يوماً فى السماء!

_ ومن أنت يا حمد هل أنت روميو العصر والأوان؟ أم مجنون ليلى هارب من أسوار التاريخ ورمال الصحارى ، وقلاع الزمن؟!

_ أنا يا إيناس وبكل بساطة أحب أن تكون لى حبيبة تفهم الحب الذى يستوطن عيني وتحضنه وتهدهده.. أحب أن تكون لى حبيبة تهوى الشعر العربى المنقوش فوق جسدى ولا تكرهه ، أبحث عن امرأة تعلم جيداً أننى جبل بركان من المشاعر تكسوه ثلوج الكبرياء ، وأن تعلم جيداً أننى فخور جداً بذاتى وعروبتى وجنسيتى ، ولست مستعداً أن أغير جلدى من أجل عيون امرأة فائقة الدهاء ، لذلك ومنذ بدأت التقيب والبحث ، وأنا أفتش فى داخل الأنثى العربية عن المرأة الإستثناء.. أبحث عن امرأة لها

القدرة على كتابة تاريخي من جديد ، ولها القدرة على إعادة الدفء لروحي من جديد.. امرأة بدون قبلة منها كل صباح لا أستطيع المضي قدماً في يومي والبقاء على قيد الحب والحياة!

بحثت وبحثت، ومازلت أبحث عن المرأة التي أتعلم منها كل ليلة آلاف الأشياء.. امرأة توقف الأرض حين تغضب مني، وحين تبتسم في وجهي تشرق دون أوانها شمس، ويصل نورها إلى كل البسطاء، فتشت طويلاً في أعين النساء من حولي عن ولادة، وعن ليلى العامرية وعن الخنساء، ولم أجد حتى اللحظة سوى أجساد متعبة من البغاء.. لم أجد سوى قلوب رمى بها القدر من شاطئ المعاناة، لم أجد سوى نساء يخجلن من اكتشاف أجسادهن في لحظة تأمل وإصغاء.. لم أجد سوى نساء لا يتعبن من الوقوف طويلاً أمام المرأة في محاولة يائسة لتجميل أنوثته تعاني من زمن الكبت والقمع والإقصاء، أنا وبكل بساطة أبحث عن امرأة تعلم جيداً ماذا تريد مني، ولا تتركني واقفاً أمامها لساعات لربما أستطيع التحدث مع كائن لا يميز بين الأرض والسماء!

أنا وبكل بساطة أبحث عن امرأة لها القدرة على استيعاب مخيلتي التي لا حدود لها.. وعلى السباحة في محيطاتي التي لا شواطئ لها.. امرأة تملك ما يكفي من الذكاء حتى تجعلني في كل موعد أتوه في أنوثتها.. أبحث عن امرأة شريرة تجعلني بعد كل قبلة أنا المقتول الوحيد، والشهيد الوحيد، والخاسر الوحيد.. أبحث عن امرأة تكسر بجمالها كل أسلحتي، وتجعلني أنا وذكورتي أقزاماً تلهو بنا كما تشاء.. أبحث عن امرأة برققتها وحنانها تجعل أوراقى تمزق نفسها، فهي مهما كتبت عنها، وسأكتب لن أوفيتها حقها لأنها قادرة بسحرها أن تمزق الكون إلى أشلاء!..

تفرست إيناس ملامحه، وحدثت في عينيه قائلة:

— وماذا أيضاً؟

— أبحث عن امرأة تغفر لي إذا فاض نهر جنوني، وإذا ما التهمت في لحظة

طيش منى شفاهها المتحضرة الملساء.. أبحث عن امرأة تستطيع إعادة شحن بطارية الحياة فى روحى وجسدى كلما شحت أمطارى، وتنعش قلبى الذى نال منه الإجهاد، وهزيمته الهموم والنوائب هزيمة نكراء..

— وماذا فى جعبتك أيضًا يا عاشق النساء؟!

— أبحث عن أنثى أحس بين ذراعيها أننى الرجل الوحيد الناضج فى هذا العالم وأن باقى الرجال من حولى مجرد أطفال تغساء بؤساء.. أبحث عن امرأة تكون لى وحدى، وأكون لها العالم بأسره.. امرأة تطرد من فصولى الخريف والشتاء!..

— وماذا تريدها أن تكون بالنسبة لك؟!

— أنا أبحث عن امرأة تفهمنى من نظرة عيني.. امرأة تضيف كل لحظة شيئاً جديداً لشخصيتى.. امرأة تبنى لى قصرًا صغيراً فى أعماق قلبها.. امرأة تحبنى أكثر من نفسها حتى أحبها أكثر من نفسى.. أبحث عن امرأة لا تسألنى عن ماضى الغامض، ولا عن النساء اللواتى أحببت، ولا عن الجرائم التى إقترفت.. امرأة لها القدرة على التعايش مع جنونى، ومع صور جميلات السينما العالمية المتناثرة فى غرفة نومى وعلى جدران ذاكرتى!

— هل تبحث عن امرأة للفراش؟ أم تبحث عن امرأة تمنحك الحب؟ وهل تأسى على الحب؟!

— إنما يأسى على الحب النساء.. أنا يا ايناس أبحث عن امرأة تعطينى الحب وأمنحها الأمان.. امرأة تكون حقاً حبيبتى، ويكون الحب فى عروقهها أهم من البلاتين والكرات الحمراء، أبحث عن حب يعيد لأيامى نكهتها المفقودة، ويعيد لقلبى ثوراته المخمودة.. حب يتحمل طيشى وعفويتى ومجونى!

— هذا عن المرأة.. لكن لو عاد بك الزمان إلى العشرين من عمرك.. ماذا تطلب من الزمان يا حمد؟!

_ أنا لا أطلب منه الكثير، أريده فقط أن يكون منصفاً بحقى، ويهدينى
حبيبة بحركة من شفيتها تنشئ لى ولها جاذبية فى الفضاء.. امرأة
حين تضحك توقع القمر فى خجله، وتجعل الأرض تنسى الدوران!
وأقول للزمان.. أنت خير من يعلم تكوينى.. أنت خير من يعلم أننى بدون
الحب رفات إنسان.. أنا أريد أن أحب.. لا قيمة لحياتى بدون امرأة.. العمر بلا
جدوى بدون النساء.. الأيام بلا أنثى تشاركنى رغيى الحلم جافة جداً، وأنا
بطبعى أحب المطر وأكره الجفاف.. الزمان أكثر من يعلم أن الحب الذى
لا يدمى القلب، ويجعله أشلاء متناثرة هو حب واهن ومشوه.. وأنا أحب أن
يصبح قلبى أشلاء!

" ممكن جداً أن تعطى دون أن تحب.. مستحيل أن تحب دون أن تعطى! "

منذ سنوات يدق فتى غامض، وغريب الأطوار وعجيب الصفات بلا ملل أو كلل على طلبة صفيح فى ملهى ليلى رخيص بقبو فى المدينة الواسعة المتألثة، ويروى وقائع مدهشة، يكشفها وكأنه يتوضأ ويتطهر من الآثام والذنوب والأدران.. ذلك الفتى هو " أوسكار " الذى توقف عن النمو فجأة، ورفض الانتماء إلى عالم الكبار! وكان قد نجا من حرائق وجرائم، وكوارث الحرب العالمية الثانية التى أشعلها النازى الألمانى أدولف هتلر، وتجاسر على مواجهة أشباح النازية بدلاً من الهروب منها، والانكفاء فى عقدة الذنب الجماعى.

هذه هى رواية " الطلبة الصفيح " رائعة الكاتب الألمانى الكبير " جونتر جراس " التى عكف ناجى شرف الدين فى تلك الليلة الباردة من أيام الشتاء الممطرة على قراءتها فى فراشه الدافئ.. هذه الرواية التى نشرها مبدع ألمانيا الفذ عام ١٩٥٩ وحملته على جناح إبداعها، وتجليات دلالتها إلى آفاق الشهرة والفوز بجائزة نوبل للأدب، وكان من أعلام الاشتراكية الديمقراطية، وأقطابها لكنه أثر الابتعاد عن السياسة الحزبية منذ عام ١٩٩٤.

وإذا كان " جونتر جراس " قد ولى مدبراً من عنفوان المشهد السياسى، فإن شاباً ألمانيا اسمه " أوسكار لافتتين " ظهر على الساحة، وكان اشتراكياً ديمقراطياً.. وهب لنجدة الاشتراكيين من عثراتهم، وتمكن عام ١٩٨٩ من إحياء الحزب، وتولى زعامته، وخاض الانتخابات التاريخية عام ١٩٩٨، وأطاح بالمستشار هيلموت كول رجل ألمانيا القوى، وحزبه المسيحى الديمقراطى بعد ستة عشر عاماً قضاها فى السلطة، وصار

جيرهارد شرودر مستشاراً لألمانيا، وتولى أوسكار وزارة المالية.

ومعنى هذا التحول أن جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية قد تولى الحكم، وكان نفر منه من الشباب الغاضبين إبان ثورة الطلبة عام ١٩٦٨ وفى هذا السياق أصبح "أوسكار لافونتين" أقوى رجل فى ألمانيا، وأخطر رجل فى أوروبا، وكانت الصحف اليمينية تطلق عليه "أوسكار الأحمر" نظراً لأنه يمثل الجناح اليسارى التقليدى المناهض للرأسمالية المتوحشة التى أطلقتها أمريكا فى زمن العولمة!

وكما وصفت الصحف الأمر فإن الاشتراكية الديمقراطية، بكل ما تتطوى عليه من فضائل العدل، وقيم الديمقراطية تمثل أساساً راسخاً لنظام الحكم فى ألمانيا منذ تبنى الآباء المؤسسون لألمانيا الغربية مفهوم "السوق الحرة الاجتماعية" وأكدوا نبذهم لنمط الرأسمالية الأمريكية، وهو مفهوم يلتزم به اليمين، ولا يحيد عنه اليسار.

وعندما تعرضت هذه التجربة الألمانية، ونموذجها الإجتماعى الرائع لعاصفة العولمة الأمريكية، واستهدفت تفكيك دولة الرفاه الإجتماعى، حاول "أوسكار" التصدى لها.. لكن رياحها كانت شرسة، وجنحت بالمستشار شرودر إلا قليلاً نحو يمين الوسط، لذلك استقال "أوسكار" من رئاسة الحزب الاشتراكى الديمقراطى الحاكم، ومن منصبه كوزير للمالية، واختفى عن الأنظار دون أن يثير ضجة غير أنه أثار جدلاً واسعاً عندما فاجأ الجميع، وأصدر كتابه المهم "القلب يدق يساراً".

وسكن الفتى الجامح فى بياته الشتوى الطويل، ولم يخرج إلا بعد عشر سنوات، فقد أسس حزباً يسارياً جديداً من الساخطين فى شرق ألمانيا، والغاضبين فى غربها، وحقق فوزاً باهراً فى الانتخابات الأخيرة، لكن يد القدر الباطشة كانت له بالمرصاد فقد أصابه مرض عضال، وعلى الفور إستقال من زعامة الحزب، وأعلن إعتزاله العمل السياسى بصفة نهائية!

وعندما دوى النبأ فى المدينة، وانتشر فى دروبها وأرجائها، وخرج عازف

"الطبله الصفيح" من الملهى الللىلى إلى الشارع، وأخذ يدق على طبلته بعنف
ويتمتم بحماس:

نعم القلب يدق يسار.. نعم القلب يدق يساراً!

وعندما تأكد الروائى "جونتر جراس" أن بطله الوديع المسالم تمرد
عليه، وخرج على النص، أدرك بما لا يدع مجالاً للشك أنه انحاز إلى أهل
اليسار، ووقف فى خندق العدل والحرية والمساواة وحقوق الإنسان.

بعد فترة طويلة من القراءة بمتعة، ونشوة فرغ منها.. فقد كانت أحداث
الرواية تجذبه وتشوقه، ولا يستطيع الفكاك منها، لكنه شعر بثقل فى
مثانته بما يؤلمه، ولم يعد قادراً على احتماله، نهض مهرولاً ثم دلف إلى
الحمام أفرغ ما فى مثانته على عجل، خرج الماء منه دافقاً ساخناً، فأحس
بالإرتياح.. تنهد بعمق وعاد إلى فراشه الدافىء، وقبل أن يعاود القراءة
مجدداً خطرت له فكرة أن يجلس قليلاً أمام الكمبيوتر، ويفتح بريده
الإلكترونى الذى لم يتصفحه منذ أكثر من أسبوع عساه يحمل إليه شيئاً
جديداً له قيمة..

بمجرد أن فتح صفحة الرسائل الواردة فوجئ برسالة من إيناس مندور..
أسرع بفتحها بطريقة إلكترونية بلمسة سحرية من أنامله، وبدأ يقرأ ما
جاء فيها بكل عناية وتركيز..

قالت إيناس مندور:

ناجى شرف الدين.. أنت أيها الصديق الرائع.. إننى ألجأ إليك لأتحرر من
الخوف الذى يعترينى.. ألجأ إليك لتحمينى من المجهول، وتقوينى وتستمع
بقلبك الأخضر الطيب إلى أسرارى الصغيرة، وشئونى اليومية وهمومى
وشجونى الكبيرة!

أحس أنك تؤام روحى، وعقلى الذى أستطيع أن أفضفض له وأبوح إليه
بما يعن لى، وبما ينغص على حياتى دون أن يخوننى أو يكتب عنى تقريراً
إلى أمن الدولة!

أنت الشخص الوحيد الذى أفر إليه.. وإليك ملاذى مهما اتسع عالمى.. أنت وحدك أشعر معك بالأمان، وأحكى لك بلا خجل ولا وجل.. أبوح بذنبى كأننى أحدث نفسى.. فلا لوم ولا عتاب، وإنما قلب كبير ينصت إلى صخبى وثورتى، ويهدئ من جموحى وروعى!

إن الأشخاص والأمكنة فى عالمنا العربى كلها تحت المراقبة والتنصت.. والنساء بصفة خاصة يا عزيزى هن الأكثر تعرضاً للرقابة، والتجسس والتلصص!

ها أنذا ألجأ إليك رغم آلاف الكيلومترات وبشاعة المسافات الفارقة بيننا لأقول لك ما لا أستطيع أن أقوله أمام مجتمع لا يعترف بسلطة غير سلطة الذكور أو بأراء وأفكار غير أراء وأفكار الذكور.. فأنا أنثى تقف فى الخط الأول للمواجهة.. تتقاتل بشجاعة، وببسالة فدائى، وتصر فى أحلك الظروف على التفوق والنصر، وتؤمن بأن زمن البنفسج قادم.. قادم لامحالة.

صحيح إن واقعنا العربى فى منتهى البشاعة والقتامة، ولكن هل هذه الصورة نهائية، وغير قابلة للتعديل أو التجميل؟!

أعتقد يا ناجى يا صديقى الغالى أن حركة التاريخ تعلمنا أن للحضارة مداراً وللإنحطاط مداراً.. النقطة التى كانت فى القمة قد تصير سفحاً.. والنقطة التى كانت فى السفح قد تغدو فوق القمة ذات يوم.

ومن المؤكد أن عصور الانحطاط ليست نهائية، ولن تكون كذلك إلا إذا ضرب الانحطاط إرادة الأمة بكاملها، وأنا يا صديقى أظن وليس كل الظن إثم أن ارادة الأمة ما تزال قوية عفية.

وها هى القوى الشعبية مازالت تتحرك.

وليست المقاومة اللبنانية لجيش الاحتلال الاسرائيلى فى الجنوب اللبنانى، ومزارع شبعا ومقاومة الفلسطينيين فى الأرض المحتلة سوى ارهاصات الغضب الشعبى الذى يتشكل مثل الأنهار تحت سطح التاريخ.

ولا تتسى يا صديقى أنتى مثلك أحب أن أقرأ المستقبل بعيون البسطاء
والطيبين والأطفال..

وليكن واضحاً جلياً فى ذهنك يا ناجى.. يا أيها الجورنالجى العاشق
للصحافة وحبرها أن هذا الشعب العربى العظيم الساكن فى القصور أو
الخيام أو القبور سيخرج الشمس الذهبية من جيب معطفه..

وهو أيضاً الذى سيفجر الماء فى صحارى العطش، وهو الذى سيضرم
النار فى الكتب الصفراء، ويحكم بالاعدام شنقاً على عصور الانحطاط،
ليولد فجر العرب الموعود، ويعود مجد العرب من جديد.. أراه أمام عيني
هاهو قادم من بعيد.. قادم لا ريب فيه!

" أربعة لا تثبت على حال: الصحافة والجو والحب والمرأة! "

فى الاجتماع الصباحى الأسبوعى بدا عبد العليم طابع رئيس تحرير ورئيس مجلس إدارة مؤسسة الأيام الصحفية مرهقاً منهكاً.. شعره القليل المهوش يلمع قليلاً من أثر الشامبو، وكريم الشعر اللاصق الذى يشبه الصمغ العربى.. عيون الرجل متورمة جاحظة من سهرة حمراء قضائها الليلة الفائتة.. ليلة الجمعة شرب وسكر وعريد مع فتاتين روسيتين كل واحدة منهما فارعة الطول هيفاء تملك جسداً ناصعاً كالشمع.. وظل يعبث معهما حتى مطلع الفجر فى فندق شهير مملوك لصديقه القديم همام مصطفى رجل الأعمال المعروف، وصاحب أشهر قضية فى تاريخ المحروسة، وصاحب السطوة والنفوذ فى الحزب الحاكم، النائب الذى لا يشق له غبار فى البرلمان!

إلتف حوله المحررون ورؤساء الأقسام ومديرو التحرير، ونواب رئيس التحرير وبالطبع تصدرت المشهد ميرفت العطيفى رئيس تحرير مجلة " نجوم الفنون ".. بدأ الرجل يتقمص شخصية أستاذ الإعلام المخضرم، وعميد الصحافة المصرية المحنك وقال:

اليوم لن أناقش معكم مستوى الأخبار والتقارير والتحقيقات، بل سأحكى لكم عن واقعة فى غاية الأهمية والخطورة.. هناك حادث مهم جداً فى تاريخ الصحافة يعرفه الجيل الأول من فرسان القلم فى بلاط صاحبة الجلالة.. هذا الحادث العجيب وقع فى ٢٥ يونيو عام ١٩٠٦ بمدينة نيويورك قلعة المال والأعمال الأمريكية حيث كانت تعرض هناك مسرحية سنوية اسمها " مدموازيل شمبانيا " ويقبل عليها الجمهور كل ليلة لمشاهدة العرض على خشبة مسرح " ماديسون " وأرسلت كبرى الصحف الأمريكية محررها المسرحى ليشاهد تلك المسرحية المثيرة للجدل لكى يكتب عنها تقارير

فنية ، ويفسر سر إعجاب الناس بها وإقبالهم عليها ، وهذا المحرر اسمه "شال والتون".. وفى هذا اليوم كان المحرر غائباً عن مقر جريدته لأنه يقضى شهر العسل مع عروسه فى جزيرة بالى الأندونيسية.

اضطر رئيس التحرير إلى أن يستدعى محرراً آخر يدعى "ألبرت" وقال له آمراً :

عليك أن تذهب إلى المسرح وتتابع العرض ، وتكتب وصفاً تفصيلياً للمسرحية وأجواء عرضها.. وبالفعل ذهب المحرر بحماس إلى المسرح ، وجلس على كرسي فى الجهة اليسرى القريبة من خشبة المسرح يرقب الممثلين أبطال العرض ، ويتابع المشاهد بإمعان شديد ، لكن المسرحية خيبت أمله ، وخذلت ظنه فقد وجدها تافهة لا شئ فيها يسر العين أو يبهج القلب أو ينعش الوجدان.. مسرحية بلا نجوم كبار ، ولا موضوع يستحق المشاهدة والإثارة والكتابة ، ووجد نفسه كمحرر فى مهمة فاشلة.. ولا يستطيع أن يصف الفشل أو يكتب عنه لجريدته وقرائها.. فماذا يفعل إذن؟ هل يعود خالى الوفاض إلى رئيس التحرير؟ أم يكتب كلاماً فارغاً لذر الرماد فى العيون؟!

فكر المحرر طويلاً حتى مل من التفكير ، وفجأة تنبه إلى وجود شخص معروف كان يقف على مقربة من الكواليس ، وهو "استامبورج هوايت" أهم وأشهر مهندس معمارى فى أمريكا ، هذا المهندس المرموق كان يسير فى شوارع مدينته نيويورك كما لو كان مالكها وحده ، وكان محققاً فى إحساسه لأنه هو الذى صمم أجمل مبانيها! وقد كان استامبورج معروفاً عنه غرامه بالنساء وأنه "دون جوان" العصر والأوان ومفتون بالجميلات ، برغم أنه يعد من أنبغ عباقرة العمارة فى زمانه إلا أنه كان يردد دائماً : إن الجمال هو الذى يغذى العبقرية!

وكان يقول أيضاً : إن جمال البنات اللاتى يهواهن هو الذى يلهمه عبقرية الإبداع ، وتصميم الملامح المعمارية ، ويدل على ذلك بأن صدر فتاة جميلة

كان يعرفها ألهمه مدخل عمارة.. وساق فتاة أخرى ألهمه بناء ناطحة سحاب.. وعشق فتاة أخرى فائقة الحسن كان نموذجاً للسلم فى دار بلدية نيويورك!

وعندما وجد المحرر الصحفى أن المسرحية من وجهة نظره فاشلة نقل اهتمامه من المسرح إلى مراقبة هذا المهندس ، وما يدور على ملامح وجهه من تعابير وانفعالات ، وقرر أن يصنع قصته الصحفية من هذا المهندس المعمارى النابغ عاشق النساء متعدد العلاقات ، وليس من المسرحية التى يتابعها ولم تعجبه ، وكان يمكن أن يحصل على نصر صحفى ممتاز ، ولكن حدث ما لا يتوقعه أحد ، فقد لاحظ أن هناك شاباً يقف أمام المهندس ثم يذهب ، ويعود عدة مرات دون أن يلتفت المهندس إليه أو يلحظ وجوده ، بل كان الشاب ينظر إليه بحنق وغضب!

وبينما كانت الرقصات يغنين أغنية "أتحداك للمبارزة" ثم يصطفضن ويهجمن ، ويضربن بالسيوف ، وجد هذا الشاب يخرج مسدسه ، ويطلق ٣ رصاصات صوب المهندس ، وظن الجمهور أن هذا جزء من المسرحية ، بينما المحرر الصحفى هو الوحيد الذى عرف أن هذه هى الجريمة الكاملة التى وقعت على المسرح!

واستمرت الموسيقى تصدح ، وسقط المهندس على الأرض ، وإذا بفتاة تهجم على القاتل وتصرخ فيه : لماذا فعلت ذلك؟! لماذا؟! والناس يصفقون بينما المحرر الصحفى يهرول كالمجنون نحو الهاتف للإبلاغ بسرعة عن جريمة حقيقية وقعت أمام عينيه ، ولكى يرسل الخبر إلى جريدته يحكى فيه قصة مصرع أعظم وأشهر مهندس فى الولايات المتحدة الأمريكية أمام عينيه!

ذهب إلى الهاتف فوجد شخصاً يهمس فى سماعة الهاتف بكلمات غرامية ساخنة ، ضبطه فى حالة تلبس بالحب ، وتأجج المشاعر.. طلب المحرر من هذا العاشق الولهان أن يتنحى جانباً ، ويترك له الهاتف لأن الأمر جد خطير

ولا يحتمل التأجيل.. لكنه لم يترك له الهاتف فاضطر المحرر الصحفي لأن يخطف منه السماعة عنوة ثم أغلق على نفسه غرفة التليفون الزجاجية، وطلب جريدته ليمليها خبره العاجل، وبعد قليل عاد الرجل ومعه عدد من زملائه، وهاجموا "ألبرت ستون" بعنف وغطرسة، فكان يمسك الهاتف بيد، ويملى الخبر لجريدته، ويدافع عن نفسه بيده الأخرى، والجريدة تأخذ منه التفاصيل أثناء المعركة!

ثم طلب "ألبرت ستون" من جريدته أن ترسل إليه بمحررين آخرين.. جزء منهم أنهى المشاجرة الحامية، وجزء دخل المسرح وأكمل كتابة القصة الخبرية، ووصف التفاصيل، وظهرت الصور بالجريدة فى اليوم التالى، والمحرر يملأ الخبر بيد، ويصد للكلمات باليد الأخرى، والموضوع يروى بالكلمة والصورة تلك القصة الرائعة المدهشة التى لم تكن متوقعة أبداً! هذه الحدودية الدراماتيكية دخلت تاريخ الصحافة العالمية من أوسع الأبواب باعتبارها حادثة فى غاية الأهمية عاش مشاهدها المحرر الصحفي "ألبرت ستون" الذى وجد أن الموضوع الذى تم تكليفه بإنجازه، وتغطيته صحفياً فى المسرح غير صالح للنشر، فنقل عدسة عينيه، وأفكاره إلى مكان آخر يتابع فيه انفعالات أخرى، وشاء حظه أن وقعت جريمة قتل فى ذلك المكان، وظنها الجمهور جزءاً من العرض التمثيلى لأبطال المسرحية! وقد وصف الصحفي للقارئ هذا الحادث الذى يشبه المسلسلات البوليسية المكونة من عدة حلقات.. الحلقة الأولى، والحلقة الثانية، والحلقة الثالثة من كابينة الهاتف العمومى!

وقد نجح هذا المحرر الصحفي أن يطور مهمته، ولا يتقيد بها.. فالصحفى ليس صحفياً بالحادثة، ولا بالقطعة ولا بالحدث، بل هو صحفى على مدى ٢٤ ساعة فى اليوم.

سادت لحظة صمت احتسى خلالها الكاتب الصحفي الكبير عبد العليم طابع رشفة من فنجان قهوته السادة ثم أشعل سيجارته الفخمة،

والتفت بإيماءة ناحية ميرفت العطيفى قائلاً بصوت رخيم هادئ:
أنا لا أطلب منكم أن تضربوا أحداً، ولا تكونوا عرضة للضرب والأذى،
بل عليكم أن تشاركوا القارئ معكم دائماً حتى يتعايش مع الأحداث
التي تكتبون عنها وخاصة عندما تكون بحجم هذه القصة الخبرية المثيرة
المدهشة!

" لا تخشى العقبات الكبيرة لأن خلفها تقع الفرص العظيمة! "

لم يشكو عبد العليم طابع فى يوم من الأيام من أى ألم ، برغم أنه شيخ هرم بلغ السادسة والسبعين من عمره ، وفى أحد الأيام زاره طبيب على صلة قرابة بزوجته فلم يكن من الزوجة إلا أن طلبت من الطبيب أن يفحصه كنوع من الاطمئنان عليه ليس إلا.. وبعد أن استسلم له عبد العليم طابع قال لها الطبيب: أقسم بالله العظيم أننى لو لم أكن أعرف جيداً صاحب الشخصية التى أفحصها ، وأعرف عمره وكل تفاصيل حياته ، ووضعتنى معه فى غرفة واحدة مظلمة لأكدت بكل البراهين الممكنة ، والقاطعة بأن الجسد المستلقى أمامى فى العتمة ، ما هو إلا جسد شاب لم يبلغ الأربعين بعد!

عبد العليم طابع كاتب خطب الرئيس ومستشاره الصحفى ورئيس مجلس ادارة ورئيس تحرير أكبر مؤسسة صحفية قومية فى البلد رفض فى يوم من الأيام أن يكون وزيراً للإعلام مفضلاً موقعه الإستراتيجى فى توجيه دفة السياسة ، والتحكم فى مصير البلد من خلال خندقه الحصين فى شارع الصحافة العامر بالأحداث والمفاجآت والانقلابات المروعة!

يرى عبد العليم طابع أن يوماً واحداً فقط من السعادة أفضل من حياة مأساوية طويلة عريضة! كان لجبروته يطوى درجات أربعة طوابق دفعة واحدة دون لهاث أو شكوى ، وفى المرة الوحيدة التى شعر فيها بنقر ألم فى ضرسه وقف متعجباً ينظر إلى المرأة قائلاً لنفسه ولمن حوله: هذا الملعون الذى فى فمى أشعر بالبغض العظيم تجاهه. وبرغم كل السنوات والخبرات التى يحملها فوق كاهله ، كان عريئاً عتياً فى الخفاء ، يفضل البنات الحسنات تحت العشرين ، ولا مانع من هن فوق العشرين.. هو أخضر

القلب برغم المظهر الوقور والإطلالة المهيبة، والشيبة المجيدة، والصوت الأجش والنبرة الهادئة والقول الحكمة، والخطوة الوثيدة، والتعليق الموجز المتقضب، والحياد المفتعل والشفافية المزعومة، والتحية بإمالة الرأس، وليس بحضن اليد.

لقد كتبت فنانة شهيرة فصلاً كاملاً في مذكراتها عن هذا الجورنالجي العتيق قالت فيه: "إن من تجعل هذا الرجل سعيداً ولو للحظات ذنبها مغفور، وأن اللقاء معه يمثل مجداً قومياً!"

كانت زوجته تعاني كثيراً من نظراته المصوبة إلى كل امرأة عابرة حتى ولو كانت خادمة تمسح البلاط.. فهي تدرك أنهن حوله مثل الفراشات يجذبهن الضوء بلا مقاومة، وذات مرة وصفت نساء زوجها في العمل، والنادى وكل مكان يذهب إليه بأنهن مثل الدجاجات ذات الريش الملون، عليه التخلص منهن في أسرع وقت ممكن.. فلا فرق بين الجميلة والقبيحة كلهن سواء عندما تتطفئ الأنوار!

كان الرجل صاحب قلم وموهبة لا ينكرها إلا غيور أو حاقد، لكنه كتب مقالاً نارياً ذات مرة لإحدى الصحف العربية الكبرى الصادرة في لندن وخانته عبقريته في هذا المقال الذي كتبه تحت عنوان... "سيادة الرئيس... مصر ليست للورثة!"

وهاجم في هذا المقال الفكرة التي يرددها أقطاب المعارضة بأن الرئيس سوف يورث البلد لابنه على غرار ما حدث في معظم البلدان العربية، وأن الأب الرئيس الذي ظل قابلاً على صدر شعبه أكثر من ربع قرن يحكمه بالحديد والنار لن يتورع إذا أحس باقتراب أجله عن أن يسلم مقاليد الأمور، ومفتاح البلد إلى ولده!

أحد الوشاة تطوع بإرسال هذه النسخة من الجريدة إلى يد رئيس الديوان الذي كان يكره عبد العليم طابع بغياء، ويتصيد له الأخطاء لأنه يدرك أنه أقرب منه إلى قلب وعقل وأذن الرئيس.. ونجح رئيس الديوان في أن يوغر

صدر الرئيس ضد عبد العليم طايح.. والطريف أنه كان قبل هذه الواقعة قد قدم للرئيس عدداً من جريدة الأيام والذي تضمن فى باب " حدث فى مثل هذا اليوم " أن السيدة الأولى الفاضلة ولدت فى يوم ٢٥ مارس قبل ٦٥ عاماً وهو ما أثار غضبها واستهجان مؤسسة الرئاسة التى استتكرت بشدة التعرض لهذه المسألة بالنشر خاصة وأن الأمر شخصى محض ، ولا يعد من المعلومات التى تهم القارئ فى شىء ، وبالفعل تم استدعاء عبد العليم طايح بصفته المسئول الأول عن كل ما نشر فى جريدة " الأيام " إلى الرئاسة على وجه السرعة ، ووقف أمام الرئيس مثل التلميذ الخائب فى الامتحان السهل ، بينما وقف رئيس الديوان منتشياً بشماتة وتشفى ، والرئيس يوبخ عبد العليم طايح رئيس تحرير ورئيس مجلس إدارة مؤسسة الأيام.. وبعدها بأيام صدرت أوامر عليا بالقبض عليه بتهمة التحريض ضد النظام ، والإساءة إلى الرئيس وأسرته.. ووجد الرجل نفسه فى دوامة لم تكن تخطر على باله فى يوم من الأيام!

كان يقضى أيامه داخل زنزانته مثل إمبراطور فى مخدعه ، يتحرك فى قصوره ويتنزه فى بساطينه ومزارعه ، وذات يوم فاجأ مأمور السجن وطلب صندوق مياه ماركة " إيفيان " الفرنسية على نفقته الخاصة حتى ولو جاءوا به من عاصمة النور!

وبرغم أنه يعتبر سجيناً سياسياً إلا أنه كانت هناك أوامر عليا بمعاملته بصورة طيبة وتلبية كل طلباته ، حيث كان مسموحاً له بممارسة رياضته المفضلة " بلاى ستيشن " وقراءة الصحف ، ومشاهدة التلفزيون بقنواته المختلفة ، وتزويده بكل الكتب التى يريدها .

" الصحفي .. خبر يبحث عن مبتدأ! "

فوجئ ناجى شرف الدين برسالة قصيرة على بريده الإلكتروني من إيناس مندور تطلب فيها رأيه فى قرارها بالحصول على الجنسية السويسرية ، وتلتمس رده على وجه السرعة.. أحس بالنشوة والأهمية ، وأعجبه أن ترسل من فوق جبال وروابى سويسرا تسأله المشورة.. أعد لنفسه كوباً من الشاي الأخضر ، وتبسم زهوًا بحاله ثم جلس على الكمبيوتر يكتب ردًا عاجلاً..

قال لها :

عزيزتى إيناس مندور.. القريبة من القلب.. البعيدة عن العين..

أعرف تمامًا أنك الآن تعيشين فى أوروبا ، وتحديثن الفرنسية.. سوف أخطبك بلغة العقل.. العقل يا صديقتى زينة الرجال ، كما هو زينة النساء أيضًا.. وهأنذا أكتب إليك رسالتى تلك بالعربية.. لغة أبائك وأجدادك وبنى جلدتك.. وأنا يا عزيزتى لست ضد إجادتك لغات أخرى عالمية ، والنطق بها كأهلها تمامًا.. اللغة العربية يا إيناس ليست زياً نلبسه ونخلعه حين نريد ، ولا سيارة نبيعها حين نشاء أو عندما تنتهالك أو يصيبها العطب.. ولا ورقة طائشة نرميها فى سلة المهملات بعد حين.. فاللغة وثيقة العمر.. الوثيقة الوحيدة التى تثبت هويتنا وانتماءنا لأرض ما وحضارة ما ، وبدونها نكون كائنات هلامية تسكن فى العدم وتأتى من فراغ!

أعرف يا عزيزتى تأثرك بالأوروبيين والثقافة الغربية ، ومصادر الفكر هناك مثلما تتأثر الأسماك الصغيرة بكل تيارات الحضارة الإفريقية ، وصراعاتها وجنونها ومخترعاتها وعجائبها!

يا عزيزتى أنا لا أستطيع أن أمنعك من أن تعيشى وقتك حيث أنت ، لا أستطيع أن أجبرك على أن يكون جسدك فى أوروبا ، وعقلك وروحك فى

الشرق.. هنا فى وطنك.. لكل وطن يا صديقتى فلسفته وأفكاره وثقافته،
لكن ما أريده منك يا إيناس دون إكراه أن تحتفظى بأصالتك الشرقية
وعروبتك ومصريتك.. كوني أنت.. كوني كما خلقك الله، وكما أراذك
سبحانه.. فنحن لنا جذور وحضارة وتاريخ حتى لو كنا دون ذلك الآن!

أنا لا أريد ولا أستطيع أن أحبسك فى قارورة زجاجية مثل أسماك
الأكواريوم "وأمنعك من استنشاق هواء الحضارة الأوروبية، والتتعم
بجنسيتها فهذه فرصتك، ولكن نصيحتى لك كصديق.. ألا تذوبى فى
محيطك الجديد، وتفقدى شخصيتك وهويتك.. عومى فى أى بحر من
بحار الشمال تشائين، وإياك أن تذوبى فى مياهه.. حافظى دائماً على
جواز سفرك المصرى، فلن تستطيعى أن تكونى إنجليزية أو سويسرية أو
فرنسية.. إن كل المواطنين العرب الذين تنسوا بجنسيات أخرى، ظلوا
على هامش الحياة فى بلدانهم الجديدة، فلا عرب أميركا استطاعوا أن
يصبحوا أميركان، ولا عرب بريطانيا استطاعوا أن يصبحوا نواباً فى
مجلس العموم.. أو أعضاء مجلس اللوردات.

ابق مصرية يا إيناس كما كان أبوك مصرياً.. وكما كان جدك وجد
جدك وأعمامك وأخوالك.. ابق مربوطة بهذه الأرض المباركة مغروسة فى
طينها كشجرة طيبة، موصولة بحبل سرى مثلما يتصل الجنين بأمه، هذه
الأرض فيها كل الخير والبركة فلن تجدى أرضاً أجزل منها عطاء، ولا
أكثر منها حباً وحناناً مهما كانت قسوتها.. والله يراعى.

مع خالص الود... ناجى شرف الدين.

"اعتن بسمعتك جيداً، وسوف تثبت لك الأيام أنها أعلى
ما تملك!"

منذ تعرضت المحررة الصحفية نهير السباعي لمحاولة الشروع فى اغتصابها من المطرب الشهير، وتركت العمل فى قسم الفن، واتجهت للعمل فى التحقيقات وتخصصت فى الموضوعات والقضايا الشائكة التى تخص البنات والنساء على وجه الخصوص.. فاجأت الجميع بإصدارها لكتاب مثير للجدل عنوانه "كلاب السكك"، استعرضت فيه التجارب الشخصية، والحكايات التى عاشتها أو سمعتها من صديقاتها بشأن التحرش بهن، وكافأها رئيس التحرير بنشر الكتاب على حلقات مسلسلة فى الجريدة.. كل أسبوع حلقة.. ليس هذا فحسب بل كلفها أيضاً مع مجموعة من زملائها وزميلاتها بإجراء دراسة عن أثر ممارسة الحب على حياة المصريين، وترتيب أولوياته بالنسبة لهم، وتضمن الاستبيان ٦٠ سؤالاً يتم توجيهها للمشاركين بحيث تغطى العديد من جوانب العلاقة الحميمة بين الرجل والمرأة بجانب أولويات أخرى مثل الصحة العامة، والعلاقات الخاصة والمال والحياة الأسرية..

وجاءت نتائج البحث مذهلة، وتضمنت خمس نقاط أساسية:

أولاً: يحتل الجنس مرتبة متقدمة ضمن أولويات الحياة للسيدات والرجال فى مصر بالرغم من عدم رضا معظمهم عن حياته العاطفية، فقد طلب من المشاركين ترتيب ١٨ من أولويات الحياة المختلفة مثل الصحة العامة والقدرة المالية والحياة الأسرية وإنجاب الأولاد والعلاقات الاجتماعية وغيرها من الأولويات فجاءت الصحة العامة فى المرتبة الأولى بالنسبة للرجال يليها العمل والمستقبل المهني، بينما جاء الجنس فى المرتبة الثالثة متقدماً على كثير من أولويات الحياة مثل القدرة المالية والحياة الأسرية

أما بالنسبة للسيدات.. فجاءت الحياة الأسرية على قمة الأولويات بينما احتل الجنس المرتبة الخامسة وبالرغم من أن ٩٨٪ من الرجال و ٩٦٪ من النساء أقرّوا أن الجنس مهم في حياتهم فإن ٨١٪ من الرجال والسيدات أقرّوا بعدم الرضاء عن حياتهم الجنسية الحالية، وتوضح أهمية الجنس في منطقة الشرق الأوسط عند مقارنة نتائج هذا المسح بنتائج بحث مثيل أجرى في جنوب شرق آسيا أقر فيه ٥٥٪ من الرجال و ٣٦٪ من النساء بأهمية الجنس ضمن أولويات الحياة.

ثانياً: عدم الرضاء عن الحياة العاطفية لا يقتصر على الرجال والسيدات المتقدمين في السن ولكن يشاركهم فيه الشباب أيضاً، فقد تمت مقارنة المشاركين في البحث بعد تقسيمهم لثلاث مجموعات سنية شملت الأولى الرجال أو السيدات قبل سن الثلاثين والثانية بين سن الثلاثين والخمسين، والثالثة فوق سن الخمسين.. وتبين أن السيدات تحت سن الثلاثين هن الأقل رضاءً عن الحياة الجنسية، وعلى الجانب الآخر كان الرجال بين سن الثلاثين والخمسين هم الأقل رضاءً عن حياتهم الجنسية والعاطفية.

ثالثاً: أظهرت نتائج الاستبيان أن الرضاء عن الحياة العاطفية يؤثر بشكل كبير على الرضاء عن أولويات الحياة الأخرى فالسيدات والرجال الذين أقرّوا بالرضاء التام عن حياتهم أظهروا قدراً كبيراً من الرضاء عن أولويات الحياة الأخرى ونظرة أكثر ايجابية لأمر الحياة العامة، وأظهروا قدراً أكبر من الثقة بالنفس.. وقد تبين أن الرضاء عن الحياة الجنسية يؤثر على معدل النشاط الجنسي حيث بلغ معدل اللقاء الحميم بالنسبة للسيدات والرجال الراضين عن حياتهم الجنسية نحو ١٢ لقاء شهرياً مقارنة بنحو ٧ لقاءات للسيدات والرجال الذين أظهروا أقل من الرضاء، وهذه الأرقام تبين مرة أخرى اهتمام شعوب منطقة الشرق الأوسط بالجنس لأنه يمثل ضعف معدل اللقاء الحميم لدول جنوب شرق آسيا، وكذلك تفوق المعدل العالمي والبالغ ٦,٤ لقاء حميماً شهرياً.

رابعاً: فى محاولة لمعرفة العوامل المؤثرة على الرضاء عن الحياة الجنسية من محددات اللقاء الحميم المختلفة مثل عدد مرات الجماع وصلابة الانتصاب والقدرة على تأخير القذف واستخدام أوضاع جنسية مختلفة، والمحافظة على الانتصاب والمداعة وحدوث انتصاب بعد القذف تبين أن المحافظة على الانتصاب أثناء اللقاء الحميم تمثل الأهمية الأولى بالنسبة للرجال والسيدات، يتلوها فى الأهمية قوة الانتصاب حيث أقر المشاركون فى الاستبيان أن الانتصاب تام الصلابة من أهم عوامل الرضاء ليس فقط عن الحياة العاطفية.. ولكن أيضاً الرضاء عن الصحة العامة، والثقة بالنفس وكذلك معدل اللقاءات الشهرية.

خامساً: ٨٠٪ من السيدات و٧٦٪ من الرجال أقرّوا أن حدوث انتصاب غير تام الصلابة يمثل لهم مشكلة كبيرة بالرغم من قدرتهم على المعاشرة الزوجية حيث أقر المشاركون فى البحث أنهم يشعرون بالذنب تجاه شريك الحياة، ويحسون بالحرج الشديد الذى يدفعهم للابتعاد عن اللقاء الحميم. ومثلما أخذت فصول كتابها " كلاب السكك " طريقها للنشر فى حلقات مسلسلة.. أخذ تحقيقها الجريء طريقه للنشر، وقد نصحتها رئيس التحرير الذى كان عضواً فى لجنة تحكيم مسابقة الموضوعات الصحفية بنقابة الصحفيين أن تتقدم بهذه السلسلة من الحلقات لمسابقة النقابة، وبالفعل تقدمت بأوراقها، وساعدها الرجل بحماس وخاض معركة فى كواليس اللجنة التى تحدد الموضوعات الصحفية الفائزة حتى ضمن لها الفوز بالجائزة الأولى مع عشرين صحفياً وصحفية من جرائد ومجلات مختلفة!

فى تلك الفترة بدأت الأوساط الصحفية تشهد رواجاً وانتعاشاً، وعرفت الأرضة عشرات الإصدارات الجديدة من المطبوعات اليومية والأسبوعية التى ولدت فجأة بعد مخاض عسير مع الحكومة والجهات الأمنية ومجلس الشورى الأب الشرعى والرسمى ومالك الصحف القومية.. عرفت مصر

الصحف الخاصة أو كما يحلو لأصحابها من رجال المال والأعمال والأثرياء الجدد وجزرالات الأحزاب السياسية أن يطلقوا عليها لقب " الصحافة المستقلة " وأحدث هذه الصحف وأكثرها إغراء للصحفيين فى المؤسسات القومية بالمال صحيفة " الغروب " لصاحبها فريد المعلم صاحب أكبر دار نشر فى البلد!

منذ عرف شارع الصحافة عشرات المطبوعات الوليدة، عرفت طيور صاحبة الجلالة الهجرة إلى جريدة " الغروب " .. لجأوا إليها من مختلف الصحف القومية الحكومية، وبصفة خاصة أبناء مؤسسة " الأيام " الصحفية، حيث استقطبت معظمهم ووقعت معهم عقود عمل برواتب مجزية لا يحلمون بها، وتتجاوز عشرة أضعاف ما يتقاضونه فى مؤسستهم الحكومية، ومن هنا دبّت المشاكل والخلافات بين ميرفت العطيفى ومجموعة من محررى مجلتها " نجوم الفنون " التابعة لمؤسسة الأيام بعد أن رفضت منحهم أجازة بدون مرتب للتفرغ للعمل فى جريدة " الغروب " بدعوى أن عدد المحررين بالمجلة محدود وحاجة العمل لا تسمح، وأنها تسعى لتطوير المجلة والعمل على زيادة نسبة توزيعها بجانب إنشاء موقع إلكترونى ييثر مواد المجلة وينشر أخبارها إلكترونياً لحظة بلحظة وكأنها جريدة يومية لا مجلة أسبوعية!

" عيوب الناس نحضرها على النحاس .. أما فضائلهم فنكتبها
على الماء ! "

فى صباح أحد الأيام الشتوية الدافئة المشمسة تصدر الصحف القومية قرار العفو الرئاسى عن عبد العليم طايح ، وخرج الرجل من السجن ليدخل سجنًا آخر ، فقد وضعوه تحت الإقامة الجبرية فى الفيلا الضخمة التى شيدها لنفسه أيام المجد والعز من مال مؤسسة " الأيام " للصحافة والنشر ، والتى تربع عرشها ، وجثم فوق صدرها أكثر من عشرين عاماً .. رضخ للإقامة الجبرية فى قصره المنيق المحاط بأسواره العالية لمدة عام تقريباً .. ترهبين الرجل خلال هذه الفترة لتدوين مذكراته تحت عنوان : " سمعت ورأيت .. مذكرات الجورنالجى " وبدأ يحكى على صفحاتها تفاصيل أجندته اليومية منذ استيقاظه من النوم ، ثم يصلى ركعتين ثم يحتسى كوب الشاى ، ويطلع الصحف ، وينتابه إحساس سريالى غريب بمجرد أن يلمح اسم الشخص الذى إحتل مكانه ووضع اسمه بدلاً منه على ترويسة جريدة الأيام ، هذا الشخص الذى طالما وقع عليه عقوبات ، ونقله إلى العمل فى المطبعة لعدة سنوات ، ثم نكل به مرة أخرى ونقله إلى الأرشيف ، وكان دائماً ما ينكل به ، فها هى الظروف والأقدار قد شاءت لأن يجلس مكانه فوق كرسيه الأثير فى المؤسسة ، ويتبوأ مقعده رئيساً لمجلس الإدارة والتحرير .. وهو الأمر الذى جعل عبد العليم طايح يفضل العزلة بين جدران قصره الشاهق ، ويكتفى بالتجول فى حديقته وبين ردهاته معللاً ذلك بأنه لا شئ فى هذا البلد يبعث على الأمان ، ويدعو للطمأنينة بعدما أصبح التشفى هو السلاح الذى يجيد استخدامه الحقراء والسفلة فى هذا البلد وفى أوساط صاحبة الجلالة !

استهل عبد العليم طايح مذكراته بوصف القصر الذى آل إليه مصيره حبسًا فيه يحيطه مراقبون بملابس مدنية من جهة أمنية عليا!

وشرع يحكى عن الفيلات المجاورة له ومن هم أصحابها؟! ومن أين حققوا ثرواتهم الطائلة فى غفلة من الزمن.. وبعضهم من الصحفيين الذين دخلوا لعبة المضاربة فى العقارات والإعلانات من الباب الخلفى للصحافة وصاروا مليونيرات بلا مقدمات!؟

فى لحظات كثيرة كان يتمنى أن يرن تليفونه ولو مرة واحدة ثم يخرس من جديد.. كان يتمنى أن يسمع صوتًا غير السفرجى والجناينى والسائق والخادمة السيرلانكية "إيرين".. كان يتوق لأن يسمع صوت أنثوى آخر غير صوت زوجته التى كان يصفها دائمًا فى سره "بالحيزبون.. مرضعة قلاوون" التى يراها صباحًا وهى تهم بالخروج لمزاولة أنشطتها الاجتماعية، وجمعياتها الخيرية، ولا يسمع منها سوى.. "صباح الخير.. سوف أتأخر.. لا تقلق"، وعندما تعود لا يسمع منها إلا "تصبح على خير"!

وقد أعد عبد العليم طايح أربعة تواريخ لأحداث فى غاية الأهمية من حياته ثم وضعها على شاهد من الرخام مثل تلك التى تنتصب على مقابر الأقباط.. هذه التواريخ تحمل يوم مولده ويوم تعيينه فى مؤسسة الأيام، ويوم أصبح رئيسًا لمجلس الإدارة، ورئيسًا للتحريير، ويوم خروجه من منصبه بصحبة رجال الأمن القومى إلى السجن الحربى وأخذ يكتب ويكتب، ويقضى ساعات يومه وليله فى التدوين، وتسجيل الذكريات والخواطر والأحداث والمواقف.. أخذ يسرد ما حدث يوم مولده.. ذلك اليوم الذى سمع عنه من والده أنه ولد فى عز البرد، ولم يكن لديه ملابس يرتديها، ووالده ليس لديه مال ليشتري له أى شئ، وكان من عادة الناس فى بلدتهم أن يتبادلوا ملابس الأطفال بينهم.. كان هذا اليوم عصيبًا للغاية وبعد ميلاده بيوم واحد ماتت أمه متأثرة بحمى النفاس! ويوم تعيينه فى مؤسسة "الأيام" الصحفية عقب تخرجه فى كلية التجارة، وقد توسط له ابن خالته لدى بلدياتهم الذى

يعمل فى صحيفة الأيام!

ويوم أصبح رئيساً لمجلس الإدارة، ورئيساً للتحريير، كان يوماً عظيماً مشهوداً عظيماً حيث تطوع أحد المحررين الأثرياء بذبح ثلاثة عجول قبل أن يدخل المؤسسة بعد قرار الترقية.. ويوم خروجه من المؤسسة بصورة مهينة بغضبة سمع بأذنيه من يلعنونه، ويسبونونه بأمه وأبيه، ويدعون عليه بخراب الديار وبئس المصير!

فى مذكراته التى تشبه اليوميات حكى عبد العليم طابع كيف كان يتعامل مع سائقه الخاص الذى عينته له المؤسسة طوال فترة وجوده فيها، ومدى خوفه من هذا السائق الذى يعرف كل أسرار، وأيضاً علاقته الخاصة جداً مع سكرتيرته التى كانت تعطيه كل شئ، وعلاقته السرية مع ميرفت العطيفى، وأيضاً الغيرة القاتلة بين المحررين وبعضهم البعض! كما استعرض عبد العليم طابع فى مذكراته ما يدور فى قصره من حكايات مثيرة، ومربية مع الخدم بعد انقطاع صلاته بكل أصدقائه وزملاء المهنة ورفاق الدرب، والعمر الطويل إثر خروجه من المؤسسة معترفاً بأن معظمهم يكرهونه، ويحقدون عليه.. وكان مسعود سائقه الخاص سابقاً هو الذى يجمع له الأخبار، والمعلومات ويلتقط له أدق الأسرار داخل المؤسسة بحكم عمله معه بعد خروجه من المؤسسة مقابل راتب شهرى كبير.

لم ييخل عبد العليم طابع فى مذكراته، بل كان كريماً فى كشف كل الأسرار وهتك المستور، وحتى الأسوار العالية فى حياته التى قيدته طويلاً، وكبلته سنوات تحدث عنها واصفاً إياها فى قصره المنيف بمدينة السادس من أكتوبر.. وكيف إقتنى كل أثاثه وسجاده الفخم من أوروبا، وقيمة السجادة الواحدة ٣٠٠ ألف جنيه على حساب المؤسسة التى أعطته بلا حساب طوال مدة خدمته رئيساً لثريرها ومجلس إدارتها.

وأفاض الرجل بكل صراحة وجرأة عن علاقته بخادمته السيرلانكية

التي كان يمنحها ٥٠ دولاراً في الليلة الواحدة علاوة على راتبها الشهري الذي كانت تتقاضاه مقابل خدمتها في القصر.

وبدأت تتسرب أخبار في الوسط الصحفي، وتشرها على استحياء بعض وسائل الاعلام يقرأها بنفسه أو تصله عن طريق مسعود سائقه الخاص بأن رؤساء مجلس إدارات ورؤساء الصحف القومية سوف يتم التحقيق معهم في مخالفات مالية حدثت طوال فترة وجودهم على رأس مؤسساتهم الصحفية.. تملك عبد العليم طابع حالة من القلق المزري، وكان ينتظر كل يوم أن يتم استدعاؤه للتحقيق والاستجواب أمام النائب العام.. القلق يزعجه والفرع يسيطر عليه ويرتجف عندما تكتب الصحف سواء الخاصة منها أو المعارضة في هذا الموضوع الحساس المثير للجدل.

استعاد الرجل من ذاكرته الوظيفية سيناريو فساد بهلقاته الطويلة، وتذكر جنرالات المقالات النارية والمدافع الصحفية.. كيف عاش طفولة قاسية بأئسة، ونهشه الضنك، والفقر المدقع حتى ألقت به الأمواج على رأس مؤسسة صحفية كبرى طوال ربع قرن أو يزيد، فحول أحد طوابقها إلى فندق خمس نجوم، وكان يدير أكثر من ٥ آلاف عامل وموظف ومحرر ومصور من تحت الماء المعطر في مقر إقامته بالجاكوزي الذي أقامه في مبنى المؤسسة، وعلى بعد خطوات معدودات من مكتبه الفخم الأنيق المريح!

وفي الوقت ذاته تذكر سوءات أقرانه رؤساء مجالس الإدارات والتحرير في المؤسسات القومية الأخرى، وقارن نفسه بهم ليرى أيهم الأكثر فساداً، والأكثر استحقاقاً للمحاكمة.. تذكر عنتر رجب رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مؤسسة "المصرية للصحافة والنشر".. وكيف كان يبيع صفحات جريدته يومياً، ويؤجرها مفروشة لبرامج الفضائيات الليلية التي يطلقون عليها "برامج التوك شو" لتحقيق رواجاً جماهيرياً قبل أن تصبح الصحيفة بين أيدي القراء في اليوم التالي.. تذكر حكايته الغربية التي

يعرفها القاصى والدانى عن غرفة النوم الملحقة بمكتبه وعشيقاته فى المؤسسة.. وكيف دوت فضيحته حينما حاول التحرش بصحفية حسناء! وعقد مقارنة أخرى بينه وبين جلال عمار رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مؤسسة "الأحداث" القومية للصحافة.. وكيف كان يقضى أكثر من نصف الليل ساهراً يبدع سطوراً عن القيم والمبادئ السامية، وبعد صلاة الفجر يسكر ويعربد ويضاجع راقصة مصر الأولى.

وكيف كان لا يكتب حرفاً ولا يخط سطرًا إلا إذا وصله المعلوم فى مظهر ممتوم من جهة حكومية، ومملوء بآلاف الجنيهاات ثمن الكلمات، ولا يجروُ مخلوق أن يهمس بأن الكاتب المرموق صاحب القلم الذهبى مرتشياً.

وتذكر أيضاً صديقه القديم وعدوه اللدود توفيق أبو المكارم رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير دار الكلام للصحافة والنشر وكيف جاء من قريته النائية بمحافظة المنوفية، ودخل المهنة عقب هبوطه إلى القاهرة، وهو لا يملك ثمن تذكرة العودة بالقطار إلى بلده، ومع مرور الأيام صار نقيباً لكل الجورنالجية فى بر مصر، واستغل موقعه المهم والخطير فى ابتزاز الأكابر والوزراء، وصار من أثرى الأثرياء! والغريب أن هذا النقيب نال هذا الشرف على مدار خمس دورات يتباهى بحب مصر جهاراً نهاراً، ويفخر فى مقالاته بأنه يركب طائرة الرئاسة، وفى سره يلعن مصر المحروسة، ويصف شعبها بالحقير الواطئ، ويعرب لأقرب المقربين بتأفف أن حظه العثر جعله يعيش فى هذا البلد القذر صاحب حضارة الحجارة التى لا تغنى ولا تسمن من جوع.

ولكى يخرج عبد العليم طابع من دوامات أزماته بدأ فى تنظيم حفلات يدعو فيها بعض المقربين والمسؤولين حتى لا يظن الآخرون ضعفه، وكسر عزلته خلف أسوار قصره العالية، وخرج لمقابلة الأصدقاء فى المقهى المعتاد جلوسه عليه أثناء فترة عمله فى مؤسسة الأيام.

خرج الرجل وبصحبته الخادمة السيرلانكية "إيرين" بسيارته المرسيدس السوداء التى يقودها العجوز مسعود لكى يقابل أصحابه الذين تهربوا منه كما يفر السليم من الأجرب، وغيروا موعد اللقاء المعتاد إلى موعد آخر وقابلهم على كل الأحوال وأخبرهم بعزمه تأسيس شركة رأسمالها سبعة ملايين جنيه يقوم من خلالها بإصدار صحيفة يومية تكون فرس الرهان فى الوسط الصحفى.

وبعد هذه المقابلة ارتسمت علامات القلق جلية واضحة على وجه عبد العليم طابع عندما وصله الخبر من الرجل العجوز سائقه الخاص بأن رؤساء مجالس إدارات الصحف القومية سوف يحالون للتحقيق معهم بشأن إهدار المال العام والمخالفات المالية التى ارتكبوها طوال سنوات رئاستهم للمؤسسات الصحفية، كان كل يوم يتوقع أن يستدعوه للتحقيق ويكون مصيره المثل أمام هيئة النيابة.

القلق يسرق النوم من عينه، والفرع يربعه.. يرتجف عندما تكتب صحف المعارضة فى هذا الموضوع الشائك، وتفتح هذا الملف الملعوم!

لم يهدأ الرجل واسترجع فى ذاكرته كل مراحل عبثه ومجونه داخل المؤسسة.. سلسلة خطاياها أشبه بشريط سينمائى يبعده عن لقطات ومشاهد، ويقربه من أخرى. ذهب عبد العليم طابع ليلتقى كبار المسئولين على مركب فى النيل.. مقابلة سوف تحدد مصيره إلى الأبد.. وفى الجلسة أعلن مولد صحيفته، واختار اسمها وبدأ فى توجيه من سيعملون فيها بالتركيز على حواديث عن الماضى، وعن كبار المسئولين فى هذا البلد ونجوم المجتمع والليل والسهر، وأبطال المغامرات من رجال الأعمال والفنانين ونواب البرلمان ثم ذهب إلى الفندق الذى كان محجوزاً له جناح فيه باسمه هو وإيرين.. وفى اليوم التالى ذهب إلى قصره حتى يأتى ببعض حاجاته الشخصية للسفر إلى قريته النائية التى مكث فيها خمسة أيام تذكر فيها طفولته وصباه.. وفى هذه الأيام جلس مع زوج عمته فهاجمه

الرجل بكلمات قاسية ، وعنفه بغلظة على غيابه الطويل وإصراره على قطع صلة الرحم ، فترك القرية وعاد إلى قصره فى مدينة السادس من أكتوبر آسفًا نادمًا على تلك الزيارة.

فى تلك الأثناء كان أحد كبار المسؤولين الأمنيين يحاول الاتصال به طوال الفترة الماضية ، إلا أنه كان يماطل فى الرد على هاتفه.. لكن هذه المرة رد على الهاتف فوجد هذا المسئول يسبه بأمه ، ويلعنه بأبيه وهنا تذكر عبد العليم طابع أن الذى سبه بأمه اثنان فقط هما زوجته وهذا المسئول الأمنى الوقح.

لم يعد أمام عبد العليم طابع سوى الرحيل عن مصر ، وعلى الفور بدأ يفكر فى السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ولم يخبر مخلوق بخطته السرية سواء عشيقته السرية وخادمته العلنية إيرين أو سائقه مسعود العجوز لأنه لم يعد يثق فى أحد ، ولا يعرف من معه ولا من ضده ، وسافر بالفعل لأداء العمرة ، وهناك لم يجد ما كان يلقاه دائماً من حفاوة وترحيب فى مكتب المؤسسة فى العاصمة السعودية الرياض.

إختار ذات الغرفة التى كان يسكنها دائماً فى ذات الفندق الذى يحبه ، وفى بهو الفندق مساء أحد الأيام رآته إحدى الصحفيات التى قضى على مستقبلها منذ عشر سنوات وأجبرها على تقديم استقالتها من مؤسسة الأيام بعد أن عرفها القراء ، وصارت صحفية لامعة يشار إليها بالبنان.. فقد كان يمقت أن يشتهر أى صحفى فى مؤسسته ، ويرى أن من يسخر قلمه لينال بريق الشهرة يجب القضاء عليه بشتى الوسائل حتى لو وصل الأمر إلى نشر خبر فى صحيفة الأيام الأوسع انتشاراً فى مصر يؤكد فيه موت هذا الصحفى إثر حادث أليم ومفاجئ ، مثلما فعل مع تلك الصحفية الموهوبة التى غادرت مصر ودموعها تسح فوق خدها لتتعاقد مع كبرى الصحف السعودية ، ولتجعل من الأرض المقدسة مقر إقامتها الدائم.

ولم يكتف بذلك ، بل يكتب فقرة فى مقاله الافتتاحى بالجريدة ينعى

بأسى هذا الصحفى أو تلك الصحفية، ويؤكد بكلمات حزينة مؤثرة أن
فى بلاط صاحبة الجلالة قليل من ملائكة الفردوس لا يعيشون طويلاً..
وكثير من شياطين أسفل سافلين يعيشون أطول ويعمرون أكثر!

لم يتوقف عبد العليم عن التفكير فى مصيره المجهول الغامض وهو
فى مكة المكرمة.. دار فى رأسه السؤال الحائر المحير.. هل يعود إلى
مصر أم يسافر إلى بلد آخر سواء كان عريباً أو أوروبياً ليقضى هناك
بقية عمره؟! تذكر هول ما كان يراه بعينه من أجهزة الأمن، وما يسمعه
عن بطش كبار المسئولين بالمعارضين الخارجين عن سياسة البلد، وطوع
النظام الحاكم، لدرجة أنه كان قد جعل من نفسه جزءاً من كيان النظام
وترساً فى هيكله الأساسى.. فكيف لكبار رجال الدولة وأجهزتها الأمنية
أن تبطش به فى نهاية المطاف، وبعد سنوات طويلة من خدمة النظام والأمن
والحزب وكل أجهزة الدولة؟! هل غربت شمس سطوته وجبروته، وانقلب
السحر على الساحر لمجرد الخروج عن النص لمرة واحدة فى العمر؟! ولماذا
يهوى النظام مثل معظم النظم العربية أن تشرب دماء خادميها، وتطحن
عظام عبيدها بعد أن صلوا لها وفى محرابها صلوات خاصة مخصصة نقية
على مدار سنوات عديدة؟!

وذات صباح جاءه اتصال هاتفى من المحامى الخاص به فى القاهرة
يخبره فيه بأن صحفياً من مؤسسة الأيام تقدم ضده ببلاغ إلى النائب
العام، وكان كل ما يشغله ويثير شجونه العقد المزور لقطعة الأرض التى
اشتراها للمؤسسة لبناء مبنى جديد بقيمة عشرين مليون جنيه، ودون فى
العقد أنه اشتراها بمبلغ خمسين مليون جنيه، ولو ظهر هذا العقد المزور
الذى ربح من ورائه ثلاثين مليون جنيه دخلوا فى حسابه فى البنك ستكون
فضيحة مدوية، وتلتف أساور الحديد حول معصمه لذلك سعى على الفور
لتغيير مسار رحلته من القاهرة إلى مكة، والعكس لتكون من مكة إلى
الدوحة.. وسافر بعد أداء العمرة إلى قطر، وهناك التقى مع عدد من الرفاق

والأصدقاء القدامى فى بلاط صاحبة الجلالة من الذين زاملوه ردحاً من الزمن.

إلا أن بقاءه طويلاً فى قطر يعد أمراً لا يمكن تخيله أو الصبر عليه ، فالجو حار بشكل لا يطاق ، رطب رطوبة لا تحتمل طوال العام.. سأل نفسه.. ما هذا الجحيم الذى لا تطفئه نار المكيفات ولا ماء الخليج!

جاءته فكرة الفرار إلى فرنسا فهو بلد ممتع صيفاً وشتاء خاصة وأن معظم رجال الأعمال المصريين الذين هربوا بأموال البنوك ، وثروات البلد فروا إليها واستقروا فيها ، وأعربوا عن سعادتهم بهذه الهجرة الاضطرارية ، وهو نفسه سافر فرنسا عشرات بل مئات المرات فى مهام صحفية عبر الطائرة الرئاسية ، وأعجبه جوها وأهلها وشوارعها وميادينها ومطاعمها ، وكل ملامحها وبصفة خاصة الحور العين من بنات باريس.

كان يطالع الصحف المصرية يومياً ، ويترقب ما تحمله من أخبار قد تكون غير سارة وصادمة بالنسبة له ، وكانت كل الصحف بلا استثناء تهاجمه سواء بشكل مباشر أو غير مباشر حتى المؤسسة التى رأس مجلس إدارتها وتحريرها.. كظم غيظه ودفن غضبه فى صدره ، وتوعد كل من ألقاه بحجر أو وجه إليه كلمة سباب جارحة أو انتقده بأسلوب غير لائق بأن يضعه فى حجمه الطبيعى عندما يعود إلى مصر ، ويسترد ثقته فى نفسه ، وكان قد توسط له مسئؤل قطرى عند الرجل الكبير فى مصر الذى يمسك بخيوط اللعبة كلها ، ووعد أنه لا نية على الإطلاق لتقديمه إلى المحاكمة لأنه رجلهم فى النهاية ، وعندما سمع الكاتب الصحفى الكبير عبد العليم طابع هذه الكلمات قال:

لقد نفذت كل ما طلبوه منى وما لم يطلبوه أيضاً.. طلبوا مهاجمة الإخوان المسلمين هاجمت بضراوة لا نظير لها ، وتلقيت تهديدات بالقتل.. حرضونى على الاشتباك مع الناصريين اشتبكت.. أعطونى الضوء الأخضر لمهاجمة أمريكا ففعلت.. طالبونى بأن ألصق تهمة مشينة بأتباع أمريكا فى مصر

فوصمتهم بالخيانة العظمى، وتلك جريمة لا تغتفر، وبعد كل ذلك تركونى للكلاب الضالة تنهش لحمى!

ثم طار عائداً إلى مصر حيث ارتمى فى أحضان خادمته وعشييقته إيرين، وظلت علاقته بزوجته باردة فاترة لأنها كما كان يصفها دائماً.. جبل الجليد.. وفى نفس الوقت تمنى لو تعود علاقته بالمسئول الأمنى الكبير كما كانت فيما مضى ليفرض سطوته وسيطرته على المحررين المتمردين الجدد فى سوق صاحبة الجلالة الذين أغرتهم أموال الصحف الخاصة والحزبية التى أطلق عليها لقب " دكاكين الصحافة " لصاحبها رجال الأعمال وخبراء نهب أموال البلد أمثال رجل الأعمال والمال وشهريار العصر والأوان همام مصطفى الذى سقط ضحية غرامه وانتقامه من المطربة سوزان عبيد!

فجأة رن جرس التليفون كان المسئول الأمنى الكبير على الطرف الآخر.. ظل الرجل صامتاً لفترة تذكر خلالها عبد العليم طابع أن هذا المسئول سبه بأمه ولعنه بأبيه ولكنه كان فى أشد الحاجة إليه فى هذا الوقت، وبدأ الحديث معه قائلاً:

— صباح الخير يا معالى الباشا..

دار بينهما الحديث على أفضل ما يرام وكأن شيئاً لم يكن.

اتصل عبد العليم طابع بمدير تحرير الجريدة الجديدة التى أسسها ليستعرضاً معاً الماكينات وأسماء المحررين المرشحين للعمل فيها، وطالب باستبعاد المحررين أبناء الفلاحين والفقراء، فقد فوجئ بأن أحد المحررين الذين عملوا معه سابقاً جاء ليعمل فى الجريدة، وتذكر عبد العليم طابع أنه كان قد عرض على هذا المحرر أن يتزوج من محررة أخطأ عبد العليم معها فى لحظة طيش عابثة، رفض المحرر لأن المؤسسة كلها كانت تهمس وتتناقل هذه الحكاية سرّاً، وعلى الفور فصله من المؤسسة ثم أعاده للعمل مرة أخرى بعد وساطة من شخصية كبيرة فى

رئاسة الجمهورية، وعرض عليه الزواج منها مرة أخرى مقابل منحه شقة وسيارة وراتباً كبيراً مغرياً يضمن له حياة أفضل، ولكن المحرر رفض بعناد شديد، فقد كانت جذوره الصعيدية تمنعه من الاقتران بفتاة مثل الفريسة التى التهمها أسد شرس شره، ولم يتبق منها سوى الفتات!

فى نهاية الأمر طلب عبد العليم طابع من شئون العاملين ملف خدمته وأوراقه الأصلية للإطلاع عليها بعد أن شك فى مؤهله الدراسى، كما كلف أحد أصدقائه من ضباط أمن الدولة بالتحرى عن هذا المحرر، وكانت الصدمة الكبرى أن المحرر انتحل صفة واسم أخيه التوأم الذى توفى فى حادث أليم، واستغل شهادة شقيقة الجامعية فى التعيين، وكانت فضيحة لا مثيل لها فى كواليس المؤسسة!

التقى عبد العليم طابع مع محاميه الشهير الذى يتعامل معه منذ عشرين عاماً، واستعان به فى مؤسسة " الأيام "، واستحدث له منصب مستشار قانونى بمبلغ خيالى وبعد التحيات والسلامات سأله: ماذا يفعل إذا تم القبض عليه فى أى وقت؟! نصحه المحامى نجم الفضائيات، والصحافة الذى يسعى لأن يرد له الجميل بأن يقول للقضاه ثلاث كلمات فقط! وبعد أن تركه المحامى وانصرف انتابته حالة من البكاء المتواصل المحموم الذى يشبه العويل.. تلك الحالة جعلت خادمتة ومعشوقته السرية إيرين تخلع عنه ملابسه بالكامل حتى يتحرر من كل شئ ويستريح، ثم طلبت منه أن ينام على بطنه كنوم الأعزب، وانهمكت فى تدليك جسده بقطعة قطن مبللة بالشمبانيا، وبعدها أخذ الحمام ونام باستغراق، وفى الصباح قرأ الصحف كعادته واحتسى القهوة.. وسألتة فى تلك الأثناء عن حالته النفسية، ولماذا يبدو هذه الأيام حزيناً مهموماً؟!

قال الرجل بمرارة:

—يا عزيزتى.. أنت لا تدركين ما أعانيه، ولا تقدرين خطورة الموقف.. الهروب خارج البلد لن يحل مشكلتى، والبقاء داخل مصر قد ينتهى بى فى

السجن! أنت ساذجة وبريئة ولا تعرفين هذه الحكومة، ولا العناصر التى تجلس فى مواقع السلطة.. إنهم جبابرة.. أنا أعرفهم أكثر من أى مخلوق فى هذا البلد التعس!

_ ماذا تقصد بالضبط؟!

أطلق تنهيدة حارة وقال:

_ الحكومة تلجأ لتفليق القضايا لكل مسئول مغضوب عليه أو خرج عن النص وخالف سيناريو أصحاب السلطة، وصناع القرار.

ثم استغرق لحظات فى التفكير، وساوره القلق والخوف، وطارده مشاهد السجن والتحقيقات والإهانات.. وسأل نفسه بحسرة.. ياترى كيف سيعاملونه هناك مرة أخرى؟!

فى هذه اللحظة التراجيدية دخل عليه مدير تحرير جريدته الجديدة التى اختار لها اسم " ٤٨ ساعة " وعرض عليه العدد التجريبي الأول، فاستعاد عبد العليم طابع ذكرياته وسلطاته الضائعة، وبدأ يضع السياسة التحريرية، ويحدد ملامحها، ويطرح الأفكار والموضوعات فى صورة أوامر صارمة، ويرسم سيناريو توزيع الجريدة، والكمية المطبوعة منها وحجمها وشكلها، والرعاة الذين سيتولون الإنفاق عليها مقابل الإعلان عن مؤسساتهم ومصانعهم وشركاتهم.. انتشى الرجل وعاد إليه الأمل من جديد، وردت فيه الروح واسترد الطموح فى مكالمات كبار المسؤولين له، وسيعود هاتفه الأخرس ليصرخ من جديد، ويدوى بالرنين.. وفى مصر تقاس أهمية المرء واعتباره من خلال هاتفه وعدد مرات رنينه!

كان يؤمن بأن المصالح تحرك العالم من حوله مثل الوقود الذى يحرك الشاحنات والبواخر والطائرات، ولا بد من التعامل معها بواقعية، سواء فوق الكرسى أو تحت الكرسى.. هو يؤمن بأن المرء عندما يكون فوق الكرسى يأمر فيطاع.. ويؤمن أيضا بأن المصالح تتصلح.. كان وهو فوق الكرسى يلقى بالتعليمات والتوجيهات والأوامر فيجد العشرات يهرولون

لتتفيذها ، وعندما يكون تحت الكرسي يبحث عن خندق آمن ، وملاذ حصين ليهرب بجلده من اللعنات الحقيرة والطعنات الشريرة.

أدرك فى قرارة نفسه بما لا يدع مجالاً للشك أن الخروج من المنصب يكسب الإنسان فضائل ومزايا عديدة منها فضيلة الإنصات إلى الآخرين.

كل هذه الأسرار والخفايا والحواديت كان قد أفضى بها إلى ناجى شرف الدين فى جلسات مطولة فى قصره بمدينة أكتوبر مع المزيد من الصور والمستندات وعندما فرغ من كتابة قصة حياته التى تتضمن مذكراته فى بلاط صاحبة الجلالة تم القبض عليه فى ليلة ممطرة ، وفى الطابق العاشر بمبنى الجهاز الأمنى العتيق بكوبرى القبة تم إستجوابه عن ثروته وأملاكه وأرصده فى بنوك مصر وأوروبا ، وفى نهاية الأمر أمسك ضابط كبير برتبة لواء بالمذكرات التى سهر ليال طويلة ، حتى أنجزها وفى لحظة عاصفة مزقتها الضابط بمنتهى الغضب والعصية ، وهو يلعن الصحافة والصحفيين الذين لم يحفظوا سرّاً لمخلوق فى هذا البلد.. وقال :
يا أولاد الكلاب حتى مصر نزعتم عنها ورقة التوت الأخيرة بأسنة أقلامكم الوقحة الحادة كشفرة السيف الفتاك؟!

وألقى ببقايا المذكرات فى سلة المهملات!

" كثرة إضاعة الفرص نوع من الانتحار المتدرج! "

فوق ربوة عالية ساحرة على جبال الألب الخلابة ، التقت إيناس مندور مع حمد الغامدى فى كازينو يقدم وجبات غذائية ، ومشروبات شرقية.. لبنانية ومصرية وخليجية.. تتاولا العشاء والموسيقى الكلاسيكية تصدح حولهما ، والأضواء الخافتة تسرى ساحرة ناعمة تضوى فى الأنحاء.. دار بينهما حديث هامس رقيق عذب عن الحياة والحب والعمل.. سألتته عن المستقبل ، وماذا سيفعل بعد الدكتوراه؟

بدأ يحكى عن تجربته السابقة فى العمل بمركز رعاية الفتيات بالسعودية قائلاً:

منذ سنوات ومشكلة الفتيات الهاربات محل نقاش وتداول من جهات عدة وبدلاً من تراجع الظاهرة ، وانحسارها نجد أنها تسجل أرقاماً وإحصائيات مخيفة تؤكد بما لا يقبل الشك أننا نعيش خطراً اجتماعياً مرعباً يجلب العار ويفكك الأوصال.. والمقلق فى هذه الظاهرة التى عرفت ولمست تداعياتها أن الأنثى الهاربة من بيت ذوبها فى معظم الحالات تبقى آخر شئ يمكن الاعتناء به فهروبها لا يشكل خوفاً وهدلاً لأسرتها التى تخشى فقط من الفضيحة ، وتخاف أن يلحقها القيل والقال على ألسن الأهل ، فلا مانع لديها من أن تذهب إلى الجحيم ، والبنات الهاربات لسن مجرمات بقدر ما هن ضحايا ، ولسن نباتاً شيطانياً خبيثاً بقدر ما هن مريضات نتيجة عنف جسدى ولفظى مورس عليهن عنوة دون أن تكون هناك جهات رسمية لديها الصلاحيات الكاملة فى رفع الظلم عنهن قبل وقوعه أو حتى بعد وقوعه ، والسبب عادات اجتماعية تفرض الصمت والانصياع على بنات حواء فى مجتمعاتنا العربية ، وإن طفع الكيل تضطر الأنثى إلى الفرار للهاوية ، لاذت إيناس مندور بالصمت والشroud والدهشة ثم قالت:

— هل هناك حالات معينة تتذكرها؟

— حالات عديدة عشت أسرار وتفاصيل وكواليس أزوماتها ومشاكلها، وسوف أتوقف عند قصة فتاة تدعى "عالية" هربت من بيتها وعمرها ٢٢ عاماً وجاءت لتعيش فى مركز رعاية الفتيات، وفى أول مقابلة قالت لى:

"هربت من المنزل عدة مرات بعد أن سئمت الحياة التى أعيشها مع والدى الذى كان يعاشرنى، وعندما أفكر فى منعه من ذلك، كان يضربنى ويعتدى على بالقوة فى غياب والدتى، وعندما علمت أمى بفعلة الشنعاء انفصلت عنه، وعادت إلى بلدها فهى من دولة أجنبية، أما أنا فبقيت مع والدى فى البيت حيث كان يفترسنى كل ليلة، ويرغمنى على ممارسة البغاء معه، ويهددنى لو منعت نفسى بالطرد من البيت الذى يأوينى شر طرده!"

وواصلت عالية حكايتها الغريبة قائلة بمرارة:

"بعدما سئمت من الوضع المخجل الذى أعيشه، وحياتى القذرة مع أبى قررت الهروب إلى أى مكان بعيداً عن هذا الوكر، والنجاة من بؤرة الشيطان، ولن أعود إليه أبداً، لذلك لجأت إلى مركز رعاية الفتيات من أجل حمايتى، والحصول على صك الأمان الذى فقدته داخل البيت.. ولا أعرف الصورة التى سيكون عليها حالى ومستقبلى فى قادم الأيام، ولا أدرى ماذا تخبئ لى الأقدار غداً أو بعد غد.. وهل سأبقى هنا لآخر العمر أم لا؟ ومن الذى يقبل أن يرتبط بفتاة ملطخة بالعار؟"

قالت إيناس مندور:

— "يا الله.. الحياة فيها مصائب كثيرة ودائماً الضحية أنشئ بريئة من بنات حواء"

عاود حمد الغامدى حديثه مسترسلاً:

— تبدو قصة "آمنة" مختلفة تماماً ونهايتها درامية مشوقة حيث قالت لى:

"أنا فتاة أبلغ من العمر ٢٨ عاماً لا أكثر ولا أقل، هربت من بيت والدى عدة مرات وفى كل مرة تتم اعداتي من خلال رجال الشرطة، أو هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعد الإمساك بى فى أحد الشوارع التى أكون مختبئة فيها، ولكن فى إحدى المرات قررت الهرب برفقة شاب كنت قد تعرفت عليه فى أحد المجمعات التجارية، وذهبت معه إلى منزله وجمع الحب بين قلبينا واستمرت قصة الحب مدة طويلة حتى أمسك بى رجال الهيئة بعد أن تم إبلاغهم من أسرتى بأننى هاربة، وهناك احتجزونى فى مكتب الهيئة لحين مجئ أهلى لإستلامى! لم أكن نادمة برغم أننى منحت هذا الشاب خلاصة أنوثتى وفورة شهوتى"

وتقول آمنة أيضاً:

لعل الظروف الصعبة التى عشتها فى بيت عائلتى، والقسوة التى كانوا يعاملوننى بها خاصة أخوتى، واعتدائهم على بالضرب فى جميع الأوقات، ولأسباب تافهة وليست منطقية هى التى أدت إلى هذا الحال، فأنا أعلم أن هروبى مع شخص آخر يعد سلوكاً غير أخلاقى بالمرة، ولا من العادات والتقاليد المألوفة فى مجتمعنا العربى الذى كان قلعة الشهامة فى سالف الدهر.

هزت إيناس مندور رأسها ثم قالت: فعلاً حكاية غريبة وعجيبة..

احتسى خمد الغامدى فنجاناً من القهوة ومصمص شفثيه وقال:

— القصة الأغرب تلك التى سأحكيها لك الآن.. وهى لفتاة تدعى ياسمين.. مطلقة وتبلغ من العمر ٣٠ عاماً ولديها طفلان، وجاءت إلى مركز الرعاية وقالت لى:

"لقد انفصلت عن زوجى بعد قصة حب سريعة مثل وجبات "التيك أواى" وعشرة ثلاث سنوات فى بيت الزوجية، لكن المشاكل العائلية المزعجة

والمزمنة أدت إلى الطلاق فى نهاية المطاف ، وعدت بعدها خائبة الرجاء
مكسورة الجناح إلى بيت أبى مع طفلى ، ووضعت فى ذهنى أن الحياة سوف
تصفو لى ، وأننى سأعيش فى أمان واطمئنان ، ولكن الواقع شئ والتمنى
شئ آخر.. بدأت المشاكل تطل بوجهها القمئ مجدداً ، وتحيط بى من كل
صوب وحذب ، وصار أخوتى يفرضون سلطتهم على ، ويمارسون معى جميع
صنوف العنف الجسدى والنفسى ، وكذلك والدى الذى لا يكل ولا يمل
من تهديدى بالطرد من البيت فى حال عدم الانصياع للأوامر التى تملى على
من أشقائى ، فقررت الهرب من البيت ، واللجوء إلى مركز رعاية الفتيات
لحمايتى من شر أخوتى!

"الأدباء يطهرون نفوسنا، ويعيدون إلنا ذلك القدر من
التوازن الذى يخفف عنا متاعب وأشجان الحياة!"

عاد الصخب من جديد إلى شارع الصحافة، وسالت الأخبار على الأخبار،
وتناثرت الحوارات واللقاءات والتحليلات الصحفية فى مختلف الصحف
القومية والحزبية، والخاصة التى يطلقون عليها "مستقلة".. لا صوت يعلو
من جديد فوق صوت قضية رجل الأعمال الملياردير صاحب الحصانة
البرلمانية النائب همام مصطفى المتهم بتحريض ضابط أمن دولة سابق
على قتل المطربة سوزان عبيد، وفجرت المفاجأة هذه المرة أسرار المطربة
الراحلة المغدورة عندما تنازلت عن حقها المدنى فى الدعوة المنظورة أمام
المحاكم المصرية، هذا الأمر أثار الكثير من الجدل حول وجود صفقة
ما لإنقاذ رقبة همام مصطفى من حبل المشنقة!

نشرت جريدة "الأيام" القومية الحكومية فى صدر صفحتها الأولى
نقلاً عن والد المطربة الضحية سوزان عبيد تأكيد تنازله عن حقه المدنى
فى القضية الجنائية المروعة، وإعلانه عن كشفه تفاصيل التنازل قريباً،
وجدد الأب المكلوم اتهامه لضابط أمن الدولة السابق بقتل ابنته مع سبق
الإصرار والترصد، كما أكد محامى الأسرة أن التنازل تم بالفعل فى
العاصمة اللبنانية بيروت ومن خلال أوراق ثبوتية رسمية معتمدة من وزارة
العدل اللبنانية مبرراً ذلك برغبة الأسرة فى نسيان تلك المأساة الفظيعة
حتى تعيش الأسرة فى هدوء بعيداً عن ضجة الاعلام، وأجواء المحاكم
والتحقيقات، وألمح محامى الأسرة إلى قيامه برفع دعوى قضائية ضد من
سرب معلومات حول أن واقعة التنازل تمت مقابل دفع همام مصطفى دية
لأسرة سوزان عبيد قدرها ١٠٠ مليون دولار!

وذكرت صحيفة " الأيام " أيضاً أن والد ووالدة وشقيق سوزان عبيد قد وقعوا بالتنازل عن الادعاء بالحق المدنى فى القضية أمام موثق الشهر العقارى بوسط العاصمة بيروت، وسوف يتقاسم أفراد العائلة مبلغ الدية بالتساوى.

وقد تسلم محامى رجل الأعمال همام مصطفى التنازل موثقاً من وزارتى العدل والخارجية، وتقدم به لمحكمة جنايات جنوب القاهرة بعد حصول آل عبيد على الرقم الخيالى من الدولارات من خلال الصفقة التى أدارتها، وأبرمتها شقيقة همام مصطفى والمعروفة فى الأوساط الصحفية بالمرأة الحديدية.

وقالت صحيفة " الغروب " الخاصة نقلاً عن مصادر قضائية أن المحكمة عندما تنظر الدعوى بعد التنازل عن الحق المدنى تنظر إلى شخصية المتهم، وشخصية المجنى عليها، والظروف التى أحاطت بالدعوى الجنائية بهدف تخفيض العقوبة، وأن التنازل لن يكون له تأثير فى سير المحاكمة إلا إذا صاحبت التنازل حقائق وأدلة وبراهين جديدة، ودامغة من الممكن أن تغير مسار ومصير القضية.

واستشهدت الصحيفة برأى الدكتور عواد العايد أستاذ القانون الجنائى وعميد كلية الحقوق بجامعة القاهرة حيث أكد فيه أنه من الناحية القانونية يحق لأى شخص أن يتنازل عن دعواه المدنية أمام المحكمة الجنائية لأن تنازله عن هذه الدعوى هو حقه الخاص وله الحق فى إثبات التنازل، وهل تم بمقابل أو بدون مقابل بمعنى أنه حصل على أموال أو لم يحصل لأن الدعوى ملكه.

وأوضح أنه من الناحية القانونية يجوز للمدعى بالحق المدنى إذا تعدد المتهمون أن يترك دعواه المدنية بالنسبة إلى أحد المتهمين دون المتهم الآخر، وأنه ليس هناك ما يحول دون ذلك قانوناً، لأن القضايا المدنية عبارة عن تعويض، وفى القضايا الجنائية الكبرى يجب أن تقف هيئة

الدفاع والمحكمة على ظروف التنازل، والمقدمات والمبررات المحيطة به، وهل هو تنازل مجرد لوجه الحق والعدالة أم له أسباب أخرى؟.

كما كتبت صحيفة "الأحداث" تؤكد أن هناك آراء شرعية تثبت أن من حق ولي الدم فى أى مرحلة من مراحل التقاضى أن يعفو، ويقبل الدية أو يتصالح، وفى هذه الحالات يمنع القصاص شرعاً، وأن هذا التنازل والبت فى تغييره لمسار القضية من عدمه يرجع إلى تقدير المحكمة.. بينما أقرت الشريعة الإسلامية أن التنازل يسقط القصاص، وهو الإعدام للمتهم فى القضية.

أما موقف القانون الجنائى المصرى الذى ركزت عليه معظم الصحف الحزبية فهو لا يعفى المتهم من العقوبة حتى ولو كان بالتنازل عن حق الدم ولا يمنع القاضى من توقيع عقوبة الإعدام لأنه محكوم بنصوص جنائية، وملتزم بمبدأ الشرعية.

فى ظل هذه الفوضى العارمة، والأمواج العاتية فى بلاط صاحبة الجلالة تذكر ناجى شرف الدين حكايات أستاذة الصحفى القدير عطا الهلالى الذى اختفى منذ سنوات، ومنها هذه الحكاية العجيبة وكأن الهلالى كان يقرأ المستقبل ويطلع على المجهول بعيون "زرقاء اليمامة" تلك الشخصية الأسطورية العربية القديمة.. هى امرأة من قبيلة "جريس" من أهل اليمامة سكنت جنوب الجزيرة العربية، وتحديداً السعودية والبحرين، وكانت ترى الشخص القادم من بعيد على مسيرة ثلاثة أيام، وهى أبصر خلق الله عن بعد، وفى إحدى الغزوات الحربية استتر جنود العدو بقطع الأشجار وحملوها أمامهم، فرأت زرقاء اليمامة ذلك وأنذرت وحذرت قومها.. فلم يصدقوها وقالوا: لقد خرفت المرأة، ورق عقلها، وذهب بصرها!

فلما وصل الأعداء لمهاجمة قومها وجدوهم فى حالة لهو وعبث واسترخاء تام، فأبادوهم وهدموا بيوتهم، وأحرقوا خيامهم، ونزعوا عين زرقاء اليمامة فوجدوها محشوة بالأثمد، وهو حجر أسود كانت تطحنه وتكتحل به

وسميت زرقاء اليمامة لزرقة عينيها.

وقال العرب القدماء عنها: إن زرقاء اليمامة كانت تبصر الشعرة البيضاء في اللبن والنملة السوداء في الليلة الظلماء.. وفي النهاية قتلها الأعداء!

استعاد ناجى شرف الدين من ذاكرته حكاية طريفة سمعها ذات ليلة مقمرة من عطا الهلالى قبل اختفائه بأسابيع، تدور الحكاية حول صحفية روسية تدعى "أنا بوليتكو" عملت أثناء حكم "بريجنيف" فى الصحيفة السوفيتية الأولى آنذاك "أزفستيا"، وهى الفترة التى حظى فيها الصحفيون الروس بالحرية.. تلك الحرية التى شجعت "أنا بوليتكو" على إقحام قضايا خطيرة، وفتح ملفات شائكة وملغومة للتدديد بالفساد والأفاسد صعوداً إلى شن حملة صحفية شرسة ضد التدخل العسكرى للقوات الروسية فى الشيشان من خلال التحقيقات الجريئة التى قامت بها، وسجلتها بالصوت والصورة والكلمة، ولفتت تحقيقاتها نظر المسؤولين عن صحيفة "نوفايا جازيتا" المعارضة، وعرضوا عليها العمل معهم وبالفعل رحبت "أنا" وذلك لأن تلك الصحيفة تقاوم سياسة التطبيع الصحفى مع النظام الحاكم، ثم كانت المفاجأة المدوية بوصول بوتين للحكم، والذى أعطى دعماً قوياً لفرض سياسة التطبيع والتطويع لصاحبة الجلالة مستخدماً فى ذلك عصا التهيب وجزرة الترغيب!

فى كتاب "هل ماتوا هباء؟" الذى صدر مؤخراً فى فرنسا صفحات عديدة تروى حكايات مثيرة عن تداعيات "تطبيع العلاقات الصحفية مع النظام الحاكم"، الإلحاح على هذا التطبيع أجبر الكثير من مشاهير الصحفيين الروس على التخلّى شيئاً فشيئاً عن "الكلمة الحرة" .. طوعاً، أو كرهاً!

الصحفية الدعوبة "أنا بوليتكو" حافظت على موقفها، وتمسكت باستقلالها، ولم تضعف أمام الإغراء، كما لم تخف من التهيب، ولم تكتف بنقد أخطاء نسبتها للقوات الروسية، وإنما صعّدت هجماتها

وانتهاماتها، لتستهدف الكرملين وأهم المقيمين فيه: "فلاديمير بوتين" بصفة خاصة!

شككت في سياساته الداخلية منها قبل الخارجية، طعنت في مصداقية الحرب على الإرهاب التي يخوضها الغرب على الإسلام، بدليل أن الإرهاب لا يزال يوجه ضرباته العنيفة ضد المدنيين الأبرياء في مناطق مختلفة من العالم.. الواحدة بعد الأخرى.

والموقف المعارض الذي حافظت عليه صحيفة "نوفيا جازيتا" كان ثمنه باهظاً على الصحيفة، وعلى كتابها ومحرريها، اثنان منهم تم إغتيالهما برصاصات أطلقها مجهولان ثم لاذا بالفرار! واثنان آخران لقيتا حتفهما في ظروف غريبة لم يكشف غموضها حتى الآن! وصحفية خامسة اسمها: "أناستاسيا بابوروفنا" نجح مجهول في إغتيالها.

هذه الاغتيالات كلها لم ترهب "آنا بوليتكو" ولم تقنعها بالتهدة، كما لم تتأثر أو تتغير عندما مارسوا ضغوطاً عليها، وكان ردّها المزيد من كشف الأسرار، والمزيد من فضح الأكاذيب!

لم تهتم "آنا" عندما منعوا استضافتها في برامج التليفزيون الحكومي، ولم تقلق من كثرة الخطابات والرسائل الإلكترونية التي تلقتها وكلها تهددها بالأذى والحرق والقتل والسحل.. ولم ترتعد أيضاً عندما تم القبض عليها بواسطة رجال من المخابرات الروسية أثناء قيامها بتحقيقاتها في "الشيشان" وإخضاعها للتحقيق يومين وليلتين ومصارحتها باحتمال قيامهم باغتصابها، ثم قتلها إن لم يردعها الاغتصاب! ولولا تدخل إدارة تحرير صحيفة "نوفيا جازيتا" لدى وزارة الدفاع الروسية لما أمكن الإفراج عنها، والسماح لها بالعودة إلى موسكو.

لم تتوقف الضغوط عليها بهدف إجبارها على التطبيع أو التطويع مع التصعيد فيها مرحلة بعد أخرى، فبعد التهديد انتقلوا إلى التنفيذ، استخدموا سموماً للتخلص منها، منها السم الذي يحتاج إلى أيام عديدة

قبل سريانه فى الجسد ، ولحسن حظها أمكن إنقاذها من الموت فى آخر لحظة وفى النهاية.. تقرر قتلها رميا بالرصاص أمام مصعد منزلها.

التخلص من الصحفية جسدياً لم يكن كافياً بل أرادوا القضاء عليها معنوياً بعد موتها ووجدوا للأسف _ زملاء وزميلات لها يمسون بأقلامهم ويكتبون ما يملئ عليهم من قصص وحكايات عن " أنا بوليتكو فسكايا " التى لا يعرفها غيرهم! من هؤلاء رئيس تحرير صحيفة " أزيستيا " فلاديمير مامونتوف " الذى ألمح إلى أن " أنا بوليتكو " انخرطت فى نشاطات مشبوهة ، ومثمرة فى الوقت نفسه!

بينما الجريدة الاقتصادية " كوميرسانت " شككت فى ولائها لبلدها بزعم أنها ولدت فى نيويورك عندما كان والدها عضواً فى الوفد السوفيتى لدى مقر الأمم المتحدة وتحمل الجنسية الأمريكية إلى جانب الروسية! وقلم آخر كتب يتهم " أنا " بأنها تتحدث لغة أوكرانيا بنفس إجادتها للروسية ، وكأن ذلك يشكل خيانة عظمى!

" البحر الهادئ لا يخلق بحاراً ماهراً "

لم تكن السنة الصحافة تلوك سيرة وتخوض فى سمعة عبد العليم طايح فحسب، بل إمتدت ألسنتها الطويلة لتمسك بتلابيب ابنه، وصار أحمد عبد العليم طايح مادة خصبة وثرية للكتابة اليومية، وبصفة خاصة فى الصحف الحزبية والمستقلة..

كان الابن يهوى اللعب بالمليارات بعيداً عن الأضواء والشهرة عكس والده تماماً يفضل دائماً الاستثمار وجنى الأموال الهائلة من مشروعات عملاقة فى الخفاء، لا يطيق الشهرة وكفاه ما حصده والده منها.. فى نهاية الأمر ظل رهين المحبسين قلقاً مطاردًا يخشى الغد، ويخاف من رنين هاتفه أو طارق لبابه وكتبت إحدى الصحف المارقة عن النظام الحكومى ذات يوم تقول:

إن همزة الوصل بين أحمد طايح وحكام الإمارة الخليجية كان والده الصحفى المرموق طبعاً عبد العليم طايح الذى عرف طريقه إلى أمراء وأثرياء الإمارة النائمة على برميل من الذهب الأسود عبر مسار ملتبس فلم يعرف أحد أن اطلالة عبد العليم طايح على شاشة قناة " الجريئة " هى ثمن الصلة بين الطرفين، وكانت الملايين الخمسة من الدولارات التى يتقاضاها عبد العليم طايح سنوياً من تلك القناة والبوح بأسرار الصحافة وبعثرة أوراق الساسة والسياسة بالحق تارة، وبالباطل تارة هى الثمن الإضافى لصفقة أكبر جعلت أحمد عبد العليم طايح يجنى الملايين هو الآخر!

كانت تعليمات الأمراء إياهم واضحة كالشمس جليه كنهار أغسطس: استثمار أموالنا فى الأرض!

ولم يكن أمامه سوى السمع والطاعة، لذلك كانت المحطة الأهم

والأبرز للاستثمار فى الأرض هى السودان.. تربة خصبة بكر عفيه قوية شاسعة، والمياة تحيط بها من كل جانب، هناك اشترى مساحات هائلة من أجود الأراضى فى بلد تبلغ مساحة أراضيه الصالحة للزراعة ٢٠٠ مليون فدان ولن تمر سوى سنوات قليلة حتى تغرق أسواق البلاد بسكر السودان الذى ينتجه أحمد عبد العليم طابع عبر شركته " القابضة " وهى مؤسسة استثمارية ضخمة جعلت تركيزها الأول على المسائل الزراعية، وقد توسعت الشركة العملاقة فى مشروعات زراعية أخرى داخل مصر حيث تملكوا " مزارع ديانا " الشهيرة على طريق مصر الإسكندرية الصحراوى لتضم إلى جانب زراعتها المتنوعة واحدة من أكبر مراكز تربية الأبقار " ٥٠ ألف رأس " من أفضل سلالات الأبقار الأمريكية المعروفة باسم " الهولشتين " مع إنتاج الحليب الذى يتم تصنيعه وفق أحدث التكنولوجيا العالمية.. واشترى أحمد عبد العليم طابع أشهر مصانع إنتاج العصائر المعلبة فى البلد.

ولم يتوقف طابع الصغير عند مجال الاستثمار فى الأرض فحسب، بل توجه إلى كل ما له علاقة بالنشر أيضاً، وتم هذا الأمر بتوجيه من والده الكاتب الصحفى، حيث إشتري مجموعة مكنتات " الغروب " وقام بتطويرها وتجديدها، وكذلك جريدة " الغروب اليومية " ودار النشر التى كانت مملوكة لصديق والده فريد المعلم.. مراقبون ماليون أكدوا أن أحمد عبد العليم طابع لن يتوقف عن الشراء فى الحقول والمصانع والشركات ولن يتوقف أيضاً عن البيع، فهو كمعظم رجال الأعمال الكبار يشتري ما يعتبره خاسراً أو رخيص السعر ثم يعتمد إلى ضخ الملايين فيه لزيادة رأس المال، وي طرح أسهمه للبيع بعد ذلك فيحصل سعراً مرتفعاً، وينتقل إلى مشروع آخر وسلعة أخرى.. وهكذا.

المدھش فى الملياردير الجديد أنه بدأ حياته موظفاً بسيطاً فى أحد البنوك وفى فترة الانفتاح الاقتصادى تغيرت أوراق اللعبة.. وفى الوقت الذى خرج فيه عبد العليم طابع من لعبة الصحافة والسياسة، دخل ابنه لعبه

السوق والاقتصاد مستثمرًا الأموال التي تأتيه من على شاطئ الخليج حتى أصبح واحدًا من أهم أصحاب شركات الاستثمار المالى ثم الزراعى فى مصر رغم اختلافه مع ابن الرئيس الذى كان شريكًا له فى الاستثمارات وتحول إلى منافس لدود له بقدرة قادر.

المتابعون لحركة أحمد عبد العليم طابع المالية يراقبون زيارته المتكررة إلى جنوب لبنان بطائرة خاصة دائمًا يلتقى خلالها كبار المسؤولين فى حزب الله بعيدًا عن العيون والأضواء وكاميرات وسائل الاعلام، وجواسيس الصحافة التى ترصد ديبب النمل فى جوف القمم، ولا يعرف أحد متى يأتى ومتى يغادر إلا عدد قليل من مسئولى الحزب الفارسى فى أقصى أقصى الجنوب، أو من خلال قراءة جدول السفر فى مطار رفيق الحريري الدولى فى العاصمة بيروت، ومستقبله ومودعيه من الحزب نفسه.. الكثيرون يعتبرون أن حزب الله يستثمر جزءًا هائلًا من أمواله فى مشروعات أحمد عبد العليم طابع الزراعية الكبرى فى السودان تحديدًا حيث للحزب مكانة خاصة لدى المسؤولين السودانيين الذين يتلقون دعمًا سياسيًا وإعلاميًا وماليًا من طهران.

ويتوقع الكثيرون أيضًا أن يحل أحمد طابع محل رجل الأعمال اللبناني الشيعى وضاح عز الدين الذى أفلست مؤسسته المالية التى كانت تشكل حافضة نقود حزب الله، وبلغت خسائره ٥٠ مليون دولار شملت ودائع الفقراء، ومتوسطى الحال من الشيعة وبعض المستثمرين الخليجيين فضلًا عن أموال قادة حزب الله السياسيين والأمنيين فى حالة شبيهة بإفلاس شركات الريان المصرية فى ثمانينيات القرن الماضى.

عندما طالع عبد العليم طابع هذا الكلام أدرك أن أبواب جهنم أصبحت مفتوحة عليه ومن زاوية لم يكن يتوقعها على الإطلاق.. لم يكن يتوقع فى يوم من الأيام أن يكون ابنه مصدر الخطر، ومكمن الإزعاج، ونقطة الضعف التى يجهزون عليه من خلالها!

" سأل أحد الصحفيين إحدى الممثلات:

متى نعرف أن المرأة تكذب؟

فأجابت: إذا تحركت شفاتها! "

أوفدت ميرفت العطيفي رئيس تحرير مجلة " نجوم الفنون " ناجي شرف الدين إلى الإسكندرية لتغطية وقائع مهرجان الإسكندرية السينمائي الدولي، وهناك إلتقى صحفية إسرائيلية فائقة الجمال تدعى " روث إيجلاش " جاءت موفدة من جريدة " هاآرتس "، تعرف عليها في كواليس المهرجان، وخرجاً سوياً في نزهة بحرية ثم دلفا إلى أحد المطاعم الشاطئية لتناول ثمار البحر الشهية من الأسماك والاستاكوزا والجمبرى، وفتحت له قلبها وقالت لناجي شرف الدين:

ـ " لقد كتبت عن تجربتي هنا في بلادكم تقريراً لصحيفة " هاآرتس " تساءلت فيه عما إذا كانت ترتدى النساء المسلمات في مصر للحجاب من أجل الموضة والظهور بأحدث الأزياء أم لتطبيق الشعائر الدينية والشريعة الإسلامية؟ "

بدأت الكاتبة الصحفية الاسرائيلية تقريرها قائلة:

ـ استغرقت رحلتي في مصر حوالى ثلاثة أيام أثناء مشاركتي في المهرجان الذى استمر على مدى عشرة أيام، وحضره ٤٠ صحفياً ومراسلاً من دول عربية وأجنبية مختلفة، لكن الأمر تحول بالنسبة لى أن يكون هدف رحلتي بجانب تغطية أعمال المهرجان أن أجد إجابة للسؤال: لماذا ترتدى المصريات كل هذه الأزياء والأشكال المختلفة من الحجاب؟ وعندها زادت رغبتى أنا الاسرائيلية اليهودية في شراء حجاب لأتدثر به بعد أن رأيت هذا الكم الهائل من الألوان والأشكال

والأحجام من الأحجية ، فهناك الحجاب ذو اللون الواحد ، والحجاب متعدد الألوان ، والحجاب الحرير أو القطن أو الباشمينا ..
ثم وجهت سؤالاً لناجى :

هل أنا كعلمانية يهودية أعيش فى تل أبيب فى حاجة لارتدائه هنا فى بلدكم؟!

تبسم قائلاً : لا أعرف.. أنت حرة!

قالت : لقد شعرت أننى كيهودية علمانية بانجذاب لشراء غطاء الرأس الاسلامى ، وكان من الواضح لى أن ارتدائه لم يكن بوازع دينى ، ولكن ما كان يدفعنى لارتدائه هو الستر على الأقل طوال فترة وجودى فى مصر ، وأيضاً لأننى واثقة من أن الحجاب سيكون مهماً لحمايتى من التحرش.
قال ناجى ضاحكاً :

_ لا تخافى على نفسك إلى هذه الدرجة ، فلن يأكلك الرجال هنا..
المصريون ليسوا وحوشاً آدمية كما تتصورون فى إسرائيل!
قالت روث إيجلاش :

_ يا ناجى يجب أن تعرف يا عزيزى أن كل من حولى من الفتيات والنساء المصريات صغيرات وكبيرات يسرن فى شوارع المدينة الساحلية مرتديات الحجاب بأشكاله المختلفة ، والمتنوعة فهناك الحجاب المتورم أو المنتفخ ، والحجاب المدسوس ، وآخر بدون عدة لفات ، وآخر محشو ومزخرف بالترتر ، وحجاب مطرز وآخر بلا تطريز ، وهناك أيضاً الحجاب الذى يظهر بعض خصلات الشعر تبسم ناجى وقال بإيماءة :

_ هذا أمر عادى جداً ، فالأنثى هى الأنثى فى كل زمان ومكان تبحث عن الأناقة والجمال تحت أى رداء..
ردت الصحفية الإسرائيلية بكبرياء :

– وسط هذا الكرنفال من الأزياء المتنوعة من الأحجية يمكن لأى إنسان أن يحصى بسهولة عدد النساء اللواتى لا يرتدين الحجاب، كما أن وجودى بينهن عارية الرأس يجعلنى أبدو مثل سائحة أفرنجية جاءت إلى بلادكم كى تتفرجوا عليها!

سألها ناجى بحسم::

– وكيف وجدت نفسك تحت الحجاب؟! بماذا شعرت؟!
ضحكت بسعادة وزهو قائلة:

على الرغم من أننى فى نهاية الأمر قررت التخلّى عن الحجاب وتركته إلا أننى ظلت مفتونة به، وعندما إرتديته شعرت باحترام كبير لذاتى وأحسست بوقار غير عادى، وأنا تحت هذا الزى الاسلامى القديم جداً.

قال ناجى بهدوء وحكمة:

– هذه فطرة الله التى فطر الناس الصالحين عليها.
هتفت قائلة:

ولكن بالرغم من كل ذلك فقد لاحظت أن ارتداء النقاب أو الحجاب لم يكن لأسباب دينية فقط، بل إن العديد من النساء والفتيات يرتدين الحجاب مع مزيد من الملابس الضيقة غير اللائقة، والعارية فى كثير من الأحيان، وذلك لمواكبة آخر صيحات الموضة.. ثم لاذت بالصمت المطبق، وبدأ عليها أنها تفكر فى أمر خطير، كانت عيونها مصوبة نحو البحر، وعقلها شارد فى السماء.

وفجأة طرحت عليه سؤالاً صادمًا:

– لماذا أصبحت الصحافة عندكم جريئة إلى درجة الوقاحة، ووقحة إلى درجة البذاءة وعشوائية إلى درجة الفوضى؟!
قال ناجى:

– هذه ملاحظة ذكية تستحق التحية، ودعيني أقول لك أننى منذ بدأت

العمل فى بلاط صاحبة الجلالة قبل أكثر من خمس سنوات أسرى
أستاذ عزيز على قلبى بنصيحة ، وأنا أخطو خطواتى الأولى قائلاً:
" عليك بجذوة الكلمة وصدقها.. تمسك بها ما حييت "
وها أنذا متمسك بهذه العبارة القصيرة الخطيرة.

الصحافة تلك المهنة المغرية للكثيرين ، والغامضة للغالبية العظمى
بكل تفاصيلها ودهاليزها ومساراتها الصعبة ، وطرقاتها الوعرة ومنحنياتها
الخطرة وجرونها السحيقة ، لم تتوقف حتى الآن عن مشاكلها
ومعاكساتها وأدوارها حتى وإن تغيرت أشكال بعضها ، وتعددت قوالبها
بين تقليدى واليكترونى.

سألته:

– وما الذى قدمته لك صاحبة الجلالة بعد خمس سنوات كاملة من
الشقاء والبحث عن المتاعب فى دروبها؟

– هذا سؤال يا عزيزتى لا يبدو سهلاً على الإطلاق لمن اختار " مهنة
المتاعب " .. لا يعرف القارئ سوى فرسانها وأصحاب أقلامها البارزين ،
ولكن بين دهاليزها طاقم يملأ ما بين الأرض والسماء حيوية ونشاطاً
وعملاً.

أولى محطات المعاناة التى واجهتها مع مهنة " الشهد والدموع " هو تغيير
نظامى اليومى لأصبح " بومة " ليلية لا تكل ولا تمل من طول السهر ، وقد
أقنعت نفسى بعدها بأننى نجم ليلى أنام النهار ، وأسهر الليل .. شئ مؤلم أن
تتغير ساعتك البيولوجية فتلك أم المصائب لتبقى على علاقة بالعالم أجمع
فى الوقت الذى أنت فيه بعيد فيزيقياً وعلاقتك به من خلال وكالات الأنباء
التي تمزق عابها فى الليلة الواحدة ألف مرة.

أما علاقتك بالواقع فلا تعدو سوى حضور الفعاليات والتواصل مع بعض
الكتاب فيما تدور كتروس الساقية مجبراً بين أروقة الصحافة.

كانت "روث إيجلاش" مبهورة بكلامه مشدودة لكل ما ينطق به..
وعندما سكت سألته:

— هل تمنحك الصحافة علاقات عامة واسعة، ونفوذاً كبيراً؟
قال:

— باختصار شديد يا عزيزتى إذا ما خبرت الصحافة جيداً فسوف
تكتشفين أنها "قربة مثقوبة" يتسرب منها الأصدقاء كما يتسرب الرمل
من بين الأصابع..

على المرء أن يخسر الكثير من الأصدقاء فى سبيل الحفاظ على مهنيته،
وقد يخسر الكثير ليخرج مع نجمة الفجر من مبنى الجريدة وحيداً ليجرى
حواراً مع راقصة عاهرة أو ممثلة داعرة شهيرة.. أنهت وصلتها توا فى الملاهى
اليلية والبلاتوهات السينمائية.. يخرج الصحفى وحيداً لا أحد يسامره يا
عزيزتى سوى برودة الفجر التى يرتشفها مع كوب الشاي أو فنجان قهوة
يقاسمه وحدته، وبعضاً مما علق فى أنفه من حبر المطبعة!

عاد للصمت ونظراتها مصوبة إلى وجهه.. وقالت:

— لماذا الصمت.. تكلم.

بصوت مبجوح متهدج:

— أصدقاء الصحافة وحيدون أيضاً فى حمل شباك صيدهم، عليهم يجدون
فكرة طائفة يقتنصونها.. الوحدة شعارهم للبحث عن الأفكار،
ولتحقيق السبق فى ماراثون لا ينتهى.. السبق الذى يتطلب مصادر تجبر
المحرر الصحفى على أن يظهر مالا يبطن فى كثير من الأحيان..
والعبارة لا يعرف كنهها سوى زملاء المهنة ورفقاء القلم!

بين المنشور واللامنشور يُنشر الصحفى والنشر هنا ليس بمعناه الورقى
المعروف، بل بمعنى "التمزيق"، فالصحفى منشور بالوقت الذى يحكمه
كحد السيف على الرقاب، ومنشور بالأمانة الملقاة على عاتقه، ومنشور

بالبعد عن عالمه الواقعي، ومنشور بالقارئ الذي ينتظره ليشرب كلماته مع كوب شايبه الصباحى الساخن على مكتب وثير أو فراش أثير.

لكن هناك دائماً من يقرأ على قارعة الطريق، وعلى ربوة مرتفعة بين المزارع وفى أحراش الحقول، وعلى حد البحر بين النوارس والصقور، وعلى مقعد الدراسة وفى غرفة النوم، وبين زملائه وأصدقائه، وفى المقهى والنادى وفندق خمس نجوم، وغرفة حقيرة فوق السطوح، وزنزانة ضيقة كئيبة فى سجن لعين.

لكن السؤال: ما الذى تقدمه لنا صاحبة الجلالة الصحافة؟! أليست مهنة كهذه جديرة بأن نطلق عليها "مهنة المصائب"؟! واستعداد من ذاكرته مجموعة أبيات من قصيدة رائعة لا يتذكر مؤلفها، أسمعها إياها قائلاً بلحن شجى:

صغير ود لو كبرا	وشيخ ود لو صغرا
وخال يشتهى عملاً	وذو عمل به ضجراً
ورب المال فى تعب	وفى تعب من إفتقرا
ويشقى المرء منهزماً	ولا يرتاح منتصرا
فهل حاروا مع الأقدار	أم هم حيروا القدرا؟!

سألته بإعجاب دهش:

— قل لى يا ناجى.. ما الذى تحلم به لصحافة بلدك؟!

— أحلم لصحافة بلدى أن تكون السلطة الرابعة بالفعل، تكشف الحقائق ولا تغطى عين الشمس بالغريال.. لا تجامل ولا تداهن فى الحق، ولا تصدر الحقيقة بل تقدمها للناس عارية كما ولدتها أمها حتى ولو كانت صادمة المهم أن تكون صادقة.. صحافة لا تعمل من أجل أشخاص ولا تخضع للسلطة خضوع العبد الأذل للحاكم الجبار

وإن كنت أرى أنه مع كل تقدم تحققه صاحبة الجلالة فى عالمنا العربى هناك ثمة انتكاسة أمنية، ومحظورات إضافية، وممنوعات تهدد الصحفى نفسياً وجسدياً بما لا يطيق!

سألته ببراءة أقرب إلى السذاجة:

— لماذا ترتبط علاقة مصر مع إسرائيل الآن بالجواسيس؟ وهل هناك جواسيس فى الصحافة؟

قال ناجى:

— هذا سؤال فى منتهى الذكاء والخطورة.. سأحكى لك يا عزيزتى عن أغرب أمسية حضرتها فى أحد الأيام.. وكانت عن "جواسيس الصحافة".. الأمسية تبرع بعقدها أحد الصحفيين المعروفين، وحضرها أكثر من مئة وعشرين صحفياً بين هاو ومحترف.. وكان الكلام كثيراً بين الصحفيين عن زملائهم الذين يقولون إنهم يخونون مهنتهم الشريفة فيتحولون إلى عشاق للنميمة داخل المؤسسة الصحفية التى يعملون بها من أجل المال أو الترقية أو من أجل أشياء أخرى ومآرب مختلفة، وإذا باشروا هذا الدور باقتدار وكفاءة يحسدون عليها فإن لهم إضافات جهنمية لا يرقى لها الشيطان، ولا تخطر له على قلب بشر لتأكيد قدراتهم، وإثبات ذواتهم..

قال الصحفى الأول: أنه فوجئ بقرار فصله من المؤسسة فأجرى على الفور اتصالاً هاتفياً بالمسئول عنه فى المؤسسة مستغيثاً ومستتكرًا فجاءته الإجابة الغربية المريبة: إذا كنت تريد أن تعود للعمل عليك أن تمدنى بتقرير يومى عن تحرك زملائك فى المكتب فرداً فرداً!

قال الصحفى: لكننى لم يسبق لى العمل فى هذا المجال وأخشى أن أفشل فى هذه المهمة.. رجائى أن تعفينى منها، وتختار شخصاً آخر غيرى، وأن تأمر بإعادتى إلى عملى، فأنا يا سيدى لا أعرف مهنة ولا أجيد غير الصحافة.

جاءته الإجابة قاطعة حاسمة بغياء من المسئول إياه: لا يوجد عندنا عمل لك وأنت بمواصفاتك تلك، وعلى العموم قرار الاستغناء عنك فى يدك، وإذا عرفت مصلحتك فنحن نرحب بك فى أى لحظة ثم أغلق الهاتف.

وقال الصحفى الثانى فى تلك الأمسية: إن رئيس التحرير عاتبه على أسلوب عمله وقال له صراحة.. عليك أن تفعل مثل زميلك تميم حسان الذى يكتب تقريراً يومياً عن أحوال العاملين بأقوالهم وأفعالهم ويرفعه لى.. فلماذا لا تكون مثله؟!

أفعل يا سيدى بشرط.

ما هو هذا الشرط؟!

أن تقوم بتنفيذ ما أعرضه عليك.

مستحيل.

ومستحيل أن يذهب جهدى هباء منثوراً.

أنا قلت لك ما يفعله زميلك الذى صار أعلى منك درجة فى السلم الوظيفى وهو الذى بادر بكتابة التقرير وأنا معجب به جداً.

قال الصحفى الثالث: إن رئيس التحرير الذى عمل معه لسنوات كانت تبدو على ملامحه علامات الوقار والورع والتقى لكنه اكتشف أن له "جواسيس" داخل هيئة التحرير ينقلون له بالتفصيل الممل غير المخمل كل ما يجهر به المحررون أو يهمسون، بل ويجلبون له ليل نهار ما يكتبه البعض من مواد صحفية يرون فيها خروجاً على هوى رئيس التحرير وطريقته فى العمل وأسلوبه فى الإدارة، وطبعاً ينالون على ذلك التقدير المناسب والمكافأة المجزية، ويتم بطريقة تدريجية قصيرة النفس أو طويلة النفس التخلص من المحررين غير المرغوب فيهم بناء على تقارير زملائهم دون أدنى استفسار أو تحقيق أو حتى مجرد حوار أو فرصة للدفاع عن النفس.

أما الصحفى الرابع فقال عائداً بعجلة الزمن إلى الوراء أنه سمع عن عدد

من " رواد الصحافة " كانوا لا يخلون عن رفع التقارير إياها ، وإذا وجدوا أنه لا فائدة ترجى من كتاباتهم تلك التقارير هم يجيزون ذلك لأنفسهم من باب "المصلحة العامة" ومشتقاتها والرغبة فى الوصول إلى الأفضل!

هذا هو الشعار العام لهم وللمطبوعات التى يمارسون فيها " طقوس الكتابة " فى الشئون الإنسانية والاجتماعية والتاريخية ، وتكون كتاباتهم أو تقاريرهم السرية غير مقبولة خاصة وأن من تتناوله هذه التقارير يكون فى غفلة فلا يستطيع أن يدافع عن نفسه.

وقال أيضاً: إن زميلاً له أعترف أمامه بأنه حرر ٤٨٠ تقريراً ضد زملائه ، كانت معظمها كاذبة ومفبركة وكيدية إعتد فيها هذا الملعون على خياله الخصب وبراعته فى تأليف الافتراءات ونسج المؤامرات ، وأنه أطلع على صور من هذه التقارير التى أطاحت ببعض زملائه الأعزاء ، ونجا منها البعض بأعجوبة لم يصدقها أحد.. الضرر جاء من داخل الجريدة ومن خارجها.

ويواصل الصحفى الأخير مسترسلاً فى رصد الحكاية المثيرة قائلاً: أنه على ثقة تامة من أن زميله لم يرحمه من تقاريره الكاذبة ، ولم يخب ظنه فقد وجد ضمن تلك التقارير تقريراً عنه يتضمن ملاحظة واحدة ألا وهى أنه يمضى وقتاً طويلاً من نهار العمل الصحفى فى الترتبة عبر هاتف المؤسسة التى تتحمل فاتورة هذه المكالمات ، كما أنها كلها مكالمات حريمى.. أى أنها علاقات عاطفية ساخنة ومشبوهة ويحاسب عليها النظام العام.. ثم سكت وهنا ضجت القاعة بالضحك والمهمهمات.

حوارات وحكايات واعترافات من هذه العينة تكشف بجلاء ما يفعله الناس حين يتركون مصالحهم رهينة لدى التاريخ ، ومن يرى الدنيا بعينين ويكتب بعين واحدة يشعر بالمتعة التى ليس بعدها متعة.. متعة التقريب ، ومتعة التباعد.. متعة التوازن ومتعة الجموح.. متعة اللهو ومتعة الجد ، وكلها من الصور التى تتعكس على بعضها البعض.. مثلاً عن الكاتب الساخر حين يدخل لعبة الورق والقلم بهدف السخرية ، وليس بهدف التصدى

والسخرية فى حد ذاتها مادة ساحرة من مواد الأدب والفن، وتعتبر من المطالب الضرورية للحياة، فالمرء يحتاجها فى عمله، والموظف فى مكتبه، والمرأة فى بيتها، والأستاذ فى جامعته لأنها هى التى تجعل الإنسان يرى الأشياء عن قرب وعن بعد بشكل لا يتسنى له أن يراها بدونها، مثل العدسة تماماً تجعله يرى ويتأنى ويتأمل قبل أن يصدر أحكامه على قيمة أو تفاهة ما حوله ومن حوله.. من معه ومن ضده.. ولماذا تستمر التفاهة فترة أطول من عمرها الافتراضى، ولماذا تغيب وسائل الردع والقمع عن مباشرة دورها فى تعرية هذه التفاهة ووضع حد لتضخمها واسترسالها وانغماسها؟! كما أن التفاهة لا يستطيع التصدى لها وردعها إلا الصحفى الساخر، ولا يستطيع التندر عليها وإخراج لسانه لها إلا الصحفى الساخر، وإذا لم يفعل ذلك، ويقوم به يكون أول ضحاياها وعليه أن يدفع ثمن انتشار تلك التفاهة بالطول والعرض، ويتحمل أيضاً مسئولية التنبية عنها والتحذير منها، وإذا لم يصنع له أحد فهذا يزيد من حجم مسئوليته ولا ينقص منها حتى لو دخل فى تحد معها.. والكتابة الساخرة علاوة على أنها فن رفيع المستوى عالى القيمة إلا أنها لا تجد الحماية الكافية واللازمة لمنع الدخلاء من ارتياد ساحتها، ولا تجد فى نفس الوقت التشجيع الكافى لإستمرار موكبها، ومضى مسيرتها بعيداً عن العقبات والعراقيل.

وبقدر ما يكون دخول الغرباء ساحتها مؤلماً، بقدر ما يكون غياب التشجيع عنها مؤثراً فإن ذلك يمنحها وقوداً جديداً، وحافزاً قوياً لاستمرار العطاء، وبقاء شمعة الأمل مشتعلة.

جواسيس وسخرية فى عالم الصحافة بلا شك.. السخرية هى الفاكهة الأولى لصاحبة الجلالة، ويجب ألا تخلو موائدها منها، بل يجب أن تنصدر هذه الفاكهة المائدة الصحفية بكل ما فيها من فواكه.. كثير منها بلا طعم ولا فائدة سوى أنها تملأ المائدة!

"إنهم يفضلونها ساخنة.. لا باحثة ولا عالمة!"

هاجمها الشوق للوطن وخريش الحنين بأظافره أيامها.. وكاد يحولها إلى رماد ودخان.. استعادت ايناس مندور ذكرياتها فى محاولة لتبدد عنها وجع الغربة وبرودتها.

فبين سماء مصر وثلوج سويسرا آلاف من الأميال، ولكنها فى حساب عشقها أقصر من ضربات القلب.. هذا الوطن المتدثر بشال أزرق يلامس الأفق ويحضن السحاب، هو إدمان لا فرار منه ولا شفاء.. مازالت تحلم بأن تتكور فى رحم الوطن، رائحته العطرة تهاجمها فى اليقظة والأحلام.. تتوق لحضن الديار وتشتاق لتراب الوطن ونبيله وناسه.. مازالت تحلم بأن تخرج المرأة المصرية من المعتقل، وبالثقافة وحدها تستطيع أن تسترد مفاتيح حريتها، وبالثقافة وحدها تكون قادرة على العودة من المنفى الإجبارى الذى تعيش فيه منذ قرون طويلة.

الوطن العربى غارق فى جهله، ومصر قطعة أصيلة من جسده.. نسبة الأمية بين الرجال ٤٥٪ ونسبة الأمية بين النساء ٦٥٪ ولابد للنساء من اقتحام معترك الحياة لتحقيق التوازن فى المجتمع العربى اللامتوازن أصلاً..

النساء فى المجتمع العربى بحاجة إلى تصحيح المعادلة المغلوطة التى تعطى للرجل كل الامتيازات، وتضعه فى خندق مراكز القوى، والمرأة فى خندق الضعفاء!

كانت ايناس مندور تشعر بغصة مرارة حادة ومؤلمة فى حلقها.. لا أحد يحرر أحداً فى هذا العالم.. فالحرية من صنع الأحرار وحدهم، ولم يحدث فى التاريخ الانسانى أن شعباً تحرر بالمراسلة، أو أن امرأة تحررت بالتوسلات وتقبييل الوجنات، وذرف الدمعات.

كانت تحب وطنها وتحن إليه وتؤمن أنه محاصر بمليون مشكلة ومشكلة لكن الموضوع الأساسى الذى تتوقف عليه حركة التاريخ، ويطفئ على أخبار الفقر والأمن وأخبار الاقتصاد، وانخفاض أسعار النفط وأخطار الحرب النووية العالمية الثالثة هو المرأة!

هل يسمحون لها أن تعيش كما أراد لها الله؟ هل يسمحون لها أن تمارس دورها فى الحياة كاملاً كأي كائن حى حر التفكير والإرادة.. أم يتركونها واقفة ألف سنة أخرى تحت الريح والمطر حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة جوعاً وبرداً وعطشاً وقهراً وكتباً؟!

لماذا دائماً يشغل العرب بالهم يمثل هذه الهوامش التى أسقطها العالم من حساباته؟!

ولماذا لا يغلقون ملف المرأة للأبد من الاستفادة من كل طاقات المجتمع؟ فليس فى ميدان الفكر والعلم والابداع ذكر أو أنثى، إنما هناك إنسان يؤسس مجتمع العقل والعدل والمساواة.

لماذا يقبل الرجل أن تجالسه المرأة حجرة الطعام، وحجرة الإستقبال؟ ولماذا يقبل أن تطارحه الغرام، وتقاسمه الفراش وتشاركه رحلة العمر والحب والمرض والشيخوخة ولا يقبل أن يعطيها مقعداً مساوياً له فى قطار الحياة؟!

لماذا يتغزل الرجل فى عيون المرأة السود طوال الليل حتى إذا طلع النهار شرب الشاي وقرأ جريدته بسرعة، وانصرف إلى حال سبيله، ونسى المرأة ونسى عيونها؟!

لماذا يكتب الرجل للمرأة رسائل العشق قبل الزواج، وعندما يتزوجها يضعها قيد الإقامة الجبرية، ويتصرف معها كما يتصرف الاستعمار مع شعوب أفريقيا المنكوبة بلغته؟ وإذا ناقشنا المسألة لغوياً وجدنا مفردات الحكم مؤنثة فالحكومة أنثى، والسلطة والديمقراطية أنثى والحرية أنثى والحياة نفسها بكل ما فيها أنثى.. فى حين أن جميع صفات القمع

والإرهاب والاستبداد والشنق والسحل والتعذيب والذبح والإجرام صفات ذكورية، ولا يليق بالرجل العربى الشرقى أن يحاكم كل يوم أمه وأخته وزوجته وابنته وحبيبته بتهمة القصور العقلى، وإذا كن أميات أو منطفئات الذهن فلأن الرجل الذى خرجن من تحت عباءته أمياً ومنطفئ الذهن.. هذا هو الواقع، وهو واقع كسيح مشلول لأنه يمشى على قدم واحدة.. فالمرأة مطلوب منها أن تكون ولوداً خصبة كثيرة النسل.. إنهم يفضلونها ساخنة، ولا يريدونها باحثة أو عالمة أو مفكرة، يفضلونها صامته لا مجادلة أو مناظرة أو متحدثة!

يريدونها خرساء.. صماء.. بكماء.. يريدونها زوجة أو عاشقة أو جارية بالسخرة لأنهم لا يقبلون قسمة الحياة على إثنتين.

يريدونها بلا عقل ولا ذكاء لأن عقل المرأة ضد الأمن القومى.. ضد الأمن الاقتصادى.. وضد الأمن الثقافى.. وضد الأمن الاجتماعى.. المرأة هى جدول المياه المهدور والنهر الضائع، والأجنحة الممنوعة من الطيران والتحليق فى أى اتجاه.

هى منجم الذهب الذى لا يزال مخبوءاً فى أحشاء الأرض.. فمتى يفتحون نوافذ الضوء لتدخل أشعة الحرية ونسمات الحياة إلى أعماق هذا المنجم؟! ثم إنخرطت إيناس مندور فى بكاء محموم، وألقت بجسدها فوق فراشها الوردى، ودموعها تتساب على خدها تبلل وسادتها؟!

"من يسرق رغيف خبز فهو لص..ومن يسرق قلب أنثى فهو
لص شريف!"

مل ناجى شرف الدين الصحافة، ودروبها وشوارعها وحكاويها
وحبرها، فإبتعد أسبوعاً عن مجالها المغناطيسى عساه يهدأ ويستكين
ويغرق قلقة فى البحر.. هناك على شاطئ الاسكندرية استلقى على الرمال
تعبث الأمواج بأنامله وظل يفكر ويفكر.. أسئلة كثيرة تضج فى رأسه ولا
مجيبة.. ما الذى يحدث فى البلد؟ أين اختفى أستاذه عطا الهلالى؟ ولماذا
أصببت ميرفت العطفى بحالة من جنون العظمة ودخلت فى صراعات
واشتباكات مع معظم محررى مجلتها " نجوم الفنون"؟.. وكيف تصاعدت
تلك الصراعات ووصلت إلى شكاوى متبادلة فى نقابة الصحفيين والمجلس
الأعلى للصحافة ورئاسة الجمهورية؟

لم تغادر رأسه فضائح ومواقع صاحبة الجلالة.. ألقى بعينه فوق الأمواج
يتأمل لونها الأزرق الصافى الرقراق.. دارت فى ذهنه علاقة الانسان العربى
بالبحر وهو يعلم تماماً أنها علاقة قديمة قدم التاريخ نفسه.. كيف لا وبلاد
العرب مفتوحة على بحار ومحيطات، وقاموا بصناعة السفن والأساطيل
البحرية وبصفة خاصة فى زمن الأمويين والعباسيين، وقد قادتهم هذه
السفن والأساطيل إلى بلاد بعيدة شرقاً وغرباً لدواعى الفتوحات والتجارة،
وظهر بينهم علماء بحار عظام يتصدر صفوفهم أحمد بن ماجد فى القرن
الخامس عشر وهو شاعر موهوب وأسد البحار والمحيطات كما وصفوه.

وضع ابن ماجد العديد من الكتب من بينها كتاب " الفوائد فى أصول
علم البحر والقواعد " الذى قال عنه المستشرق الفرنسى جابريل فيران أنه
أروع وأكمل مؤلف فلكى ملاحى فى عصره.. أما ابن ماجد نفسه الملقب
بأسد البحار فيرى أنه وريث ثلاثة شيوخ عرب من رواد علم البحار.. سهيل

بن أنان والليث بن كهلان ومحمد بن شاذان. وإذا كان الإسلام أعظم ثورة دينية وإنسانية حملها الإنسان العربى إلى العالم فقد لعب البحر دوراً كبيراً فى نقل هذه الرسالة إلى بلاد وأصقاع بعيدة، وكان للتجار العرب دورهم الخالد فى هذا المضمار من خلال انفتاحهم على الصين ودول الشرق الأقصى من جهة، وسكان السواحل الأوروبية من جهة أخرى حيث جرى تعميق عرى الود والتواصل وفتح باب لحوار الحضارات مع الآخرين، وتميز التجار العرب القدامى بأمانتهم مع أبناء الشعوب الأخرى مما جعلهم يثقون بهم وبدينهم وأخلاقهم وثقافتهم، فانخرطوا تلقائياً وعن قناعة فى الاسلام.

كانت السفن العربية تخرج من موانئ عمان والاسكندرية والبصرة وعكا وعدن متوجهة إلى الهند والصين وموانئ أوروبا المطلة على البحر الأبيض المتوسط وسيطر العرب على الطرق البحرية الممتدة من كانتون فى الصين إلى طنجة فى المغرب، وكانت فروع هذه الطرق تصل إلى الملايو والخليج العربى وبحر إيجيه، والبحر الأدرياتيكي، وامتلك التجار والبحارة العرب السفن البحرية العملاقة وتمرسوا فى فنون الملاحة وإختراع أدواتها من البوصلة إلى الأسطرلاب، كما مكنتهم تلك الرحلات البحرية من التعرف على ثقافات الشعوب الأخرى وفنونهم وآدابهم وطبائعهم وطرق عيشهم خاصة وأن بعض السفن التجارية العربية كانت تحمل على متن رحلاتها كل التجارب والحوادث التى عاشوها، فأثروا بذلك علوم الجغرافيا والملاحة البحرية والاجتماع، ولعل أشهر هؤلاء الرحالة العرب "ياقوت الحموى" صاحب "معجم البلدان" والمسعودى صاحب "مروج الذهب" وابن بطوطة عملاق المسافات والفضاءات المترامية.. ودام هذا الإزدهار التجارى والثقافى العربى من خلال الأمواج والشواطئ والموانئ والبحار والمحيطات من القرن الثامن الميلادى إلى القرن الخامس عشر الميلادى، وقد عرفت البحار باسمهم "بحر العرب" كما أن شبنغلر الألمانى قال:

"إن العرب وراء حضارة أوروبا كلها ، ولولاهم لما كانت لنا نهضة علمية وفلسفية.. من موانئهم الأولى انطلقوا إلنا ليعلمونا كل شئ.. حقاً إن البحر الأبيض المتوسط كله حضارة عربية " هكذا أجاد العرب حوار الثقافات عبر البحر منذ زمن بعيد ، وكان حوارهم ناجحاً ومثمرًا على كل الأصعدة ، وما بين عرب أمس وعرب اليوم ثمة بون شاسع وبعيد فى كل شئ يلمسه ليس العرب أنفسهم فقط ، بل الشعوب المحيطة بهم ، والبعيدة عنهم فى آن واحد.

ولم يعد البحر بالنسبة للإنسان المصرى خاصة والعربى عامة عامل تواصل ثقافى وإنسانى وحضارى وتنويرى بقدر ما صار وسيلة للهرب من جحيم بلادهم الطاردة لهم ، وبعضهم تحول البحر أمامه إلى مجرد مقبرة مائية وللمراكب والزوارق التى يمتطيها ويغامر بها فرارًا من نار وطنه!

وكتب ذات مرة شاعر صينى يدعى "شوان شورنج" من مقاطعة كانتون الصينية.. تلك المقاطعة التى وطئها قبل عدة قرون تاجر عربى استطيب العيش فيها ، وتزوج منها ومات ودفن فى أراضيها ، ويبدو أن هذا الشاعر من سلالة ذلك التاجر العربى.. يقول فى قصيدته التى تحمل عنوان: " صينى ابن عربى .."

خرجت من سلالة تاجر عربى استزرع نفسه فى كانتون.

تزوج إمراة ذات جمال سماوى هى جدتى الأولى.

ولا أدرى من الذى علم الآخر الحب.. الحب فى الصين أقوى من الحب فى كل مكان.

فكر ناجى شرف الدين أن يكتب قصة أو رواية ، واستعاد من دهاeliz ذاكرته كلمات أستاذه المختفى عطا الهلالى حين قال له:

ضع فيها كثيرًا من وجعك.. ضع عقلك جانبًا.. واصنع للرؤيا أجنحة

فكر بصمت شهى.. تأمل الوقت.. تجنب الأفكار الكبيرة.. اترك
رؤوس الأفكار تسبح حرة طليقة.. قل فقط ما يناوش القلب.. افرد الخيال
بجناحين.. ترصد المعانى الشاردة.. مرر اللغة بانسيابية من ثقب الفكرة..
قل أشياءك الصغيرة واهرب من أى رتابة تصل إلى حلمك البعيد بعد أن
تستوفى شروط الصبر الجميل!

"أسوأ ما فى الدنيا .. جارسئ وابن عاق وزوجة خائنة!"

بدا ناجى شرف الدين كسائح فى بلاط صاحبة الجلالة ، ينتقل من جريدة إلى أخرى ومن مجلة إلى دار نشر ، وذلك بعد أن توترت علاقته مع ميرفت العطيفى رئيسه المباشر ، وبلغت الأمور ذروتها عندما كتب موضوعاً صحفياً وفوجئ بغلطة فى اسمه بعد أن أصبحت المجلة فى السوق .. وجد اسمه " ناجى سرق الدين بدلاً من ناجى شرف الدين " النقاط فقط ضاعت من فوق الحروف .. فهاج وماج فى صالة التحرير أمام الجميع ومزق المجلة وداسها بحذائه ، وبسرعة البرق انتشر الخبر فى المؤسسة كلها ، وغضبت ميرفت العطيفى غضبتها الكبرى ، وقررت طرد ناجى من جنتها .. ومن وقتها صار كطير يبحث عن حبات رزقه يلتقطها فى أى مكان كان .. والرزق يحب الحركة والسرعة ويكره الخمول والتباطؤ والكسل .. ظروف الحياة القاسية فى القاهرة المعز لدين الله وجنون أسعارها جعلته مثل آلاف البشر يلهثون يومياً لآداء أكثر من عمل عساهم يتكسبون عيشهم فحسب وليس لتحقيق الثراء .

انطلق ناجى يعمل فى مجلة " فريدة " بجانب وجوده طبعاً فى مجلة " نجوم الفنون " التى يرأس تحريرها ويمتلكها شاب سورى فى العقد الرابع من عمره يدعى بشار عمار ، متوسط القامة أبيض الوجه ، ذهبى الشعر ، ضيق العينين يتحرك بخفة ورشاقة وسرعة مثل عقرب الثوانى فى إحدى الساعات السويسرية التى لا تقدم ولا تؤخر مهما جار عليها الزمن بنوائبه .

عاش بشار فى شوارع القاهرة ودروبها ونواديها وحدائقها قصة حب جنونية مع فتاة مصرية لعبوب تدعى " فريدة " فتزوجها وأنجب منها طفلة جميلة أسمياها مى .. ودارت الأيام والتقى ناجى شرف الدين بفتاة اختطف قلبه من أول نظرة كما تقول كتب الرومانسية والحب العذرى ملامحها

دقيقة برونزية البشرة، سوداء الشعر والعينين، ابتسامتها تضيئ الدنيا مثل شمس الشتاء.. صابرين جاءت تعمل سكرتيرة، وبسرعة عرفت أنه فقير موهوب يستكتبه كبار الكتاب ويقولون له نعطيك الفكرة واكتب أنت.. الحجة دائماً أن الكاتب الكبير الذى يستكتب ناجى شرف الدين لديه اجتماع.. وفى كل الأحوال تكون الفكرة مسروقة ومختلسه من آخرين.. فى بداية تعارف ناجى شرف الدين وصابرين دارت بينهما بعض المناوشات، والمشاكسات البسيطة ثم سرعان ما تحولت إلى مشاعر ودية، وصداقة لطيفة فيها احترام متبادل، ولأن العادة أقوى من الحب، وهما يقضيان معظم الوقت مع بعضهما بحكم العمل فى المجلة ربطت خيوط الحب بين قلبيهما، وأصبحت صابرين تهتم به فى كل شئ، وخاصة الطعام فقد كانت تحرص على أن تعد له بيدها، وتتقن فى صنعه، وبمجرد أن أحس بشار عمار وزوجته فريدة بما يدور بين ناجى وصابرين رحبا بتلك العلاقة العاطفية العفيفة البريئة، فلا الحب ولا الحرب يمكن اخفاؤهما مهما بذل المحب أو المحارب من حيلة، عرض بشار أن يقدم لهما دبلى الخطوبة هدية منه تتويجاً لحبهما واخلاصهما للمجلة التى تحمل اسم زوجته.

تقدم ناجى لخطبتها بعد أن تيسرت أحواله بعض الشئ، وبمرور أقل من عامين تزوجها، ورزقهما الله بطفلين فى غاية الجمال والذكاء.. ولد وبنت.. ومنذ لحظة زواجهما أصر ناجى على أن تتفرغ صابرين لبيت الزوجية، وتمتتع نهائياً عن الخروج إلى العمل.. وبالفعل كان له ما أراد، وفعلت هى ذلك راضية مرضية حباً فيه واكراماً له واحتراماً لرأيه.

لم يكن ناجى شرف الدين يعرف أن فريدة أنشئ لعبوب إلا عندما حكّت له صابرين ما حدث ذات يوم فى القناطر الخيرية.. كانت فريدة قد قررت أن تخرج فى نزهة خلوية، واصطحبت صابرين معها فى سيارتها الشيفروليه السوداء التى اشتراها لها بشار، وفى حداثق القناطر الخضراء المترامية الأطراف بدأت العبث، اصطحبت شاباً وسيماً قسيماً تعرفت عليه بالصدفة

البحته واختارته بعناية ، كانت قد وجدته وحيداً راقداً تحت شجرة صمصاف عتيقة يطالع صحيفة قومية ثم فرغ منها ، وحقق فى الفراغ وظل شاردًا يراقب المارة ويتأمل الطريق ووجه الماء وحركة الناس فى كل اتجاه..

انطلقت معه بعيداً عن العيون تلهو به ومعه فى سيارتها ، وتركت طفلتها الرضيعة بحوزة صابرين لكى ترعاها ، غابت أكثر من خمس ساعات ثم عادت بصحبة الشاب إياه متوردة الخدين باسمه الثغر ، ملتعبة الشفتين ضاحكة مستبشرة كأنها خرجت لتوها من مستودع السعادة!

وبمجرد أن رأتها صابرين ثارت فى وجهها غاضبة محتدة ، ونهرتها بسؤال استهجانى وهى ترمقهما شذراً :

— أين كنت يا فريدة كل هذا الوقت؟! ثم ألقت لها طفلتها بين يديها وتركتها وانصرفت مسرعة ، بينما فريدة تحاول أن تستبقها دون جدوى.

وظلت صابرين تتمتم بضيق :

— مستهترة.. عابثة.. مهملة.. لا يمكن أن أشاركك هذا العبث والجنون ولا يمكن أن أكون شاهدة على ما يحدث فى بئر الخيانة!؟

فى تلك الأثناء كانت صابرين قد إرتبطت بصداقة ودية مع فادية السكرتيرة الخاصة للدكتور عمر فرج طبيب الأسنان المعروف فى العيادة المجاورة مباشرة لمقر مجلة " فريدة " فى نفس الطابق بالعمارة.. جمعتها جلسات دردشة وفضفضة ونميمة بريئة مثل كل البنات ، وفى بعض الأحيان كان ناجى شرف الدين ثالثهما.. وذات مرة حكّت فادية لصابرين أن الدكتور عمر فرج غريب الأطوار ، لأنه قبل أن يبدأ عمله يشاهد على كمبيوتر العيادة فيلم بورنو ، ومن حين لآخر يتحرش بها ، وأنها تجاربه قليلاً بدون خسائر حتى لا تفقد عملها الذى يدر عليها عائداً مجزياً إلى حد ما يساعدها فى تجهيز نفسها وشراء كل ما يلزم زواجها ، خاصة وأنها مخطوبة لشاب يعمل فى مطابع مؤسسة " الأيام

وظل هذا الطبيب المشهور حديث الصحف القومية والحزبية والخاصة على مدار عدة شهور، بداية الأحداث كانت فى أحد أيام شهر يونيو.. همسة من إحدى الساقطات عن طبيب الأسنان المعروف.. قالت إنه يراود مريضاته عن أنفسهن.. بعضهن يسقطن فى المحظور بعد جولة قصيرة من التحرش بهن أثناء الكشف وفق خطة جهنمية يعتمد عليها.

واحدة من مريضاته الحسنات إنهارت بعدما أدار لها مشاهد ساخنة على أسطوانة يحتفظ بها على كمبيوتر العيادة.. خارت قواها تماماً ورفعت الراية البيضاء للطبيب الذئب.. ولم تكن تدري أن كاميرا خاصة مثبتة فى أحد الأركان تسجل كل شئ، ١٢ امرأة من المترددات على عيادة طبيب الأسنان استسلمن لرغبته المحمومة، وسجل رجل الطب مشاهد صارخة بينه وبينهن فى غرفة الكشف، منها ما تم تحت تأثير المخدر ومنها ما تم بدونه.

هناك أربع جوارى يساعدن الطبيب فى الإجهاز على فريسته.. همسة والوشاية المرفقة بالدليل وصلت إلى مكتب أحد ضباط مكافحة جرائم الآداب، الذهول أصاب الضابط وظل يضرب كفًا بكف متسائلاً بهستيرية:

– رجل الطب والإنسانية نجم الصحافة والفضائيات حول العيادة إلى وكر للمتعة الحرام، ولا يكتفى هذا الجشع بذلك بل يصور مريضاته أيضاً.

عندما سأل الضابط مصدره السرى عن حكاية الجوارى.. جاءته الإجابة مباشرة هن أربع فتيات يتمتعن بقدر كبير من الجمال الشرقى الخلاب.. شاء حظهن العثر أن ينشأن فى مناطق شعبية لعائلات تعيش على حافة الفقر خرجن الواحدة تلو الأخرى بحثاً عن فرصة عمل، ومصدر للرزق لمواجهة شظف العيش فكان مصيرهن اللقاء تباعاً فى عيادة الطبيب المعروف للعمل سكرتيرات.

رجال الشرطة ذهبوا إلى المكان بشكل سرى قبل مدامته للتأكد من صدق المعلومات التى تطايرت إليهم، لكن المفاجآت توالى، وأثبتت التحريات صدق المعلومات وإن كان الواقع أقل من الخيال، فهناك أسطوانة C.D تحوى مشاهد ساخنة للطبيب مع ١٢ من المترددات على عيادته بينهن فريدة المصرية زوجة بشار عمار السورى.. ساكنات الأحياء الراقية وسيدات المجتمع سقطن فى براثن الطبيب الذئب، نفذ خطته بمساعدة السكرتيرات أو الجوارى وفى النهاية أصبحت الوليمة بين أنياب الذئب يفترسها من حيث يشاء أمام الكاميرا التى لا تكذب أبداً!

فى معظم الأحيان تظل غرفة الكشف مغلقة أغلب الأوقات، لا أحد يعرف على الإطلاق ما يدور بداخلها من المترددين على العمارة الموجودة فى أحد أهم شوارع حى المهندسين.

أما حكاية الجوارى.. فهن أربع حسناوات وظيفتهن الحقيقية خدمة طبيب الأسنان الثرى المعروف.. خرجت كل واحدة منهن للبحث عن عمل، وساقهن حظهن الأسود إلى العيادة بعدما قرأن إعلاناً فى الصحف القومية اليومية.. "مطلوب سكرتيرة حسناء براتب كبير" .. كثيرات حضرن للفوز بالوظيفة ولكن العيون المتوحشة للذئب المتكرر فى الأطوار أبيض كانت تتفحص.. وعندما تلمع ببريق النشوة فمعنى هذا أن الفتاة نالت الإعجاب وفازت بالوظيفة، ويستطيع الطبيب طرد السكرتيرة الحسنة التى لا ترضخ لأوامره ولا تستجيب لطلباته الممنوعة، وحتى بعدما تسقط معه فى بحر الخطيئة بورقة زواج ليس عليها شهود يحتفظ الطبيب بعشرات النسخ منها فى مكتبه بغرفة الكشف ليوهم ضحاياه بأنه يتزوجهن.. ولكنه زواج بلا شهود!

الجوارى الأربع ومنهن فادية بالطبع من إحدى المناطق الشعبية بالقاهرة القديمة كن يخرجن من منازلهن فى العاشرة صباحاً ويعدن فى العاشرة ليلاً، لدواعى العمل فى العيادة وقد نال منهن الارهاق وطول الوقت.

الشرطة أنهت عملها.. ودون الضابط المختص ورقة تحمل عنوان " محضر تحريات " قال فيها كل شئ ، وأضاف عليه أن الطبيب يقوم بتسجيل لقاءات المتعة المحرمة على أسطوانات C.D..

محضر التحريات تم وضعه فى مظروف أصفر اللون وأغلق بشريط لاصق.. الذهول سيطر على وكيل النيابة ، وأصدر الأمر على الفور.. القبض على الطبيب والسكرتيرات والمترددات ومداومة العيادة وتفتيشها.

ضباط الشرطة انطلقوا إلى العمارة المكونة من ١٤ طابقاً هدفهم الطابق السادس كبيرهم طلب منهم أن يصعدوا على دفعات، ويتجمعوا فى طابق أعلى من مسرح الحدث ثم يتحرك الجميع فى توقيت متزامن.

أحد رجال الشرطة كانت مهمته مراقبة مدخل العمارة ربما تواجدت بالصدفة إحدى المترددات على العيادة.. وبعد دقائق وقفت القوة بكاملها على بعد خطوات من وكر الذئب حتى صدرت الإشارة بالاعتحام، ليهبط أفراد القوة السلم.. ثوان قليلة وكان الجميع داخل العيادة.. فوجئوا بالطبيب وسكرتيته يجهازان إحدى الضحايا لممارسة الخطيئة. ألقوا القبض على الجميع، وعثروا فى مكتب الطبيب على ثلاث ورقات مدون بها بيانات غريبة، واكتشف الضابط أنها أوراق زواج عرفت لا تحمل توقعيات الشهود وغير موثقة.

الورقة الأولى فيها اسم الزوجة "مريم حلمى" عمرها ٢١ عاماً طالبة باحدى الجامعات الحكومية وتقيم فى منطقة شعبية عشوائية.

تقدمت فى البداية للعمل كسكرتيرة عن طريق إحدى صديقاتها فى عيادة الطبيب المعروف فالراتب يكفى نفقات طالبة جامعية ويزيد.. كان جمالها هو المفتاح السحري الذى فتح لها أبواب العيادة، وجعل الطبيب الذئب نجم الفضائيات والصحف يرحب بها للعمل معه.

الورقة الثانية.. لفاتة عمرها ١٨ عاماً.. لا تعمل وتقيم فى منطقة إمبابة بمحافظة الجيزة اسمها هدى جاد الله حاصلة على دبلوم تجارة.

أما الثالثة.. حميدة حمدي عمرها ٣٠ عاماً حاصلة على بكالوريوس زراعة طويلة هيفاء بيضاء وهي أقدم السكرتيرات.. أو الجوارى لدى الطبيب ومهمتها الأساسية مساعدته على افتراس ضحاياه سواء من السكرتيرات أو المريضات الجميلات!

أما الأحراز فهي أوراق زواج عرقي لاتحمل شهوداً.. تحريرات المباحث تثبت أنه زواج صوري، والعيادة ما هي إلا ستار لوكر بغيض. وهناك أيضاً كاميرات فيديو حديثه عشر عليها الضابط وبداخلها شريط صغير الحجم يحتوى على مشاهد للطبيب المذكور مع الحسنات فى أوضاع مخلة.

وهناك جهاز عرض بشاشة تليفزيونية يعرض من خلالها لقطات لدغدة مشاعر الضحايا، وإسقاط حائط المقاومة النسائية لنوازعه الوقحة.

قام رجال الشرطة بتفريغ أسطوانات الـ C.D وشرائط الفيديو ومصادرة كميات كبيرة من أقراص الفياجرا المستوردة.. انتهى التفتيش وتم القبض على الطبيب وجواريه وللمرة الأولى يجد نفسه محاطاً بالمخبرين مقيد اليدين ويساق إلى إدارة مكافحة جرائم الآداب.

وشرع رجال الشرطة فى تحرير المحضر لعرضه على النيابة.

الدكتور عمر فرج بدا مذهولاً لم يعلق كثيراً سوى بالنفى، ويهتف أنه برئ ومظلوم حتى فى حالة الأشرطة والأقراص المدمجة التى تحمل صورته.. إكتفى بالنفى ثم اتهم مطلقة أنها وراء تسريب الأشرطة وتعمد فضحه.

فى هذه الأثناء كانت فادية السكرتيرة صديقة صابرين قد أصبحت قيد التحقيق، وقرر ناجى شرف الدين أن ينأى بنفسه، وبحبيبته صابرين عن المكان المشبوه فتركا المجلة نهائياً، واعتذرا لبشار عمار وزوجته فريدة.

استغرق تحقيق النيابة عدة أيام.. وقرر وكيل النيابة حبس الطبيب أربعة

أيام على ذمة القضية، وعرض المضبوطات على الجهات المعنية للتحقيق، لكن الأمر المثير أن الطبيب الشهير فجر أكثر من مفاجأة فور القبض عليه.. وزع اتهاماته على مطلقاته، وادعى أنه صور ضحاياه فى أوضاع مخلة لاستخدامه الشخصى، وليس للتوزيع فى الأسواق، وكانت هناك بعض الأشرطة توزع فى الأسواق تحت اسم " شريط الدكتور " لأنه كان يظهر بالبالطو الأبيض ثم يخلعه فيبدو عارياً تماماً بدون ملابس داخلية.

عاشت صابرين حزينه لفترة طويلة، تعاني من صدمة عصبية بسبب مشهد القبض على فادية صديقتها وجارتها فى العمارة.

ظل ناجى شرف الدين يواسيها ويهدئ من روعها ويخفف عنها، قصة ضبط طبيب الأسنان المعروف الثرى شديدة الإثارة.

وقد وجدت أجهزة الأمن سهولة فى تحديد شخصيته من خلال الأسطوانات التى أغرقت الأسواق.

مصدر سرى لأجهزة الأمن اكتشف الأسطوانات التى سرت كالنار فى الهشيم الجاف تحت عنوان فيلم " الدكتور .. بعض سماسرة المتعة غالوا فى ثمن هذه الأشرطة ووصل سعر الشريط الواحد ألف جنيه.

أمام خطورة هذه الظاهرة هرعت مباحث القاهرة إلى التنسيق مع مباحث الجيزة بتشكيل فريق بحث على أعلى مستوى لكشف سر هذه الأسطوانات على اعتبار أن كل المشاهد دليل دامغ لا يقبل المراوغة.

حاول مدير مباحث الآداب بالعاصمة تكبير لقطة الشهادات الطبية المعلقة بالعيادة، وتوصل رجال المباحث إلى الإمساك بطرف الخيط، والقبض على الطبيب وجواريه.

بعد بحث وتحريات تمكن رجال المباحث من تحديد المكان، وجدوها عيادة واسعة مؤثثة بشكل أسطورى فاخر تحوى أغلى وأجود أنواع الأثاث الإيطالى المستورد.. مكتبه الخاص وغرفة نومه تم تجهيزها بأكثر من مليون جنيه. الطبيب الشهير خصص مدخلاً للمصعد فى قلب عيادته..

مريضاته يستقبلهن ثلاث حسناوات فى ثياب بيضاء كأنهن ملائكة الفردوس.. لكن الحقيقة أنهن ملائكة العذاب!

إحداهن ترد على الهاتف لتحديد المواعيد والمقابلات لإجراء الكشف وأخرى تقوم بدور السكرتيرة، والثالثة تختص بالأمور المالية.

كاميرات المراقبة الحديثة الدقيقة مزروعة فى أركان العيادة.. الطبيب أحاط نفسه بجو أسطورى، وضحاياه من سيدات المجتمع الراقى ومذيعات شهيرات لامعات وزوجات وزراء ورفيقات رجال أعمال ولواءات!

واجه ضابط التحقيقات الطبيب بالإتهامات الموجهة إليه، أنكر التهم تماماً، وأقسم بأغلظ الأيمان أنه رجل شريف عفيف له وضعه الاجتماعى، وبكل هدوء بدأ الكمبيوتر فى عرض الأسطوانات.. صمت المتهم تماماً خجلاً من مشاهدة نفسه مع الجميلات.. تعرى أمام الجميع.. تمنى أن تفتح الأرض بطنها وتبتلعها فلا يراه أحد بعد اليوم.

لم يجد ما يقوله، نبرته العاليه تحشرجت ثم تلاشت، وسالت دمعة على خده فلا سبيل أمامه للإنكار.. اعترف أن ما فعله مع النساء تم بالاتفاق معهن وليس بالإكراه، وصورهن لمزاجه الشخصى، وأخفى بعض الأسطوانات فى منزله لكن كيد النساء غلب كيد الشيطان.. سرقت مطلقة الأسطوانات وطبعت منها عشرات النسخ وطرحتها على الأرصفة، وتولى أصحاب شركات الكمبيوتر توزيع كميات هائلة منها على الشباب والراغبين بأسعار رمزية.

قص الطبيب حكايته مع مطلقة التى سببت له الكثير من المشاكل، ونصبت له العديد من الفخاخ.. قال أنه تزوجها لمدة أسبوع واحد ثم طلقها بعد اكتشافه أنها ليست بكرًا كما إدعت، ثم تزوج من أخرى، وهددته الزوجة الأولى بانتقام شرير شرس، واختلف مع زوجته الثانية فتضامنت مع الأولى ودبرتا خطة جهنمية للنيل من الزوج الذئب.. سهلت الزوجة

الثانية للزوجة الأولى دخول المنزل للسطو على بعض المتعلقات ومن بينها أسطوانات الـ C.D.. فحدث ما حدث.. وأقسم الطبيب الشهير نجم الصحافة والفضائيات أنه ضحية كيد النساء!

غادر ناجى شرف الدين وصابرين العمارة المشبوهة للأبد.. وقررا عدم العودة إليها مجدداً مرة أخرى.

" إذا أردت التطهير فاعترف بذنوبك، واصفح عن خصومك! "

انتقل ناجى شرف الدين بعد تجربته المريرة مع مجلة " فريدة " للعمل فى جريدة " الوعد " الأسبوعية المعارضة التى يمتلكها ويرأس تحريرها مصطفى شكرى الذى عرفه الجميع بمعارضته الشديدة والمتطرفة للنظام الحاكم فى مصر، واعتمد فى اصدار صحيفته على تمويل هائل من إيران، وتدفقت عليه الدولارات كالسيل المنهمر من ملائى طهران عندما شرع فى اجراءات تشكيل حزب سياسى تحت اسم "مايحكمش" فى إشاره واضحة لرفضه مبدأ توريث الحكم إلى ابن الرئيس..

وبدأ الصدام الحقيقى بينه وبين النظام الحاكم عندما فتح ملف التوريث على صفحات جريدته، وتعرض للمحاكمة والاعتقال والسجن لأكثر من عام.

لكن من يكون مصطفى شكرى هذا الذى يصف نفسه فى مقالاته بالمناضل العربى القومى؟ هل هو بطل من ورق وحبر كذب؟.. مصطفى شكرى من مواليد محافظة قنا، درس الاقتصاد والعلوم السياسية فى جامعة القاهرة، وعقب تخرجه التحق بالعمل فى الدائرة السياسية بحزب " ما يحكمش " وترأس الحزب بعد عدة سنوات ونهج فى الصحافة المصرية نهجاً جديداً لم يجرؤ أحد قبله على الولوع فيه، وبدأ ينشر ملفات ممنوع الاقتراب منها.. تلك الملفات التى زجت به إلى ظلمات السجن والملاحقة والمراقبة ليل نهار.

فى ليلة ٥ سبتمبر من العام قبل الماضى تم اعتقاله بتهمة إهانة رئيس الجمهورية، وإثارة النعرة الطائفية للأضرار بالمصلحة العليا للبلد، وصدر ضده الحكم الذى قضى باغلاق الصحيفة لمدة ستة أشهر والحبس لعام

كامل ، رضخ لكلمة العدالة حتى ولو كانت غير عادلة ، وبعد الافراج عنه بعدة أيام ، تعرض لمحاولة شروع فى قتل من خلال الضرب بآلات حادة وصلبة أدت إلى إصابته بجروح خطيرة أثناء عودته من الجريدة فى طريقه إلى منزله بمنطقة المقطم بعد منتصف الليل.. فقد قامت عصابة مسلحة مكونة من ٨ أفراد باختطافه ، دفعوه بقوة إلى المقعد الخلفى للسيارة الجيب السوداء التى تحمل لوحات مطموسة الأرقام والملاح ، وتحت أحذيتهم الغليظة وضعوه ، وبدأوا الركل والضرب بعنف فى كل أنحاء جسده..

كانت التهمة الموجهة إليه هى التآمر على نظام الحكم ثم خففوها إلى الإساءة لرأس الدولة والنظام فى مقال كتبه ولم ينشر تحت عنوان : "الطور الذى أصبح الفرعون!"

لم تنته أزمة مصطفى شكرى عند هذا الحد ، بل خرج منها أكثر اصراراً وعناداً وبأساً ليؤسس موقعاً إلكترونيًا يثير جدلاً فى الأوساط الصحفية والسياسية ويحقق رواجاً وانتشاراً يدعو للدهشة والعجب.

وفى تحول غريب ومفاجئ أذهل معظم أبناء صاحبة الجلالة عقد مصطفى شكرى صفقة مشبوهة مع الحكومة بموجبها يتولى التهدة لنبرة النقد والهجوم ويعتمد سياسة المهادنة مقابل السماح له بترشيح نفسه نائباً مستقلاً فى البرلمان بحيث يكون بلا أنياب.

ويعرف الجميع أن مصطفى شكرى صاحب "سوابق" فى الترشح للبرلمان وأخفق مرتين للوصول إلى الكرسي النيابى ، وحقق فشلاً ذريعاً لا يحسد عليه.. وفى المرة الثالثة والأخيرة لعبت كل الظروف لصالحه ، سخرتها السلطة له ، وتمت الصفقة بنجاح وفاز بالمقعد الذى كان يعتبره بعيد المنال ، ودرباً من دروب الخيال الأسطورى.

باع المبادئ الوطنية والأهداف العروبية القومية ، واشترى مصلحة الشخصية.

وذات يوم قال:

لقد ضيعت عمري فى أوهام.. لا شئ يعلو على مصلحتى الخاصة.. ومن حقى أن أغير مبادئى وأخلاقياتى وجلدى لأحصل على ما أريد.. فالعمر واحد.. واليوم الذى يذهب لا يعود أبداً والغبى هو الذى يدافع عن أشياء لو تحققت لإستفاد منها الجميع دون سواه!

الصحفى الصعيدى الصلد العنيد المغامر الحاصل على دراسات عليا فى النظم السياسية والقانونية والاقتصادية إلتحق بمنظمة الشباب الاشتراكى فى مطلع السبعينيات.. بدأ حياته محرراً صغيراً فى عدد الصحف والمجلات محدودة الإنتشار، وعمل بعد ذلك مراسلاً لإذاعة مونت كارلو من القاهرة قبل أن يفتح خطوط اتصال مع أطراف خارجية تمده بنهر من الدولارات لا ينقطع مداده، ولنبوغه الصحفى والفكرى حصل على العديد من جوائز التفوق الصحفية من مختلف العواصم العربية، واختاره المندى العربى بالخليج شخصية العام الصحفية، وذلك فى مهرجان احتفالى كبير حضره رموز الحركة السياسية والحزبية من شتى التيارات العربية.

الطريف فى الأمر أنه على الرغم من أن ناجى شرف الدين لا علاقة له بالسياسة وألا عيبها، ولا يحبها من قريب أو من بعيد، ويتجنب الحديث فيها والخوض فى غمارها إلا أنه كان قريباً جداً من قلب مصطفى شكرى خلال الفترة غير الطويلة التى قضاها معه فى جريدة "الوعد" حتى تم القبض عليه وهو يقود مظاهرة خرجت من نقابة الصحفيين بقلب القاهرة متجهة إلى مجلس الشعب فى ميدان التحرير ثم إلى السفارة الإسرائيلية على النيل بالجيزة تتدد بالتطبيع وتستنكر دم الشهداء الذى ضاع هباء منثوراً.

هاجم الحكومة ولعن النظام وسب القيادة السياسية التى ارتمت فى أحضان العدو الإسرائيلى تخطب وده، وسلامه اللثيم المخادع.. لقد ظن مصطفى شكرى وليس كل الظن إثم أن الحصانة الدبلوماسية التى نالها

فى صفقة حكومية سوف تحميه وتمنعه عن سياط السلطة خاصة وأنه كان قد ورط نفسه فى معركة تحت القبة مع رجل الحزب الفولاذى عز الدين عبد المجيد محتكر صناعة وتجارة الحديد فى مصر من أقصاها إلى أقصاها ، وصاحب الجاه والسلطان والصولجان برغم أن هذا الرجل الحديدى لا يزيد طوله عن ١٥٠سم.

وكانت نهاية مصطفى شكرى عندما ألغوا له دائرته الانتخابية.. واستيقظ ذات يوم ليجد نفسه بلا دائرة ولا مرشحين ليس هذا فحسب بل شددوا الرقابة على صحيفته ، واستجوبوا كل محرريها.. لم يكن أمام ناجى شرف الدين سوى الانسحاب قائلاً لنفسه: فلتذهب الفلوس إلى الجحيم.. الفقر خير ألف مرة من أن يكون لى ملفاً فى أمن الدولة!

" الدين.. هذا النفق الذى يسلكه الجميع لتبرير الغايات
النبيلة والحقيرة! "

معظم الصحفيين فى مصر مثل عمال التراحيل ينتقلون من حقل إلى حقل حسب الأجر ، وهكذا أصحاب القلم يهجرون صحيفة ويهرولون إلى صحيفة أخرى سعياً وراء المكسب المالى.. لا عزاء للمبادئ أو الأخلاقيات أو الأيديولوجيات الثقافية أو الفكرية أو السياسية.. فى تلك الأثناء كان ناجى شرف الدين ينتقل أيضاً بين أكثر من صحيفة للإسترزاق وفقاً لمعايير سوق الصحافة الذى شهد انفتاحاً غير مسبوق مثل الانفتاح الاقتصادى الذى أرسى دعائمه السادات فى سبعينيات القرن الماضى.

شاء حظه العثر هذه المرة أن يقوده إلى فخ صحفى ، ومنطقة ملغومة ، وقبل أن يقع فى هذا الفخ انخرط فى الدراسات العليا بكلية الاعلام قسم الصحافة بجامعة القاهرة ، وفى أول محاضرة داخل مدرجات الكليه فوجئ برئيس تحرير ومجلس إدارة جريدة " الأيام " معترز القط يلقي المحاضرة.. أحس بالارتباك لكنه كظم غيظه ، وانزوى فى ركن قصى من القاعة ينصت للرجل الذى قال بثقه وهدوء وسط صمت رهيب لجميع الحاضرين: منذ خمسين عاماً لم تكن قد وجدت بعد موضة مدارس الصحافة ، كنا نتعلم فى صالات التحرير ، فى ورش المطبعة ، فى المقهى المواجه للمبنى ، فى حفلات الجمعة ، كل جريدة كانت صناعة تشكل وتخبز بلا أخطاء ، وتتولد آراء داخل مناخ من المشاركة التى تحتفظ فيها الأخلاق بمكانها. فنحن الصحفيون كنا نسير دائماً معاً ، نصنع حياة مشتركة ، وكنا متعصبين جداً للمهنة لدرجة أننا لم نكن نتحدث عن شئ غير المهنة نفسها ، كان العمل يحمل معه صداقة المجموعة التى تترك هامشاً صغيراً للحياة الخاصة ، لم تكن هناك تجمعات التحرير المؤسسية ، لكن فى

الخامسة مساءً دون دعوة رسمية ، كل طاقم الدور كان يأخذ راحة من ضغوط اليوم، و ننضم لتناول القهوة فى أى مكان من الصالة.

كان تسامراً مفتوحاً حيث نناقش بحماس موضوعات كل قسم ونعطى اللمسات الأخيرة لطبعة الغد والذين لم يتعلموا فى تلك المراسى المتجولة والملتهبة أربع وعشرين ساعة يومياً ، أو الذين كانوا يملون من الكلام الكثير حول نفس الشئ ، هذا لأنهم كانوا يريدون أو يعتقدون أنهم صحفيون ، لكنهم فى الحقيقة لم يكونوا كذلك.. كانت الجريدة حينئذ ثلاثة أقسام كبيرة: أخبار ، أحداث ، تحقيقات ، وأعمدة افتتاحية. الحمل الثقيل كان يقع على المحرر الذى كان يحمل فى نفس الوقت مفهوم الصبى وحامل الطوب.

الوقت والمهنة نفسها برهنا على أن النظام المتوتر للصحافة يجول فى الواقع فى مغزى عكسى.. أعترف لكم: أننى بعد أن كنت أسوأ دارس للإعلام بدأت مجالى كمحرر للافتتاحيات وصعدت رويداً رويداً وعملت كثيراً بسلاالم أقسام مختلفة ، حتى وصلت لأعلى مستوى للمحرر الصحفى المتمكن ، نفس الممارسة للمهنة كانت تفرض ضرورة أن تكون ثقافياً ، ونفس جو العمل كان يتكفل بتحميسى على ذلك ، وكانت القراءة إدماناً مرتبطاً بالعمل عادة ما يكون العاصميون طامعين متعجلين ، فى تلك الفترة كنا كذلك وزيادة لنستمر فى فتح أبواب من الحياة لأفضل مهنة فى العالم.. كما كنا نسميها نحن أنفسنا ، ألبيرتويراس كامارجو الذى كان صحفياً دائماً ، وكان رئيس كولومبيا مرتين ، لم يحصل حتى على دروس لتدعيم فكرة أن المهنة ينقصها التعليم الأكاديمى. الآن لا يقتصر الأمر فقط على الصحافة المكتوبة وإنما وصل لكل الوسائل المبتكرة والتي على وشك الابتكار ، لكن فى اتساعها أخذوا من الشارع حتى الاسم المتواضع للمهنة منذ أصولها فى القرن الخامس عشر ، والآن لا تسمى صحافة بل علوم الإعلام أو الإعلام الاجتماعى.. النتيجة عموماً غير مشجعة.

الأولاد الذين يتخرجون من الأكاديميات مدهوشين، يرون الحياة أمامهم.. يبدون غير مرتبطين بالواقع وبمشكلاته الحياتية، ويضعون هدف البطولة فوق المكيال الطبيعي والمهارات الخلقية، وخاصة فوق شرطين مهمين: الإبداع والممارسة.. أغلب الخريجين يصلون للصحافة بعيوب فاضحة، وبمشكلات مع الهجاء والقواعد اللغوية، وبصعوبة لفهم النصوص بمرونة، بعضهم يُقدّر لأنهم يستطيعون قراءة مستند بالمقلوب على مكتب وزير، أو تسجيل حوار مباغت دون اخبار المتحدث، أو استخدام حوار حميمي قبل ذلك كخبر، أخطر شئ أن هذه الاعتداءات الأخلاقية تخلق مفهوم الخوف من المهنة، القائمة على الضمير والمؤسسة بفخر على تقديس المهمة مهما كان الثمن وفوق كل شئ، لا يثيرهم مبدأ أن أفضل خبر ليس هو ما يُكتب بشكل أفضل، بعضهم مدرّكين لعيوبهم، يشعرون بخيبة الأمل من المدرسة ولا ترتجف أصواتهم وهم يلقون اللوم على مدرسيهم الذين لم يغرسوا فيهم الفضائل التي يشتكون منها الآن، وخاصة الفضول في الحياة، الحق أن هذا النقد يفيد في التعليم العام، الذي يفسده اكتظاظ المدارس التي تتبع الخط المفرغ الذي يُعلم ولا يُشكل، لكن في الحالة الخاصة للصحافة يبدو أن المهنة فضلاً عن ذلك، لم تستطع التطور بنفس سرعة أدواتها، والصحفيون تاهوا في متاهة التكنولوجيا المنطلقة بلا سيطرة نحو المستقبل، بمعنى أن المؤسسات راهنت بقوة على المنافسة الشرسة في جانب التحديث المادى، وتركت للمستقبل تشكيل فرقة المشاة وميكانيزمات المشاركة التي كانت تعزز الروح المعنوية في الماضى. فصالات التحرير معامل عقيمة للبحارة الفرادى، حيث يبدو من الأسهل التعامل مع الظواهر الفلكية من التعامل مع قلوب القراء.

هناك تقدم مهم حدث في النصف الثانى من القرن وهو امكانية التعليق وابداء رأى فى الخبر والتحقيق، وهكذا أثيرت هيئة التحرير ببيانات معلوماتية ومع ذلك لا تبدو النتائج أفضل، حيث أن المهنة لم تتعرض أبداً لخطر مثل اليوم، فاعمل الشائن المبني على اقتباسات مزيفة أو صحيحة

يسمح بأخطاء بريئة أو متعمدة ، تزييف مؤذى أو تحريفات سامة تعطى للخبر عظمة سلاح قاتل ، وآراء المصادر التى تستحق التصديق التام من شخصيات مطلعة بشكل عام أو من كبار الموظفين الذين طلبوا عدم ذكر اسمائهم ، أو من مراقبين يعرفون كل شئ ولا يراهم أحد ، كل ذلك يخلق نوعاً من الشكاوى التى لا عقاب لها ، لكن المذنب يتمسك بحقه فى عدم اطلاع أحد على مصدره دون أن يسأل نفسه ألم يكن هو هو نفسه أداة سهلة لمصدر نقل له المعلومة كما أراد ، وضبطها بالشكل الذى يناسبه أكثر فالصحفى السئ يعتقد أن مصدره هو حياته نفسها خاصة لو كان مصدرًا رسميًا ولهذا يقدره و يتضامن معه ويحميه .. ويصل فى النهاية لإقامة علاقة تواطؤ خطيرة معه تؤدي به لاحتقار نزاهة المصدر الثانى.

لم يكن يخطر على بال أى محرر أو مصور أو حتى ساعى أن يكون معتر القط فى يوم من الأيام رئيسًا لهذا الصرح الصحفى العملاق ، كيف لقزم يناطح العمالقة وينازلهم ويجلس على عرشهم ويشهر قلمه فى وجوههم الأحياء منهم أو الأموات ليقول ها أنذا ؟!.. لكنه ظل قزماً يشفق عليه البعض ، ويسخر منه البعض ، ويتعاطف معه البعض.

بدأ حياته محرراً برلمانياً صغيراً رث الملابس ، غير متناسق الهندام يرتدى عوينات تشبه عوينات الممثل فؤاد المهندس ، شكله العام يوحى بالرتاء أحياناً ، ويبعث على الضحك بهستيرية فى كثير من الأحيان.. ولأنه منوفى الأصل والفصل كان يعرف من أين تؤكل الكتف فواصل رحلة صعوده من البرلمان إلى رئاسة مجلس الوزراء وصار يبعث بأخبار رئيس الوزراء ، وذات مرة كلفوه باجراء حوار مع رئيس الوزراء وأعاد ناجى شرف الدين صياغة الموضوع ووضع له عنواناً فانتازياً :

رئيس الوزراء: أنا خادم الشعب!

نال الموضوع إعجاب واستحسان رئيس الوزراء نفسه فمنحه مكافأة كبيرة واتصل برئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير مُبدئاً شكره

وإعجابه.. من هنا لمع نجم معتز القط الذى كان يعاني من الفقر، ولا يملك هاتفاً محمولاً ويجلس مع عشرة محررين فى مكان ضيق وحجير، وكلما أرادوه فى الجريدة يضطرون للاتصال بابنته "بسمة" على هاتفها المحمول لكن الحياة ابتسمت له وفى أول تغييرات صحفية صار رئيساً للتحرير وجلس على العرش!

بعد هذه المحاضرة التى ألقاها الرجل تحت عنوان متحيز " الصحافة أعظم مهنة فى الدنيا!" كره ناجى شرف الدين الصحافة ومنافقيها ومتسلقى أشجارها وقاطفى ثمارها بغير وجه حق.. وقرر ألا يواصل الدراسة لأنه شعر بأنها مجرد إضاعة للوقت وإهدار للجهد المهدر أصلاً..

كانت قدمه قد زلّت فى الفخ وأصبح عضواً فى هيئته تحرير لجريدة حزبية تسمى "العدالة الإنسانية".. تلك التى يصدرها حزب العدالة الذى يرأسه ويرأس تحرير الجريدة أيضاً الدكتور محمد العادلى.. مقر الجريدة والحزب فى فيلا ضخمة بحى المهندسين.. الفيلا تشبه القلعة الحصينة محاطة بسور ضخم وفوقه أسلاك شائكة وبوابات حديدية تعمل بطريقة إلكترونية، وكاميرات مراقبة داخلية بحيث يستطيع الدكتور محمد العادلى مراقبة المكان كله.. مداخلة ومخارجه والزوار والمحررين، وحتى أفراد الأمن الذين استعان بهم وراعى أن يكونوا أشداء أقوياء مخلصين له، واشترط أن يكونوا من أبناء المحافظات والأقاليم البعيدة ووفر لهم مكاناً ينامون فيه بالطابق الثانى من الفيلا.. والبوابات الاليكترونية لا تسمح لأحد بالدخول إلا بعد التعرف على هويته وهدفه والرجوع إلى الدكتور محمد العادلى الذى لا يفارق الفيلا إلا بعد منتصف الليل يومياً عائداً لمنزله بحى الزمالك..

فوجئ ناجى بأن المكان غريب الأطوار والناس فيه كذلك ولفت نظره الحرص الزائد والحراسة المشددة والإجراءات الأمنية غير العادية، وعندما استفسر قالوا له.. النظام هنا هكذا!

كان الدكتور محمد العادلى رئيس حزب العدالة رجلاً غامضاً يحيط نفسه مثل مقر حزبه وجريدته بأسلاك شائكة وأسوار شاهقة، وحراسة خاصة كما لو كان يخشى من أن يفتاله أحد أعدائه، وما أكثرهم فى الوسط السياسى والثقافى والصحفى، والرجل صفحته قاتمة سوداء وسمعته كذلك، وقد بلغت به درجة الشك والخوف والهواجس أقصى مداها حتى أنه أمر حراسه بتفتيش كل الناس الذين يأتون إلى مقر الحزب والجريدة ومن بينهم شقيقه الوحيد الذى كان يأتى بين الحين والآخر لزيارته والاطمئنان عليه لأنه يعرف أنه صاحب مرض مزمن، يسأل عن أحواله ويتجاذب معه أطراف الحديث، وبرغم جبروت محمد العادلى وشراسته وحبه للشر وحرصه على تعمد إيذاء الآخرين بشتى السبل إلا أنه كان مريضاً بالقلب والسكر والضغط، ويسير على نظام غذائى وعلاجى قاسى للغاية، لكن المثير للاستغراب أنه كان يتلقى الأموال من الخارج وتتدفق عليه كسيل عرمرم، وتتضخم ثروته وتتضاعف أرصده فى البنوك ولا يعرف أحد مصادر هذه الأموال، ولم يسأله جنس مخلوق: من أين لك هذا يا دكتور؟!

تجاوز الرجل الخمسين بسنوات قليلة، ويحرص على ارتداء البالطو الأبيض فوق القميص والبنطلون كما لو كان يحن لحلمه القديم بأن يكون طبيباً وأخفق فى أن يكمل دراسته للطب قبل أن يتحول رغماً عنه إلى الصحافة والاعلام، وشاء رب المشيئة وخالق الخلائق ألا يرزقه الذرية لا بنين ولا بنات فعاش وحيداً مع زوجته زينات التى كانت تنفر من إسمها، وتصر على أن يناديها الجميع باسم "زيزى"، وبرغم قسوته عليها وغلظته وخشونته فى التعامل معها لدرجة أنه كان يسب لها الدين، ويوبخها بالعين الشتائم وأقبح الكلمات، ظلت صابرة على فظاظته، متحملة لجنوحه وجموحه لأنها كانت تعرف أنه قادر على تجريدتها من كل شئ والزج بها فى غياهب السجن إذا غضب عليها، ظلت بجواره خوفاً وطمعاً وفى أعماق قلبها تكن له الحقد الدفين.. خوفاً من لعنته وتحاشى لغضبته وطمعاً فى

جنته التى تتمثل فى الثروة الهائلة التى تتضخم وتنمو مع الأيام فى أرصده
كما ينمو الجنين فى أحشاء أمه!

ظلت زينات تحلم باليوم الذى تداهمه فيه غيبوبة السكر القاتلة أو نوبة
القلب المميتة عندما ينسى الدواء كعادته، لن تذكره به هذه المرة عساها
تكون نهايته المأساوية، والنهاية السعيدة لحياتها الزوجية مع شخص غير
طبيعى فى كل تصرفاته وأفكاره وجنونه.. وذات يوم أحس أنه لا يلقى
الاهتمام الذى يستحقه وهو رئيس حزب سياسى ومالك صحيفة أسبوعية
وفى طريقها لأن تكون يومية، ولا أحد من الحكومة أو قصر الرئاسة
يعره العناية التى تليق به فافتعل حادثه اغتياله على طريق مصر إسكندرية
الصحراوى _ وأطلق الرصاص بنفسه على سيارته ليوهم الجميع بكذبتة،
وأملى على الصحف والقنوات الفضائية المصرية منها والعربية والأجنبية
أن حياتة فى خطر، وأن النظام يبغي التخلص من معارضيه وهو على
رأسهم بالطبع، طار الخبر فى أرجاء المعمورة وعرف به القاصى والدانى
فى مصر المحروسة، فأصدر الرئيس مرسومًا رئاسيًا بتعيينه عضوًا فى
مجلس الشورى، وهكذا يحظى الرجل بالحصانة البرلمانية، كما تضمن
المرسوم الرئاسى أيضًا بأن يتم تعيين حراسة من وزارة الداخلية للرجل مثل
كبار الشخصيات فى الدولة وبعد أن ذاع الأمر وانتشر وحقق الدكتور
محمد العادلى المراد أرسل زوجته زينات إلى شوكت الغطريف رئيس
مجلس الشورى الذى هو فى الوقت نفسه رئيس المجلس الأعلى للصحافة
وأمين عام الحزب الحاكم الزيارة كان غرضها توجيه الشكر، وتقديم
فروض الولاء والطاعة ولو لزم الأمر التسرية عنه وعن رغباته فى جناحه
الخصوصى بالفندق الفخم القريب من مقر البرلمان والمطل على نهر
النيل، ولم يكتف الدكتور محمد العادلى بهذا القدر بعد نجاته من حادث
الاغتيال المشؤم المزعوم، بل أرسل برقيه شكر وعرفان وامتنان للرئيس
فى ذات الوقت الذى أوفد فيه زينات لشوكت الغطريف، ومن وقتها دأبت
على معاودة الرجل فى جناحه الخاص بإصرار وإلحاح من زوجها العصامى

مقر الحزب والجريدة فيلا فخمة استأجرها الدكتور محمد العادلى من مذبة شهيرة لمدة عام واحد ثم تلاعب بشروط العقد واستعان بمحامى متخصص فى التزوير وحتى اليوم مرت عشر سنوات والقضية متداولة فى المحاكم، والمذبة أصابها اليأس من استعادة الفيلا التى ورثتها عن والدها الذى كان رئيساً لوزراء مصر.

داخل هذه الفيلا الإيطالية الطراز والتصميم المعمارى يقضى ناجى شرف الدين نهاره فى العمل الصحفى بقسم الديسك حيث يتولى إعادة صياغة الموضوعات لمحرفين أنصاف مواهب إن لم يكونوا معدومى المواهب على الإطلاق، وكثيراً ما كان يستعير التشبيه اللبناى لمن يعمل بالديسك قائلاً:

"إنه الشخص الذى يتولى غسيل الملابس الداخلية للآخرين!" فهو يجمل عمل غيره ويضعهم على طريق الشهرة والنجومية ويظل هو كالجندى المجهول شهيد مهنته التى تحتم عليه أن يبقى وراء الستار وفى الظل بعيداً عن الأضواء..

فوجئ ناجى بأن رئيس التحرير الذى هو فى الوقت نفسه رئيس الحزب يأتى بأمر جهنمية ما أنزل الله بها من سلطان تخالف القانون والأخلاق، فقد نشر إعلاناً فى عدة صحف قومية يومية من بينها جريدة " الأيام " عن وظائف خالية لمئات من الشباب خريجى الجامعات والمعاهد والمؤهلات المتوسطة، وعندما توافدوا إلى المقر كان قد أصدر أوامره بتحصيل خمسة جنيهاً من كل مقدم لشغل الوظيفة مع ملء عدة استمارات من بينها استمارة يوقع عليها دون أن يكتب فيها كلمة واحدة، واكتشف ناجى شرف الدين بعد ذلك أن هذه الاستمارة البيضاء مسوغات انضمام لحزب العدالة الإنسانية دون أن يعلم هؤلاء الشباب المساكين الذين جاءوا من محافظات مختلفة وهم يعانون من كابوس البطالة المزعج أنهم وقعوا فى

الفخ الذى نصبه لهم.. وفى دردشة عادية بين ناجى وشاب يدعى عبد الصبور الجبالى من محافظة المنيا ويعمل بالفعل فى هذا المكان منذ عامين عرف ناجى بقصة الفتاة "زهرة" التى كانت تعمل سكرتيرة وكاتمة أسرار للدكتور محمد العادلى، وشاء حظها ألاغير أن تقضى زهرة شبابها وأجمل سنوات عمرها خلف الأسوار، تم القبض عليها متلبسة بحيازة مخدرات وحكم عليها بالسجن عشر سنوات ومات والدها حسرة عليها.

ذات ليلة شتوية كالحة جاءت مكالمة هاتفية سرية من لندن عاصمة الضباب للدكتور محمد العادلى قال المتحدث على الطرف الآخر كلمتين فقط: أرسل المندوب!

وبالفعل أرسل المخدرات فى حقيبة يد مع "زهرة" بقيمة مليون دولار إلى شخص ما فى فندق الهيلتون بوسط القاهرة.

وهناك وقعت الواقعة، تم القبض عليها ورفضت أن تقول الحقيقة لرجال الشرطة على أمل أن يتدخل الدكتور بنفوذه وحصانته وينتشلها من الضياع، ولم يكذب الرجل ظنونها جاءها مهرولاً وأوهمها بأنه سيخلصها كما تخلص الشعرة من العجين لكن بشرط ألا تذكر اسمه فى القضية على الإطلاق وأرسل لأمرها عشرة آلاف جنيه ذراً للرماد فى العيون.

وظلت زهرة تكتم الحقيقة المرة عن الجميع، وتنتظر الفرج والإفراج على يد الدكتور محمد العادلى حتى نطق القاضى بالحكم النهائى فى القضية، وأفافت المسكينة على الكارثة.. السجن عشر سنوات مع الشغل والنفاد.

لم يصدق ناجى شرف الدين أذنيه وبدا كما لو كان طفلاً ينصت لإحدى حواديت ومغامرات ألف ليلة وليلة الخرافية أو يستمع لواحدة من الأساطير الإغريقية.

لكنها كانت الحقيقة بوجهها المشرق الذى يبدو وقحاً فى كثير من الأحيان لكنها الحقيقة ولا شئ غيرها.

وبرغم أن الأجواء فى المكان ملبدة بالغيوم، وتعلوها سحب الضباب، وتضوح منها رائحة الشبهات النفاذة إلا أن ناجى شارك فى اجتماع حضره أكثر من ٢٠٠ محرر وموظف صاروا دون علم منهم ولا رغبة أعضاء فى حزب العدالة الإنسانية، انبرى الرجل الأصلع النحيل الشاحب الذى يضغط على نهايات الحروف مقلداً الرئيس السادات وهو ما يزال بالبالتو الأبيض الذى يعتبره داءه ودواءه كما لو كان ملاكاً طاهراً نقياً تقياً.. بدأ " الشيطان يعظ " فقال:

هذه الكلمات ليست شأنًا يخص الجماعة الصحفية فى مصر، بل شأن عام يخص المواطنين كافة، حكاما ومحكومين، باعتبار أن الجميع هم المكون الحقيقى للرأى العام، الذى يتوجه إليه الكتاب والمفكرون والصحفيون وأصحاب الرأى والإعلاميون على تنوع معتقداتهم وتوجهاتهم الفكرية والسياسية.. فالقراء هم وحدهم الذين يكتبون شهادة نجاح أى مطبوعة صحفية بالإقبال عليها فيتحقق لها الاستمرار والازدهار.. والقراء هم وحدهم الذين يكتبون شهادة وفاة أى صحيفة بالابتعاد عنها، لأنها تخون أمانة القلم، وتتقلب على المهنة وآدابها وتقاليدها التى توارثتها الأجيال عن الرواد الأوائل عبر سنين طويلة.

وما أقوله مجرد لفت الأنظار للمخاطر التى تواجه الصحافة المصرية.. اليوم، وفى مستقبل الأيام.. من سعى بعض رجال الأعمال، الذين لا صلة لهم بالصحافة من قريب أو بعيد بهدف إحكام السيطرة على مقدرات الصحافة والصحفيين.. وما نراه من محاولات رأس المال من تملك بعض الصحف، تشبهاً بأخطبوط الاعلام العالمى مردوخ، من تملك بعض الصحف، وكثير من القنوات الفضائية والعبث بسياساتها التحريرية، والنيل من رسالتها فى التنوير، والتثقيف، وقد لا يعرف البعض من هو ذلك المردوخ الرهيب، هو روبرت مردوخ ملياردير وناشر استرالى المولد، أمريكى الجنسية، وهو من أكثر الرجال تأثيراً فى الرأى العام العالمى يوجهه وفق

أغراضه ومخططاته ، كما قالت عنه صحيفة كريستيان ساينس مونيتور الشهيرة ، فى تقرير مهم عن أكثر الرجال نفوذاً وتأثيراً على الناس ، فى هذه الأيام ، أرجعت الصحيفة نفوذه وسطوته لامتلاكه لعدد كبير من وسائل الاعلام العالمية المرئية والمقروءة ، يسخرها لخدمة أغراضه ، مما جعل الإعلاميين المحترمين يقدمون استقالاتهم فور شرائه للصحف التى يعملون فيها ، ويستطرد التقرير: بنظرة سريعة على ممتلكاته الإعلامية تجعل الناس يتساءلون إن كان مجرد واجهة لمخطط صهيونى عالمى تمت صناعته ببراعة منذ سبعينيات القرن الماضى ، ويتساءلون أيضاً: كيف تحققت له هذه الأموال الطائلة ، وما هى مشروعية جمعها حتى امتدت إمبراطوريته الإعلامية إلى أنحاء كثيرة من العالم من إستراليا إلى بريطانيا إلى نيويورك وإلى الصين فأصبح الملك غير المتوج للاعلام الدولى عابر القارات والمحيطات والذى يسعى لتخريب العقول ، وهدم القيم النظيفة والداعى إلى كل ما هو فاضح ومشين.

إن إحتكار فرد أو مجموعة أفراد ، لا صلة لهم بالصحافة يقلق الشعوب ، فتملك فرد معظم صحف العالم ظاهرة احتكار سياسى ، حيث يعمل الفرد أو مجموعة من الأفراد على تسخير ما تحت أيديهم ، وهو كثير بما يخدم أغراضهم ، كما أن دخول المؤسسات الصحفية إلى مجال المنافسة بين المستثمرين فى أسواق المال يثير قضية مهمة: ما علاقة رأس المال بالصحافة إلى جانب انعكاسات هذا التوجه على حقوق الصحفيين والإداريين والعمال الذين يعملون فى هذه المؤسسات؟.. وفى نفس الوقت يثير قضية لا تقل خطراً على سابقاتها وهى: حقوق القارئ فى أن يتلقى إعلاماً نظيفاً يقوم على انتاجه وصناعته وتجويده صحفيون محترمون.. وفى ظل تنامي هذه الاحتكارات تحجب عن القراء المعلومات والحق فى المعرفة ، وهو أحد الحقوق الأساسية للإنسان ، والتى تقوم الحكومات وتنشأ لكفالة وتنظيم حق ممارستها ، كما قال بذلك منصور حسن وزير الاعلام فى عهد الرئيس السادات أوأخر عام ١٩٧٨ ، وسواء تملك فرد أو مجموعة أفراد ، أو

أنظمة الحكم فالجميع يدعى أنهم يعملون على حماية المصلحة العامة ، وباسم هذه المصلحة تحجب بعض المعلومات بدعوى أنها غير حقيقية ، وأن فى إذاعتها ونشرها إضرار بالصالح العام ، ومن هذه النقطة تبدأ محاولة السيطرة على الاعلام فى خطوات متدرجة تنتهى إلى سيطرة كاملة على المعلومات التى تقدم للمواطنين عن طريق تملك الصحف ووسائل الاعلام الأخرى وتوجيه ما تذيبه ، فلا تمنع فحسب المعلومات غير الحقيقية ، بل تقدم للمواطن معلومات تعلم أنها غير حقيقية ، مدعية أنها تعمل على حماية مصالح الوطن العليا ، وهكذا تنتهى الرغبة فى حماية المواطن من المعلومات الضارة ، إلى مصادرة كل حق له فى أن يعرف.. وتكمن خطورة هذا الحجب فى أنه يحرم المواطن من خبرات كثيرة.. ومن معرفة حقائق الأمور داخل الوطن وخارجه.. أنهم بهذا التصرف اللئيم يتشبهون بضرعون موسى الذى قال لقومه: "لا أرىكم إلا ما أرى" ، وقد ينجح القائمون على تملك هذه الصحف فى تكوين رأى عام مؤيد لهم فى كثير من تصرفاتهم الخاطئة.

وما دمنا نتحدث عن مساوئ احتكار الفرد أو مجموعة أفراد أو النظم الحاكمة للمؤسسات الصحفية ، ووسائل الإعلام الأخرى.. أذكر دراسة نشرتها منذ عشرين سنة ، فى مجلة " الصحفيون " وكانت تصدر شهرياً عن نقابتنا الموقرة ، وهى مجلة متخصصة فى الشؤون الصحفية وقضايا الرأى العام ، وكان نقيب الصحفيين هو رئيس تحريرها .

والمثير للدهشة أن القضايا التى عرضناها فى هذه الدراسة ، تحت عنوان: " الصحافة المصرية بين المهنة والمحنة " خمس قضايا أساسية ، حذرنا فيها من المخاطر التى قد تؤدى إلى انصراف القراء عنها ، وهى نفس القضايا المثارة على الساحة الصحفية والإعلامية فى هذه الأيام ، وكأن الزمن قد توقف ، وأصبحنا ندور فى حلقة مفرغة لا أول لها ولا آخر ، أو محلك سر بل إلى الخلف در ، وأصبحنا أسرى نفس السلبات التى

حذرت من استمرارها منذ عشرين سنة! ولم نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، نتحدث عن غيبة الانتماء المهني، وتجاوزات الصحف الدينية، وأخطار الفتنة الطائفية، وأجور الصحفيين المتدنية التي دفعت كثيراً منهم للوقوف على أبواب الصحف الخاصة والجري وراء الفضائيات لعرض إنتاجهم من أخبار وتحقيقات صحفية بصورة غير لائقة، ولكن ما الذي رماهم إلى المر والبهذلة وقلة القيمة هو الأمر منه، هم معذرون فالدخل الشهري الذي يتقاضونه من صحفهم التي يعملون بها لا يوفر لهم ولأسرهم الحد الأدنى للحياة اللائقة الكريمة.. وامتدت مناقشات الكتاب والصحفيين في مجلة " الصحفيون " إلى علاقة الصحفي بالإعلان.. وعلاقة رأس المال بالصحافة.. والصحافة بين الالتزام الحزبي وقواعد المهنة، وتقاليد الصحافة وترسانة القوانين المقيدة للحريات، والتساهل المعيب عند القيد بجدول الصحفيين، الذي أصبح مفتوحاً على " البهلى أو البحرى "، نتج عنه تكديس الجدول بأعداد هائلة من الأعضاء، وأصبح كثير منهم لا يجدون فرصة عمل لائقة.. وقد ساهم في هذا التكديس قيام المؤسسات الصحفية بسيادة الفكر القبلي بين رؤساء مجالس الإدارات وصحفي كل مؤسسة، والحرص على أن يكون النقيب وأعضاء المجلس من بين ابنائها.. دون الاهتمام باختيار الأفضل.. حيث قامت المؤسسات الصحفية، بمنح بعض العاملين بها من غير الصحفيين، من إداريين وموظفي أمن وسكرتارية شهادات تتيح لهم القيد في جدول النقابة دون استحقاق قانوني وعمل.. وهذا التساهل المعيب يتحمله الصحفيون أنفسهم، فقد أخطأوا في حق مهنتهم، مما أتاح الفرصة للأسف وفق القانون الحالي، لتسلل عدد كبير ممن لا مهنة له إلى عضوية النقابة.

وأذكر أن القيد في جدول النقابة قبل صدور القانون الحالي، كان يمر بإجراءات تحفظ للمهنة هيبتها وكرامتها وقد مررت بهذه الإجراءات عام ١٩٦٥، عندما تقدمت للقيد بجدول المشتغلين، كانت اللجنة برئاسة عنصر قضائي وكان المتقدم يحلف اليمين أمام لجنة برئاسة أحد رؤساء

محكمة استئناف القاهرة وعضوية أحد رؤساء النيابة العامة، وممثل للنقابة وممثل لهيئة الاستعلامات، ويمنح العضوية بعد أن يكون قد اجتاز متطلبات مهنة الصحافة من تنوع ثقافى، وعلى وعى بقضايا الوطن والأمة العربية والإسلامية مع إلمام بما يجرى فى الداخل والخارج من أحداث.. ورؤيته لها..

توقف الرجل لحظات التقط أنفاسه، وتجرع كوب ماء ثم قال:

لا شك أن حلف اليمين أمام الهيئة الموقرة لجنة القيد، يلقي على الصحفى مسئوليات كبيرة تجاه قرائه، ويشعره بجلال القضاء وعدله، والحرص على كرامته بين مواطنيه، وإعلاء شأن الصحيفة التى يعمل بها.. لقد كان العنصر القضائى يمثل الضمان الوحيد لصحة الشهادات التى يقدمها طالب القيد، وبعد صدور القانون الحالى عام ١٩٧٠، لم يعد للعنصر القضائى وجود بدعى أن النقابة سيدة جدولها وقرارها، وأنها ليست فى حاجة إلى عنصر قضائى، وأصبحت نقابة الصحفيين أول من ابتدع هذا الشعار المغيب، وسار على خطاها فيما بعد مجلس الشعب الذى أطلق صيحته المدوية: مجلس الشعب سيد قراره، عند البت فى صحة انتخاب الأعضاء أو عند رفع الحصانة البرلمانية عن أحد أعضائه.. وعود على بدء إلى الدراسة التى نشرناها فى مجلة "الصحفيين" .. وكأننا كنا نستشرف المستقبل، فقد حددنا خمسة مخاطر يجب تداركها، والتصدى لها للحفاظ على أنبل رسالة لأعظم مهنة:

قيام الحكومات بحجب المعلومات عن الصحف، ومنع الصحفيين من الوصول إليها بهدف إخفاء الحقيقة عن الرأى العام، أو ما يسمى بالتعتيم الاعلامى إزاء حدث مهم، أو مجموعة أحداث.

التفسير الخاطئ من بعض الصحفيين لمفهوم حرية الصحافة، إذ يعتبرها البعض أنها حريتهم وحدهم دون سائر خلق الله إلى الدرجة التى تحولت فيها خلافات الصحفيين الشخصية، بينهم وبين بعضهم أو مع بعض

المواطنين إلى قضايا رأى عام.. لذلك نرى البعض يجيشون أنفسهم بكل أسلحة الهجوم على الآخر.. من اتهام بالعمالة ، وتناوب بالألقاب وبألفاظ لا تليق بحملة الأعلام حماة الرأى والرأى الآخر.

تحول بعض الصحفيين إلى رقباء يتولون حذف أو تشويه الأخبار والموضوعات وقضايا الرأى لصالح مالك الصحيفة أو لصالح السلطة سواء طلب ذلك منهم أو قاموا بهذا العمل الأثيم نفاقاً ورياءً وتقرباً وزلفى أو خوفاً وطمعاً!

قيام الصحافة بإصدار أحكام الإدانة فى القضاء قبل أن يقول كلمته الفاصلة بحكم نهائى وبات.

" عجبت لمن ضاع حقه.. ولا يخرج على الناس شاهراً سيفه! "

اندلعت ثورة عارمة فى مؤسسة الأيام الصحفية أطلق عليها جنرالات القلم فى بلاط صاحبة الجلالة.. " ثورة السعاة " تيمناً بثورة الجياع.. تمردوا ورفضوا تنفيذ أوامر رؤسائهم بعد أن ضجوا وملوا ويئسوا من طول الانتظار لقرار التعيين الذى لم ولن يأتى، تعاهدوا على الإضراب والاحتجاج والصراخ حتى يصل صوتهم إلى أعلى عليين، رفعوا شعاراً تعلموه من المدرسة الابتدائية قبل أن يغادروا فصول التعليم إلى غير رجعة: الاتحاد قوة!

تركوا المكاتب بلا نظافة تحيطها الأوساخ من كل صوب وحذب عسى أن يشعر الكبار فى المؤسسة أن هؤلاء السعاة الصغار أصحاب حق وهم بشر يستحقون الحياة، لا صراصير تستحق السحل بالنعال.. كان زعيمهم المتوج وناظرهم الأكبر سامى الأزعر شاب نحيل الجسم ضئيل الحجم دقيق الملامح قصير القامة لا يزيد طوله عن ١٥٠ سم لكنه قوى الشخصية يتعامل مع الجميع بثقة كأنه طويل عملاق ضخمة، هو منوفى الأصل والفصل وقد غير محل إقامته فى بطاقته الشخصية، وجعلها شبرا بدلاً من المنوفية حتى لا يعايره أحد بأنه منوفى ينتمى إلى محافظة سيئة السمعة.. نجح سامى الأزعر هذا الساعى الخصوصى لميرفت العطيفى رئيس تحرير مجلة " نجوم الفنون " فى أن يستفز ويثير غضب أكثر من عشرين من السعاة الذين قضوا فى خدمة المؤسسة حوالى سبع سنوات دون تعيين يؤمن مستقبلهم، وكانت مؤسسة الأيام تعاملهم بالأجر اليومى الذى لا يكفيهم لتناول الخبز الحاف.

اعتصموا جميعاً أمام المبنى الرئيسى للمؤسسة حيث يستطيع رئيس مجلس الإدارة رؤيتهم لو كلف خاطره وأطل من نافذته، وكتبت صحف

المعارضة وسجلت معهم بعض الفضائيات المصرية والعربية وفى المقدمة قناة " الجريئة " المثيرة للجدل والغضب، ولما يؤسوا من رحمة قيادات المؤسسة لجأوا إلى سلم النقابة مطالبين بحقهم فى التعيين أسوة بزملائهم فى المؤسسات والهيئات والشركات الأخرى!

وجاء الفرج بعد أسبوع الغضب استجاب رئيس مجلس الإدارة وأصدر أوامره بتحرير عقود سنوية لهؤلاء السعادة، فرحوا وهللوا وظنوا أنهم حققوا نصراً مؤزرًا لكنهم اكتشفوا أنها كانت خدعة كبيرة، وأن العقد مجرد فخ نصبته لهم المؤسسة، لأنه لا يمنحهم مزايا جديدة، وأجورهم كما هى لن تزيد جنيهاً واحداً فلم يكن أمامهم إلا رفض صيغة التعاقد وأصروا على التعيين قبل العودة لممارسة عملهم مرة أخرى، وعندما علم رئيس مجلس الإدارة غضب كثيراً ووصفهم بالحقالة، وهدد بالاستغناء عنهم والاستعانة بشركة نظافة قطاع خاص تحل محلهم ما لم يعودوا لأداء عملهم خلال ٢٤ ساعة، أحس السعاة بالخطر الداهم يهدد مصيرهم ووجودهم فى المؤسسة، وأنهم صاروا على كف عفريت فرضخوا وعادوا لعملهم فى إصدارات المؤسسة المختلفة مكسورى الجناح على أمل أن ينفذ رئيس مجلس الإدارة وعده الهزيل بتعيين من يثبت كفاءته وولاءه للمؤسسة والصبر عليها حتى تمنحه شرف البقاء الأبدى بها فى الوقت المناسب.

ظهرت لسامى الأزعر كرامات تجسدت فى سلطته القوية على زملائه وطاعتهم العمياء له برغم أن مواصفاته الجسدية لا تؤهله أبداً للزعامة، وإن كان قد قدم التاريخ لنا زعامات من قصار القامة.. والقائمة طويلة يتصدرهم الزعيم لألمانى ناظر مدرسة النازية أدولف هتلر!

أمرهم سامى الأزعر أن يعودوا إلى أماكنهم فعداوا.. مثلما يأمر الجنرال جنوده أن ينسحبوا من ميدان المعركة بعد أن أوشكوا على الهزيمة ليخرجوا منها بأقل الخسائر الممكنة، لم يلوموه أو يسألوه.. لماذا حرضتنا على التمرد؟! ولماذا تأمرنا الآن بالتراجع والاستسلام؟!

الغريب فى الأمر أن محرراً إنضم لصفوف السعاة الغاضبين الثائرين، فقد شعر هذا المحرر بالظلم والغبن، وله قصة طريفة جداً، دفعته لأن يكون بينهم بعد أن استأذن سامى الأزعر بالطبع الذى أذن له بشرط ألا يخرج عن طوعه ولا يشذ عن الجماعة قائلاً له بحزم وحسم:

— لا يغرنك أنك محرر صحفى ونحن سعاة، فالمجموعة لا بد لها من قائد تسمع له ولا يشق أحد صفها، صحيح الأمر شورى لكن القيادة ضرورة. أبدى المحرر موافقته راضياً مرضياً.

هذا المحرر ظل يعمل بمجلة "الحوادث" التى تصدر عن مؤسسة "الأيام" ويرأس تحريرها مسعود صلاح حوالى ست سنوات، وذات مرة أعد موضوعاً صحفياً عن "فتيات الليل والبغاء فى مصر"، وعندما عجز عن توفير الصور اللازمة للنشر بسبب رفض الفتيات نشر صورهن استعان بمجموعة صور عشوائية لعدد من الفتيات من على شبكة الانترنت، ولسوء حظه جاء أهالى البنات إلى مقر المؤسسة فى اليوم التالى لنشر الموضوع وطرح المجلة فى الأسواق.. وقد اعتبروا نشر صور بناتهم مصيبة كبرى، وهددوا باللجوء للقضاء إنقاذاً لبناتهم من العار والفضيحة، وأكدوا أن بناتهم فاضلات عفيفات طاهرات لا علاقة لهن من قريب أو بعيد بالليل والبغاء.

فكر مسعود صلاح رئيس التحرير طويلاً.. كيف يمكن له الخروج من هذا المأزق الصحفى والخطأ المهنى الفادح؟.. مصداقيته ومصداقية مجلته اهتزت بصورة غير مسبوقة أمام الرأى العام، وقيادات المؤسسة وعلى شاشات الفضائيات التى ترصد الفضائح يومياً وتبحث عن الإثارة وإن لم تجدها تخترعها.

بعد تأمل عميق وتفكير دقيق إهتدى مسعود صلاح إلى حل مثالى ينقذه من هذه الكارثة، وفى الوقت نفسه يرضى عائلات البنات ويهدئ ثورتهم فما كان منه إلا أن كتب مقاله الافتتاحى فى مجلة الحوادث تحت عنوان "المزور وبنات الليل.. الحقيقة الكاملة!" ونشر مع المقال صورة كبيرة

للمحرر المتهم بتزوير الصور على غلاف المجلة ، ولم يكتف بفضحه والتشهير به بل قرر طرده من المجلة والمؤسسة..وأعلن ذلك فى مقاله بصراحة يحسد عليها ، ولم يشفع للفتى المتهم بالتزوير أنه درس الصحافة والاعلام ، وعمل بمجلة " الحوادث " حوالى ست سنوات دون عائد يذكر سواء كان مادياً أو معنوياً ، وكان كل أمله أن يحظى بالتعيين ، ويصبح عضواً فى نقابة الصحفيين ليضمن مستقبله المهنى ثم يفكر فى الحب والزواج مثل كل زملائه الذين سبقوه فى العمل بالمؤسسة.

عاد السعاة إلى مواقع خدمتهم ، بينما توجه المحرر إياه إلى مكتب رئيسه متوسلاً إليه أن يعيده إلى عمله فلم يقبل.. لجأ المحرر إلى وساطة بعض الصحفيين وهو يعرف أن مسعود صلاح يقدرهم ولهم فى قلبه مكانه متميزة وحب لا ينضب ، وتحت الضغوط والإلحاح وحتى لا يضيع مستقبل الفتى هباء ، وافق مسعود صلاح على إعادته لعمله بشرط أن يعمل ساعياً ينظف مكاتب زملائه فى المجلة ويقدم لهم الشاى والقهوة لمدة عام كامل! بكى المحرر بالدموع الحارة واستجدى رئيس التحرير أن يخفف عنه تلك العقوبة القاسية ، فقرر الرجل أن تكون ستة شهور فقط ، ورآها عقوبة عادلة فى حين رآها المحرر المتهم بالتزوير والحمافة عقبة ظالمة لا بد من تجاوزها ، وعادت الأمور إلى نصابها بعد فترة من الزمن وانتهى الأمر!

فى هذه الأثناء كان ناجى شرف الدين يتابع من خلال قراءاته حكاية أخرى أكثر إثارة وطرافة وجاذبية من حكاية السعاة الذين يقودهم قصير القامة المنوفى الطموح الجريئ سامى الأزعر والمحرر الغبى الأحمق إياه.. كان يتابع حدوته رجل والده كان مولعاً بالثقافة ، وبارعاً فى الجدل والحوار وتمنى أن يصبح ابنه الذى يتسم بالذكاء والفتنة ، رجل دين ، وامثل الفتى روبرت مالتوس لرغبة الأب ، وصار كذلك لفترة ، لكنه كان شغوفاً بالفلسفة والاقتصاد ، ولذلك ترك الكهنوت ، وصار أستاذاً للاقتصاد فى الجامعة البريطانية حدث ذلك نهاية القرن الثامن عشر.

وكان مالتوس محبا للمرح ويؤثر البهجة ولم يقطب جبينه إلا لمأما ، خاصة عندما تؤرقه مشكلات زمنه وأفضت به دراساته المستفيضة ، وتأملاته العميقة إلى إطلاق إنذارات احتمالات المجاعة القادمة ، وأكد أن السكان يتزايد عددهم بمعدل أكبر من زيادة الموارد التى يقتاتون بها ، وحذر من أن الأوبئة والحروب والكوارث الطبيعية هى وحدها القادرة على تقليص عدد السكان.

وعندما نشر مالتوس رؤيته القاتمة هذه تسابقت الصحف السيارة لرجمه بسيل أحبارها ، ورشقه كبار الشعراء بقصائد الهجاء والسخرية ، وقال شاعر مرموق هو كوليريدج مبدع " الملاح القديم " .. إنه لأمر محزن أن يصفى حكماء بريطانيا وحكامها لما يقوله مالتوس ، وكأن المطلوب اسكاته ، وتحديد إقامته الفكرية.

وكان المفكرون والسياسيون فى ذلك الزمن يرون أن زيادة السكان نعمة لا نقمة ، ويمنون النفس بالفردوس الأراضى المنشود ، ذلك أن الرومانسية الفكرية كانت تسدل ستائرهما الزاهية ألوانها عليهم ، وما أن كاد مالتوس يعصف برومانسية أحلام يقظتهم ، حتى انقلبوا عليه ، لكن كان من حسن حظه وحظهم أن انذاراته لم تتحقق ، برغم أن منطقهم كان صائبا فقد انطلقت الثورة الصناعية ، وتجلت التكنولوجيا وتقدم الطب .. وأفلت البشر من براثن الموت جوعاً ..

غير أن رؤية مالتوس لم تهبط من عرشها ، وظلت تراوغ وتنتظر لحظة انفجار حممها ، وربما كان هذا ما بدت انذاراته منذ نحو ثلاث سنوات ، فقد استبد الفزع بالدنيا ذات صباح من غلاء أسعار المواد الغذائية ، واندلعت مظاهرات صاخبة فى عواصم شتى ، وترنحت حكومتا هايتى والسنغال وصرخت صحيفة وول ستريت الأمريكية فى صفحتها الأولى وهى تحذر من تجدد مخاوف مالتوس.

وكانت جماهير الهند قد بدأت الاحتجاج مبكراً ، وأطاحت بحزب

يميني متشدد كان يرفع شعار الهند المشرقة، لكن الفلاحين لم يشعروا
بأى إشراق فى حياتهم ولذلك صوتوا لحزب المؤتمر بزعامة سونيا غاندى،
واهتم رئيس الوزراء بتحسين أحوال الفلاحين، وزيادة ميزانية الزراعة،
وكانت الهند قد تمكنت إبان الثورة الخضراء الأولى فى عقد الستينيات
من تحقيق طفرة زراعية، وهى سياسة سعت بلدان أخرى لبلوغ أهدافها،
فانخفضت أسعار المواد الغذائية.

وعندئذ غيرت الحكومات مسار اهتمامها، وأهملت الفلاحين والزراعة
طوال ثلاثة عقود.. حتى صدمها ارتفاع الأسعار، وتحذيرات من أن زمن
المواد الغذائية الرخيصة قد ولى وانتهى إلى غير رجعة.

ولم يعد ممكنا الإفلات من هواجس مالتوس، وحتى يمكن ذلك لابد
من العودة إلى الأرض الزراعية، وبدء ثورة خضراء جديدة.

" لا تنتقم.. إجلس على حافة النهر وانتظر.. وذات يوم سوف يأتيك الموج حاملاً معه جثة عدوك! "

يحرص معتز القط رئيس تحرير جريدة الأيام كل الحرص على أن يحج كل عام ولا يترك ركعة من صلاة سواء كانت فرضاً أو سنة إلا ويؤديها على أكمل وجه، ويهتم بشدة بمقالاته التي يناقش فيها السلطة، ويتزلف للرئيس وبطانته، ويلعن الجهاد ضد الفنانات المحجبات، ويطالبهن بنزع الحجاب، ويكفيهن برقع الحياء، ويشجع عودتهن لإرتداء المايوه، وهو شخصية تجمع كثير من المتناقضات، فهو طيب شرير.. جميل قبيح.. مجنون عاقل.. عنيف حنون شرس هادئ ثائر كبركان نائم تحت الرماد، وكثيراً ما أكد للمقربين منه أن رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير السابق لمؤسسة الأيام لم تنته علاقته بالسبق الصحفي والشارع والمؤتمرات السياسية، والتصريحات النارية الخاصة.. الرجل لاشك مختلف تماماً عن القيادات الصحفية " التاريخية " التي خرجت من بلاط صاحبة الجلالة قبل سنوات بعد خدمة طويلة جداً إلى جوار القيادة العليا في قمة الهرم الصحفي.

الرجل أسس صحيفته اليومية الخاصة، وما زال يكتب عموده اليومي في جريدة " الأيام " ليس هذا فحسب بل إن الصحفيين سيعثرون عليه بسهولة في المنتديات الكبرى حيث المعلومة والمصادر المهمة أو عبر الهاتف بحثاً عن رأيه في قضية أو كضيف لبرنامج فضائي مثير للجدل والصخب من البرامج التي تملأ الشاشات والفضائيات ليلاً ويسمونها " التوك شو " في المقابل ما تزال قصص وذكريات الرجل الكبير السابق في الهيمنة على المؤسسة على مدار ربع قرن من الزمان ماثلة في الأذهان داخل المبنى الصحفي الضخم بشارع الصحافة، وهو المقر الجديد لمؤسسة الأيام للنشر

والصحافة ، الصدفة وحدها قادت معتز القط إلى عرش الرجل السابق ليكون خليفته فى حكم المؤسسة ، والهيمنة على مقاليدها ومقدراتها .
لم يسع القط للدخول ولم يغامر باختراق المجهول ، ولم يفكر طويلاً فى حسابات المكسب والخسارة لتصوير المكتب الذى آل إليه بملحقه " الجاكوزى " الشهير ، وهل هو حقيقى كما تردد.. أم مجرد شائعة أطلقها أعداؤه ، كما أكد الرجل بنفسه أكثر من مرة .

فى الطابق التاسع من مؤسسة الأيام يوجد نصف المكتب الفخم لرئيس المؤسسة السابق ، وهو عبارة عن إستراحة ضخمة ، أما النصف الآخر فهو فى الدور الثامن حيث كان المكتب الرسمى للكاتب الصحفى الذى تبوأ رئاسة المؤسسة لعقدين ونصف من الزمان .

الاستراحة التى تجول فيها معتز القط فيها مكتب متوسط المساحة كان مخصصاً لطاغم السكرتارية الخاص به ، وتشغله حالياً سكرتيرة معتز القط ، وهذا المكتب مفتوح على مصراعيه الآن بعد أن عصفت السياسة والصحافة برئيس التحرير السابق .

الغريب فى الأمر لأن مكتب معتز القط يعد جزءاً من مملكة الرجل السابق ، ومفتوح على بهو واسع تتجاوز مساحته المائة متروبه صالة استقبال حديثة تنتهى بسلم حلزونى يربط الاستراحة بالمكتب فى الطابق الثامن .

أما الجهة الأخرى للإستقبال فهى مرتبطة بغرفة نوم كبيرة ورومانسية بألوان هادئة بدرجات اللون الأزرق الناعم..واللافت للنظر فى الغرفة أنها تحتوى على سرير نوم فسيح مريح حيرى الفراش وكرسى فوთيه ، والكوميديون المجاور للباب تعلوه ثلاثة أجهزة تليفزيون .

وحجرة النوم هذه يربطها باب داخلى بحمام متسع تتجاوز مساحته الخمسين متراً ، وما أن فتح معتز القط الباب حتى وقعت عينه على الجاكوزى السرى الشهير ، ولكى يتأكد من أنه حقيقى وليس وهمًا أو دربًا من خيال اقترب منه وطلب من كبير مصورى المؤسسة فاروق علم

الدين أن يلتقط له مجموعة من الصور التذكارية للتاريخ فى هذا المكان الذى لا مثيل له فى كل المؤسسات الصحفية على أرض المحروسة!
قال مازحاً:

— اسمع يا فاروق هذه الصور ليست للنشر.

ولأن معلومات معتز القط الأولية فى عالم الحمامات لم تنفعه فى تقدير قيمة وفخامة "جاكوزى" سلفه قياساً بغيره.. تساءل: هل هناك إرشادات معينة قبل الإستحمام فيه، وما الوقت المناسب للمساج؟ وهل كتابة العمود الصحفى وعمقه ودقته تكون مختلفة بعد الجاكوزى عما كانت عليه من قبل؟!

فى هذه الأثناء كان ناجى شرف الدين يسعى جاهداً أن يثبت أقدامه فى صحيفة حزب العدالة الإنسانية حتى يضمن الحصول على العائد المادى المجزى برغم كل المخاطر والمطبات التى حاصرتة.

وقد ظن ناجى شرف الدين أن علاقته توثقت عراها مع الدكتور محمد العادلى صاحب الجريدة ورئيس الحزب بعد أن إكتشف الرجل موهبته الصحفية المتفردة، ولكن العادلى طلب من محررى الجريدة إعداد موضوع صحفى عن أبناء الرؤساء فى الوطن العربى، وكيف يرثون عروش الأباء، وتعرض فيه بسوء لنجلى رئيس الجمهورية، ودلل على أنهما جمعا ثروة هائلة وغير مشروعة من وراء وجود والدهما فى سدة الرئاسة، وكتبوا فى الموضوع بصراحة أنهما لا يصلحان للحكم والرئاسة والسياسة ووضع الدكتور محمد العادلى اسم ناجى شرف الدين على هذا التحقيق الصحفى أثناء وجود ناجى شرف الدين فى أجازة لزيارة والدته فى قريته النائية بمحافظة الغربية.

وتوالى المفاجآت على رأس ناجى شرف الدين بعد نشر الموضوع، فقد فوجئ دون جريمة إرتكبها بأكثر من جهة أمنية تستدعيه لسؤاله، ثم كانت المفاجأة المدوية التى زلزلت كيانه.. مفاجأة لم يكن يتوقعها

على الاطلاق حيث رفع نجلا الرئيس قضية ضده بصفته محرر الموضوع، وكذلك ضد الدكتور محمد العادلى بصفته رئيس التحرير، ولم يعدم الدكتور العادلى الوسيلة للخروج من تهمة السب والقذف والاساءة لهما.. نجا العادلى بسهولة بنفوذه وألاعيبه وحصانته البرلمانية كرئيس حزب معارض وعضو فى مجلس الشورى وصدر الحكم ضد ناجى بالحبس لمدة عام، وتم القبض عليه بالفعل، واقتادوه للسجن لتنفيذ الحكم، ولم يكن ناجى وحده ضحية جرائم النشر، فقد صدرت أحكام عديدة بحبس الصحفيين، ولم يكن أمام نقيب الصحفيين تحت ضغط وإلحاح من جموع الصحفيين أعضاء النقابة إلا أن يتقدم بمذكرة إلى رئيس الجمهورية يلتمس تدخل الرئيس لمنع حبس الصحفيين فى جرائم النشر بدعوى حماية الحرية التى منحها الرئيس للصحافة والاعلام طوال فترة حكمه المديدة. وكعادة الرئيس فى مثل هذه الحالات إستجاب لهذا المطلب الإنسانى الجماهيرى للاعلاميين والصحفيين، وأصدر مرسوماً جمهورياً يقضى بالافراج عن الصحفيين المحبوسين على ذمة قضايا النشر، وعدم جواز حبس أى صحفى فى قضية نشر، ويمكن الاكتفاء فقط بالغرامة المالية!

" جميعنا سجناء.. بعضنا فى سجون ذات نوافذ.. والبعض الآخر فى سجون بلا نوافذ!"

احتار ناجى شرف الدين كثيراً.. لم يعرف لماذا اختارته تلك المرأة دون غيره لتبوح له بحكايتها، جاءت تلك السيدة المنقبة للقاء رئيس التحرير الذى لم يكن موجوداً فى ذلك الوقت، فجلست فى مكتبه لتحكى له عن القبض على زوجها أثناء مشاركتة فى إحدى المظاهرات التى يحرص على قيادتها أمام مبنى نقابة الصحفيين بوسط القاهرة..

أرادت أن تطلب مساعدة رئيس التحرير للإفراج عن زوجها الذى هو بطبيعة الحال يعمل صحفياً فى جريدة " الأيام " وإذا لم يساعدها فى الإفراج عن زوجها فمن يساعدها إذن؟.. ناجى يعرف زوجها عز المعرفة فهو زميله فى المؤسسة وابن صحفى وروائى شهير راحل ذائع الصيت، وتحولت معظم أعماله إلى أفلام سينمائية ومسلسلات تليفزيونية.. لكن ابن هذا الرجل الشهير الذى هو زوجها إنخرط فى جماعة الإخوان المسلمين على غير رغبة والده ولا مباركتة، ومن ساعته أطلق لحيته وصار يقف على باب نقابته ممسكاً بالميكروفون يدعو للحرية، وهو نفسه يسجن زوجته وبناته خلف أسوار النقب، ويحرم عليهن مشاهدة التليفزيون ويجبرهن على إرتداء النقاب.. بدأت السيدة تحكى قصتها مع زوجها الصحفى رهين الاعتقال الآن قائلة:

_ لقد تسابقتم.. يا أصحاب الأقلام الصحفية كل واحد بأسلوبه، وبقدر شجاعته للترحيب بإنقاذ شعب أفغانستان من عذاب عهد الجاهلية الذى عانى منه طوال سنوات عديدة ماضية، ونشرت الصحف والمجلات العربية، والفضائيات الأجنبية والعربية صور مظاهر الفرح والسرور التى عمت كل أرجاء أفغانستان بعد خلاص شعبها من نير الجهل،

والتعصب الأعمى لكل الأديان السماوية ، وإنقاذ المرأة الأفغانية من
تعنت الحاكم الأفغاني الجبار ، وإصراره على إذلالها ، واضطهادها ،
والتحقير من شأنها ، وحرمانها من كل ما أحله الله سبحانه وتعالى ،
ومن كل ما نهت عنه شريعة الإسلام السمحة التي أعطت المرأة حقوقاً
أكثر من كل الحقوق التي حددتها باقي الأديان السماوية لنسائها.
لقد نشرت صحفنا ، ومجلاتنا العربية ، وفصائلتنا الإعلامية صور
المرأة الأفغانية ، بعد استسلام حكم صبية الطالبان ، وبعد هروب
جناء تنظيم القاعدة ، وهي تلقي على الأرض بالبرقع الذي فرض عليها
ارتداؤه ، وتكشف بعد سنوات عديدة عن وجهها أملاً في استنشاق
نسمات الحرية بعد طول اختناق ، وصورة أخرى للمرأة الأفغانية التي
عاودت تردها على الكوافير بعد طول غياب ، وصورة ثالثة وهي تترك
وجهها لأخرى تعيد تزيينه بالأحمر على شفثتها ، و الرميل الأسود فوق
رموشها ، ويحدد حاجبيها ، والأزرق أو الأخضر تحت جفنيها ، إيداناً
ودليلاً على استعادتها لأبسط حقوقها في أن تتنفس وتتجمل وتزين
بعد أن تم تحريرها من الخيمة التي تتخفي تحتها ، ومن الإظلام المادي
والنفسي الذي كُرَّهها في الحياة ذاتها ، وكثيراً ما ابتهمت إلى الله
تعالى في سرها و بعد أن يكون جلادها قد نام وشبع نوماً قاتلة :
ربي.. لقد خلقتني حرة ، ووضعت لي أسلوب حياتي في الدنيا بحيث لا
أغضبك ، ولا أعصي أوامرک ، ولا أكون عاراً على أهلي وبيتي وعشيرتي ،
أما بعد أن أسلمنا حياتنا وأمورنا إلى الجهلاء بدينك وشريعتك.. فأحالوا
حياتنا إلى جحيم لا يقل في نيرانه ولهيبه ولسعته المميتة عن جهنم
التي تحذرننا منها ، فقد فقدنا أية رغبة في الحياة الدنيا التي لم نعد
نستمتع بها ، ولا نحرص عليها. ربي.. لا تغضب منّا إذا خالفنا أوامرک..
وأقدمنا على الانتحار خلاصاً من الأهوال التي لم يعد في وسعنا ، ولا
في استطاعتنا احتمالها ، وفقدنا الأمل في اقتراب تحريرنا من أسوأ
أنواع الرق والعبودية التي تحرّمها شريعة ديننا الإسلامي السمح الرحيم.

ولم تكتف أبواقكم الصحفية والتلفزيونية بالتهليل لتحرير المرأة الأفغانية، وإنما أسرفتم أيضا في التبشير بتحرير الرجل الأفغاني الذي حرّم عليه صبية طالبان ارتداء زي غير الزي الذي فرضوه، ومنعهم له من حلق لحيته والتبويه عليه بعدم تهذيبها، وحظر مزاولة الرياضة، أو مشاهدة الأفلام السينمائية، أو الاستماع إلى الموسيقى والأغاني إلى جانب وقف الإرسال التلفزيوني!

لقد نشرتم صورا عديدة لافتتاح صالونات الحلاقة في كابول وباقي المدن الأفغانية، وصورا ثانية للشباب وهم يلعبون مباراة في كرة القدم، وصورا ثالثة، ورابعة، و...و...وعاشرة لرجال يرقصون، ويضحكون، ويغنون، ويترددون على دور السينما التي أعيد افتتاحها، وعودة الإرسال التلفزيوني وظهور مقدمات برامج تلفزيون غير منقبات، ومقدمي برامج يرتدون الحلة، والقميص، والكرافت! وواصلتم في مصر وفي باقي الدول العربية مسيرتكم الجهادية ضد الإرهاب والإرهابيين، اكتفاء بالمقالات النارية، ونشر صور تحرير الشعب الأفغاني من الجهل والتعصب، وتهنئة بعضكم البعض على ما قمتم به، باعتبار أن الإعلام يقدم للرأي العام ما يجري في الدول الأخرى، وليس ما يجري في بلده، وتحت سمع وبصر عباقرة الإعلام، وأصحاب الريادة في بثه وكتابته وعرضه! ما أبشع ما قمتم وتقومون به.. أيها السادة الإعلاميون العرب، والإعلاميون المصريون!..

أرجوك ألا تستعجلني..و ألا تمل بسرعة مما تسمع..هو مجرد مقدمة للقضية الحقيقية والأساسية التي أريد أن ألفت نظرك، ونظر الشعب المصري بصفة عامة إلى حقائقها، ووقائعها فعلى ما يبدو أنكم جميعا تعيشون في أبراجكم العاجية العالية جدا..ولا يعينكم إلقاء نظرة على ما يجري تحت أنوفكم. وثقيا أخي أن ما لا تراه، وما لا تسمعه تحت أنفك وبعيدا عن سمعك هو أشبه بالبركان المشتعل، الذي ينتظر أول فرصة للانفجار بحممه

ليشعل الأرض كلها ناراً ودماراً.. لن تتوقف لساعاتها على أجساد الفقراء والمحرومين والضعفاء في هذا البلد أو ذاك، وإنما ستمسك أول ما تمسك بأجساد الأثرياء والأغنياء الذين يتوهمون أن الأبراج العالية التي يحتمون بعاجها قادرة على منع النيران المتأججة من الوصول إليهم ولنسبهم وحرقتهم، وتحويلهم إلى رماد تتناثره أول نفحة هواء. أعترف لك أخي الكريم بأن المقدمة طالت أكثر مما يجب.. ولعلني قصدت بهذه الإطالة أن أثير دهشتك، وأكثر من لهفتك إلى معرفة النهاية التي أريد اقتيادك إليها.. فلو أنني كنت مباشرة في طرح مشكلتي، فمن المؤكد أنك ستعتبرها مشكلة شخصية. الذي أريد أن أؤكد لك أنني لا أطمع في كسب مساندتك، فأنت لا تملك مع إحترامي لقدراتك أن تساعدني في هذه المشكلة، فهي أكبر بكثير من قدراتك، أعلم أن صبرك عليّ قد نفذ، وأنت تحاول الآن أن تستعجلني لأصل إلى ما أسعي إليه، لكن أستحلفك بأغلي شخص لديك أن تتحملني أكثر مما تحمّلت.. وثق أنني بعد أن أطلت في المقدمة، سأصل إلى النهاية أسرع مما توقعت!

حياتي بدأت عادية جداً، طفولة سعيدة بين أسرة بسيطة متدينة، وملتزمة بتعاليم ديننا السمح.

شاء حظي ألا أكون جميلة، ورغم ذلك لم أحزن ولم يمتليء قلبي بالغيرة من زميلاتي الجميلات في المدارس والجامعة التي تخرجت فيها، قلبي لم يعرف طوال طفولتي وشبابي غير الحب، وغير المشاركة في أفراح معارفي وصديقاتي، والحزن لأحزانهم. وشجعتني أسرتي على مزاولة العمل في وظيفة تتناسب مع دراستي، وتتفق مع ميولي. فكل أفراد أسرتي الصغيرة، وعائلتي الكبيرة، لا يفرقون بين الولد وال بنت، وبالذات حقهما في العمل الذي يعتبر عبادة.. كما كنّا نقول وحتى زمن قريب.

وتقدم شاب لطلب يدي..

أعجبتني فيه قوة شخصيته، وسلامة تفكيره وخفة دمه، وعدالته في كل مواقفه.

فهو متدين.. لكنه لا يتزمت.

يرفض التبرج في زينة المرأة.. لكنه لا يستخدم في إقناعها إلا الكلمة الهادئة، والنصيحة الصادقة، ويترك لها بعد ذلك أن تقرر ما تراه، دون أن يعادبها، أو يغضبها، أو حتي يكرر نصيحته.

لم يعارض في البداية أن استمر في وظيفتي المتواضعة بإحدى شركات القطاع الخاص وسط عشرات من الرجال، فمن رأيه الذي حُبني فيه كثيرا.. وقتذاك أن الفتاة التي حسنت تربيتها دينياً واجتماعياً وأخلاقياً، لا يخشي عليها حتي لو ألقى بها في جبالية الذئاب. وأضاف قائلاً، ومطمئناً:

إنني أوافق على استمرارك في العمل، مادمت راغبة فيه. وإذا رأيت فيما بعد.. أن اهتمامك ببيتنا وبأولادنا القادمين إن شاء الله تعالى، قد يتأثر.. فربما تضطرين إلى تقديم استقالتك، والتفرغ لمهامك الأكثر سموً، فسأكون أول من يؤيدك وأول من يشجعك. كلمات طيبة.. ومواقف نبيلة.. بهرت بها، وزادت من حماسي للموافقة عليه زوجاً متفهماً، وصديقاً متجاوباً، ورب أسرة يحرص كل الحرص على أن يسعد شريكته في الحياة، ويوفر لها كل ما تحتاجه من حب، وتفهم واحترام. وسبحان مغيّر الأحوال..

فقبل انتهاء مايسمي شهر العسل.. فوجئت برجل جديد لم أعرفه من قبل، وشاءت الأقدار أن أعيش معه تحت سقف واحد حتي آخر لحظة في عمري. الالبتسامة التي كانت لا تفارقه أصبحت نادرة ومنقرضة.

سماعته التي جذبتني إليه خلال شهور الخطبة تبددت فجأة، وتحولت في يوم

وليلة إلى تعنت، وتسَلط واستحواذ، وديكتاتورية لم أسمع طوال حياتي بمثل فرماناتها التعسفية، وقراراتها التي لا تسمح بأي نقض أو إبرام!

بعد أسبوع واحد من الزواج، طلب مني الجلوس أمامه ليسمعني أوامرہ:
أولا: يجب قطع علاقتك بالعمل نهائيا. ليس مطلوباً منك تقديم استقالتك، وإنما المطلوب فقط أن تتغيب عن عملك بدون عذر، حتي يتم فصلك بعد غياب ١٥ يوما.. طبقا لقانون العمل، ودون الحصول على أي حق من حقوقك، لأننا لسنا في حاجة إليها.

ثانيا: لم تحظ من الطبيعة بلمسة جمال، وعليك الاعتراف الآن بأن مستحضرات التجميل الصناعية لن تحقق لوجهك ما تحلمين له به.. يكفيك إنني قبلتك على حالتك، ورضيت بمواصفات وجهك وثقل جسدك، وهذا يكفيك.. مطلوب منك التخلص فورا من كل هذه الموبقات التي تضعينها تحت مرآة الشوفينية، من أحمر وأزرق وأخضر وأسود. أريدك كما خلقك الله، بدون تزويق ولا تجميل زائف. لقد رضيت به رغم دمامتك، ورغم ترهل جسمك.. وفي المقابل فإنني أنتظر أن تحافظي على ما وافقت عليه، وأن تشكريني على ما رضيت به، وكان يمكن أن يرفضه غيري من الرجال.

ثالثا: أعلم أن وجهك لا يلفت أنظار الرجال، لكن لا أحد يستبعد أن بين الرجال من يلهثون وراء أية أنثى نظيفة أو قدرة، جميلة أو قبيحة، نحيلة أو سمينية، متدينة أو منحلّة، شابة أو كهلة، وهذه النوعية من الرجال المنتشرة للأسف الشديد في مجتمعنا المصري الكافر الحالي يجب الابتعاد عنها، ويجب بالنسبة لك أنت بالذات عدم إثارة شهوة واحد منهم، والوسيلة الوحيدة لهذه الغاية هي ارتداء ما يخفيك عن أنظارهم الفاجرة، ويحميك من شهواتهم الحيوانية.

رابعا: لقد عشت طوال سنوات طفولتك وشبابك وأنت سافرة الوجه، مكشوفة شعر الرأس.. وهذا ذنب جسيم سيحاسب عليه أبوك وأمك وأخوتك الرجال، قبل أن تحاسبني عليه.. لقد كنت ضحلة التفكير، وضئيلة الإيمان،

ومهووسة بما يعرضه التلفيزيون من موبقات وخطايا لا يقبلها دين أو عرف أو شرف! إن الله رحيم وغفور لعباده..ومن حسن حظك أن الله سبحانه وتعالى قد منحك فرصة عمرك بطلبي يدك، لأنقذك من عذاب جهنم الذي كان مصيرك لا محالة لو أنك تزوجت من رجل غيري لا يؤمن بما تؤمن به، ولا يهتمه ختام حياتك كما شاء قدرتي أن أهتم به. مطلوب منك ابتداء من هذه اللحظة أن تقومي بعد انتهائي من هذه الجلسة بتمزيق كل ملابسك، وحرق كل أثوابك الحريرية الخارجية منها والداخلية وتحضري خياطة لتفصل لك الثوب الوحيد الذي يجب على المرأة المسلمة ارتداؤه داخل بيتها، وخارجها.. لقد أجمعت الآراء حول مواصفات هذا الزي الإسلامي نقلا عن الرواة، وبداية من رسول الإسلام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، إنه الثوب الذي يغطي جسد المرأة من أخصص قدميها حتي أعلى شعرة فوق رأسها.. لن أقبل بالحجاب الذي يثير أكثر مما يحصن، ولن أقبل بأثواب ملونة غير اللون الأسود، ولا أسمح بأيدي عارية دون جوانتي من الصوف الأسود أو الأبيض يخفي اليدين، إلى جانب الشراب السميكة الأسود الذي يخفي القدمين قبل إدخالهما في الشبشب أو الحذاء.. الثوب الإسلامي الأكيد هو الذي لا يسمح بأكثر من ضربة موسى واحدة، ورفيعة بعرض مساحة العين يمينا ويسارا يمكن من خلالها الرؤية التي تحمي من الاصطدام بأي عائق أمامك.

وهالني ما تلقيته من فرمانات لم تكن تخطر على بالي، ولا على بال كل من عرفتهم، وعشت بينهم، و تصادقت معهم، وسمعت عن أحوالهم من جيراننا..القرييين منّا أو البعيدين عنّا.

لقد رفضت هذه فرمانات كلها.. وعدت إلى بيت أهلي أشكو لهم مما فوجئت بسماعه، وفزعي مما يطالبني به الرجل الذي لم أكن أعرف حقيقته قبل أن أدخل بيته، وأنام على سرير، وأعيش تحت سقف بيته.

وفزع أهلي، بقدر فزعي..

غضب أبي، أكثر من غضبي..

وبكت أمي، كأقصى مايمكنها تقديمه لمساعدتي، ومساندتي..
وأجمعت الآراء على استحالة الاستمرار في حياة مع مثل هذا الرجل، وصمم
أبي وأمي وأخوتي وأعمامي على طلب الطلاق، ويادار ما دخلك شر.
والتقي أبي وشقيقه الأكبر مع زوجي.. وقالوا له ما لم أستطع أن أصارحه
به، وهو يصدر لي فرماناته.. الواحد بعد الآخر.

وبعد انتهاء اللقاء.. عاد أبي وعمي لينقلا لنا نتيجته، فقال أبي نقلاً عن
زوجي إن الرجل فوجيء بثورتنا عليه، وأنه كان ودوداً إلى أقصى درجة،
وأن هدفه الأوحد من وراء فرماناته الأربعة حرصه على حمايتي، وحفاظاً
على قناعاتي الدينية.. لا أقل ولا أكثر!

ولا تسيء الظن بي إذا علمت أنني وافقت على ماقاله أبي وعمي، وتماشيت
مع تبريرات زوجي الذي كنت وقتها أسيرة حبه، ومصدقة لمعظم أفكاره
المغلفة برقائيق سماحته، ونبل توجهاته.

أرجوك.. لا تلمني إذا اعترفت لك بأنني وافقت بعد عودتي إلى منزله على
فرماناته الأربعة، بكل دقائقها وكل غرابتها، وكل تبعاتها:

(١) إنقطعت عن عملي بدون عذر لأكثر من ١٥ يوماً، ولم أرد على
مكالمات واتصالات وخطابات إدارة الشركة التي كانت حريصة حتي
آخر لحظة على الاحتفاظ بي موظفة جديرة بتحمل مسئولية ما كُلفت به
من عمل ومسئوليات.

وفي النهاية.. وصلني خطاب الفصل، الذي سعد به زوجي سعادة كبيرة،
وصمم على الاحتفال به بطريقته المعتادة التي كانت تسعدني في احتفالاته
قبل وصول هذا الخطاب الحزين على قلبي، وعلى إحساسي بآدميتي
ووجودي كعضو عامل في المجتمع.

(٢) رميت في كيس الزبالة بكل مستحضرات التجميل، ولم أعد أفعل

بوجهي أكثر من غسله بالماء ، الذي يتكرر خمس مرات يومياً.. وقبل كل صلاة.

(٣) وزعت كل ملابسني على المحتاجين لها ، وبعضها حصلت عليه شقيقتاتي ، وبعض صديقاتي.

(٤) جاء زوجي بخياطة منقبة ، لم أر وجهها حتي هذه اللحظة ، رغم مرور أكثر من عشرين عاماً على تردها سنوياً على بيتي ، وأصبحت مصدري الوحيد أمس واليوم ، وغدا للحصول على الثوب الديني طبقاً لشريعة الله.. كما أكد لي زوجي الذي يتوهم أنه مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ الفتيات والنساء المسلمات من أخطائهن وخطاياهن! أثواب عديدة لا تفترق عن الشوال الذي يخفي كل بوصة من جسدي ، ما عدا ضربة موسى بطول عيني.. شمالاً ويميناً وبلونين لا شريك لهما.. اللون الأسود واللون الأبيض. الأول للخروج والثاني للبقاء داخل منزلي! لا تتعجب.. فالنقاب يجب الالتزام بارتدائه طوال الساعات التي أمضيها في البيت ، ليس باعتباري عورة بالنسبة لزوجي الممتدين ، وإنما لأسباب أخرى ، سيأتي ذكرها لاحقاً.. ولن تكون مقنعة لك ، تماماً كما أنها لم تكن مقنعة لي ، ولا لكل من سمع عنها.. من أقاربي ، ومعارفي والغرباء عني!

(٥) لقد عشت مع زوجي ما يقرب من ربع قرن من الزمان ، وأقسم لك سيدي الكريم إنني لم أنعم ، أو أسعد معه أكثر من أسبوع واحد خلال هذه الفترة الطويلة جداً من أغلي وأعز سنوات شبابي الذي ضاع هدراً ، وكبتاً ، وتعتيماً ، وإظلاماً ، وعذاباً.. لا أول له ولا آخر!

وأسباب هذا العناء كله يمكن تلخيصها في الوقائع التالية ، رغم حرصني الشديد على اختصارها في نقاط محددة ومعدودة حتي لا يزداد مللك ، وقد يتسبب في نفاذ صبرك حتي لا أنسي.. أحب أن أبلغك بأنني الآن أم لستة أطفال: أربع بنات ، وولدين ، في جميع مراحل التعليم من ابتدائي ، وإعدادي ، وثانوي ، وجامعة.

فزوجي ربما يهديه الله لا يري في الزواج أكثر من أنه يحقق المتعة التي يبررها زيادة نسل أمة محمد صلى الله عليه وسلم..ولولا أنني بلغت الآن منتصف الحلقة الخامسة من عمري ٥٣ سنة لما قنع بالأولاد الستة، ولو كان في استطاعته لضاعف عددهم مرات ومرات!

الذي يهملك كما أعتقد أن زوجي غفر الله له، وسامحه وهداه أصدر فرمانا فور انتهاء أسبوع العسل يقضي بحظر الضحك في شقتنا.. وتحريم إظهاره أو سماعه، أو حتي رؤيته! فالضحك كما أكد لي صفة من صفات الشيطان الذي لا هم له، ولا هدف غير إفساد المؤمنين المسلمين!

فور انتهاء ما يسمي: أسبوع العسل.. اختفت الضحكات من وجهي ووجه زوجي كما لم يجرؤ أحد من زوار شقتنا الكبيرة المتعددة الغرفات على الضحك أو حتى الابتسامة.. كي لا يخضع لعقوبة فرمان حظر دخوله مرة أخرى إلى شقتنا! تخيل حجم الكآبة التي خيمت تحت سقف غرف شقتنا نتيجة للالتزام بتنفيذ فرمان يحظر ويحرم الضحك تطبيقا لتعاليم زوجي الذي يزعم أنها مستوحاة من تعاليم وبنود ونصوص الشريعة الإسلامية.

وتخيل أيضا كيف يكون بيت يمتليء بالأطفال الصغار، ويحظر فيه الضحك، أو اللعب لأن قراقوش عصره وزمانه منع أولاده بدءاً من سن الرابعة من الضحك، أو اللعب، وجاء بشيخ ضرير ليحفظهم القرآن طوال ساعات النهار بما فيها الدقائق التي نجتمع خلالها حول المائدة لتناول وجبتي الغداء والعشاء.

أطفال لم يبلغوا سن الالتحاق بالمدرسة الابتدائية.. ولم يعرفوا بعد الفرق بين الألف و الباء، ورغم ذلك أجبرناهم على ترديد وحفظ ما ينطق به الشيخ الضرير دون أن يفقهوا كلمة واحدة مما يحفظونه عن ظهر قلب، ويرددونه ويكررونه لساعات وساعات. فوجئت به يطلب مني تغطية شعر الطفلة بمجرد بلوغها سن الرابعة، ثم النقاب بعد بلوغها سن السابعة وما بعدها. وحتى أكون قدوة

لبناتي، فقد أمرني بارتداء النقاب الأبيض داخل المنزل، ولا أخلعه أبدا أثناء قيامي بالأعمال المنزلية من تنظيف وغسيل وطبخ، حتي لا يشجع ذلك بناتنا على خلع النقاب خارج المنزل وبعيدا عن عيوننا! نسكن في شقة كبيرة مكونة من ٥ غرف وصالة واسعة، وهناك جهاز تسجيل في كل غرفة، وكل ركن وفي الوقت نفسه لا يوجد أي جهاز تليفزيون، أو جهاز راديو، لأن كلا الجهازين بدعة يحرمها الدين، وتبليد أفكار الأولاد والبنات، وتصرفهم عن الهدف الأوحد من وراء خلقهم في هذه الدنيا الفانية.

أجهزة التسجيل وحدها المسموح بتشغيلها طوال ساعات النهار، وحتى نأوي إلى فراش النوم. هناك أكثر من جهاز خصصه زوجي لسماع آيات القرآن الكريم، وباقي الأجهزة مخصصة لإذاعة أحاديث علماء الدين، ودعائهم من المصريين والعرب.. لدينا مئات من هذه الأشرطة التي يزداد عددها، أو يتناقص تبعا لأسباب أصبحنا نعرفها، ونتوقعها في أية لحظة. فعلي سبيل المثال.. لا الحصر:

كان زوجي من أكثر المتحمسين لشرائط الداعية الإسلامي المعروف (حسان الحساني) وكثيرا ما كان يجمعنا لسماع أحاديثه، وخطبه، وتفسيراته لكل ما يهتم به المسلم المؤمن الملتزم في حياته اليومية. وكثيرا ما كان يثني على ابن أو ابنة من أولادنا إذا حفظ هذا الابن، أو تلك الابنة مقاطع من خطب وكلمات وتفسيرات الداعية (حسان الحساني) وكانت المكافأة الوحيدة والمعتادة لهما هي منحهما المزيد من الأشرطة الجديدة للداعية الإسلامي المعروف. مرت سنوات عديدة.. وحفاوة زوجي بأشرطة (حسان الحساني) تتزايد، وتتضاعف، شريطا بعد شريط إلى أن فوجئنا ذات مساء بزوجي يعود إلى المنزل مكتئبا واثارا وساخطا وانهال سبا وشتما، وتجريحا في هذا الداعية!

لم نجرؤ بالطبع على سؤاله عن سبب ثورته على شيخه المفضل، فقد اعتدنا أن نترك له حق تفسير مايقوله أو الامتناع عنه. وبعد وصلة الهجوم

العنيف على الشيخ انتقل زوجي في حديثه الغاضب والساخط إلى تقديم مبرراته التي أنصت لها دون مقاطعة، أو مشاركة في وصلة الغضب والسخط والشتم.

تحدث زوجي قائلاً: تصوّروا.. لقد طلع هذا المذكور نصاباً فاسداً ومنحلاً! لقد سجلت له وزارة الداخلية شريط فيديو ظهر فيه المذكور بالصوت والصورة في أوضاع مخلة بالدين والأدب ويستحق عليها شنقه في ميدان عام! وعندما استدعوه إلى مقر مباحث أمن الدولة وعرضوا عليه الشريط.. إنهار، وبكي، وركع ليقبل حذاء الضابط الكبير، ويستحلفه بأغلي ما عنده أن يستر فضيحته، مقابل أن يفعل أي شيء وكل شيء يطلب منه، بما في ذلك استعداده الفوري للهجرة نهائياً من مصر وعدم العودة إليها حتي آخر يوم في حياته.. وتركه ضباط مباحث أمن الدولة فترة طويلة يعلن خلالها عن ندمه على ما قام به، وطلب منهم الرحمة به وبأسرته من الفضيحة المدوية التي ستصدم الملايين الذين يعجبون به، ويحرصون على سماعه في المساجد، ويدعونه إلى زيارتهم في بيوتهم ليهديهم بما لم يستطع أن يهدي به نفسه! وفي النهاية.. تعطف الضابط الكبير على الكافر المنحل النصاب الذي يتدثر بعباءة الشيوخ والعلماء الأجلاء فوافق على عدم عرض الشريط المخجل على الملأ، وطلب منه عدم الهجرة والبقاء في مصر بشرط واحد هو أن يتواري عن الأنظار، ويتوقف نهائياً عن انتحال صفة الداعية الإسلامي التي هو أبعد الناس عنها، وآخر من يمكن أن يتقمصها. وظهرت آثار الصدمة الهائلة وملامح الحزن العميق على وجوهنا جميعاً، ولم تصدر كلمة واحدة منا تعليقاً على ما سمعناه... ولم يكن زوجي ينتظر سماع أي تعليق على ما قاله فهو يكتفي عادة بإبلاغنا بالحدث، ثم يعلمنا بعد ذلك بقراره، وما علينا إلا التنفيذ. صمت زوجي قليلاً.. ثم أمرني بإحضار الحلة الكبيرة! فسارعت إلى المطبخ دون أن أسأله بالطبع عن سبب طلبه الحلة، فقد تعودت مراراً على هذا الطلب، وأعرف مقدماً الغرض منه.

جئت مسرعة بالحلة الكبيرة، ووضعتها على الأرض وسط غرفة الجلوس، وطلب زوجي من إبنى الكبير أن يأتي بكل أشرطة الداعية الإسلامية المنحل من مكتبة الأشرطة التي تشغل حيزاً كبيراً من حوائط كل غرفة من غرف شقتنا الكبيرة. وكان الحمل ثقيلاً على ابني فاحتاج إلى سواعد أبنائي وبناتي الستة لمعاونته في حمل عشرات الشرائط للداعية المنحل!

وعندما تجمعت أكوام الشرائط على المائدة وعلي الشلت الموزعة داخل الصالة الكبيرة.. نسيت أن أقول لك أن زوجي باع غرفة الصالون.. المقاعد والفوتيل والكنبة لأن السلفيين العظماء كانوا يجلسون على الأرض، ولا بأس من الاستعاضة عنها بالشتل في عصرنا الحديث، وقام صاحب الأمر والنهي الأوحى في بيتنا بإحصاء عدد الأشرطة ثم قسمها على أفراد الأسرة بالطريقة الشرعية للذكر ضعف حظ الأنثى، وطلب منا إلقاءها شريطاً بعد آخر داخل الحلة الكبيرة، ثم سكب فوقها الكيروسين، وألقي بعود كبريت مشتعل فوقها، لتتصاعد ألسنة النار، وتمتليء الغرفة بالدخان والرائحة المنفرة من الأشرطة المحترقة، وكُنَّا نردد وراء كبير العائلة أدعيته، وكلها تبتهل إلى الله بسرعة توقيع العقاب على الداعية المنحل الذي خدعنا وخدع الملايين معنا. لم يكن الداعية المنحل (حسان الحسانى) هو أول وآخر من عرفت أشرطة طريقها المحتوم داخل الحلة الكبيرة، فلقد سبقه كثيرون من الدعاة الكبار، وكم أحرزني اليوم الذي ظلم فيه زوجي داعية إسلامياً كنت وما زلت مؤمنة بأنه أعظمهم وأتقاهم وأزهدهم حياة وأخشاهم لله، ورغم ذلك كله صدق زوجي وشاية كاذبة زعم له صاحبها أن فضيلة الشيخ (حسان الحسانى) يعيش عيشة المترفين المبذرين، ويسكن قصرًا منيفاً، وأنه بالإضافة إلى ذلك يوافق الحكومة، ويسعى إلى التقرب منها، ويمتتع عن كشف كفرها، وفضح قوانينها التي تتعارض مع تعاليم ونصوص الشريعة الإسلامية، مما استحق الامتناع عن ذكره، أو الاستماع إلى مايقوله في

الأشرطة التي احتفلنا ذات مساء بحرقها داخل الحلة الكبيرة!

وفي هذا العام فقط حدثنا زوجي عن شاب صغير السن تخرج في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ويرتدي أحدث بدع الأزياء الأوروبية، وأنه أصبح فجأة داعية من دعاة الإسلام، وأن السيدات الثريات يتسابقن إلى حضور الجلسات التي يعقدها لتعليمهن حقائق الدين الإسلامي.. وعلق زوجي بعد ذلك قائلاً: يكفي أن نعلم أن هذا الغلام تخرج في الجامعة الأمريكية حتي نحكم عليه بأنه دسيسة أمريكية هدفها تشويه ديننا الحنيف في أذهان السامعين! ويكفيننا أيضاً أن هذا الغلام يجد قبولاً من السيدات اللاهيات السافرات المتعطرات اللاتي تترددن على منازل الغرباء عنهن بزعم الاستماع إلى مايقوله لهن هذا الغلام من خزعبلات ترضيهن، ومحرّمات يحللها لهن حتي نتأكد من أن الحكاية كلها لا تخرج عن كونها فسق في فسق، لا يرضاه الله ورسوله الكريم.

وفهمنا من حيثيات الحكم الذي أصدره زوجي ضد هذا الداعية الغلام أنه لن يحضر لنا أشرطته لسماعها كما تعودنا منه مع كل الدعاة الجدد الذين سمع عنهم، واستمع إلى أقوالهم ووافق عليها ورضي عنهم مقدماً. وبعد شهور عديدة.. فوجئنا بزوجي يجمعنا من حوله ليقول:

يبدو أنني ظلمت الداعية الشاب.. فقد تأكدت بنفسي من أنه مخلص في جهاده من أجل نصره ديننا الحنيف، وأن هدفه الحقيقي هو هداية الفتيات والنساء السائرات على حل شعرهن! وكان من الذكاء بحيث أنه حرص على الظهور كشاب أوروبي يرتدي البدلة ويحلق لحيته حتي تطمئن النساء السافرات إليه، ويجلسن أمامه ليسمعن حديثاً هادئاً فيه من المسموحات أكثر بكثير من الممنوعات، وجلسة بعد أخرى يبدأ الداعية الداهية بعد أن كسب ثقتهن، ونال إعجابهن، وسيطر على عقولهن في الكشف عن حقيقته كداعية إسلامي متشدد، وكواعظ ديني متمكّن، وسمعت أن العشرات من الفتيات السافرات

حرقن أثوابهن العارية الفاجرة ، وتحجب بعضهن وتتقب البعض الآخر .
لقد رفضت شراء أشرطةه الأولى التي يمّوه بها ، ويظهر خلالها في صورة
غير حقيقية.. أما الأشرطة الأخيرة فهي مختلفة تماماً وجئت لكم ببعضها
حتى نستمع إليها ثم نتناقش حول أقواله وأحكامه.

أذكر أن ابنتي الكبرى سألت أباهما ذات يوم:

لماذا يا والدي لا تحضر لنا أشرطة كبار علماء الدين مثل فضيلة شيخ
الأزهر وفضيلة مفتي الديار المصرية ، وأساتذة جامعة الأزهر الذين سمعت
خالي يبدي إعجابه بأقوالهم في الإذاعة والتلفزيون؟

فوجئت بزوجي يرد على ابنتنا بأعرب إجابة كنت أتوقعها قال:

هؤلاء من عملاء الحكومة الكافرة يأتُمرون بأوامرها ، وينطقون بلسانها .
إن خالك من الجهلاء الذين لا أمل في هدايتهم ، لذلك نراه يجد بغيته فيما
يسمعه من أحكام عملاء الحكومة الذين يحللون الحرام ، ويفسرون كلام
الله على غير ما أنزل به! لا مكان في بيتي لأشرطة هؤلاء.

توقفت السيدة لحظات ثم قالت: أكرر رجائي بمزيد من صبرك على
ثرتي..

لقد شرحت لك باختصار مخلّ عن حياتنا اليومية داخل بيتنا ، والآن حان
وقت الحديث عن قضايا أخرى تحظى هي أيضاً بفرمانات زوجي التفسيرية:
يرى زوجي أن التعليم حتى آخر مراحل.. يصلح للابن الذكر ، ولا فائدة منه
للابنة الأنثى.. وحجته في ذلك أنني زوجته تعلمت وتخرجت في الجامعة ، ثم
تضرغت فور زواجنا لإنجاب الأولاد وتولّي مسؤولية تربيتهن التربية الإسلامية
البعيدة كل البعد عن تربية المجتمع الكافر الذي نرفضه ، ونضطر إلى
الانتساب إليه رغماً عنا وعلي أمل السعي الدءوب مع غيرنا من المسلمين
المؤمنين الحقيقيين لتغييره ، وإنقاذه من عذاب جهنم الذي ينتظره!

لقد وافق زوجي على تعليم أولادنا من الذكور في المدارس والجامعات..
الإبن الأكبر حالياً في منتصف دراسته الجامعية ، والأصغر في نهاية

المرحلة الثانوية. أما بناتنا الأربع.. فقد اختار لهن معهداً دينياً قريباً من منزلنا ليتعلمن فيه ما لا علم لي ولا له به من تعاليم الدين وشريعته.. هذا المعهد عبارة عن شقة في الدور الأرضي لا يقبل غير الفتيات الصغيرات، ولا علاقة بين ما يُدرّس في فصوله وبين مناهج التعليم الحكومية، وبالتالي فإن الشهادة التي يمنحها في نهاية المرحلة الدراسية لا تجد من يعترف بها أو تساوي أكثر من ثمن الورق الذي كتبت بياناتها عليه. الابنة الكبرى، والابنة الثانية أنهتا دراستهما الابتدائية في هذا المعهد، ثم انتهت علاقتهما به، وقرر زوجي بقاءهما في البيت، وجاء لهما بالشيخ الضرير ليواصل تعليمهما الديني الذي يجب ألا تحصلا عليه خارج جدران المنزل، أما الابنتان الثالثة والرابعة فهما في سن تسمح لهما بالتردد على المعهد الديني إلى أن تعودا نهائياً إلى البيت بمجرد الانتهاء من المرحلة التعليمية الدينية الابتدائية. لا تسألني ما الذي تعلمته بناتي؟! ولا تسألني أيضاً عن جهلن المطبق بكل شيء وأي شيء مما تقدمه مناهج وزارة التربية والتعليم في مدارسها الحكومية المجانية.. ولا أقول عن مناهج المدارس الخاصة التي تفوق مدارس الحكومة في نوعية موادها، وحداثة مناهجها.. إن بناتي الأربع لا يعرضن - الكبرى منهن قبل الصغرى - أكثر من فك الخط، وإن كن يحفظن الكثير من آيات القرآن الكريم، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم، وبعض فقرات مطولة من أحاديث ومواعظ الدعاة الإسلاميين من خلال انصاتهم الدائم لما يسمعهن طوال ساعات النهار من الأشرطة التي حدثتكن عنها من قبل. والأمر يختلف بالنسبة لولدينا الشابين اللذين يواصلان بتفوق ملحوظ الدراسة المنهجية في المدارس الحكومية وجامعتها، ويستقطعان كل وقت وجودهما داخل المنزل وحتى لحظة نومهما في مشاركة شقيقاتهما الاستماع إلى الأشرطة، وقيام الأخ الأكبر بامتحان شقيقاته فيما تعلمنه وحفظنه أولاً بأول.. ويقدم للأب بعد عودته من العمل نتيجة هذه الاختبارات اليومية، فيكافئ الحافظة الناجحة بشريط جديد، ويعنف التي لم تحفظ جيداً مستخدماً في ذلك لسانه ويده وعصاه وحزامه الجلدي!

في البداية كنت أشفق على الولدين من الحياة التي فرضت عليهما ، وكنت أبكي بحرقة وأنا أراهما محرومين من اللعب مع أولاد الجيران ، ومنعهما من التردد على النادي في أيام الجمعة والأجازات ، ورفض ذهابهما إلى دار السينما إلى جانب حرمانهما من وجود جهاز تليفزيون يشاهدان برامجه ، وعدم وجود جهاز راديو يستمعان إلى ما يذيعه من نشرات أخبار وبرامج وموسيقى وغناء! وفي بعض الأحيان ومن فرط إشفاعي عليهما ، كنت أنتهز فرصة خروج زوجي إلى عمله فأصحبهما لزيارة إحدى جاراتي في نفس العمارة للعب مع أولادهما ، ومشاهدة برامج التليفزيون ، والاستماع إلى موسيقى وأغنيات منبعثة من جهاز الراديو ثم توقفت هذه الزيارات الخاطفة فور علم زوجي واعتراف الابن الأكبر بها فأنزل زوجي عقابه الشديد عليّ ، وعلي الولدين اللذين لا ذنب لهما! هل تصدق أننا لا نعرف ما يجري في الدنيا خارج حدود شقتنا إلا ما نسمعه من أخوتي وأخواتي؟!

وهل تصدق أيضا أنه لا وسيلة لنا بالاتصال بهؤلاء الأخوة والأخوات إلا إذا جاءوا لزيارتنا ، وبتصريح مسبق من زوجي؟!

لقد حرمنا من ترف التليفون حتي لا نتعرض للمعاكسات! واكتفي زوجي بالتليفون المحمول الذي لا يفارق الجيب الأعلى من جلبابه طوال اليوم ، ويضعه بجانب مخدته خلال ساعات نومه ، ولست في حاجة لأقول لك إنه محظور علينا استخدامه أو حتي الرد على مكالماته فهذا تحصيل حاصل.

وقد تسألني: ما الهدف الذي حدده زوجي لي ولأولادي؟!

الهدف ببساطة شديدة إنقاذ أرواحنا في الآخرة بشرط واحد أن نلتزم بكل أوامره ، ونؤمن بكل أفكاره ونبتعد عن كل المحظورات التي يتزايد عددها يوما بعد يوم.. في مواجهة التحديات والبدع الإنحلالية التي تحيط بنا من كل جانب ، وفي كل مكان كما يقول. الممنوعات التي فرضها علينا ، تكون ضرورية من وجهة نظره لتعزيز إيماننا ،

والفوز برضاء الله سبحانه وتعالى ، وربما تفتح أبواب الجنة أمامنا لننعم بها إلى أبد الأبد.. كما أن النور من قائمة المحرمات الطويلة التي يمارسها الكافرون والكافرات في الدنيا الفانية هو وحده الذي يمكنه حمايتنا من مصير هؤلاء وأولئك الذين اشتروا دنياهم ، و باعوا آخرتهم بأبخس ثمن ، وكثيراً ما أوصانا بأن نبذل كل مافي وسعنا واستطاعتنا من أجل هداية قريباتنا وجاراتنا ونساء وبنات حيناً حتي تتضاعف حسناتنا ، وتثقل كفتها أمام كفة أخطائنا وخطايانا في ميزان يوم الحساب وهو آت لا ريب في ذلك. وقمنا بتنفيذ كل أوامره والتزمنا حرفياً بأفكاره كلها ، وبذلنا كل مافي استطاعتنا من أجل هداية و إنقاذ كل من دخل بيتنا أو قمنا بزيارتهم في منازلهم. وأعطي زوجي لعمليتي الهداية والإنقاذ كل ما تستحقهما من اهتمام ومتابعة ومحاسبة. والأمثلة عديدة:

قال لي ذات يوم فور عودته من عمله :

جارتك أم فلان.. رأيتها اليوم أمام باب شقتها شبه عارية تتحدث إلى رجل! إذهبي إليها غدا بعد أن تتأكدي من غياب زوجها وأولادها وابذلي كل مافي وسعك لهدايتها ، وإنقاذها مما هي فيه.

في اليوم التالي أرسلت صغري بناتي مرتدية نقابها لتستأذن جارتني أم فلان في زيارتي لها لعدة دقائق، وبعد الاستئذان والتأكد من عدم وجود الجنس الآخر في الشقة جلست مع جارتني ، وفوجئت بها ترتدي فستانا عاديا محتشما ترتديه عادة داخل منزلها ، وهو نفسه أو مثله الذي كانت ترتديه بعد ظهر أمس ، عندما فتحت باب شقتها لتدفع حساب النور لموظف وزارة الكهرباء!

لقد مررت بنظري على جسم جارتني بحثاً عن العري الذي فزع منه زوجي ، وأكد أنها كانت شبه عارية أمام رجل غريب فلم أجد أي جزء عار غير وجهها ، ويديها وفيما عدا ذلك كانت مغطاة برداء كامل ، وحتى شعرها كان مخفياً تحت الحجاب الأبيض الذي تحرص عليه عند الخروج ، أو عند

استقبال ضيوف في منزلها!

لم أعلق ولم أتهم زوجي بالكذب أو المبالغة في وصفه المهين لهذه الجارة الفاضلة.. على العكس من ذلك تفهّمت ماقاله وعذرته في اتهامه. فمن رأي زوجي الذي يؤمن به ويؤكدده ويكرره، بمناسبة وبدون مناسبة: أن المرأة العارية هي التي تسمح للرجل الغريب كهلاً أو شاباً أو طفلاً أن يري أي جزء من جسدها أو وجهها أو حتى خصلة واحدة من شعرها! ورغم عدم اقتناعي بهذا الرأي الغريب جداً، والمرفوض قطعاً من أي عقل متحرر أو نصف متحرّج إلا أنني لم أعترض عليه.. ليس فقط خوفاً منه، وإنما حتى لا أصدم بناتي اللاتي يتعذبن ٢٤ ساعة في الـ ٢٤ ساعة من فرمانات أبيهن ولا أريد لهن بالتالي الوقوف إلى جانبي ضد أبيهن.

هذه المشاعر والأحاسيس كلها دارت في مخيلتي وأنا جالسة أمام جارتي المسلمة المؤمنة المهذبة التي تفهم حقائق ديننا، وتحرص على تعاليمه السمحة، ورغم ذلك وصفها زوجي بأنها تستقبل الغرباء.. شبه عارية لا لشيء إلا لأنها اكتفت بالحجاب، ولم تأخذ بالنقاب!

تناسيت هذه المشاعر والأحاسيس والاعتراضات كلها.. وركّزت همّي في تحقيق الهدف من وراء زيارتي طبقاً لأوامر وتعليمات زوجي والذي يعتبره هدف حياته الأوحـد في هذه الدنيا الفانية.. وسألت جارتي سؤالاً أنا أكثر الناس رفضاً له ومعاناة منه:

لماذا لا تتقبلي يا أم فلان؟!

فوجئت جارتي بهذا السؤال الغريب والعجيب والمستفز لها ولي قبلها، وللملايين من السيدات والفتيات المصريات. وبدلاً من أن تجيب عن سؤالني تجاهلته وسارعت بسؤالني:

— ولماذا يجب عليّ أن أتقبّل؟! هات لي آية قرآنية واحدة، أو أي حديث نبوي صحيح، وغير مدسوس يفرض على المرأة المسلمة والمؤمنة والملتزمة بتعاليم دينها والحريصة على نصوص شريعته ارتداء ما يسمى بالنقاب.. إن

الدين كما نعرفه يسر لا عسر، والإظلام الذي يفرضه هذا النقاب على من ترتديه نفسياً، وإنسانياً، وحضارياً، وصحياً، واجتماعياً يتعارض جملة وتفصيلاً مع ألف باء ديننا الإسلامي الصحيح، وليس المفتعل أو المزور أو الذي أفتي به المعقدون، والمهووسون والمتحجرون الجهلاء.. ممن تتزايد أعدادهم في مصر لسوء حظ شعبها يوماً بعد يوم وسنة بعد أخرى.

ولم تكثف جارتني أم فلان بما لم تصدمني مكاشفتي به، وإنما أضافت إليه قائلة:

إنني كثيراً ما بكيت على حالك وعلي حال بناتك.. وولديك. فكلنا في العمارة نسمع ونتألم وندهش مما تعانون منه على يد زوجك.. لقد تحدثنا كثيراً عن هذه المأساة، وقد سألتني زوجي مندهشاً ومستغرباً: لماذا تقبل جارتك البقاء مع هذا الرجل؟! لماذا لا تترك بيته وتعود إلى بيت أبيها، أو إلى أي مكان آخر.. فمهما تدنّي مستوي المعيشة في هذا المكان، سيكون بالقطع أرحم، وأخف وطأة وإذلاً مما تعانیه حالياً في شقته؟! ولم أجد رداً مقنعاً على سؤال زوجي فأنا شخصياً لا أتصور ولا أصدق.. في نفس الوقت كيف يمكنك احتمال ما تتحملهينه؟! ولا أعرف في الوقت نفسه لماذا قبلت أن يحرم أطفالك أبسط حقوقهم، وأولها حرمانهم من الضحك واللعب واللهو مع غيرهم من الأطفال؟! قد لا تصدقين إذا قلت لك أنني وزوجي وأولادي، وكل سكان العمارة بلا استثناء لا حديث لنا غير السخط على زوجك، والتعاطف مع أطفالك، وفي الوقت نفسه نسخط عليك لأنك وافقت على العيش يوماً واحداً مع هذا المخلوق الذي لا يمكن أن يعيش في مطلع القرن الحادي والعشرين، فمكانه المناسب.. هو عهد سكان كهوف ما قبل التاريخ، أو على الأقل من الجاهلية الأولى. لم أغضب مما سمعته من جارتني التي اتهمها زوجي ظلماً، وافتراءً بالفسوق، والانحلال لمجرد أنها لم تتنقب وهي تحاسب مندوب وزارة الكهرباء، وأظهرت له وجهاً عارياً، ويديها بلا قفاز من القماش السميك

الذي يفرضه عليّ وعلي بناته فور بلوغ الواحدة منهن سن الثامنة من عمرها! علي عكس ما كانت جارتي تخشي منه فوجئت بي أوافقها على رأيها.. ليس هذا فقط.. بل وشاركتها في غضبها وسخطها على شخصي الضعيف، وزايدت على رأيها..قائلة:

— لا تظلميني يا أختي العزيزة.. فأنا أدري بحالي، وأقسي منك في إدانتني لضعفي وقلة حيلتي.. إنني أعترف بأنه لولا استسلامي ولولا عجزتي، ولولا ضعفي ما استأسد زوجي..كما استأسد وماوصلت وأولادي إلى ما وصلنا إليه. إنني وحدي المسئولة عما أصابني، وحطم حياتي وأوصلني إلى الحالة التي أتمني فيها الموت على البقاء في هذه الحياة التي لا يمكن لإمرأة عادية أن تقبل بها، أو توافق عليها.

ولمحت مؤشرات الدهشة والعجب على وجه جارتي أم فلان.. فالذي سمعته مني كان متفقاً مع رأيها، ورأي زوجها وآراء كل سكان شقق عمارتنا ورغم ذلك لم تسمع مني ردّاً..أو مبرراً مقنعاً واحداً لاستسلامي لهذا الزوج الجاهل المتسلط الذي ألغى كل ما جاء بالكتاب السماوي الكريم، وكل ما حدده لنا رسول الإسلام صليّ الله عليه وسلم، وكل ما انتهت إليه الحضارة الإنسانية بمختلف دياناتها، واتساع اهتماماتها وجاء زوجي بدينه الخاص، مبتكراً حدوده، وفارضاً اشتراطاته ومعانيه وتفسيراته التي تتناقض كلها مع ألف باء الدين الذي ولدت منتسبة إليه، ونشأت ملتزمة به، و كبرت في العمر طامعة في هديّهِ وسماحته وتعاليمه. احترمت جارتي رغماً عنها هذا التناقض الشديد في مبادئ وتصرفاتي. فأنا مسلمة حقيقية، ورغم ذلك وافقت على خزعبلات الرجل الجاهل التافه الذي شاء قدرني أن أرتبط به وأنجب منه ستة من الأولاد والبنات!

ربما يرجع تفهم جارتي لتناقضي الغريب واللامعقول مع ذاتي إلى اعترافي لها بأنه سبق السيف العدل..بمعني أن خضوعي لهذا الرجل المتحجر، وموافقتي على أفكاره الجاهلية يرجع أولاً وأخيراً لعجزتي عن حماية أولادي مما يمكن

أن يدمر حياتهم في حالة ابتعادي عنهم ، وترك البيت تحت رحمة من لا يرحم! كل ما حصلت عليه من نتائج زيارتي لجارتي التي اتهمها زوجي ظلماً بلا أدني خجل بالعري والفسق والفجور.. أن غضبي من نفسي وسخطي على ضعفي ، تضاعف مرات ومرات.. وأن كراهيتي للحياة ذاتها شجعتني على الإقدام على ما كنت أنويه عشرات المرات ، وفي كل مرة كنت أخشى من غضب الله فأرجع عن ارتكاب جريمتي. صدقتني إذا قلت لك أنني صممت على الانتحار والتخلص من حياتي أكثر من عشرين مرة ، وفي المرة الحادية والعشرين فور مغادرة شقة جارتي شعرت بإحساس عميق ملاً قلبي وعقلي بأن الله سيرحمني لو نفذت قراري وأنهيت حياتي بيدي! فالعذاب الذي ذقت مرارته طوال معاشرتي لجلادي لا أتصور أنه يزيد على العذاب الذي ينتظرني في السماء لإقدامي على الانتحار الذي يحرمه الله الغفور الرحيم بعباده. انتهزت فرصة خروج زوجي وولديه لصلاة الفجر في زاوية قريبة من المنزل يجتمع فيها مع من شابهه في أفكاره ، ومن تعلم منهم استبداده ، ومن يعلمهم أسلوبه في جعل حياة من يعيشون معهم جحيماً ، واطمأنتت إلى استمرار بناتي في نومهم.. وتوجهت إلى المطبخ وأغلقت بابه خلفي ثم أمسكت بسكين حادة قطعت بها شرايين يدي ، وجلست على مقعد خشبي صغير أتابع براحة عميقة لم أشعر بها منذ ربع قرن سيلان دمي الغزير المتدفق من جرحي ، وأخذت أتمتم بكلمات صامته استغفر بها الله ، وأتمني رحمته وأرجع عصياني لتحريمه الانتحار إلى هول العذاب الذي تحملته وصبرت عليه حتى اللحظة التي فقدت عندها البقية الباقية من صبري ، ولم أعد أستطيع فيها تحمل أكثر مما تحملته.. ولم أتوقف عن ابتهالاتي للرحيم الغفور إلا بعد أن فقدت الوعي ، وللأسف الشديد استرجعته في اليوم التالي على سرير المستشفى! لقد شاءت إرادة الله عز وجل أن أعود إلى الحياة بعد أن تصوّرت أنني نجحت في التخلص منها.

تجمّع أولادي وأفراد عائلتي أمام سريرتي ، ووجوههم ناطقة بالفرح والسعادة لعودتي إليهم ، أما وجه جلادي فكان كالعادة جامداً ، غاضباً ، وساخطاً! لم أسمع منه كلمة واحدة يشجعتني بها أو حتي كلمات: حمداً

لله على سلامتك.. لم ينطق بها! ولم يكتف بذلك.. وإنما صمم على إذلالى وأصر على صدم مشاعر أخوتي وشقيقتي وبناتي عندما فاجأنا قائلاً:

لقد ارتكبت جريمة لا تغتفر في حق ديننا ، ولا تتصوري أن الله سبحانه العادل ، القاهر الجبار قد غفر لك لأنه سبحانه وتعالى قد أعادك إلى الحياة ، وإنما الهدف من هذه العودة هو أن تمضي بقية عمرك في التكفير عن خطيئتك العظمي ، ونسأل الله أن يتقبل توبتك ، وأن يجعلك من الصالحات المؤمنات.

ولم أغضب مما قاله.. فلا جديد فيه ، ولا كلمة من كلماته تستحق التفكير أو تتطلب الغضب.

أخوتي وشقيقتي وبناتي هم وحدهم الذين ظهرت على وجوههم ملامح السخط ، والقرف والكراهية.. وإن كانت صامتة ومكبوتة. عدت إلى جحيمي الأسري مرة أخرى..

والطريف أن جلادي تصوّر أنه مضطر إلى أن يطيب خاطري ، ولو للمرة الأولى منذ ربع قرن من الزمان.. ففوجئت به يدخل غرفتنا وبادرني قائلاً: أعلم أنك غاضبة عندما منعتك بعد زواجنا من قيادة السيارة حماية لك ، وحفاظاً على تعاليم رب السماوات والأرض! ولا بأس الآن من السماح لك بقيادة السيارة بعد أن سمعت فتوى من الداعية.. تبيح ذلك بشروط محددة أهمها ضرورة وجود محرم معك في السيارة مثل أحد ولدينا.. لقد اشترت لك سيارة جديدة تقف الآن أمام المنزل ، ولننزل فوراً لتجربتها ، ولم أعلق بكلمة يفهم منها الترحيب أو الرفض ، واكتفيت بإبداء دهشتي في سري من هذا الرجل الذي تصوّر أن السماح لي بالعودة إلى قيادة السيارة هو أكبر تنازل ، وأعظم تسامح يمكنه الإغداق عليّ بهما! أو ربما يتصوّر أن إقدامي على الخلاص من حياتي كان نتيجة هذا الحرمان ، وليس نتيجة الأحوال التي سمم بها حياتي وحياة أولادي منذ عرفناه لأول مرة وحتى تلك اللحظة! نزلت معه لركوب السيارة الجديدة ، وعندما طلب مني الجلوس أمام عجلة

قيادتها اعترضت قائلة: كيف أقود السيارة وأنا منقبة، وأنت تعلم أن نظري ضعيف وإذا وضعت النظارة الطبية تحت النقاب فلن أري شيئاً من خلال ضربة الموسي بطول العينين؟!

لم يرد زوجي على اعتراضي، واكتفى بالجلوس إلى جانبي في المقعد الأمامي، وأمرني بالانطلاق!

وسرنا في شارع أو شارعين.. وكدت أصطدم مع المارة والسيارات من حولي وأمامي.. والمدهش أننا مررنا بالقرب من رجال شرطة المرور عساكر وأمناء شرطة وضباط ولم يعترض أحد منهم على قيادتي السيارة بالنقاب، ولا على تخبطي وتهديدي لأرواح وممتلكات الآخرين ناهيك عن تهديدي لحياتي وحياة من معي! على العكس فوجئت برجال المرور يتطلعون إلىّ وربما لمحت على وجوههم علامات الرضا والاحترام والتشجيع!

فالنقاب يحظي شئنا أم أبينا باحترام الكثيرين، وتأييدهم وإعجابهم.. ولا يجروء أحد على منعه في الأماكن والمواقف التي ينص القانون على ضرورة الكشف عن الوجه والتحقق من الشخصية!

فلا يخفى عليك أن هناك من المتقدمات لأداء امتحانات المدارس والجامعات من يرتدين النقاب، ولا يستطيع المراقبون التحقق من شخصيتهن، لأنهن يرفضن الكشف عن وجوههن!

وما يقال عن الامتحانات يقال أيضاً عن مغادرة المنقبات عبر منافذ الجوازات في المطارات، أو عودتهن إلى البلاد من خلال نفس هذه المنافذ، فلا يعترض الضباط بعد أن يؤسوا من الجدل العقيم الراض للكشف عن الوجه بأي شكل من الأشكال! ورجال المرور لا يعترضون على قيادة المنقبات لسياراتهن، رغم أن النقاب لا يسمح لهن بالرؤية الكافية وبالذات على الجانبين، مما يعرضهن ويعرّض الآخرين لأخطار قد تكون قاتلة! أعرف منذ زمن بعيد أن رجال المرور في أوروبا وأمريكا يمنعون تعليق حلية صغيرة مثل الحجر الأزرق

أو الدمية ، أو حتى سلسلة تتدلي من المرأة الداخلية أمام قائد السيارة لأن هذه المدلاة رغم صغرها وضآلتها ، يمكن أن تحجب بضعة سنتيمترات من مساحة الرؤية.. هذا ما يطبقه رجال المرور في العالم كله منذ عشرات السنين.. أما نحن في مصر فلا يعترض واحد منهم على هذه الخيمة المغلقة والمظلمة فيما عدا ضربة الموسيقى التقليدية ويسمح للمتخفية شبه العمياء تحتها قيادة السيارة ، وتهديد حياة وممتلكات كل من يعترض طريقها أو يقترب منها!

لست في حاجة إلى تكرار ما تعرفه ونعرفه جميعاً عن استغلال البعض لهذا التساهل والاحترام لكل منقبة :

رجال هاربون من العدالة وجدوا في ارتداء النقاب الحماية الكاملة من الملاحقة والقبض عليهم!

ورجال يرتدون النقاب لتأدية الامتحانات بدلا من الفتيات! وفتيات فاسدات يحميهن ارتداء النقاب من نظرات المتطفلين ، وحراس العمارات وهن يترددن على شقق العزاب!

ورجال يرتدون النقاب ويدقون على أبواب شقق عشيقاتهم ، ويرحب بهم الأزواج باعتبارهن صديقات زوجاتهم!

هذه الطرائف الباكية نسمع عنها ونقرأ تفاصيل ما يكشف عنه في صفحات الحوادث في الصحف ، ولا تحتل التعليق أكثر مما سمعناه وقرأناه ، وأعود إلى حكايتي لأقول لك إنني توقفت بالسيارة فجأة.. ونزلت منها وطلبت من زوجي قيادتها وإعادتي إلى منزلي ، وكانت آخر مرة قدت فيها سيارة حتي لا أكون مصدر خطر وتهديد على حياتي وحياة المحرم بجانبني ، وحياة الآخرين. ولعلك لا حظت قلبي بأن هناك من يستغل ارتداء النقاب للقيام بأعمال غير سوية ، ومعني ذلك أن الأغلبية من النساء والفتيات المنقبات لا غبار على تصرفاتهن ، ولا طعن في سلوكهن.. فمنهن من ارتدت النقاب اقتناعا به ، ومنهن أيضا مثلي من أجبرت على ارتدائه.

إن ما ألاقه من عذاب هو ذاته عذاب بناتي، وكدت أقتنع بأن هذا هو قدر المرأة منذ طفولتها وحتى مماتها ما دام هناك رجال على شاكلة الجلاد الذي إبتلينا به. لم أستطع أن أفعل شيئاً لبناتي ففاقد الشيء لا يعطيه.. كما يقولون.. المشكلة الكبرى كانت مع الولدين الشابين.. فقد فوجئت بهما يصبحان نسخة طبق الأصل من أبيهما.. فهما يؤمنان بما يؤمن به من أفكار وآراء وتفسيرات وممنوعات ومحرمات ومحظورات!

وكم كانت سعادة الأب بما حققه من نجاح وإصلاح في تربية من يحملان اسمه، ويواصلان سيرته بعد وفاته. وكنت أتصور أن طالب المدرسة الثانوية، أو شقيقه في الجامعة لن يلتزما بما فرض عليهما وهما بعيدان عن البيت.. لكن ما عرفته منهما، ومن أبيهما أنهما يطبقان حرفياً في المدرسة والجامعة ما يلتزمان به تماماً في المنزل! والأخطر من هذا.. أن طالب الجامعة أصبح في أفكاره أكثر تطرفاً من أبيه، وأكثر منه حماسة ورغبة في إنقاذ الكرة الأرضية من مهازل وخطايا وموبقات، وكفر سكانها غير المؤمنين، وغير الملتزمين بالأفكار التي يصير على أنها أنزلت في كتاب الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم.

كان الأب بحكم سنه يكتفي بالقول.. أما الابن فإنه يري أن فرض الإلتزام بهذه الأفكار لا تجدي معه الهداية بالموعظة الحسنة، ولا بد من استخدام اليد أي القوة في إجبار الشعب على الإلتزام بما فرض عليهم الإيمان والالتزام به حرفياً. لقد بكيت ساعات طويلة عندما جاء ابني من الجامعة ليشتد بما تحقق في ١١ سبتمبر الماضي في نيويورك! لم أبك فقط على آلاف الأبرياء الذين قتلوا في هذه العمليات الإرهابية، وإنما كان بكائي الأكثر على ما رسخ في عقل وقلب ابني من عنف وحقد وكراهية تخطت كل ما كنت أتصوره أو أتوقعه من فلذة كبدي. قد تقول إن موقف ابني هو مجرد حالة فردية أو مرضية.. لكن هذا الابن نفسه هو الذي كان يبشرنا بأن المئات من رفاقه

هللوا مثله لما يصفونه بأنها الحرب التي اشتعلت لتحرق كل من ليس مسلماً كإسلامهم، وكل من لا يطبق ما ينادون بتطبيقه! الخطر كما أرى ليس مقصوراً على بيتنا، ولا على بيوت العشرات أو المئات غيرنا.. وإنما أؤكد أن العدد أكبر بكثير مما نتصوره.. كما أنه ليس وقفاً على الأحياء العشوائية، والمناطق الفقيرة حيث تنتشر البطالة بين شبابها.. كما يحلو للبعض تبسيط هذه القضية الخطيرة في كل مرة نسمع فيها عن حادثة إرهابية. إن بيتي يقع في حي راق، وزوجي لا هم له بعد تفننه في تعذيبنا غير جمع المال الوفير من عائدات محلاته.. فهو المتدين والأمين والعادل.. كما تؤكد لحيته الطويلة، و السبحة التي لا تفارق يده.. يتمتع في الوقت نفسه بأكل حقوق الدولة فهو لا يدفع ضرائب عن أرباحه الطائلة، ويزور مستنداته ليثبت خسائره والإفلاس الذي يتهدهد!

وولدي يدرسان في المدرسة والجامعة، وينتظرهما مال طائل يرثانه عن أبيهما غداً أو بعد غد ليسارعا بالزواج وإنجاب الأولاد ليثبا في عقولهم وقلوبهم أعنف الأفكار التي غرسها أبوهما فيهما ليصبحوا أكثر منهما عنفاً، وحماسة، وتطرفاً.

ليس هذا بلاغاً ضد زوجي، ولا صرخة لحماية أولادي من التطرف واستخدام العنف الجاهل، لكنه بلاغ إلى الرأي العام لينظر إلى ما هو أبعد من طرف أنفه.

فجأة دخل الساعى قائلاً لها: رئيس التحرير وصل وفي انتظار سيادتك.. همت بالإنصراف قائلة: آسفة على الإطالة وشكراً لك على صبرك وحسن انصابتك.

" الذئب لا يعوى لمجرد المرح! "

دأب الدكتور محمد العادلى من حين لآخر على شن حملة صحفية من خلال صحيفته " العدالة " ضد بعض كبار رجال الأعمال ، ويظل يواصل حملته الشرسة للتشهير بهم ، والنيل منهم وتلطيح سمعتهم فى الوحل ، ولا يكتفى بذلك بل يرسل عشرات النسخ من الجريدة إلى مقر شركات ومؤسسات ومكاتب هؤلاء الرجال حتى يتأكدوا بأن أعينهم أن فضيحتهم بجلاجل ، ويظل الرجل كالذئب الذى ينتظر لحظة ضعف فريسته كى ينهش لحمها ، ولا يطول انتظاره ولا يخيب ظنه ، فسرعان ما يرن هاتفه المحمول بعد ساعات قليلة من النشر ، يأتية صوت رجل الأعمال المستهدف مستغيثاً مثل شاه صارت رقبتها تحت نصل السكين.

فى هذه اللحظة المفصلية يشعر العادلى بقوته وجبروته و سطوة نفوذه وطغيان سلطانه.. فالناس لا تخشى شيئاً أكثر مما تخشى الفضيحة ، وتحسب لها ألف حساب فهو يملك أداة الفضيحة ، يملك صحيفة سيارة بين الجماهير ، صحيفة لا تقل فتكاً عن قتابل أمريكا الذكية والعنقودية التى هدمت العراق فوق رؤوس أحفاد هارون الرشيد ، ودمرت الهاربين من جحيم النيران فى أفغانستان إلى أعماق جبال وكهوف تورا بورا.. هنا فى تلك اللحظة يتأهب الرجل على الفور للمساومة والمناورة حتى يحقق مأربه ، ويتلذذ بالإجهاز على فريسته ، ويحصد صيده الثمين وفى بعض الأحيان تكون المكافأة سيارة فخمة أحدث موديل أو مبلغاً ضخماً من المال يضاف إلى رصيده السرى فى البنك فى صورة تبرع من رجل أعمال إلى حزب العدالة الإنسانية وجريدته الموقرة!

سارت الأمور على ذلك العديد من الأعوام ، وفى كل مرة يصطاد العادلى فريسته ، ويمعن فى البحث عن فضيحة مدوية مؤلمة تطول عنان السماء

حتى تأتيه الضحية راکعة متوسلة مستسلمة فينال المكافأة المجزية،
ويقبض ثمن السكوت، وقد يحول حملة الهجوم والسباب الجارح إلى
التسبيح بإنجازات ووطنية رجل الأعمال ويجعل منه بطلاً قومياً على
صفحات جريدته.

لا يهم إن كانت التهم التى ينشرها زوراً وبهتاناً أو حقيقة دامغة.. لا
يهم أى شئ بعد ذلك.. المهم الالتزام حرفياً بمذهب ميكيا فيللى الوقح..
الغاية تبرر الوسيلة.. معظم الناس بسطاء يصدقون تماماً ما تنشره الصحف
ويعتبرونها لا يأتيتها الباطل من بين يديها أو من خلفها حتى لو كانت ما
تنشره زيفاً وشائعات وأكاذيب ودسائس ونميمة.. الناس فى كل زمان
ومكان تستهويهم الفضائح، ولا يعينهم كثيراً من ستكون سيرته مضغة
فى الأفواه، وسمعته على حافة الهاوية، ويحرص أى رجل أعمال أن يكسب
ثقة الناس لأنهم مصدر قوته ورواج سلعته، ولو خسر ثقة الناس خسر
الكثير والكثير، وقد تكون خسارته تلك فوق طاقته.. لكل ذلك يكون
العادلى هو الحصان الرابع فى كل مرة، وأرصده تترفع ونفوذه يتعالى..
لكن الله لا يستر المرء ألف مرة ومرة، ولا يدارى ذنوبه ويخبئ خطاياها
عن العيون الدهر كله، فالسماء تمنح المخطئين عشرات الفرص الذهبية
ليتوبوا ويتوقفوا ويعودوا إلى رشدهم، لكن يبدو أن العادلى استنفذ فرصه
مع السماء، وكان لزاماً عليها أن تكشفه وتعريه وتجعله عبرة لمن يعتبر،
ومن لا يعتبر!

بعد حملة ضارية وشرسة ضد رجل أعمال شهير يمتلك سلسلة محلات
تجارية عملاقة "التوحيد والإيمان" كشف فيها العادلى على صفحات
جريدته بأن هذا الرجل آفاق ومخادع.. زير نساء يشتري الصبايا الصغيرات
بعقود زواج عرفى ويمهرهن بضعة آلاف من الجنيهات ثم يتمتع بعذريتهن
وأنوثنهن عدة أسابيع وقبل أن يصاب بالملل يلفظهن للبحث عن أخريات..
جميلات صغيرات فاتنات فقيرات دائماً تلك هى المواصفات.

لقد أطلق العادلى عليه فى منشيتات جريدته.. "شهريار العصر".. لم ينتظر طويلاً فسرعان ما جاءت المكالمه المرتقبه، ودار الحديث بينهما بكل صراحه وبلا خجل أو مواربه، طلب العادلى بكل وقاحه مئة ألف جنيه لكى يوقف نشر حملته الصحفية لتشويه سمعة الرجل بين أهله وذويه ومجتمعه، ويمنع نزيه الخسائر الفادحة التى منيت بها سلسلة محلاته التجارية، وكان "شهريار العصر" حصيماً ذكياً عندما وضع الأمر برمته تحت أعين العدالة وأبلغ النيابة قبل أن تدور المكالمة بينهما، والتى اتفقا خلالها على زمان ومكان تسلم العادلى للمبلغ المالى الذى طلبه، وعندما حانت اللحظة الحاسمة كان رجال العدالة قد ألقوا القبض عليه متلبساً بالأدلة الدامغة، والتسجيلات الصوتية التى لا تقبل الشك، ولا تحتمل اللبس!

فى اليوم التالى كتبت الصحف الحزبية الأخرى المنافسه لحزبه وصحيفته تقول:

"أخيراً سقط واحد من أصنام الفساد الصحفى والسياسى فى مصر رغم محاولاته المستميتة للتقرب إلى السلطة، فقد انتهت المحكمة إلى قرار بإدانتة بجرائم الرشوة والابتزاز، وقضت بسجنه عشر سنوات مع عزله من منصبه.. فهل يمكن أن يمثل هذا الحكم بداية جديدة مع فساد الصحافة، وصحافة الإفساد فى البلد؟!"

التاريخ الأسود للدكتور محمد العادلى وعلاقته بالحكومة تلقى ظلالاً من الشك والريبة حول قيام الحكومة بتفعيل هذا الحكم ليكون رادعاً لغيره من الأفساد، وبداية مرحلة جديدة لتطهير الصحافة والإعلام من أمثاله.

لم يكن العادلى اكتشافاً فى تاريخ الانحراف الصحفى داخل بلاط صاحبة الجلالة، بل هو معروف منذ سنوات، وارتكب حماقات ووقاحات يندى لها جبين أى إنسان، وسبق إدانتة فى قضايا أشد خزيًا مما دفع نقابة

الصحفيين إلى إسقاط عضويته من النقابة.. أما وصف " الشعبان الأقرع " فقد أطلقه عليه الصحفى المعارض حمادة حمودة فى تحقيق صحفى نشره قبل خمس سنوات أدان فيه أفعال العادلى وجرائمه ، وأقام العادلى وقتها دعوى قضائية ضده لكن حمادة وقف أمام هيئة المحكمة يؤكد بجرأة وجسارة ما وصفه به ، وقدم ما يكفى من الأدلة والبراهين مما أدى إلى إصدار المحكمة لحكمها ببراءة الصحفى المعارض المشاكس من تهمة السب والقذف بحق العادلى ، إنما الغريب فى الأمر أن الحكومة كافأت العادلى بتعيينه عضواً فى مجلس الشورى.

وعلى غير عادة الحكومة مع أقطاب الأحزاب الجديدة ، والصغيرة سمحت للعادلى بتأسيس حزبه المشبوه وجريدته الصفراء بمجرد حصوله على حكم قضائى بذلك فى حين لم تسمح لحزب العمل بمعاودة نشاطه أو إصدار جريدته " الشعب " رغم حصوله على ١٥ حكماً قضائياً ، وفى الوقت الذى كان فيه العادلى يمثل داخل قفص الجنايات لمحاكمته فى الجرائم التى أدين فيها " وهو مخلى سبيله " كانت جريدة " الأيام " الحكومية تفتح صفحاتها لنشر مقالاته التى عنوانها " عبقرية رئيس الجمهورية " بل وفتحت له مطابعها لكى يطبع فيها جريدته التى خصصت معظم صفحاتها لمدح سدنة الحكم وبطانته ، والتشهير بمن لا يرضون عنه واتهامهم فى شرفهم وعرضهم.

تم ترحيل محمد العادلى خلف الأسوار الذى لم تتناول التقارير السنوية للمجلس الأعلى للصحافة مخالفاته الصحفية رغم أن جريدته نموذج مثالى يمكن أن يدرس بما تعج به من مخالفات من النشر الدعائى إلى النشر المجهل إلى الترويج للخرافة لدرجة أنه كان ينظم لقاءً أسبوعياً لرجال مع زبائنه من أصحاب الأمراض والأوهام بمقر الجريدة مقابل أجر مادى.

أزاح مجلس الشورى العادلى بالإجماع من عضويته ، أطاحوا به خارج مجلس الحكماء وكان المجلس الموقر اكتشف فجأة أن مبادئ حزب

العدالة الإنسانية من الخيال العلمى مثل أفلام "سوبرمان واكس مان ، وبلاك أند وايت أند براون مان " وأنه اعتمد على القرصنة على الجمعيات والحصول على المال من الأميرة الخليجية هند العباسى ، وعدد من الشخصيات الكبيرة فى البلد .

كان البعض يتوقع أن تمتلئ الصحف بمانشيتات عن رئيس الحزب المرتشى الذى يبتز الأكابر.. عن الأسباب والدوافع التى حولت الطبيب الفاشل إلى محترف سياسة وصحافة حزبية ، وكانوا يتوقعون أن يكون هناك نقاشاً حول ظاهرة هى الأكثر غرابة فى الصحافة المصرية والعربية.. شخصية اللص الذى يسرق ويسرق ويسرق دون أن يشكو منه أحد ثم يستاء الكثيرون من القبض عليه عكس نهايات كل الأفلام العربية والهندية!

لم تكن نهاية مفاجآت هذا الحاوى حديث الصحافة والسياسة ، ففى اليوم التالى نشرت صحيفة " المساء والسهرة " أن زوجة الدكتور محمد العادلى زينات السيد الشهيرة بزيزى فؤاد قد عينت نفسها رئيساً لحزب العدالة الإنسانية بأصوات ١٤٥ شخصاً من أعضاء الجمعية العمومية ودون منافس ، وفسرت الصحيفة هذا الاختيار الكاسح بأن زينات أرادت عقد الجمعية العمومية للحزب قبل أن يعقد منافسها عبد الراشد العدوى جمعية مماثلة ويفوز بالحزب والجريدة.

المهم أن زينات السيد وعدت فى تصريحاتها الصحفية النارية بتلافى السلبيات السابقة التى حدثت فى الحزب أثناء رئاسة زوجها وأدت إلى انشقاقات داخلية ، وتصدعات لجدران الحزب وأعمدته ، وتعهدت زينات بأن تعمل بجد وإخلاص لصالح المرأة المصرية فى عهد سيدة مصر الأولى التى ترعى المرأة فى كل مكان من ربوع المحروسة.

وبعد يومين نشرت نفس الصحيفة نبأ مثيراً للدهشة ، فقد كشفت أن العادلى حاول الهرب من مصر لكن الشرطة ألقت القبض عليه.

الطريف فى الخبر أن الصحيفة ذكرت أن رجال الشرطة قبضوا عليه

وهو متكرر فى ملابس إمراة حتى يستطيع الفرار!

لم تنته قصة محمد العادلى عند هذا الحد فقد أفرج عنه بعد عشرة أشهر فقط رغم أن الحكم عليه كان عشرة أعوام، وفى أول تصريح صحفى له عقب الإفراج عنه قال:

"أحمد الله رب العالمين أننى سجت فى عهد رئيس مصر المبارك.. بارك الله فيه.. وفى وقت يتولى فيه اللواء حسان الشاذلى حقيبة وزارة الداخلية، وأضاف قائلاً: إن السجون المصرية الآن تراعى حقوق الإنسان، وأكد أنه تمتع داخل السجن بكافة صور الرعاية الصحية، وقضى تلك الفترة فى المستشفى الملحق بسجن القناطر بسبب معاناته من مرض القلب والضغط والسكر.. قال العادلى بثقة: إن السجناء اليوم يلقون كل صور الرعاية واخفتت تماماً الصور المأساوية التى كانوا يعانون منها فى عهود سوداء سابقة حين كان السجناء يسمون بأسماء النساء، ويقفون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم فى أول يوم من دخولهم السجن ثم يؤمرون بتنظيف أراضيات السجون بأجسادهم العارية!

وكانت محكمة النقض قد أصدرت أخيراً حكماً بإلغاء الحكم الصادر من محكمة أمن الدولة العليا بسجن محمد العادلى عشر سنوات فى قضية الابتزاز والرشوة على أن تعاد محاكمته أمام دائرة أخرى لم يتم تحديدها ولا مواعدها وجاءت حيثيات الحكم الأول صدر معيياً بالقصور فى التسبيب.

وقال العادلى الذى بدا فى حالة معنوية عالية:

"لقد تم الإفراج عنى ونقل من السجن إلى بيتى مباشرة فى سيارة مجهزة نظراً لظروفى الصحية "مشيراً إلى أن اهتمامه فى المرحلة الحالية سوف ينصب على العناية بحالته الصحية خاصة بعد إصابته بالتهاب فى أعصاب ساقه اليسرى، إضافة إلى معاناته من مرض القلب مؤكداً أنه سيمارس مهامه كرئيس للحزب من جديد فور تسلمه قرار محكمة النقض بإلغاء

الحكم السابق القاضى بسجنه ، والذي تضمن عزله من منصبه مشيراً إلى أنه سيرسل القرار إلى لجنة شئون الأحزاب بعد النزاع الذى نشب بين ثلاثة من أعضاء الحزب على رئاسته فى ظل إبعاد الحكم الأول للعادلى من منصبه.

وقال العادلى أنه تلقى العديد من برقيات التهئة ، وسوف يعيد ترتيب أوراق الحزب من الداخل وإعادة إصدار صحيفته من جديد.

ونفى العادلى فى مؤتمر صحفى عقده بمقر الحزب ما نشرته بعض الصحف عن وجود ٢٥ جنحة وأحكام سابقة ضده تسببت فى تعطيل الإفراج عنه وقال :

" بالفعل كان هناك حكمان صدرا ضدى ، واتخذت كافة الإجراءات للطعن فيهما أثناء فترة سجنى وليس بعد الإفراج عنى " وبشأن الحكم بإعادة محاكمته من جديد بنفس التهم التى وجهت إليه مثل الابتزاز والرشوة إسترسل قائلاً :

" إننى واثق من أن عدالة السماء سوف تنصفنى ووثاق من براءتى وإلغاء محكمة النقض لحكم محكمة أمن الدولة العليا بسجنى عشر سنوات خطوة على طريق إثبات براءتى من كل ما نسب إلى من تهم! "

بعد ستة أشهر تقدم الدكتور محمد العادلى رئيس حزب العدالة الإنسانية المجدد نشاطه بالترشيح لعضوية مجلس الشعب على مقعد الفئات فى دائرة الكيت كات ، وتم قبول طلبه ، وبدأ يتجول فى الدائرة وسط مجموعة من أنصاره ومؤيديه وكان من بينهم على مفض ناجى شرف الدين وفوجئ بأن أقوى المنافسين ضده على مقعد البرلمان ينتمى إلى جماعة الإخوان المسلمين ، فتقدم العادلى إلى اللجنة العليا للانتخابات ببلاغ رسمى يطلب فيه شطب جميع مرشحي جماعة الإخوان المسلمين المحظورة من إنتخابات مجلس الشعب باعتبارهم جماعة غير شرعية ، وباطلة بعد أن تم حلها ولم يصدر حكماً قضائياً حتى الآن يعيدها من منطلق أن ما بنى على باطل فهو

باطل، كما أن المحظورة ارتكبت مخالفة خطيرة للقانون باستخدامها شعار "الإسلام هو الحل" .. ووصف العادلى الجماعة فى بلاغه بأنها كافرة لاعتمادها على شعار يعنى أن أعضاءها فقط هم المسلمون .. أما غيرهم فليسوا مسلمين، وأنهم يتاجرون فقط بشعار الإسلام هو الحل لكسب أصوات البسطاء الذين لا يدركون حقيقة هذه الجماعة المحظورة وشعارهم نصب فى نصب.

ذات مساء كان العادلى يطوف الدائرة وسط المئات الذين تجمهروا حوله ينصوا لاتهااماته للجماعة المحظورة .. فى تلك اللحظة انطلقت رصاصة فى الزحام تعرف طريقها ووجهتها وخط سيرها حتى استقرت فى قلب العادلى .. سقط الرجل مضرجاً فى دمائه ، وسط ذهول الجميع هرول ناجى شرف الدين مسرعاً وضع العادلى رأسه على صدر ناجى ، ولفظ أنفاسه الأخيرة ، وهو يهمس بصوت مكتوم متحشرج لم يسمعه سوى ناجى :

— زهرة .. زهرة ..

تطلع ناجى من بين صفوف المتزاحمين فلمح فتاة فى منتصف العمر تهرول من بين الجموع حتى اختفت عن الأنظار ، أدرك ناجى أن الرصاصة التى قتلت الرجل جاءت من ناحيتها ..

وقبل أن تغادر مسرح الجريمة نظرت نظرة انتقام وشماتة ..

كانت زهرة دون سواها سكرتيرة محمد العادلى السابقة التى خرجت توا من السجن ، تأرت لنفسها ، ومضت غير آسفة على شئ فلم يعد لديها ما تخسره !

" على الباغى تدور الدوائر! "

مع بزوغ شمس يوم ٢٥ يناير خرج الشباب بالآلاف ثائرون غاضبون يهتفون بسقوط النظام.. انتفضوا فى كل محافظات مصر، وربوعها وحواريها وشوارعها وميادينها رافعين شعار.. الشعب يريد اسقاط النظام.

بدت المظاهرات العارمة والحاشدة، كما لو كان متفقاً عليها بين ملايين الشباب الذين رسموا خطة التحرك ضد أباطرة النظام الذى جثم على الصدور ثلاثة عقود من الزمن عبر " الفيس بوك " أو ما يعرف بشبكة التواصل الإجتماعى.. الصحف الحكومية وصفت هؤلاء الشباب بالقلّة المندسة والمخرّبة، بينما وصفتهم الصحف المستقلة والمعارضة والحزبية بورد الجنائين الذى فتح فى حدائق مصر!

سقط العشرات قتلى، والمئات جرحى فى مواجهات عنيفة مع الشرطة، وبلطجية النظام والحزب الحاكم، وامتلأت الميادين والشوارع بالثائرين الذين أعلنوا الصمود، وقبلوا التحدى بصدور عارية، وطالبوا رأس النظام الحاكم بالرحيل أو الزحف من ميدان التحرير بالملايين نحو القصر الرئاسى لخلع الطاغية من فوق كرسى العرش.. ومع بيان التنحي للرئيس، واختياره شرم الشيخ منفاه الإضطرارى سقطت كل الأقنعة، وخرجت للنور كل الملفات السوداء، وتوارت الوجوه الكالحة التى عاثت فى البلاد فساداً وطفياًناً، وملاّت الصحف بصورها وأخبارها وأكاذيبها سنوات وسنوات، ومع سقوط النظام وتصعد أركانه، اندلعت المظاهرات المطالبة بالتطهير، وتحرير الصحف الحكومية من رؤساء تحريرها، ورؤساء مجالس إدارتها الذين اعتبروها عزية لهم ولأولادهم من بعدهم، وتكية ورثوها عن آبائهم وأجدادهم!

لم تطل الفترة الزمنية حتى صدرت القرارات الثورية التطهيرية التي أطاحت برؤساء تحرير ومجالس إدارات الصحف الحكومية، منهم من توارى فى بيته خوفاً وهلعاً من بطش الصحفيين الثائرين الذين أذلهم وأذاقهم الهوان سنوات عجاف!

ومنهم من كان مصيره المثل أمام النائب العام بتهم إهدار المال العام، والكسب غير المشروع، والإثراء الحرام.. وكان مثواه الأخير فى زنزانة ضيقة لاتدخلها أبداً شمس الحرية.. جفت الأقلام، وطويت صفحة سوداء من تاريخ صاحبة الجلالة ذات الثوب الناصع البياض كعروس ليلة زفافها.

تمت بحمد الله..

من قائمة الإصدارات

رواية - قصة

إبراهيم عبد المجيد	ليلة العشق والدم
إبراهيم درغوثي	وزء السراب قليلا
إبراهيم الناصر الحميدان	حيطان الريح
أحمد عمر شاهين	حمدان طليقا
أحمد الشيخ	ملاعيب الأكابر
أحمد الفيتوري	سريب
إدريس علي	وقائع غرق السفينة
إدوار الخراط	طريق النسر
إدوار الخراط	صخور السماء
أمير تاج السر	صيد الحضرمية
تركية عبد الحفيظ	همس القوارير
جمال الغيطاني	مطربة الغروب
د. جمال التلاوي	تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص
خالد الأنشاصي	رغيف الترائب
خيرى عبد الجواد	كيد النساء
د. رشا سمير	حب خلف المشربية
زكريا عبد الغني	حالات الروح
سليمان زيدان	أوزر
صابرين الصباغ	عندما تموت الملائكة
عباس منصور	الطماشة
د. عبد الرحيم صديق	الدميرة
عبد الفتاح البشتي	مرسى ديله
عبد الفتاح صبري	حكايا أنثوية
عبد خال	ليس هناك ما يبهج
عز الدين الأسواني	آخر ما قاله النهر
عفاف السيد	سراديب
د. علي فهمي خشيم	إينار

ولا يزال المعطف معلقاً

جنية الشفق (قصص شاعرية قصيرة جداً)

تاء مربوطة

الحمامة البرية

فنار الأخوين

النعاس يغشي المدينة

أعباء

الفتيت المبعثر

المداسة

مد الموج

العابدة

هالة النور

رماد مشتعل

حرم .. (أعزكم الله)

الخروج إلي النبع

الحياة مفرد مؤنث

شمس الملوك

حافة الفردوس

وبر الأحصنة

شموع تحترق

المشي إلي مدار المطر

تحت المجهر (رواية من الخيال العلمي)

قمر أخضر

الولايا و....

أنت وحدك السماء

شبيه الخنزير

امرأة بين الرجال

علي مصطفى المصراطي

د. فاروق أوهان

فاطمة يوسف العلي

فؤاد قتديل

فوزية مهران

فيصل سليم التلاوي

كريم شعلان

محسن الرملي

محمد الأصفر

محمد جبريل

محمد جراح

محمد العشري

سيف المري

محمد الغربي عمران

محمد قطب

محمود قاسم

مريم الخولي

نبيل عبد الحميد

نجوى بن شتوان

نفيسة الشرقاوي

نير بن سالم آل سعيد

نهاد شريف

نهلة السوسو

هناء زكي

هيام عبد الهادي

وارد بدر السالم

وفية خيري

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية؛ رواية.. قصة.. دراسات ونقد
وكتب متنوعة: سياسية، قومية، دينية، معارف عامة، تراث، أطفال.
خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة في الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز

